المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

تأليف

أبي الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم

المعروف بابن الأثير الموصلي

"المتوفى سنة ٦٣٧ هـ"

بتحقيق

محمّد محيي الدّين عبد الحميد

الجزءُ الثاني

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

النوع الرابع

في الالتفات

وهـذا النوع مـا يليه خُـلَاصة علم البيـان التي حولهـا يُدَنْـدَن، وإليهـا تستنـد البلاغة، وعنها يعنعن، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينـه وشمالـه، فهو يقبِل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلـك يكون هـذا النوع من الكـلام خاصـة؛ لأنه ينتقـل فيه عن صيغـة إلى صيغة، كـالانتقال من خـطاب حاضـرٍ إلى غـائب، أو من خـطاب غـائب إلى حـاضـر. أو من فعـل مـاض إلى مستقبـل، أو من مستقبـل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصـلاً، ويسمى أيضاً «شجـاعة العـربية» وإنـما سمي بـذلك لأن الشجـاعـة هي الإقـدام، وذاك أن الـرجـل الشجـاع يـركبِ مـا لا يستطيعه غيره، ويَتَوَرَّد ما لا يتورّده سواه،وكذلك هذا الالتفات في الكلام؛ فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات.

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

اعلم أن عـامة المنتمين إلى هـذا الفن إذا سُئِلوا عن الانتقـال عن الغيبـة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبـة، قالـوا: كذلـك كانت عـادة العرب في أسـاليب كلامها، وهذا القول هو عُكَّاز العميان،كما يقال، ونحن إنما نسـأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله.

وقـال الزمخشـري رحمه الله: إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنمـا يستعمـل للتفنن في الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب، تَطْرِيَةً لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه.

وليس الأمر كما ذكره، لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم

يكن إلا تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه؛ فإن ذلك دليل على أنّ السامع يَمَل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع، وهذا قدح في الكلام، لا وصف له؛ لأنه لو كان حسناً لما مل، ولو سلمنا الى الزمخشري ما ذهب إليه لكان إنما يوجد ذلك في الكلام المطوَّل، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك؛ لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ويكون مجموع الجانبين مما يبلغ عشرة ألفاظ، أو أقل من ذلك، ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصداً للمخالفة بين المنتقَل عنه والمنتقَل إليه، لا قصداً لاستعمال الأحسن، وعلى هذا فإذا وجدنا كلاماً قد استعمل في جميعه الإيجاز ولم ينتقل عنه، أو استعمل فيه جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه، وكان كلا الطرفين واقعاً في موقعه؛ قلنا: هذا ليس بحسن؛ إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب، وهذا قول فيه ما فيه، وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة.

والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب؛ لا يكون إلا لفائدة اقْتَضَتْه، وتلك لفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تُحَدُّ بحدٍّ، ولا تُضْبَط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها؛ فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يَتَشَعَّب شُعَباً كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه.

وسأوضح ذلك في ضرب من الأمثلة الآتي ذكرها.

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.الرحْمٰنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى

الخطاب، وبما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: ﴿الحمد لله﴾ ولم يقل «الحمد لك» ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فخاطب بالعبادة إصْرَاحاً بها وَتَقَرُّباً منه عَزَّ اسمه بالانتهاء إلى محدود منها، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ عطفاً على الأول؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب؛ فأسند النعمة إليه لفظاً، وَزَوَى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً، فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأَقْدَامُ لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها، وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة؛ لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضاً؛ لأن مخاطبة الربّ تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه، فانبغى أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾ وإنما قيل: ﴿لقد جئتم﴾ وهو خطاب للحاضر بعد قوله: ﴿وقالوا﴾ وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم.

ومما جاء من الالتفات مراراً على قصر متنه، وتقارب طرفيه، قوله تعالى أول سورة بني إسرائيل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فقال

أولاً: ﴿سبحان الذي أسرى﴾ بلفظ الواحد، ثم قال: ﴿الذي باركنا﴾ بلفظ الجمع، ثم قال: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ وهو خطاب غائب، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير، وهذا جميعه يكون معطوفاً على أسرى، فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتِّسَاعاً وتفنناً في أساليب الكلام، ولمقصد آخر معنوي هو أعلى وأبلغ.

وسأذكر ما سنح لي فيه فأقول: لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذي أسرى، إذ لا يجوز أن يقال الذي أسرينا؛ فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع، استدرك الأول بالثاني؛ فقال: ﴿باركنا﴾ ثم قال: ﴿لنريه من آياتنا﴾ فجاء بذلك على نَسَقِ ﴿باركنا﴾ ثم قال: ﴿إنه هو﴾ عطفاً على أسرى، وذلك موضع متوسط الصفة؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره، وتلك حال متوسطة، فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب نائب، فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعانٍ اختصت بها، يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها.

ومما ينخرط في هذا السلك الرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ.فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمْوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلى خطاب النفس، فإنه قال: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ ﴿وأَوْحَى﴾ والفائدة في ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه، وفي خلاف هذا الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الغيبة.

ومما ينخرط في هذا السلك أيضاً الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في مَعْرِض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويُدارِيهم، لأن ذلك أدخل في إمْحَاضِ النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المَساقَ إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمر عليها في آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فَحْوَاهَا واستنبطت رُمُوزَها.

وعلى هذا الأسلوب يجري الحكم في الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد، كقوله تعالى: ﴿حم.وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ.إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ.فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ.رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والفائدة ههنا في الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد تخصيص النبيّ ﷺ بالذكر، والإشارة بأن إنزال الكتاب إنما هو إليه، وإن لم يكن ذلك صريحاً، لكن مفهوم الكلام يدلّ عليه.

وإذا تأملت مَطاوِي القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة، وإنما اقتصرنا على هذه الأمثلة المختصرة ليقاس عليها ما يجري على أسلوبها.

وقد ورد في فصيح الشعر شيء من ذلك، كقول أبي تمام(١):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأولها قوله:

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ ... تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وقد تقدم لها في هذا الكتاب ذكر، فانظر (ج ١).

وَرَكْبٍ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً مِنَ السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لَهَا كَفُّ قَاطِبِ(١)
فَقَدْ أَكَلُوا مِنْهَا الْغَوَارِبَ بِالسُّرَى وَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كَالْغَوَارِبِ(٢)
يُصَرِّفُ مَسْرَاهَا جُذَيْلُ مَشَارِقٍ إِذَا آبَهُ هَمٌّ عُذَيْقُ مَغَارِبِ(٣)
يَرَى بِالْكَعَابِ الرودِ طَلْعَةَ ثَائِرٍ وَبِالْعِرْمِسِ الْوَجْنَاءِ غُرَّةَ آئِبِ(٤)
كَأَنَّ بِهَا ضِغْناً عَلَى كُلِّ جَانِبٍ مِنَ الأَرْضِ أَوْ شَوْقاً إِلَى كُلِّ جَانِبِ(٥)
إِذَا الْعِيسُ لاَقَتْ بِي أَبَا دُلَفٍ فَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ(٦)
هُنَالِكَ تَلْقَى الْجُودَ مِنْ حَيْثُ قُطِّعَتْ تَمَائِمُهُ وَالْمَجْدَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ(٧)

(١) الركب: الجماعة الراكبون، قيل: هو خاص بركاب الإبل، والركاب ـ بكسر الراء الرَّكائب، والقاطب: الذي يمزج الخمر بالماء، يريد أن هؤلاء الراكبين يسيرون هذه الركائب سيراً شديداً فيه إجهاد وعنف، ولا يمزجونه باللين والشفقة؛ والمقصود أنهم مغذون في السير مجدون.

(٢) الغوارب: جمع غارب، وهو الكاهل، والسرى: سير الليل، ولها: الضمير يعود إلى الركاب، يريد أن شدة سير هؤلاء وإدامته، قد أكلت غوارب ركائبهم، ولقد صارت الركائب تحسب الراكبيها غواربها؛ لكثرة ما ألفتهم واعتادتهم.

(٣) يصرف مسراها: يسيرها ويميل بها كما يشاء، والجذيل: تصغير جذل وهو عود ينصب لتحتك به الجمال الجربى، والعذيق: تصغير عذق، وهو في الأصل قنو النخلة، ويكن بهذين الوصفين عن الرجل المحنك المجرب للأمور، ومنه قول القائل: «أنا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ».

(٤) الكعاب: البارزة النهدين، والرود: الجارية الناعمة، والثائر: الهائج للقتال؛ والعرمس: الناقة الشديدة، والوجناء: القوية.

(٥) الضغن ـ بكسر فسكون هنا ـ الحقد، يريد أنه كثير الترحال؛ فهو إما كاره لجميع بقاع الأرض فهو لا يبقى في بقعة منها إلا ريثما يتحول عنها، وإما محب لجميع البقاع فهو في شغف شديد إلى رؤية كل بقعة منها.

(٦) العيس: الإبل البيض التي يخالط بياضها شقرة، واحدها أعيس وعيساء، والنوائب: المصائب، واحدها نائبة، وهي في الأصل اسم فاعل من نابت تنوب: أي عرت وعرضت.

(٧) رواية الديوان في هذا البيت هكذا:

هُنَا لِكَ تَلْقَى المَجْدَ حَيْثُ تَقَطَّعَتْ تَمَائِمُهُ، وَالْجُودَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ

والتمائم: جمع تميمة، وهي ما يعلق على الصبي ليحفظه في زعمهم، والذوائب: جمع ذؤابة، وهي الخصلة من الشعر.

ألا ترى أنه قال في الأول: «يُصَرِّفُ مَسْرَاها» مخاطبة للغائب، ثم قال بعد ذلك: «إذا العيسُ لاقت بي» مخاطباً نفسه، وفي هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة للمدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشراً لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب، ثم جاء بالبيت الذي يليه معدولاً به عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره، وهو أيضاً خطاب لحاضر، فقال: «هُنَالِكَ تَلْقَى الجود» والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شهده، كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه؛ إشادَةً بذكره، وتنويهاً باسمه، وحملاً لغيره على قصده، وفي صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة، وهي قوله: «حيث قُطِّعَتْ تمائمه» ما يقتضي له الرجوع إلى خطاب الحاضر، والمراد بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه، وقد يراد به معنى آخر، وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المَنِّ والمَطْل والاعتذاروغير ذلك،إذ التمائم لا تقطع إلا عمن أمنت عليه المخاوف.

على هذا النهج ورد قول أبي الطيب المتنبي في قصيد(١) يمدح به ابن العميد في النوروز، ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا إلى ملوكهم، فقال في آخر القصيد:

كَثُـرَ الْفِكْرُ كَيْفَ نُهْدِي كما أَهْـ ... ـدَتْ إِلَى رَبِّهَا المَلِيكِ عِبَادُهْ(٢)
وَالَّـذِي عِنْدَنَا مِنَ المَالِ وَالْخَيْـ ... ـلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيَادُهْ(٣)
فَبَعَثْنَا بِأَرْبَعِينَ مِهَاراً ... كُلُّ مُهْرٍ يُدَانُهُ إِنْشَادُهْ(٤)

---

(١) أول هذه القصيدة قوله:

جَاءَ نَيْرُوزُنَا وَأَنْتَ مُرَادُهْ ... وَوَرَتْ بِالَّذِي أَرَادَ زِنَادُهْ

(٢) يقول: قد أكثرت الفكر، وترددت كيف أهدي إليك شيئاً، كما تهدى العبيد إلى ربها.

(٣) يقول: كل ما عندنا من الأموال والخيول، فهو من هباته ومنائحه، وما قاده لنا من الخيول فهو من عنده، وقد أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي:

مِنْكَ يَا جَنَّةَ النَّعِيمِ الهَدَايَا ... أَفَنُهْدِي إِلَيْكَ مَا مِنْكَ يُهْدَى

(٤) المهر: الفتى من أولاد الخيل، وتقول: مهر ومهرة، والجمع مهار وأمهار ومهرات، وأراد هنا بالمهر البيت من الشعر، ويروى «مهار» بالجر وبالنصب؛ فالجر على أنه بدل أو صفة،=

عَـدَدٌ عِشْتَهُ يَـرَى الْجِسْمُ فِيـهِ أَرَبـاً لَا يَـرَاهُ فِيـمَـا يُـزَادُهْ[١]

فَـارْتَبِـطْهَـا فَـإِنَّ قَلْبـاً نَمَـاهَـا مَـرْبِطٌ تَسْبِقُ الْجِيَـادَ جِيَـادُهْ[٢]

وهـذا من إحسـان أبي الـطيب المعـروف، وهــو رجـوع عن خــطاب الغـائب الى الحـاضر، واحتـج أبو الـطيب عن تخصيص أبياتـه بالأربعين دون غيـرها من العـدد بحجـة غـريبـة، وهي أنـه جعلهـا كعـدد السنين التي يـرى الإنسـان فيهـا من القـوة والشباب وقضاء الأوطار ما لا يراه في الزيادة عليها، فاعتذر بألطف اعتذار في أنه لم يزد القصيد على هذه العدة، وهذا حسن غريب.

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فكقولـه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَـوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَـوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِن هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَاكِرِينَ﴾ فـإنه إنمـا صرف الكـلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم لِيُعَجِّبَهُمْ منها كالمخبـر لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بهـا، وساق الخـطاب معهم إلى آخر الآيـة؛ لذهبت تلك الفـائدة التي أنتجها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخاف عن نَقَدَة الكلام.

وممـا ينخرط في هـذا السلك قولـه تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.وَتَقَـطَّعُوا أَمْـرَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَـا رَاجِعُونَ﴾ الأصـل في تَقَطَّعُـوا تقطعتم، عَـطْفاً على الأول، إلا أنـه صرف[٣] الكـلام من الخـطاب إلى الغيبـة على طـريقـة

= والنصب ليس على التمييـز؛ لأن تمييز هـذا العدد مفـرد، تقول: عنـدي أربعون دينـاراً، وفي التنزيل العزيز ﴿وَوَاعَـدْنَا مُـوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ولكنـه على النعت على المعنى؛ لأن المجرور في المعنى مفعول به.

(١) المعنى زاد الله في عمرك هذا العدد، وهو الأربعون؛ وكان ابن العميد قد جاوز السبعين.

(٢) يريد بالقلب الذي نماها قلبه، ويريد بالجياد الأبيات التي أنشأها وصنعها، ولما عبر فيما سبق عن الأبيات بالمهار عبر ههنا عن حفظها بالارتباط؛ ليجانس الكلام بعضه بعضاً.

(٣) في ب، ج «حرف الكلام» بالحاء المهملة، وهـو تحريف، وصـوابه «صـرف الكلام» بـالصاد المهملة، كما أثبتناه.

الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قِطَعاً، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم، ثم تَوَعَّدَهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون؛ فهو مُجَازيهم على ما فعلوا.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فإنه إنما قال: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ ولم يقل فآمنوا بالله وبي عطفاً على قوله إني رسول الله إليكم لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وبكلماته كائناً من كان أنا أو غيري؛ إظهاراً للنَّصَفَةِ، وبعداً من التعصب لنفسه، فقدر أولاً في صدر الآية إني رسول الله إلى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين: الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه، والثاني الخروج من تهمة التعصب لنفسه.

القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقط، بل لأمر وراء ذلك، وإنما يُقْصَد إليه تعظيماً لحال من أجري عليه الفعل المستقبل، وتفخيماً لأمره، وبالضد من ذلك فيمن أجري عليه فعل الأمر.

فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ.إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فإنه إنما قال: ﴿أشهد الله واشهدوا﴾ ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له وبمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك

صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تَهَاونٌ بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول؛ لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر، كمايقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: آشْهَدْ عليَّ أني أحبك، تهكماً به، واستهانة بحاله.

وكذلك يرجع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر؛ إلا أنه ليس كالأول، بل إنما يفعل ذلك توكيداً لما أجري عليه فعل الأمر؛ لمكان العناية بتحقيقه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية، وكان تقدير الكلام أمر؛ ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر؛ للعناية بتوكيده في نفوسهم؛ فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية، ولهذا قال النبيّ ﷺ: «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

واعلم أيها المتوشِّح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يَتوخَّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقِّها فَهْماً، وأغمضها طريقاً.

القسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي،

فالأول الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي: اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذاك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأَنَّ السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي، وربما أدخل في هذا الموضع ما ليس منه جَعْلاً بمكانه، فإنه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بجارٍ هذا المجرى.

وسأبين ذلك فأقول: عطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماض بمستقبل، وهو الذي أنا بِصَدَدِ ذكره في كتابي هذا الذي هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة، والآخر غير بلاغي، وليس إخبار بمستقبل عن ماض، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماض، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض.

فالضرب الأول كقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ فإنه إنما قال: ﴿**فتثير**﴾ مستقبلاً وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذي أشرنا إليه، وهو حكاية الحبل التي يقع فيها إثارةُ الريح السحابَ، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، كحال تُسْتَغْرَبُ أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك.

وعلى هذا الأسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه في غزوة بدر: فإنه قال: لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لَأمَةٌ(١) كاملة لا يُرَى منه إلا عيناه، وهو يقول: أنا أبو ذات الكئوس، وفي يدي عَنَزَة(٢) فأطعن بها في عينه، فوقع، وأطأ برجلي على خده حتى خرجت الْعَنَزَة مُتَعَقِّفَةً(٣)؛ فقوله: «فأطعن بها في عينه، وأطأ برجلي» معدول به عن لفظ الماضي إلى المستقبل؛ ليمثل للسامع الصورة التي فعل فيها ما فعل من الإقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئِم، ألا ترى أنه قال أولاً: لقيت عبيدة، بلفظ الماضي، ثم قال بعد ذلك: فأطعن بها في عينه، ولو عطف كلامه على أوله لقال: فطعنت بها في عينه.

---

(١) اللأمة ـ بفتح اللام وسكون الهمزة، وقد تخفف همزته فتقلب ألفاً، كما يقال: رأس، وسال ـ وهي الدرع، ويقال: اللأمة السلاح، ولأمة الحرب: أداته.

(٢) العنزة ـ بفتح العين والنون ـ مثل نصف الرمح، أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح، والعكازة: قريب منها.

(٣) متعقفة: ملوية.

وعلى هذا ورد قول تأبَّطَ شرًّا[١]:

بِـأَنِّي قَـدْ لَقِيتُ الْغُـولَ تَهْـوِي   بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ[٢]
فَـأَضْـرِبُهَـا بِـلَا دَهَشٍ فَخَـرَّتْ   صَـرِيعـاً لِلْيَـدَيْنِ وَلِلْجِـرَانِ[٣]

فإنه قصد أن يصوِّر لقومه الحال التي تَشَجَّعَ فيها على ضرب الغـول، كأنـه يبصرهم إياها مشاهَدَةً، للتعجب من جراءته على ذلك الهوْل، ولو قال فضـربتها عـطفاً على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة.

فإن قيل: إن الفعل الماضي أيضاً يَتَخَيَّل منه السامـع ما يتخيله من المستقبـل

قلت في الجواب: إن التخيل يقع في الفعلين معاً، لكنـه في أحدهمـا ـ وهو المستقبل ـ أوكد وأشد تخيلاً؛ لأنـه يستحضر صـورة الفعل حتى كـأن السامـع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه، ألا ترى أنه لما قال تأبط شراً «فأضربها» تخيل السامع أنه مباشر للفعل، وأنه قائم بإزاء الغول، وقـد رفع سيفـه ليضربهـا، وهذا لا يـوجد في الفعـل الماضي؛ لأنـه لا يتخيل السـامع منـه إلا فعلاً قـد مضى من غيـر إحضار للصورة في حـالة سمـاع الكلام الـدال عليه، وهـذا لا خلاف فيـه، وهكذا

(١) من كلمة له رواها غير واحد من حملة الشعر، منهم أبـو الفرج الإصبهـاني في الأغاني (١٨ ـ ٢١٠ بولاق) وأول هذه الكلمة قوله:

أَلَا مَـنْ مُـبْـلِغٌ فِـتْـيَـانَ فَـهْـمٍ   بِـمَـا لَاقَـيْـتُ عِـنْـدَ رَحَـى بِـطَانِ

(٢) وقع في ب، ج «بشهب كالصحيفة» وهو تحريف، وتصويبه عن الأغاني في المـوضع السـابق ذكره، والسهب ـ بفتح فسكون ـ الأرض المستوية، وجمعه سهوب، ولذلك شبهه بالصحيفة، والصحصحان ومثله الصحصح: الأرض الواسعة المستوية.

(٣) روى أبو الفرج وغيره بين هذين البيتين بيتين آخرين، وهما قوله:

فَـقُـلْـتُ لَـهَـا: كِـلَانَـا نِـضْـوُ أَيْـنٍ   أَخُـو سَـفَـرٍ، فَـخَـلِّي لِـي مَـكَـانِـي
فَـشَـدَّتْ شَـدَّةً نَـحْـوِي فَـأَهْـوَى   لَـهَـا كَـفِّـي بِـمَـصْـقُـولٍ يَـمَـانِ

وبعد ذلك البيت الثاني الذي ذكره المؤلف.

يجري الحكم في جميع الآيات المذكورة، وفي الأثر عن الزبير رضي الله عنه، وفي الأبيات الشعرية.

وعليه ورد قوله تعالى أيضاً، وهو: ﴿ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فقال أولاً: «خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ» بلفظ الماضي، ثم عطف عليه المستقبل الذي هو «فَتَخْطَفُهُ» و«تَهْوِي»، وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهُوِيِّ الريح به، والفائدة في ذلك ما أشرت إليه فيما تقدم، وكثيراً ما يراعى أمثال هذا في القرآن.

وأما الضرب الثاني ـ الذي هو مستقبل ـ فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ فإنه إنما عطف المستقبل على الماضي لأن كفرهم كان ووجد، ولم يستجدُّوا بعده كفراً ثانياً، وصَدُّهم متجدد على الأيام لم يمض كونه، وإنما هو مستمر يستأنف في كل حين، وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ألا ترى كيف عَدل عن لفظ الماضي ههنا إلى المستقبل فقال: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ولم يقل فأصبحت عطفاً على أنزل، وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مَضَى وجوده، واخضرار الأرض باقٍ لم يَمْضِ، وهذا كما تقول: أَنْعَمَ عَلَيَّ فُلَانٌ فَأَرُوحُ وَأَغْدُو شاكراً له، ولو قلت: فَرُحْتُ وَغَدَوْتَ شاكراً له، لم يقع ذلك الموقع؛ لأنه يدل على ماضٍ قد كان وانقضى وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل.

وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره، وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بَعْدُ كان ذلك ابلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها.

والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تَبيينُ هيئة الفعل واستحضار صورته، ليكون السامع كأنه يشاهدها، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد.

فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ فإنه إنما قال ﴿ففزع﴾ بلفظ الماضي بعد قوله ﴿يُنْفَخُ﴾ وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به.

وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ وإنما قيل ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ ماضياً بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ وَ﴿ترى﴾ وهما مستقبلان للدلالة على أن حَشْرَهُمْ قبل التسير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك؛ لأن الحشر هو المهم؛ لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي.

ومما يجري هذا المجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي، وقد سبق الكلام عليه.

فمن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ فإنه إنما آثر اسم المفعول الذي هو (مجموع) على الفعل المستقبل الذي هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثَبَات معنى الجمع لليوم، وأنه الموصوف بهذه الصفة، وإن شئت فَوَازن بينه وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ﴾ فإنك تعثر على صحة ما قلت.

النوع الخامس

في توكيد الضميرين

إن قيل في هذا الموضع: إن الضمائر مذكورة في كتب النحو؛ فأي حاجة إلى ذكرها ههنا ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته؟

قلت: إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة، وأولئك لا يتعرضون إليه، وإنما يذكرون عدد الضمائر، وأنّ المنفصل منها كذا، والمتصل كذا، ولا يتجاوزون ذلك، وأما أنا فإني أوردت في هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحويّ، وأعني بقولي «توكيد الضميرين» أن يؤكد المتصل بالمنفصل، كقولك: إِنَّكَ أَنْتَ، أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله، كقولك: أَنْتَ أَنْتَ، أو يؤكد المتصل بمتصل مثله، كقولك: إِنَّكَ إِنَّكَ لَعَالِم، أو إِنَّكَ إِنَّكَ لَجَوَادٌ.

وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة، وهو من أسرار علم البيان. ولنقدم في ذلك قولاً يحصره ويجمع أطرافه؛ فنقول:

إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً في النفوس فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر، وإذا كان غير معلوم، وهو مما يشك فيه؛ فَالأَوْلَى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه، لتقرره وتثبته.

فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فإن إرادة السَّحَرَة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده؛ لأنهم لم يُصَرِّحُوا بما في أنفسهم من ذلك، لكنهم لما عَدَلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دَلَّ ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله؛ لأنّ من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا: إما أن تلقى وإما أن نلقى؛ لتكون الجملتان متقابلتين، فحيث قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ استدل بهذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله.

وأما توكيد المتصل بالمتصل فكقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ وهذا بخلاف قصة السفينة، فإنه قال فيها: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى فقال في الأولى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ وقال في الثانية: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ﴾ وإنما جيء بذلك للزيادة في مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة، والوَسْم بعدم الصبر، وهذا كما لو أتى الإنسان ما نَهَيْتَهُ عنه فَلُمْته وَعَنَّفْتَهُ، ثم أتى ذلك مرة ثانية، أليس أنك تزيد في لومه وتعنيفه؟ وكذلك فعل ههنا، فإنه قيل في الملامة أولاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ ثم قيل ثانياً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ﴾ وهذا موضع يَدِقُّ عن العثور عليه بِبَادِرَةِ النظر ما لم يُعْطَ التأمل فيه حَقَّهُ.

وأما توكيد المتصل بالمنفصل فنحو قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ فتوكيد الضميرين ههنا في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ أنفى للخوف من قلب موسى، وأثبت في نفسه للغلبة والقهر، ولو قال لا تخف إنك الأعلى أو فأنت الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف ما لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾.

وفي هذه الكلمات الثلاث وهي قوله ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ ست فوائد:

الأولى: «إنَّ» المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، كقولك: زيد قائم، ثم تقول: إنَّ زيداً قائم، ففي قولك إنَّ زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد ما ليس في قولك زيد قائم.

الثانية: تكرير الضمير، في قوله (إنك أنتِ) ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة في التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره.

الثالثة: لام التعريف في قوله (الأعلى) ولم يقل أعلى ولا عال؛ لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره، وكان صالحاً لكل واحد من جنسه، كقولك: رجل؛ فإنه يصلح

أن يقع على كل واحد من الرجال، وإذا قلت «الرجل» فقد خَصَّصْته من بين الرجال بالتعريف، وجعلته علماً فيهم، وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿إنك أنت الأعلى﴾ أي: دون غيرك.

الرابعة: لفظ أَفْعَل الذي من شأنه التفضيل، ولم يقل العالي.

الخامسة: إثبات الغلبة له من العلو؛ لأن الغرض من قوله ﴿الأعلى﴾ أي الأغلب، إلا أن في الأعلى زيادة، وهي الغلبة من عال.

السادسة: الاستئناف، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إنك أنت الأعلى﴾ ولم يقل لأنك أنت الأعلى؛ لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عالياً، وإنما نفي الخوف عنه أولاً بقوله: ﴿لا تخف﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فكان ذلك أبْلَغَ في إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء، وأثْبَتَ لذلك في نفسه.

وربما وقع لبعض الأغمار أن يعترض على ماذكرناه في توكيد أحد الضميرين بالآخر فيقول: لو كان توكيدهما أبلغ من الاقتصار على أحدهما لو رد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه، حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول، وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى، وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر، كقوله عز اسمه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءَ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولم يقل إنك أنت على كل شيء قدير، فما الموجب لذلك إن كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار على أحدهما؟

الجواب عن ذلك أنا نقول: قد قدمنا القول في أول هذا النوع أنه إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً فصاحب الكلام مُخَيَّر في توكيد أحد الضميرين بالآخر؛ فإن أكَّدَ فقد أتى بفَضْل بيانٍ، وإن لم يؤكد فلأنّ ذلك المعنى ثابت لا يفتقر في تقريره، إلى زيادة تأكيد، كهذه الآية المشار إليها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ فإن العلم بأن الله على كل شيء قدير لا يفتقر إلى تأكيد يقرره، وقد ورد ما يجري مجرى هذه الآية مؤكداً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى

ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فوكد في هذه الآية ولم يوكد في الآية الأخرى، وقد عرفتك الطريق في ذلك، وأما إذا كان المعنى المقصود غير معلوم؛ وهو مما يشك فيه؛ فالأَوْلَى أن يؤكد بالضميرين في الدلالة عليه، كقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ فإن موسى لم يكن متيقناً أنه غَالِبٌ للسَّحَرَةِ؛ فلذلك وكد خطابه بالضميرين؛ ليكون أبلغ في تقرير ذلك في نفسه.

وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله فكقول أبي تمام(١).

لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ الْهَوَى وَتَوَلَّتِ الْأَوْطَارُ

فقوله «لا أنت أنت ولا الديار ديار» من المليح النادر في هذا الموضع؛ لأنه هو هو والديار الديار، وإنما البواعث التي كانت تبعث على قضاء الأوطار زالت، فبقي ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ولا الديار في عينه من الحسن تلك الديار، وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي(٢)؛

قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ بِشْرُ المَلِكُ الْهُمَامُ(٣)

فقوله «أنت أنت» من توكيد الضميرين المشار إليهما، وفائدته المبالغة في مدحه، ولو مدحه بما شاء الله لما سدَّ مسدَّ قوله «أنت أنت» أي: أنك المشار أليه بالفضل دون غيرك، وأما قوله «وأنت منهم» فخارج عن هذا الباب! وهو كلام مستأنف لا

---

(١) هذا البيت مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد الثغري، وبعده قوله:

كَانَتْ مُجَاوَرَةُ الطُّلُولِ وَأَهْلِهَا زَمَناً عِذَابَ الْوِرْدِ وَالإِصْدَارِ

وانظر الديوان (ص ١٤٤ بيروت).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن علي العجلي، وأولها قوله:

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ المُدَامُ وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

(٣) كان من حقه أن يقول: قبيل أنت منهم وأنت أنت، يريد أنت على شرف قدرك وعراقة مجدك منهم، وإذا كنت منهم وبشر جدك فقد كفاهم ذلك فخراً وشرفاً؛ فهم يفخرون بك وبنسبك.

يتعلق بتوكيد الضميرين، كأنه قال: أنت الموصوف بكذا وكذا، وأنت من هذا القبيل، يريد بذلك مَدْحَ قبيله به.

وهذا البيت لم أمثل به اختياراً له واستجادة، وإنما مثلت به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل، وإلا فالبيت ليس من المرضى، لأن سبكه سبك عار من الحسن، وفيه تقديم وتأخير.

وقرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج أن عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة: يا خير الفتيان، اردد عليّ ما أخذته من إبلي، فَرَدَّها عليه وفيها فحلها، فنازعه الفحل إلى الإبل، فصرعه عمرو، فقال له زياد: لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم أنتم، فقال عمرو له: لقد أعطيت قليلاً، وسمْتَ جليلاً، وجررت على نفسك ويلاً طويلاً، فقوله «لكنتم أنتم أنتم» أي: أنتم الأشداء، أو الشجعان، أو ذوو النجدة والبأس، أو ما جرى هذا المجرى، إلا أن في «أنتم» الثانية تخصيصاً لهم بهذه الصفة دون غيرهم، كأنه قال: لكنتم أنتم الشجعان دون غيركم، ولو مدحهم بأي شيء مدحهم [به] من وصف البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الكلمة، أعني «أنتم» الثانية، وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه.

النوع السادس

في عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده

وهذا إنما يعمد إليه لفائدة، وهي تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المضمر أولاً، ومثال ذلك قول القائل: ولَمَّا تلاقينا وبنو تميم أقبلوا نحونا يركضون فرأينا منهم أسوداً ثكلاً تسابق الأسنة إلى الورود، ولا ترتد على أعقابها إذا ارتدت أمثالها من الأسود، وتناجد بنو تميم علينا بحملة، فلذنا بالفرار، واستبقنا إلى تولية الأدبار؛ فإنه إنما قيل «وتناجد بنو تميم» مصرحاً باسمهم ولم يقل وتناجدوا كما قيل «أقبلوا» للدلالة على التعجب من إقدامهم عند الحملة، وثباتهم عند الصَّدمة، لا سيما وقد أردف ذلك بقوله «لذنا بالفرار، واسْتَبَقْنَا إلى تولية الأُدبار» كأنه قال: وتناجد أولئك الفرسان المشاهير والكماة المناكير، وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين.

ومما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيءُ آللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى آللهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ آللهُ يُنْشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ ألا ترى كيف صرح باسمه في قوله: ﴿ثم الله ينشيء النشأة الآخرة﴾ مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِيءُ آللهُ الْخَلْقَ﴾ وقد كان القياس أن يقول كيف يبديء الله الخلق ثم ينشيء النشأة الآخرة والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة، وكان صدر الكلام واقعاً معهم في الإبداء، وقررهم أن ذلك من الله؛ احْتَجَّ عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء، فوجب أن لا تعجزه الإعادة فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى، وأوقعه مبتدأ ثانياً.

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ آللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ

الْكَافِرِينَ﴾ ألا ترى أنه قال أولاً: **﴿ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم﴾** فذكر مضمراً تقدم الكلام فيه، ثم عطف المظهر الذي هو له وهو قوله: **﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾** وكان العطف لو أضمر كما أضمر الأول لقيل ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنوداً لم تروها، وفائدة الإظهار ههنا للمعطوف بعد إضماره أولاً التَّنْويهُ بذكر رسول الله ﷺ، وذكر المؤمنين، أو لأن الأمر عظيم، وهو الانتصار بعد الفرار، فأي الأمرين قدّر كان لإظهار المعطوف مناسباً، وهكذا يكون عطف المظهر على ضميره؛ فإنه يستند إلى فائدة يهمّ ذكرها؛ فإن لم يكن[1] هناك مثل هذه الفائدة وإلا فلا يحسن الإظهار بعد الإضمار.

وكذلك جاء قوله تعالى: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** فإنه إنما قال: **﴿وقال الذين كفروا﴾** ولم يقل وقالوا كالذي قبله للدلالة على صدور ذلك عن إنكار عظيم، وغضب شديد، وتعجب من كفرهم بليغ، لا سيما وقد آنضاف، إليه قوله: **﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم﴾** وما فيه من الإشارة لى القائلين والمقول فيه، وما في ذلك من المُبَادَهَة، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمردون بِجَزَاءتهم على الله ومُكابرتهم لمثل ذلك الحقّ المبين قبل أن يَتَدَبَّروه إنْ هذا إلا سحر مبين.

وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى: **﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ.كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾** وكان القياس أن يقال: وقالوا هذا ساحر كذاب، عطفاً على «عجبوا» وإنما أتى باسم الكافرين مظهراً بعد إضماره للإشعار بتعظيم ما اجْتَرءُوا عليه من القول في أمر النبي ﷺ؛ أو لأن هذا القول كان أهَمَّ عندهم، وأرسخ في نفوسهم؛ فصرح باسم قائله دِلالة على ما كان في أنفسهم منه.

---

(١) كذا، ولعل أصل العبارة «فإن تكن هناك مثل هذه الفائدة وإلا - إلخ» بإسقاط «لم» ويكون جواب إن محذوفاً، أي: فإن تكن هناك مثل هذه الفائدة حسن الإظهار وإلا فلا يحسن.

النوع السابع

في التفسير بعد الإبهام

اعلم أن هذا النوع لا يُعْمَد إلى استعماله إلا لضرب من المبالغة، فإذا جيء به في كلام فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم وإعظامه؛ لأنه هو الذي يطرق السمع أولاً فيذهب بالسامع كلَّ مَذْهَب؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ ففسر ذلك الأمر بقوله: ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ وفي إبهامه أولاً وتفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر، وتعظيم لشأنه، فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة، فإن الإبهام أولاً يقع السامع في حيرة وتفكر واستعظام لما قَرَعَ سمعه، وتَشَوُّفٍ إلى معرفته والاطلاع على كُنْهه.

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ففسر ﴿ما يوحى﴾ بقوله ﴿أن آقذفيه﴾ وهذا كالأول في إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً.

ومثال هذا ورد قوله تعالى في سورة أم الكتاب: ﴿آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ آلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه إنما قال ذلك ولم يقل آهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما في الأول من التنبيه والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين؛ فدل عليه بأبلغ وجه، كما تقول: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؛ لأنك تثبت ذكره مجملاً ومفصلاً، فجعلته علماً في الكرم والفضل؛ كأنك قلت: مَنْ أراد رجلاً جامعاً للخَصْلَتَيْن جميعاً فعليه بفلان.

فإن قيل: فما الفرق بين عطف المظهر على ضميره وبين التفسير بعد الإبهام فإن المضمر كالمبهم؟

فالجواب عن ذلك أني أقول: إنْ كان سؤالك عن فائدتهما فإنهما في الفائدة سواء، وذلك أنهما إنما يُرَادَانِ لتعظيم الحال، والإعلام بفخامة شأنهما، وإن كان سؤالك عن الفرق بينهما في العبارة فإني أقول: المضمر يأتي بعد مظهر تقدم ذكره أولاً، ثم يعطف المظهر على ضميره: أي على ضمير نفسه، كالمثال الذي ضربناه في بني تميم، وأما التفسير بعد الإبهام فإن المبهم يقدّم أولاً، وهو أن يذكر شيء يقع عليه محتملات كثيرة، ثم يفسر بإيقاعه على واحد منها، وليس كذلك عطف المظهر على ضميره.

ومما جاء من التفسير بعد الإبهام قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ۝يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ۝مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ألا ترى كيف قال: ﴿أهدكم سبيل الرشاد﴾ فأبهم سبيل الرشاد ولم يبين أي سبيل هو، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها، ثم ثنَّى ذلك بتعظيم الآخرة والإطلاع على حقيقتها، ثم ثَلَّث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما؛ لِيُثَبِّط عما يُتلف، ويُنَشِّط لما يُزْلِف، كأنه قال: سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا، والرغبة في الآخرة، والامتناع من الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها، والمسارعةُ إلى الأعمال الصالحة رجاءَ المجازاة عليها.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَعِيلُ﴾ فإنه إنما قال: ﴿القواعد من البيت﴾ ولم يقل قواعد البيت لما في إبهام القواعد أولاً وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبين ما ليس في الإضافة.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ۝أَسْبَابَ السَّموَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ فإنه لما أراد تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات أبهمها أوّلاً ثم فسرها ثانياً، وَلأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوِّفةٍ إليه؛ ليعطيه السامع حقه من التعجُّب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه بعد ذلك.

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فإنه قال أولاً: ﴿أعظكم بواحدة﴾ فأبهم الواحدة، ثم فسرها بقوله: ﴿أَنْ تَقُوموا لله مثنى وفرادى وأن تتفكروا﴾.

وهذا في القرآن الكريم كثير الاستعمال.

وأما الإبهام من غير تفسير فكثير شائع في القرآن الكريم أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقة أو الحالة أو المِلَّة التي هي أقومها وأسَدُّها، وأي ذلك قدرت لم تجد له مع الإفصاح ذَوْقَ البلاغة التي تجده مع الإبهام، وذلك لذهاب الوهم فيه كلَّ مَذهَبٍ، وإيقاعه على محتملات كثيرة.

وهذا كقول القائل: لو رأيت علياً بين الصفين، فإنه لو وصفه مَهْمَا وصف من نجدة وشجاعة وثبات وإقدام وأطال القول في ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى إليه الوهم مع الإبهام، وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها.

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وأبلغ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ فإنه قال في تلك الآية: ﴿فَغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ فذكر اليم، وهو البحر؛ فصار الذي غشيهم إنما هو منه خاصة، وقال في هذه الآية: ﴿فغشّاها ما غشى﴾ فأبهم الأمر الذي غشّاها به، وجعله عاماً وذلك أبلغ؛ لأن السامع يذهب وهمه فيه كل مذهب.

وأما ما جاء من ذلك شعراً فكقول البحتري[1]:

بَعِيدُ مَقِيلِ الصَّدْرِ لَا يُدْرِكُ الَّتِي ... يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الأَرِيبُ المُخَادِعُ[2]

---

(١) من قصيده له يمدح فيها الفتح بن خاقان، وأولها قوله:

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ ... وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) كذا ورد هذا البيت في ب، ج؛ والذي في الديوان (٢ ـ ٧٧ مصر):

=

فقوله «التي يحاولها» من الإبهام المقدم ذكره في الآية.

ومما ينتظم بذلك قول الشاعر في أبيات الحماسة[1]:

صَبَا مَا صَبَا حَتّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ   فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ آبْعَدِ

فقوله «صبا ما صبا» من الإبهام الذي لو قدرت ما قدرت في تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الإبهام.

وعليه ورد قول أبي نواس:

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ   وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّحْظِ حِينَ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ آمْرُؤٌ بِشَبَابِهِ   فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ

فقوله «وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه» من هذا النمط المشار إليه، وهو من المليح النادر.

ومما يجري على هذا النهج قول الآخر في وصف الخمر:

مَضَى بِهَا مَا مضى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا   وَفِي الزُّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي

= مُبِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لَا يُدْرِكُ التِي   يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الأَرِيبُ المُخَادِعُ

والذي نعتقده أن ما في الديوان وما هنا قد عراهما التحريف، وأن صواب الإنشاد:

بَعِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لَا يُدْرِكُ الَّتِي   يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الأَرِيبُ المُخَارِعُ

وأصل نظام البيت لا يدرك الأريب المخادع التي يحاولها منه؛ يصفه بأنه لا يطلع على سره أحداً ولا يصل إلى غوره إنسان، وأقرأ ما قبل البيت وما بعده تدرك تمام هذا المعنى:

تَذُودُ الدَّنَايَا عَنْهُ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ   وَعَزْمٌ كَحَدِّ الْهُنْدُوَانِي قَاطِعُ

بَعِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لَا يُدْرِكُ الَّتِي   يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الأَرِيبُ المُخَادِعُ

وَلَا يَعْلَمُ الأَعْدَاءُ مِنْ فَرْطِ عَزْمِهِ   مَتَى هُوَ مَصْبُوبٌ عَلَيْهِمْ فَوَاقِعُ

(١) من أبيات لدريد بن الصمة اختارها أبو تمام في ديوان الحماسة، وأولها قوله:

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ   وَرَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ وَالقَوْمُ شُهَّدِي

انظر شرح التبريزي (٢ ـ ٣٠٤).

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذي قبله.

ومثله ورد قول بعض المتأخرين: فؤاد فيه ما فيه.

وعلى هذا ورد قولي في فصل من تقليد لبعض الوزراء، فقلت: وأنت مؤهل لواحدة متخلق لها غرر الجياد، وتناديها العلياء بلسان الإحماد، وتفخر بها سمر الأقلام على سُمْر الصِّعَاد، فابسط يدك لأخذ كتابها، واسْمَعْ لطيب ذكرها بعد سعيك في طِلَابها، واعلم أن الخُطّاب إليها كثير لكنها صَدَّت بك عن خُطَّابها، ولقد مضى عليها زمن وهي نفور حتى استقادها تأنيسُك، ولم تسبق الأقدار باسمك إلا لتكون سُلَيْمَانَهَا وهي بَلْقِيسُك.

وهذا الوزير كان اسمه سليمان؛ فسقت المعنى إليه، فجاء كما تراه من الحسن واللطافة.

أما قولي «وأنت مؤهل لواحدة» فإنه من الإبهام من غير تفسير، وذلك بخلاف ما ورد في الآية المقدم ذكرها؛ لأن تلك من التفسير بعد الإبهام.

ومما ينتظم في هذا السلك الاستثناء العددي، وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ، وفائدته أنَّ أول ما يطرق سَمْعَ المخاطب ذِكْرُ العقد من العدد، فيكثر موقع ذلك عنده، وهو شبيه بما ذكره من الإبهام أولاً ثم التفسير بعده ثانياً، وذلك كقول القائل: أعطيته مائة إلا عشرة، أو أعطيته ألفاً إلا مائة، فإن ذلك أبلغ من أن لو قال: أعطيته تسعين، أو تسعمائة.

وعليه ورد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً؛ لفائدة حسنة، وهي ذكر ما ابتلى به نوح من أمته، وما كابده من طول المصابرة؛ ليكون ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من أمته، وتثبيتاً، له؛ فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوْقَعُ وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه.

النوع الثامن

في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات

اعلم أنه إذا كان الشيئان أحدهما خاصًا والآخر عامًّا فإن استعمال العام في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الإثبات، وكذلك استعمال الخاص في حالة الإثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي.

ومثال ذلك الإنسانية والحيوانية فإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات الحيوانية، ولا يوجب نَفْيُهَا نَفْيَ الحيوانية، وكذلك نَفْيُ الحيوانية يوجب نفيَ الإنسانية، ولا يوجب إثباتُهَا إثبَاتَ الإنسانية.

ومما ينتظم بذلك الأسماء المفردة الواقعة على الجنس التي يكون بينها وبين واحدها تاء التأنيث، فإنه متى أريد النفي كان استعمال واحدها أبلغ، ومتى أريد الإثبات كان استعمالها أبلغ.

وكذلك يتصل بهذا النوع الصفتان الواردتان على شيء واحد؛ فإنه إذا لزم من وجود إحداهما وجود الأخرى اكتفى بها في الذكر، ولم يحتج إلى ذكر الأخرى؛ لأنه يجيء ضمناً وتبعاً، أو أن يبدأ بها في الذكر أولاً ثم تجيء الأخرى بعدها، وأما الصفات المتعدّدة فإنه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالأدنى مرتبةً ثم بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهي إلى آخرها، هذا في مقام المدح، فإن كان في مقام الذم عكست القضية.

فالأوّل ـ وهو الخاص والعام ـ نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل ذهب بضوئهم موازناً لقوله: ﴿فلما أضاءت﴾ لأن ذكر النور في حالة النفي أبلغ، من حيث إن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة، فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة

وبقاء ما يسمى نوراً، لأن الإضاءة هي فرط الإنارة، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ فكل ضوء نور، وليس كل نور ضوءاً، فالغرض من قوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ إنما هو إزالة النور عنهم أصلاً، فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء، وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل أذهب نورهم؛ لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه، وليس كل من أذهب شيئاً فقد ذهب به؛ لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضيٌّ به، وفي ذلك نوع احتجار بالمذهوب به وإمساك له عن الرجوع إلى حالته والْعَوْد إلى مكانه، وليس كذلك الإذهاب للشيء؛ لزوال معنى الاحتجار عنه.

ومما يحمل على ذلك الأوصاف الخاصة إذا وقعت على شيئين، وكان يلزم من وصف أحدهما الآخر، ولا يلزم عكس ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فإنه إنما خصَّ العرض بالذكر دون الطول للمعنى الذي أشرنا إليه، والمراد بذلك أنه إذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها؟

وهذا في حالة الإثبات؛ ولو أريد النفي لكان له أسلوب غير ما ذكرناه، وهو أنه كان يخص به الطول دون العرض.

وأما الأسماء المفردة الواقعة على الجنس فنحو قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قومِهِ إنا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾فإنه إنما قال: ﴿ليس بي ضلالة﴾ ولم يقل ليس بي ضلال كما قالوا لأن نفي الضلالة أبلغ من نفي الضلال عنه، كما لو قيل: ألك تمر؟ فقلت في الجواب: ما لي تمرة، وذلك أنفى للتمر، ولو قلت «ما لي تمرة» لما كان يؤدي من المعنى ما أداه القول الأول:

وفي هذا الموضع دقة تحتاج إلى فضل تمام، فينبغي لصاحب هذه الصناعة مراعاته والعناية به.

فإن قيل: لا فرق بين الضلالة والضلال، وكلاهما مصدر قولنا ضَلَّ يَضِلُّ ضَلَالاً وضَلَّ يَضِل ضَلَالَة، كما يقال: لَذَّ يَلَذ [لَذاذاً] ولَذَاذة.

فالجواب عن ذلك أن الضلالة تكون مصدراً كما قلت، وتكون عبارة عن المرة الواحدة، تقول: ضل يضل ضلالةً: أي مرة واحدة، كما تقول: ضرب يضرب ضَرْبَةً، وقام يقوم قَوْمَة، وأكل يأكل أكْلَة، والمراد بالضلالة في هذه الآية إنما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال؛ فقد نفي ما فوقها من المرتين والمرار الكثيرة.

وأما الصفتان الواردتان على شيء واحد فكقول الأشتر النخعي(١):

خَلَّفْتُ وَفْرِي وانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى ... وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسِ (٢)
إِنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى آبْنِ حَرْبٍ غَارَةً ... لَمْ تَخْلُ يَوْماً مِنْ نِهَابِ نُفُوسِ
خَيْلاً كَأَمْثَالِ السَّعَالِي شُزَّباً ... تَعْدُو بِبِيضٍ فِي الْكَرِيهَةِ شُوسِ (٣)
حَمِيَ الْحَدِيدُ عَلَيْهِمُو فَكَأَنَّهُ ... لَمَعَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ (٤)

ألا ترى أنه رقى في التشبيه من الأدنى إلى الأعلى فقال «لمعان برق أو شعاع شموس»؟ لأن لَمَعَانَ البرق دون شعاع الشموس.

---

(١) هو من شعر ديوان الحماسة، وانظر شرح التبريزي (١ ـ ١٤٣).

(٢) وقع في ب، ج «حلقت وفدي وانحرفت على العلى» وهو تصحيف شنيع، والذي في ديوان الحماسة:

* بَقَّيْتُ وَفْرِي وَآنْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى *

والوفر: المال، يدعو على نفسه بأن يموت ويترك ماله؛ والعبوس ـ بفتح العين ـ وصف من العبوس بضمها، وهو الكلوح عن غضب، ومن أقبح القبائح عند العرب أن يلقى أحدهم ضيفه عابساً؛ فهو يدعو على نفسه بأن يرتكب هذه المنقصة إن لم يفعل ما ذكره في البيت الثاني.

(٣) وقع في ب، ج «خيل كأمثال السعالى شرما» وهو تحريف، وتصحيحه عن ديوان الحماسة. والشزب ـ بضم الشين وتشديد الزاي مفتوحة ـ الضمر. والشوس: جمع أشوس، وهو الذي ينظر نظرة الغاضب المتكبر.

(٤) في الحماسة:

* وَمَضَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ *

ومما ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فإن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة، وعلى القياس المشار إليه أولاً فينبغي أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة لأنه إذا لم يغادر صغيرة فمن الأول ألاّ يغادر كبيرة، وأما إذا لم يغادر كبيرة فإنه يجوز أن يغادر صغيرة؛ لأنه إذا لم يَعْفُ عن الصغيرة فيقضي القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة، وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة، غير أن القرآن الكريم أحق أن يتبع، وأجدر بأن يقاس عليه، لا على غيره، والذي ورد فيه من هذه الآية ناقض لما تقدم ذكره.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ لأن التأفيف أدنى درجة، وقد تقدم قولي في أول هذا النوع أنه إذا جاءت صفتان يلزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يكتفي بذكرها دون الأخرى؛ لأن الأخرى تجيء ضمناً وتبعاً، وأن يبدأ بها في الذكر ثم تجيء الأخرى بعدها، وعلى هذا فيقال أولاً فلا تنهرهما ولاتقل لهما أف، لكن إذا لم يقل لهما أف آمتنع أن ينهرهما، وقد كان هذا هو المذهب عندي حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه، وحينئذ عُدْت عما كنت أراه وأقول به.

وأما الصفات المتعددة الواردة على شيء واحد فكقول أبي عُبادة البحتري في وصف نحول الرِّكاب[1]:

يَتَرَقْرَقْنَ كَالسَّرَابِ قَدْ خُضْـــنَ غِمَاراً مِنَ السَّرَابِ الْجَارِي
كَالْقِسِيِّ الْمُعَطَّفَاتِ بَلِ الأَسْـــهُم مَبْرِيَّةً بَلِ الأَوْتَارِ

ألا ترى أنه رقى في تشبيه نحولها من الأدنى إلى الأعلى؛ فشبهها أولاً بالقسيّ، ثم بالأسهم المبرية، وتلك أبلغ في النحول، ثم بالأوتار، وهي أبلغ في النحول من الأسهم، وكذلك ينبغي أن يكون الاستعمال في مثل هذا الباب.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد، وأولها قوله:

أَبُكَاءً فِي الدَّارِ بَعْدَ الدَّارِ وَسُلُوّاً بِزَيْنَبٍ عَنْ نَوَارِ

وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك، فمن جملتهم أبو الطيب المتنبي في قوله[١]:

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةُ يَا   لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلُ[٢]

وينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه، فأما قوله «يا بدر» فإنه اسم الممدوح، والابتداء به أولى، ثم بعده فيجب أن يقول: يا رجل، يا ليث، يا غمامة، يا بحر، يا حمام؛ لأن الليث أعظم من الرجل، والبحر أعظم من الغمامة، والحمام أعظم من البحر، وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة إلى منزلة حتى ينتهي إلى المنزلة العليا آخراً[٣]، ولو كان مقام ذم لعكس القضية.

وعلى مثله ورد قول أبي تمام يفتخر[٤]:

سَمَا بِيَ أَوْسٌ فِي الْفَخَارِ وَحَاتِمٌ   وَزَيْدُ الْقَنَا وَالأَثْرَمَانِ وَرَافِعُ[٥]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار وقد فصد لعلة، وأولها قوله:

أَبْعَدُ نَأْيِ الْمَلِيحَةِ الْبَخَلُ   فِي الْبُعْدِ مَا لاَ تُكَلَّفُ الإِبِلُ

(٢) يقول: يا بدر أنت في وجودك بحر وسحاب، وفي إقدامك وشجاعتك ليث، وفي تمكنك من قتل الأعداء موت، وقد جمعت كل هذه الصفات وأنت مع ذلك رجل. والشرى: مكان تنسب إليه الأسود. والحمام ـ بكسر الحاء المهملة ـ الموت.

(٣) لا نسلم للمؤلف هذا الاعتراض؛ لأن الذي ذكره إنما يتجه لو كان يشبهه بشيئين في شيء واحد؛ أما وهو يريد بكل واحد لا يتلاقى مع الباقي كما بيناه في شرح البيت فهو بالخيار في أن يقدم أيها شاء.

(٤) من قصيدة له يفتخر فيها ويصف قومه، وأولها قوله:

أَلاَ صَنَعَ الْبَيْنُ الَّذِي هُوَ صَانِعُ   فَإِنْ تَكُ مِجْزَاعاً فَمَا الْبَيْنُ جَازِعُ

وانظر الديوان (٤٧٧ بيروت):

(٥) رواية الديوان هكذا.

سَمَا بِيَ أَوْسٌ فِي السَّمَاحِ وَحَاتِمٌ   وَزَيْدُ الْقَنَا وَالأَثْرَمَانِ وَنَافِعُ

نُـجُـومٌ طَـوَالِـعٌ جِـبَـالٌ فَـوَارِعٌ غُـيُـوثٌ هَـوَامِـعٌ سُـيُـولٌ دَوَافِـعُ[١]

فإن السيول دون الغيوث، والجبال دون النجوم، ولو قدّم ما أخر لما اختل النظم[٢] بأن قال:

سيـول دوافع غيـوث هـوامـع جبـال فـوارع نجـوم طـوالـع

وهـذا عنـدي أشـد مـلامـة من المتنبي، لأن المتنبي لا يمكنـه تقـديم ألفـاظ بيتـه وتأخيرها، وأبو تمام متمكن من ذلك، ومـا أعلم كيف ذهب عليه هـذا الموضـع مع معرفته بالمعاني.

---

(١) وقع في الديوان «طواليع» و «هواميع» بزيادة ياء الإشباع، وبين البيتين بيت وهو قوله:

وَكَـانَ إِيَـاسٌ مَـا إِيَـابٌ، وَعَـارِفٌ وَحَـارِثَـةٌ أَوْفَـى الْـوَرَى وَالأَصَـابِـعُ

(٢) على رواية الديوان لا يستطيع التقديم بالصورة التي ذكرها المؤلف.

النوع التاسع

في التقديم والتأخير

وهذا باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة، منها ما استخرجته أنا، ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان، وسأورد ذلك مبيناً.

وهو ضربان: الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى.

فأما الضرب الأول فإنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما يكون التقديم فيه هو الأبلغ؛ والآخر يكون التأخير فيه هو الأبلغ.

فأما القسم الذي يكون التقديم فيه هو الأبلغ فكتقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل.

فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل، كقولك: زَيْداً ضَرَبْتُ، وضربت زيداً، فإن في قولك «زيداً ضربت» تخصيصاً به بالضرب دون غيره، وذلك بخلاف قولك «ضرب زيداً»؛ لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أيِّ مفعول شئت، بأن تقول: ضربت خالداً، أو بكراً، أو غيرهما، وإذا أخَّرته لزم الاختصاص للمفعول.

وكذلك تقديم خبر المبتدأ عليه، كقولك: زيد قائم، وقائم زيد؛ فقولك «قائم زيد» قد أثبتَّ له القيام دون غيره، وقولك «زيد قائم» أنت بالخيار في إثبات القيام له ونفيه عنه؛ بأن تقول: ضارب، أو جالس، أو غير ذلك.

وهكذا يجري الحكم في تقديم الظرف، كقولك: إن إليّ مصير هذا الأمر، وقولك: إنَّ مصير هذا الأمر إليّ؛ فإن تقديم الظرف دلَّ على أن مصير الأمر ليس

إلا إليك، وذلك بخلاف قولك: إن مصير هذا الأمر إليّ؛ إذ يحتمل إيقاع الكلام بعد الظرف على غيرك؛ فيقال: إلى زيد، أو عمرو، أو غيرهما.

وكذلك يجري الأمر في الحال والاستثناء.

وقال علماء البيان ـ ومنهم الزمخشري رحمه الله ـ: إن تقديم هذه الصورة المذكورة إنما هو للاختصاص، وليس كذلك، والذي عندي فيه أن يستعمل على وجهين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام، وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم، وإذا أخر المقدَّمُ ذهب ذلك الحسن، وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص.

فأما الأول الذي هو الاختصاص فنحو قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ.وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فإنه إنما قيل ﴿بل الله فاعبد﴾ ولم يقل «بل اعبد الله» لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره، ولو قال «بل اعبد» لجاز إيقاع الفعل على أي مفعول شاء.

وأما الوجه الثاني الذي يختص بنظم الكلام فنحو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أن التقديم في هذا الموضع قصد به الاختصاص، وليس كذلك؛ فإنه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص وإنما قدم لمكان نظم الكلام؛ لأنه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين.الرحمن الرحيم.مالك يوم الدين﴾ فجاء بعد ذلك قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وذاك لمراعاة حسن النظم السَّجْعِيِّ الذي هو على حرف النون، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن، وهذا غير خافٍ على أحد من الناس، فضلاً عن أرباب علم البيان.

وعلى نحو منه ورد قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ وتقدير الكلام فأوجس موسى في نفسه خيفة، وإنما قدم

المفعول على الفاعل وفَصَل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصداً لتحسين النظم، وعلى هذا فليس كل تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص؛ فبطل إذاً ما ذهب إليه الزمخشري وغيره.

ومما ورد من هذا الباب قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ فإن تقديم الجحيم على التَّصْلِية وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن ههنا للاختصاص، وإنما هو للفضيلة السجعية، ولا مِرَاءَ في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم.

فإن قيل: إنما قدمت الجحيم للاختصاص؛ لأنها نار عظيمة، ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها، كما يقال: ضربت زيداً، وزيداً ضربت، وقد تقدم الكلام على ذلك.

فالجواب عن ذلك أن آلدَّرْكَ الأسفل أعظم من الجحيم؛ فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم، على ما ذهب إليه؛ لأنه أعظم، وهذا لا يذهب إليه إلا مَنْ هو بِنَجْوَةٍ عن رموز الفصاحة والبلاغة، ولفظة الجحيم ههنا في هذه الآية أولى بالاستعمال من غيرها؛ لأنها جاءت ملائمة لنظم الكلام، ألا ترى أن من أسماء النار السعير ولظى وجهنم، ولو وضع بعض هذه الأسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن ما للجحيم، والمقصود بذكر الجحيم إنما هو النار: أي صَلُّوه النار، وهكذا يقال في ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ فإنه لم يقدم السلسلة على السُّلْكِ للاختصاص، وإنما قدمت لمكان نظم الكلام، ولا شك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، والكلام على هذا كالكلام على الذي قبله، وله في القرآن نظائر كثيرة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ فقوله: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام؛ فإنه قال: ﴿اللَّيْلُ نسلخ منه النهار﴾ ثم قال: ﴿والشمس تجري﴾ فاقتضى حسن النظم أن يقول: ﴿والقمر

قدرناه﴾ ليكون الجميع على نَسَقٍ واحد في النظم، ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة في الحسن، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعي.

وأما تقديم خبر المبتدأ عليه فقد تقدمت صورته، كقولك: زيد قائم، وقائم زيد؛ فمما ورد منه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه إنما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لأن في تقديم الخبر الذي هو مانعتهم على المبتدأ الذي هو حصونهم دليلاً على فرط اعتقادهم في حصانتها، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم، وفي تصويب ضميرهم اسماً لأنَّ وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عِزَّة وامتناع لا يبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض، وليس شيء من ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله.

ومن تقديم خبر المبتدأ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[1] فإنه إنما قدم خبر المبتدأ عليه في قوله: ﴿أراغب أنت﴾ ولم يقل أأنت راغب لأنه كان أَهَمَّ عندهم، وهو به شديد العناية، وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها، وهذا بخلاف ما لو قال أأنت راغب عن آلهتي.

ومن غامض هذاالموضع قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإنه إنما قال ذلك ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين: أحدهما تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها؛ أما الأول فلو قال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع شاخصة غيره، فيقول: حائرة، أو

(١) جمهور النحاة في هذه الآية على أن «أنت» فاعل براغب، وليس مبتدأ مؤخراً؛ لما يلزم على كونه مبتدأ من الفصل بين العامل الذي هو «راغب» والمعمول الذي هو «عن آلهتي» بأجنبي وهو «أنت»؛ فإنك تعلم أن الخبر غير عامل في المبتدإ على ما هو الراجح من أقوال النحاة. فإما أن يكون المؤلف جارياً في هذا على رأي أهل الكوفة الذين يرون أن المبتدأ والخبر ترافعاً؛ وإما أن يكون قصده إلى المبتدإ والخبر ولو بحسب المعنى.

مطموسة، أو غير ذلك، فلما قدم الضمير اختصَّ الشخوص بالأبصار دون غيرها، وأما الثاني فإنه لما أراد أن الشخوص خاصّ بهم دون غيرهم دلّ عليه بتقديم الضمير أوّلاً ثم بصاحبه ثانياً، كأنه قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم، ولولا أنه أراد هذين الأمرين المشار إليهما لقال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة؛ لأنه أخصر بحذف الضمير من الكلام.

ومن هذا النوع قول النبيّ ﷺ وقد سئل عن ماء البحر؛ فقال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ» وتقدير الكلام: هو الذي ماؤه طهور وميتته حلّ؛ لأن الألف واللام ههنا بمعنى الذي.

وأما تقديم الظرف، فإنه إذا كان الكلام مقصوداً به الإثبات فإن تقديمه أولى من تأخيره، وفائدته إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره، فإذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره، وكلا هذَيْن الأمرين له موضع يختص به.

فأما تقديمه في النفي فإنه يقصد به تفضيل المنفي عنه على غيره.

أما تأخيره فإنه يقصد به النفي أصلاً من غير تفضيل.

فأما الأول ـ وهو تقديم الظرف في الإثبات ـ فكقولك في الصورة المقدمة: إنَّ إليّ مصير هذا الأمر، ولو أخرت الظرف فقلت: إن مصير هذا الأمر إليّ؛ لم يُعْطِ من المعنى ما أعطاه الأول، وذلك أن الأول دلّ على أن مصير الأمر ليس إلا إليك، وذلك بخلاف الثاني؛ إذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف على غيرك؛ فيقال: إلى زيد، أو عمرو، أو غيرهما، وعلى نحو منه جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ.ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ فإنه إنما قدم الظرفين ههنا في قوله ﴿له الملك وله الحمد﴾ ليدلّ بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره.

وقد استعمل تقديم الظرف في القرآن كثيراً كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ.إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تنظر إلى ربها دون غيره، فتقديم الظرف ههنا ليس

للاختصاص[1]، وإنما هو كالذي أشرت إليه في تقديم المفعول، وأنه لم يقدم للاختصاص، وإنما قدم من أجل نظم الكلام، لأن قوله تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذ ناضرة.إلى ربها ناظرة﴾ أحسن من أن لو قيل: وجوه يومئذ ناضرة ناظرة إلى ربها، والفرق بين النظمين ظاهر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ.إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ فإن هذا روعي فيه حسن النظم، لا الاختصاص، في تقديم الظرف، وفي القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك، فمنها قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرّ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى ٱللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ و﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فإن هذه جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص، وإنما قدمت لمراعاة الحسن في نظم الكلام؛ فاعرف ذلك.

وأما الثاني ـ وهو تأخير الظرف وتقديمه في النفي ـ فنحو قوله تعالى: ﴿آلم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ فإنه إنما أخر الظرف في الأول لأن القصد في إيلاءِ حرفِ النفي الريبَ نفيُ الريبِ عنه، وإثبات أنه حق وصدق، لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أَوْلَاهُ الظرفَ لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾ فتأخير الظرف يقتضي النفي أصلاً من غير تفضيل، وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه، وهو خمر الجنة، على غيرها من خمور الدنيا: أي ليس فيها ما في غيرها من الْغَوْل، وهذا مثل قولنا: لا عيب في الدار، وقولنا: لا فيها عيب، فالأول نفي للعيب عن الدار فقط، والثاني تفضيل لها على غيرها: أي ليس فيها ما في غيرها من العيب، فاعرف ذلك فإنه من دقائق هذا الباب.

وأما تقديم الحال فكقولك: جاء راكباً زيد، وهذا بخلاف قولك: جاء زيد راكباً؛ إذ يحتمل أن يكون ضاحكاً أو ماشياً أو غير ذلك.

---

(١) كيف وقد فسر المعنى بقوله «أي تنظر إلى ربها دون غيره» فالأحسن أنه مع إفادته الاختصاص قدم للغرض اللفظي الذي أشار إليه.

وأما الاستثناء فجارٍ هذا المجرى، نحو قولك: ما قام إلا زيداً أحد، أو ما قام أحد إلا زيداً، والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق.

وأما القسم الثاني فهو أن يقدم ما الأَوْلَى به التأخير لأن المعنى يختل بذلك ويضطرب، وهذا هو المعاظلة المعنوية، وقد قدمنا القول في المقالة الأولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين: أحدهما لفظي، والآخر معنوي، أما اللفظي فذكرناه في بابه، وأما المعنوي فهذا بابه وموضعه، وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف، وتقديم الصلة على الموصول، وغير ذلك مما يرد بيانه.

فمن هذا القسم قول بعضهم:

فَقَدْ وَالشك بين لي عناء بِوَشْكِ فِراقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فإنه قدم قوله «بوشك فراقهم» وهو معمول «يصيح» و«يصيح» صفة لصرد على صرد، وذلك قبيح؛ ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال: هذا مِنْ موضع كذا رَجُلٌ وَرَدَ اليوم، وإنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل؛ فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها.

ومن هذا النحول قول الآخر:

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْراً رُسُومَهَا قَلَمَا

فإنه قدم خبر كأنَّ عليها وهو قوله «خطَّ»؛ وهذا وأمثاله مما لا يجوز قياس عليه، والأصل في هذا البيت: فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قَلَماً خطَّ رُسُومَهَا، إلا أنه على تلك الحالة الأولى في الشعر مختل مضطرب.

والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح، وهذا البيت المشار إليه من أقبحها؛ لأن معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضاً.

ومما جري هذا المجرى قول الفرزدق:

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

وهو يريد: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب، وهذا أقبح من الأول، وأكثر اختلالاً.

وكذلك جاء قوله أيضاً:

وَلَيْسَتْ خُرَاسَان الَّتِي كَانَ خَالِدٌ بِهَا إِذْ كَانَ سَيْفاً أَمِيرُهَا

وحديث هذا البيت ظريف، وذاك أنه، فيما ذكر، يمدح خالد بن عبد الله الْقَسْرِيَّ، ويهجو أسداً، وكان أسد وليها بعد خالد، وكأنه قال: وليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها، وعلى هذا التقدير ففي «كان» الثانية ضمير الشأن والحديث، والجملة بعدها خبر عنها، وقد قدم بعض ما إذْ مضافة إليه وهو «أسد» عليها، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح ما لا خفاء به، وأيضاً فإن أسداً أحد جزأي الجملة المفسرة للضمير، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول.

وعلى هذا النحو ورد قول الفرزدق أيضاً:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

ومعنى هذا البيت: وما مثله في الناس حَيٌّ يقاربه إلا ممَّلكاً أبو أمه أبوه، وعَلى هذا المثالُ المصوغُ في الشعر قد جاء مشوَّهاً كما تراه.

وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيراً، كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده؛ لأن مثله لا يجيء ألا متكلِّفاً مقصوداً، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نَفْسَهُ تجري على سجيتها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا الضرب المشار إليه؛ إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما.

واعلم أن هـذا الضرب من الكـلام هـو ضـد الفصـاحـة؛ لأن الفصـاحـة هي الظهور والبيان، وهذا عارٍ عن هذا الوصف.

أمـا الضرب الثـاني الذي يختص بـدرجة التقـدم في الذكـر لاختصاصـه بمـا يوجب له ذلك فإنه مما لا يَحْصُـره حَدّ، ولا ينتهي إليـه شرح، وقـد أشرنـا إلى نبذة منه في هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها.

فمن ذلـك تقديم السبب على المسبب، كقـوله تعـالى: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه إنما قدّم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القُـرْبة والـوَسِيلة قبل طلب الحاجة أنْجَحُ لحصول الطلب، وأسرع لـوقوع الإجـابة ولـو قال إيـاك نستعين وإياك نعبد لكان جائزاً إلا أنه لا يسدُّ ذلك المسدَّ، ولا يقع ذلك المـوقع، وهـذا لا يخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة، وعلى نحو منه جـاء قولـه تعالى: ﴿وَأَنْـزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتـاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّـا خَلَقْنَا أَنْعَـاماً وَأَنَـاسِيَّ كَثِيراً﴾ فقدّم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس، وإن كـانوا أشـرف محلاً؛ لأن حياة الأرض هي سبب لحياة الأنعام والناس، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمـة في الذكر، ولمـا كانت الأنعـام من أسباب التعيش والحيـاة للناس قـدمها في الـذكر على النـاس؛ لأن حياة النـاس بحيـاة أرضهم وأنعـامهم، فقـدم سقي مـا هـو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم.

ومن هذا الضرب تقديم الأكثر على الأقل، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّـذِينَ اصْـطَفَيْنَـا مِنْ عِبَـادِنَـا فَمِنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَـابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثـرته، وأن معـظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصـدين لأنهم قليل بـالإضافـة إليه، ثم أتى بـالسابقين وهم أقـل من القليل أعني من المقتصدين؛ فقدم الأكثر، وبعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخراً، ولو عكست القضيـة المعنى أيضاً واقعـاً في موقعـه؛ لأنـه يكـون قـد روعي فيـه تقـديم الأفضل فالأفضل.

ولنوضح لك في هذا وأمثاله طريقاً تقتفيه، فنقول: اعلم أنـه إذا كان الشيئـان كل واحد منهما مختصاً بصفة فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر، كهـذه

الآية؛ فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة، فَقِسْ على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله.

ومن هذا الجنس قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وِمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ فإنه إنما قدم الماشي على بطنه لأنه أدل على القدرة من الماشي على رجلين؛ إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي، ثم ذكر الماشي على رجلين وقَدَّمَهُ على الماشي على أربع؛ لأنه أدل على القدرة أيضاً حيث كثرت آلات المشي في الأربع، وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب.

فإن قيل: قد ورد في القرآن الكريم في مواضع منه ما يخالف هذا الذي ذكرته، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ.يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ.فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ فقدم أهل النار في الذكر على أهل الجنة، وهذا مخالف للأصل الذي أصلته في هذا الموضع.

فالجواب عن ذلك أن هذا الذي أشرت إليه في سورة هود وما أشبهه له أسرار تحتاج ألى فضل تأمل وإمعان نظر، حتى تفهم: أما هذا الموضع فإنه لما كان الكلام مسوقاً في ذكر التخويف والتحذير، وجاء على عقب قصص الأولين وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير؛ كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى، وهو ذكر أهل النار؛ فمن أجل ذلك قدموا في الذكر على أهل الجنة، وإذا رأيت في القرآن شيئاً من هذا القبيل وما يجري مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين لك مكان الصواب منه.

واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسباً لمطلع الكلام، فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت؛ لأنك إن قدمت الأفضل فهو في موضعه من التقديم، وإن قدمت المفضول فلأن مطلع الكلام يناسبه، وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضاً وارد في موضعه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ.لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ.أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فإنه إنما قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه للرحمة السابقة عنده، ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد، فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتي هُنَّ من جملة ما لا يشاؤه الإنسان ولا يختاره أهَمَّ، والأهم واجب التقديم، ولِيَلِيَ الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء، ولما أخر ذكر الذكور، وهم أحقاء بالتقديم، تدارك ذلك بتعريفه إياهم؛ لأن التعريف تنويه بالذكر، كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفَوْنَ عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهنَّ، ولكن لمقتض آخر، فقال (ذكرانا وإناثاً) وهذه دقائق لطيفة قَلَّ من يتنبه لها أو يعثر على رموزها.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فإنه إنما قدم الأرض في الذكر على السماء، ومن حقها التأخير، لأنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله: ﴿وما يعزب﴾ لاءم بينهما؛ ليلي المعنى المعنى.

فإن قيل: قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن.

قلنا: إذا جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه، وإن خفي ذلك السبب، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض.

النوع العاشر

في الحروف العاطفة والجارّة

وهذا موضع لطيف المؤخذ، دقيق المَغْزَى، وما رأيت أحداً من علماء هذه الصناعة تعرَّض إليه، ولا ذكره، وما أقول إنهم لم يعرفوه؛ فإن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى؛ لأنه مذكور في كتب العربية جميعها، ولست أعني بإيراده ههنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تُتْبع [المعطوف] المعطوف عليه في الإعراب، ولا أن الحروف الجارة تجرّ ما تدخل عليه، بل أمْراً وراء ذلك، وإن كان المرجع فيه الى الأصل النحوي، فأقول:

إن أكثر الناس يَضَعُون هذه الحروف في غير مواضعها؛ فيجعلون ما ينبغي أن يجرّ بعلى بفي في حروف الجرّ، وفي هذه الأشياء دقائق أذكرها لك.

أما حروف العطف فنحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ.وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ.وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع، وتقديم الإطعام على الإسقاء والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم، ثم عطف الثاني بالفاء؛ لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خالٍ من أحدهما، ثم عطف الثالث بثم؛ لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان، ولهذا جيء في عطفه بثم التي هي للتراخي، ولو قال قائل في موضع هذه الآية الذي يطعمني ويسقين ويمرضني ويشفين ويميتني ويحيين لكان للكلام معنى تام إلا أنه لا يكون كمعنى الآية؛ إذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه.

ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ.مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ.ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ.ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ.ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ ألا ترى أنه لما قال: ﴿من نطفة خلقه﴾ كيف قال: ﴿فقدّره﴾ ولم يقل ثم قدّره؛ لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة وملازماً لها عطفه عليها بالفاء، وذلك بخلاف قوله:

﴿ثم السبيل يَسَّرَه﴾؛ لأن بين خلقته وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزماناً؛ فلذلك عطفه بثم، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره﴾؛ لأن بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخياً وفُسْحَة، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً، ولذلك عطفهما بثم، ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخٍ ولا مهلة عطفه بالفاء، وهذا موضع من علم البيان شريف، وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغي.

ومما جاء من ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة مريم وعيسى عليهما السلام: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً﴾ وفي هذه الآية دليل على أنه حملها به ووضعها إياه كانا متقاربين؛ لأنه عطف الحمل والانتباذ إلى المكان الذي مضت إليه والمخاض الذي هو الطَّلْق بالفاء، وهي للفور، ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التي هي للتراخي والمهلة، ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ ما أكفره. من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدّره. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ فلما كان بين تقديره في البطن وإخراجه منه مُدَّةٌ مُتَرَاخية عطف ذلك بثم، وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام، فإنها عطفت بالفاء، وقد اختلف الناس في مدة حملها؛ فقيل: إنه كان كَحَمْل غيرها من النساء، وقيل: لا، بل كان مدة ثلاثة أيام، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، وهذه الآية مُزِيلة للخلاف؛ لأنها دلت صريحاً على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة، وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل؛ أخذاً بما دلت عليه الآية.

ومما ورد من هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ففي الآية المتقدم ذكرها قال: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ فعطف التقدير على الخلق بالفاء؛ لأنه تابع له، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق، وفي هذه الآية ذكر تفاصيل حاله في تنقله، فبدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو

خلق النسل عطفه بثم؛ لما بينهما التراخي، وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى ـ وهو آخر الخلق ـ عطفه بثم.

فإن قيل: إنه قد عطف المضغة على العلقة في هذه الآية بالفاء، وفي أخرى بثم، وهي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾.

فالجواب عن ذلك(١).

واعلم أن في حروف العطف موضعاً تلتبس [فيه] الفاء بالواو، وهو موضع يحتاج فيه إلى فضل تأمل، وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه إلا بالفاء، دون الواو، وقد يجيء من الأفعال ما يلتبس بفعل المطاوعة، ويعطي ظاهره أنه كذلك إلا أن معناه يكون مخالفاً لمعنى فعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو؛ لا بالفاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فقوله: ﴿أغفلنا قلبه﴾ ههنا بمعنى صادفناه غافلاً، وليس منقولاً عن غَفَل حتى يكون معناه صَدَدْناه؛ لأنه لو كان كذلك لكان معطوفاً عليه بالفاء، وقيل: فاتبع هواه، وذلك أنه يكون مطاوعاً، وفعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء، كقولك: أعطيته فأخذ أو دعوته فأجاب، ولا تقول: أعطيته وأخذ، ولا دعوته وأجاب، كما لا يقال: كسرته وانكسر. وكذلك لو كان معنى أغفلنا في الآية صددنا ومنعنا لكان معطوفاً عليه بالفاء، وكان يقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه، فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه

---

(١) سقط هذا الجواب من جميع أصول الكتاب التي بين أيدينا. ونريد أن ننبهك إلى شيء، وهو أن الزمن الذي تصير فيه النطفة علقة طويل، ولكن الحالتين متصلتان، فأحياناً ينظر إلى طول الزمان فيعطف بثم، وأحياناً ينظر إلى اتصال الحالين ثانيهما بأولهما من أن غير أن يفصل بينهما بغيرهما فيعطف بالفاء، ومثل هذا «تزوج محمد فولد له»؛ وشيء آخر، وهو أن صيرورة التراب نطفة أمر مستبعد في ظاهر الحال، ومثل ذلك صيرورة النطفة علقة؛ لاختلاف إحداهما عن الأخرى اختلافاً ظاهراً، ولكن صيرورة العلقة مضغة لا غرابة فيه لتقاربهما؛ فلهذا الوجه عطف في الآية الأولى في الحالين الأولين بثم، وعطف فيما بعدهما بالفاء وفي الآية الثانية لوحظت أطوار الخلق وتباعد الأوقات بين كل طورين.

بالواو؛ فطريقة أنه لما قال: ﴿أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾ أن يكون معناه وجدناه غافلاً؛ فقد غفل لا محالة؛ فكأنه قال: ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه: أي لا تطع من فعل كذا وكذا، يُعَدِّدُ أفعاله التي توجب ترك طاعته، فاعرف ذلك.

وأما حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها في مواضعها، وقد علم أن «في» للوعاء، و«على» للاستعلاء، كقولهم: زيد في الدار، وعمرو على الفرس، لكن إذا أريد استعمال ذلك في غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى.

فمما ورد منه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر ههنا؛ فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جوادٍ يَرْكُض به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه مُنْغَمِس في ظلام مُنْخَفض فيه لا يدري أين يتوجه، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله في الكلام، وكثيرا ما سمعت إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور؛ فيقول له: أنت على ضلالك القديم كما أعهدك، فيأتي بعلى في موضع في، وإن كان هذا جائزاً، إلا أنّ استعمال «في» ههنا أولى؛ لما أشرنا إليه، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فإنه إنما عدل عن اللام إلى «في» في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام؛ لأن «في» للوعاء، فنبه على أنهم أحِقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء، وأن يُجْعلوا مَظِنة لها، وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخلص، وتكرير «في» في قوله: ﴿وفي سبيل

الله﴾ دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين، وسياق الكلام أن يقال: وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل، فلما جيء بفي ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه، وهذه لطائف ودقائق لا توجد إلا في هذا الكلام الشريف، فاعرفها وقس عليها.

النوع الحادي عشر

في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية

والفرق بينهما

ولم أذكر هذا الموضع لأن يجري الأمر فيه على ما يجري مجراه فقط، بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه، ولو كان شَبَهاً بعيداً.

وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب التأكيد والمبالغة.

فمن ذلك قولنا: قَامَ زَيْدٌ وَإِنَّ زَيْداً قائم، فقولنا «قام زيد» معناه الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا «إن زيداً قائم» معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً، إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول، وهي توكيده بإنَّ المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، وإذا زيد في خبرها اللام فقيل: إنَّ زَيداً لقائم؛ كان ذلك أكثر توكيداً في الإخبار بقيامه، وهذا مثال ينبني عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع.

فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنَّ المشددة لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صِدْقٍ ورغبةٍ ووُفور نشاطٍ، فكان ذلك مُتقبَّلاً منهم، ورائجاً عند إخوانهم؛ وأما الذي خاطبوا به المؤمنين، فإنما قالوا تكَلفاً وإظهاراً للإيمان خوفاً ومُدَاجاة، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة؛ فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين ﴿آمنا﴾ وفي خطاب إخوانهم ﴿إنا معكم﴾ وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة.

ومما يجري هذا المجرى ورود لام التوكيد في الكلام، ولا يَجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة، وفائدته أنه إذا عبر عن أمر يَعِزُّ وجوده أو فعل يكثر وقوعه جيء باللام تحقيقاً لذلك.

فمما جاء منه قوله تعالى في أول سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة في خبر إنّ، والأولى وردت في قول المنافقين، وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبي ﷺ، وتملّقوا، وبالغوا في التملق، وفي باطنهم خلافه، وأما ما ورد في الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه، واللام في الثانية لتصديق رسالته، وفي الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه.

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا يأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ.أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ ويَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فإنه إنما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد في إظهار المحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه؛ ليبلغوا الغرض من أبيهم في السماحة بإرساله معهم.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ.أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ.لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ.أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ.لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ألا ترى كيف أدخلت اللام في آية المطعوم دون آية المشروب! وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حُطَاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سَخَطٍ من الله شديد، فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقريره إيجاده.

ومما يتصل بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ فاللام في ﴿لنحن﴾ هي اللام المشار إليها.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي آرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ فإن هذه اللام في قوله: ﴿ليستخلفنهم﴾ و﴿ليمكنن﴾ و﴿ليبدلنهم﴾ إنما جاءت لتحقيق الأمر وإثباته في نفوس المؤمنين وأنه كائن لا محالة.

ومما يجري هذا المجرى في التوكيد لام الابتداء المحققة لما يأتي بعدها، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوالَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ فاللام في ﴿ليوسف﴾ لام الابتداء، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها: أي أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لامراء فيه.

ومن هذا النوع قول بعضهم:

وَالشَّيْبُ إنْ يَظْهَرْ فَإِنَّ وَرَاءَهُ عُمُراً يَكُونُ خِلاَلَهُ مُتَنَفَّسُ
لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّي المَشِيبُ قُلاَمَةً وَلَمَا بَقَى مِنّي ألَبُّ وأكْيَسُ

فقوله «ولما بقى مني» تقديره وما بقي مني، وإنما أدخل على «ما» هذه اللام قصداً لتأكيد المعنى؛ لأنه موضع يحتاج ألى التأكيد، ألا ترى أن قوّة العمر في الشباب، ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب، وليس مما يوصف وإنما يذم، أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة.

وكذلك ورد قول الشاعر من أبيات الحماسة(١):

إنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلِ قَوْمِنَا وَنُقِيمُ سَالِفَةَ الْعَدُوِّ الأَصْيَدِ(٢)

(١) البيتان لمضرس بن ربعي من أبيات رواها له أبو تمام في ديوان الحماسة، وانظر شرح التبريزي (٣ ـ ١٧٤).

(٢) السالفة: صفحة العنق، والأصيد: المتكبر، وصف من الصيد ـ بفتح الصاد والياء ـ وهو ميل في العنق من الكبر.

وَمَتَى نَجِدْ يَوْماً فَسَادَ عَشِيرَةٍ نُصْلِحْ وَإِنْ نَرَ صَالِحاً لَا نُفْسِدِ[1]

وهذا كثير سائغ في الكلام، إلا أنه لا يتأتى لمكان العناية بما يعبر به عنه، ألا ترى إلى قول الشاعر: «إنا لنصفح عن مجاهل قومنا» فإنه لما كان الصفح مما يشقُّ على النفس فعله؛ لأنه مقابلة الشر بالخير والإساءة بالإحسان؛ أكَّده باللام، تحقيقاً له. فإن عرى الموضع الذي يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار إليها وما يجري مجراه، فإنّ ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه.

وأكثر ما تستعمل هذه اللام في جواب القسم لتحقيق الأمر المُقْسَم عليه، وذلك في الإيجاب، دون النفي؛ لأنها لا تستعمل في النفي، ألا ترى أنه لا يقال: والله لَلَاقُمْت، وإنما يقال: والله لا قمت، لكن في الإيجاب تستعمل، ويكون استعمالها حَسَناً، كقولك: والله لأقوم، فإن أضيف[2] إليها النونان الخفيفة والثقيلة كان ذلك أبلغ في التأكيد كقولك: والله لأَقُومَنَّ، وعلى ذلك وردت الآية المتقدم ذكرها، وهي قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾؛ وإن لم يكن جواباً لقسم فالنون الواردة بعد اللام زيادة في التأكيد، وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر.

وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب، فإذا استعملت في موضع فإنما يقصد بها التأكيد.

فمما جاء منها قول البحتري في معاتبة الفتح بن خاقان[3]:

---

(١) رواية الحماسة «ومتى نخف».

(٢) النون واجبة في كل مضارع مثبت يقع جواباً لقسم؛ إذا اتصل به اللام؛ فما يفيده ظاهر عبارة المؤلف من جواز اقترانه بالنون وتركه غير مقصود.

(٣) الأبيات من قصيدة له مروية في ديوانه على أنه يمدح فيها المتوكل على الله، وأولها قوله:

شَوْقٌ إِلَيْكَ تَفِيضُ مِنْهُ الأَدْمُعُ وَجَوًى عَلَيْكَ تَضِيقُ عَنْهُ الأَضْلُعُ

وفي القصيدة نفسها ما يؤكد أن الممدوح بها هو المتوكل، انظر إلى قوله فيها:

شَرَفاً بَنِي الْعَبَّاسِ؛ إِنَّ أَبَاكُمُ عَمُّ النَّبِيِّ وَعِيصُهُ الْمُتَفَرِّعُ

إِنَّ الْفَضِيلَةَ لِلَّذِي اسْتَسْقَى بِهِ عُمَرٌ وَشُفِّعَ إِذْ غَدَا يَسْتَشْفِعُ =

هَـلْ يَـجْلُبَنَّ إِلَيَّ عَـطْفَـكَ مَـوْقِفٌ ثَبِتٌ لَـدَيْـكَ أَقُـولُ فِيـهِ وَتَسْمَـعُ[١]
مَـا زَالَ لِي مِنْ حُسْنِ رَأْيِـكَ مَـوْئِـلٌ آوِي إِلَيْـهِ مِنَ الْـخُـطُوبِ وَمَـفْـزَعُ
فَـعَـلَامَ أَنْكَـرْتَ الـصَّـدِيقَ وَأَقْبَلَتْ نَحْـوِي جَنَابَ الْكَـاشِحِينَ تَـطَلَّعُ[٢]
وَأَقَـامَ يَـطْمَـعُ فِي تَهَضُّمِ جَـانِبِي مَنْ لَمْ يَكُنْ مِـنْ قَبْـلُ فِيـهِ يَـطْمَـعُ
إِلَّا يَـكُـنْ ذَنْـبٌ فَـعَـدْلُـكَ وَاسِـعٌ أَوْ كَـانَ لِـي ذَنْـبٌ فَـعَـفْـوُكَ أَوْسَـعُ

وهـذه أبيات حسنـة مليحة في بـابها، يمحى بهـا حَـرّ الصدود، ويستمـال بها صَعَـر الخدود، وإنما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها، والبيت الأول هو المراد، ألا ترى أنه قال: «هل يجْلُبَنَّ ألى عطفك موقف»[١] فالنون جاءت قصداً للتأكيـد، وهو في هـذا المقام متمَنٍّ، فأحبَّ أن يؤكد هذه الأمنية، وكل مـا يجيء من هذا البـاب فإنـه واقع هذا الموقـع، وإذا استعمل عَبَثـاً لغير فـائدة تقتضيـه فإنـه لا يكون استعمـاله إلا من جاهل بالأسرار المعنوية، وأما ما يمثل به النحاة من قول القائل: والله لأقومَنَّ، فإنـه مثال نحويّ يضرب للجواز، وإلا فإذا قال القائل: والله لأقـومنَّ، وأكده، كـان ذلك لغواً، لأنه ليس في قيـامه من الأمـر العزيـز ولا من الأمر العسيـر ما يحتـاج معه إلى التأكيد، بل لو قال: والله لأ قـومنّ إليـك، مهدِّداً لـه، لكان ذلـك واقعاً في مـوقعه، فافهم هذا وقس عليه.

= وَأَرَى الْـخِـلَافَـةَ وَهْـيَ أَعْـظَمُ رُتْـبَـةً حَـقّـاً لَـكُـمْ وَوِرَاثَـةً مَـا تُـنْـزَعُ

وفيها قوله:

يـاأَيُّـهَـا الـمَلِكُ الَّـذِي سَقَـتِ الْـوَرَى مِـنْ رَاحَـتَـيْـهِ غَـمَـامَـةٌ مـا تُـقْـلِعُ

(١) وقع في ب، ج في أول هذا البيت «هل تحلين» والتصحيح عن الديوان.

(٢) في الديوان «نحو ركاب الكاشحين تطلع».

النوع الثاني عشر

في قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب «الخصائص»، إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا، ولا نبَّه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته، وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه، فأقول:

اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بدّ من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أوّلاً؛ لأن الألفاظ أدِلّة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه، لبيانه، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة.

فمن ذلك قولهم: خشن واخْشَوْشَنَ، فمعنى خشن دون معنى اخْشَوْشَنَ؛ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فَعلَ وافْعَوْعَل، وكذلك قولهم: أَعْشَبَ المكان، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا: اعْشَوْشَبَ.

ومما ينتظم بهذا السلك قَدَرَ واقْتَدَر، فمعنى اقتدر أقوى من معنى قَدَر قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ فمقتدر ههنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يَصْدر إلا عن قوّة الغضب، أو للدلالة على بَسْطة القدرة، فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر، وذاك أن مقتدراً اسم فاعل من اقتدر، وقادر اسم فاعل من قَدَر، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل.

على هذا ورد قول أبي نواس:

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوَ مُقْتَدِرٍ حلَّتْ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْفَاهَا

أي: عفوت عني عفو قادر متمكن القدرة لا يردّه شيء عن إمضاء قدرته؛ وأمثال هذا كثيرة.

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ فإن غفاراً أبلغ في المغفرة من غافر، لأن فعَّالاً يدل على كثرة صدور الفعل، وفاعلاً لا يدلّ على الكثرة.

عليه ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فالتَّوَّاب هو الذي تتكرر منه التوبة مرّة على مرّة، وهو فعَّال، وذلك أبلغ من التائب الذي هو فاعل، فالتائب اسم فاعل من تَابَ يَتُوب فهو تائب: أي صدرت منه التوبة مرة واحدة؛ فإذا قيل: تَوَّابٌ؛ كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة.

وهذا وما يجري مجراه إنما يعمد إليه لضرب من التوكيد، ولا يوجد ذلك إلا فيما معنى الفعلية؛ كاسم الفاعل والمفعول، وكالفعل نفسه، نحو قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ فإنّ معنى كُبْكِبوا من الكَبّ، وهو القلب، إلا أنه مكرّر المعنى، وإنما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب؛ لأنه موضع يقتضي ذلك.

ولربما نظر بعض الجهال في هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال: إنها زيادة، ولكنها زيادة نقص، لأنه يزاد في اللفظ حرف، كقولهم في الثلاثي في رجل: رُجَيْل، وفي الرباعي في قنديل: قُنَيْدِيل، فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين، وهذا ليس من الباب الذي نحن بصدد ذكره؛ لأنه عارٍ عن معنى الفعلية، والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني، الا إذا تضمَّنتْ معنى الفعلية، لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها، ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عَذْب، وهي ثلاثية، الى الرباعي فقلنا: عَذْيَب، على وزن جعفر؛ لاستحال معناها، ولم يكن لها معنى، وكذلك لو نقلنا لفظة عَسْجَد، وهي رباعية، الى الخماسي فقلنا: عَسْجَدِد، على وزن جَحْمَرِش؛ لاستحال معناها، وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية؛ كقادر ومقتدر؛ فإن قادراً اسم فاعل قَدَر، وهو ثلاثي، ومقتدراً اسم فاعل اقتدر، وهو رباعي؛ فلذلك كان معنى القدرة في اقتدر أشد من معنى القدرة في قدر، وهذا لا نزاع فيه.

وهذا الباب بجملته لا يقصد به إلا المبالغة في إيراد المعاني، وقد يستعمل

في مقام المبالغة فينعكس المعنى فيه إلى ضده، كما جاء لأبي كَرَّامٍ [١] التميمي من شعراء الحماسة وهو قوله[٢]:

لِلهِ تَيْمٌ أيُّ رُمْحٍ طِرَادِ لاَقَى الْحِمَامَ وَأيُّ نَصْلِ جِلاَدِ[٣]

وَمِحَشُّ حَرْبٍ قُدِمٍ مُتَعَرِّضٍ لِلْمَوْتِ غَيْرِ مُكَذِّبٍ حَيَّادِ[٤]

فلفظة «حَيَّاد» قد وردت ههنا: وإنما أوردها هذا الشاعر وقصد بها المبالغة في وصف شجاعة هذا الرجل فانعكس عليه المقصد الذي قصده، لأن حياداً من حَيَّد فهو حَيَّاد: أي وجد منه الْحَيْدُودة مراراً، كما يقال: قَتَّل فهو قَتَّال: أي وجد منه القتل مراراً، وإذا كان هذا الرجل غير حَيَّاد كان حائداً: أي وجدت منه الحيدودة مرة واحدة، وإذا وجدت منه مرة كان ذلك جبناً، ولم يكن شجاعة، والأولى أن كان قال: غير مكذب حائد.

وينبغي أن يعلم أنه إذا وردت لفظة من الألفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذي هو طريق المبالغة وحملها على غيره أن يُنْظَر فيها؛ فإن اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه.

فمن ذلك قول البحتري في قصيدته التي مطلعها:

---

(١) ويقال: هو أبو كدام، بالدال، بزنة كتاب.

(٢) رواهما أبو تمام في الحماسة في باب الرثاء، وانظر شرح التبريزي (٢ - ٢١٣).

(٣) تيم: رجل من بني يشكر، وكان قد بارز أبا كرام، فقتله، فأخذ يفخم شأنه لأنه إذا أثنى عليه بالشجاعة والإقدام كان ذلك أعظم فخراً له.

(٤) محش الحرب: موقدها ومثيرها، وفي الحماسة «غير معرد» والتعريد: ترك القصد وسرعة الانهزام، ومنه قول الشاعر:

ظَنَنْتُكَ إنْ شُبَّتْ لَظَى الْحَرْبِ صَالِياً فَعَرَّدْتَ فِيمَنْ كَانَ عَنْهَا مُعَرِّدَا

ووقع هنا في ب، ج «جياد» بالجيم، وهو تصحيف، وصوابه «حياد» بالحاء المهملة من حاد يحيد، إذا مال ونكص، ووقع على الصواب في الحماسة.

* مُنَى النَّفْسِ فِي أَسْمَاءَ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا[1] *

وهي قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله، وذكر فيها حديث الصلح بين بني تغلب؛ فمما جاء فيها قوله:

رَفَعْتَ بِضَبْعَيْ تَغْلِب ٱبْنَةِ وَائِلٍ ... وَقَدْ يَئِسَتْ أَنْ يَسْتَقِلَّ صَرِيعُهَا
فَكُنْتَ أَمِينَ اللهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا ... وَمَوْلَاكَ فَتْحٌ يَوْمَ ذَاكَ شَفِيعُهَا
تَأَلَّفْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا شَرَّدَتْ بِهِمْ ... حَفَائِظُ أَخْلَاقٍ بَطِيءٍ رُجُوعُهَا
فَأَبْصَرَ غَاوِيهَا المَحَجَّةَ فَاهْتَدَى ... وَأَقْصَرَ غَالِيهَا وَدَانَى شَسُوعُهَا

فقوله «تألفتهم من بعد ما شردت بهم» يجوز أن تخفف لفظة «شردت» ويجوز أن تثقل، والتثقيل هو الوجه؛ لأنه في مقام الإصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا، وتباينت قلوبهم وآراؤهم، وكل ما يجيء من الألفاظ على هذا النحو فينبغي أن يجري هذا المجرى.

وههنا نكتة لا بد من التنبيه عليها، وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها، كنقل الثلاثي إلى الرباعي، وإلا فإذا كانت صيغة الرباعي مثلاً موضوعة لمعنى فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثي ألى مثل تلك الصيغة، ألا ترى أنه إذا قيل في الثلاثي قَتَل ثم نقل إلى الرباعي فقيل قَتَّل ـ بتشديد التاء ـ فإن الفائدة من هذا النقل هي التكثير: أي أن القتل وجد منه كثيراً، وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ فإن كلّم على وزن قَتَّل، ولم يرد به التكثير، بل أريد به أنه خاطبه، سواء كان خطابه إياه طويلاً أو قصيراً، قليلاً أو كثيراً، وهذه اللفظة رباعية، وليس لها ثلاثي نقلت عنه إلى الرباعي، لكن قد وردت بعينها ولها ثلاثي ورباعي فكان الرباعي أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى؛ وذاك

---

(١) هذا صدر البيت، وعجزه قوله:

* بِهَا وَجْدُهَا مِنْ غَادَةٍ وَوَلُوعُهَا *

أن تكون كَلَّمَ من الجرح :أي جَرَّحَ ، ولها ثلاثي وهو كَلَمَ مخففاً : أي جَرَح ؛ فإذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة ، وإذا وردت مثقلة دلت على التكثير.

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فإن لفظة «رتَّل» على وزن لفظة قَتَّل ، ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة ، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأني والتدبر ، وسبب ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى رباعي ، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة ؛ وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلا بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه ، فاعرف ذلك.

ومن ههنا شذ الصواب عمن شذ عنه في عالم وعليم ؛ فإن جمهور علماء العربية يذهبون إلى أن عليماً أبلغ في معنى العلم من عالم ، وقد تأمَّلْت ذلك وأنعمت نظري فيه ، فحصل عندي شك في الذي ذهبوا إليه ، والذي أوجب ذلك الشك هو أنّ عالماً وعليماً على عدة واحدة ؛ إذ كل منهما أربعة أحرف ، وليس بينهما زيادة ينقل فيها الأدنى إلى الأعلى ، والذي يوجبه النظر أن يكون الأمر على عكس ما ذكروه ، وذاك أن يكون عالم أبلغ من عليم ، وسببه أن عالماً اسم فاعل من علم ،وهو متعد ،وأن عليماً اسم فاعل من علم ، إلا أنه أشبه وزن الفعل القاصر ، نحو شَرُف فهو شريف ، وكَرُمَ فهو كريم ، وعَظُم فهو عظيم ؛ فهذا الوزن لا يكون إلا في الفعل القاصر ؛ فلما أشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذي هو متعد ؛ ألا ترى أن فَعِل - بفتح الفاء وكسر العين - يكون متعدياً نحو عَلِمَ وحَمِد ، ويكون قاصراً غير متعد نحو غَضِب وشَبع ، وأما فَعُل - بفتح الفاء وضم العين - فإنه لا يكون إلا قاصراً غير متعد ، ولما كان فَعِل - بفتح الفاء وكسر العين - متردداً بين المتعدي والقاصر ، وكان فَعُل - بفتح الفاء وضم العين - قاصراً غير متعد ؛ صار القاصر أضعف مما يدور بين المتعدي والقاصر ، وحيث كان الأمر كذلك ، وأشبه وزن المتعدي وزن القاصر ؛ حَطَّ ذلك من درجته ، وجعله في الرتبة دون المتعدي الذي ليس بقاصر ، هذا هو الذي أوجب لي التشكيك فيما ذهب إليه غيري من علماء العربية ، ولربما كان ما ذهبوا إليه لأمر خفي عني ولم أطلع عليه.

النوع الثالث عشر

في عكس الظاهر

وهـو نفي الشيء بإثبـاته، وهـو من مستطرفـات علم البيان، وذاك أنـك تذكـر كلاماً يدلّ ظاهره أنه نفي لصفة موصوف، وهو نفي للموصوف أصلاً.

فمما جاء منه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف مجلس رسول الله ﷺ «لَا تُنْثَى فَلَتَاته»(١) أي لا تذاع سقطاته، فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثَمَّ فلَتَات غير أنها لا تذاع، وليس المراد ذلك، بل المراد أنه لم يكن ثَمَّ فلتـات فتنثى، وهذا من أغرب ما توسعت فيه اللغة العربية، وقد ورد في الشعر كقول بعضهم:

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ(٢) *

فـإن ظاهـر المعنى من هذا البيت أنـه كان هنـاك ضبٌ ولكنـه غيـر منحجـر، وليس كذلك، بل المعنى أنه لم يكن هناك ضبّ أصلاً.

وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال، وسبب ذلك أن الْفَهْم يكـاد يأبـاه، ولا يقبله إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه، وما كان عاريـاً عن قرينـة فإنـه لا يفهم منه ما أراد قائله.

---

(١) في النهـاية: «وفي الحـديث في صفة مجلسـه عليه الصـلاة والسلام: لا تُنْثَى فَلَتَـاتُهُ، أي لا تشـاع ولا تـذاع، يقـال: نَثَـوْتُ الحـديث أَنْثُـوهُ نَثْـواً، والنَّثَـا في الكـلام يـطلق على القبيـح والحسن، يقال: ما أقبح نثاه، ومـا أحسنه، والفلتـات: جمع فلتـة، وهي الزلـة، أراد أنه لم يكن لمجلسه فلتات فتنثى» اهـ.

(٢) هذا عجز بيت لعمرو بن أحمر من كلمة يصف فيها فلاة، وصدره قوله:

* لَا تُفْزِعُ الْأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا *

ووقع في ب، ج «ينحـجر» بتقديم الحاء المهملة، والصواب تقديم الجيم.

وسأوضح ذلك فأقول: أما قولنا عن مجلس رسول الله ﷺ «لَا تُنْثَى فلتاته» فإن مفهوم هذا اللفظ أنه كان هناك فلتات إلا أنها تُطْوى ولا تنشر، وتكتم ولا تذاع، ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات إلا بقرينة خارجة عن اللف، وهي أنـه قد ثبت في النفوس، وتقرر عند العقول، أن مجلس رسـول الله ﷺ مُنَزَّه عن فلتـات تكون بـه، وهو أكرم من ذلك وأوقر؛ فلما قيل: «إنه لا تنثى فلتاته» فهمنا منه أنه لم يكن هنـاك فلتات أصلاً، وأما قول القائل:

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِر *

فإنه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه مـا فهم من الأول، بل المفهـوم أنه كـان هناك ضبٌّ ولكنه غير منجحر.

ولقـد مكثت زمانـاً أطوف على أقـوال الشعراء قصـداً للظفر بـأمثلة من الشعر جارية هذا المجرى فلم أجد إلا بيتاً لامريء القيس(١) ، وهو:

عَـلَى لَاحِـبٍ لَا يُـهْـتَـدَى لِـمَـنَـارِهِ إذَا سَـافَـهُ الْعَـوْدَ الـدِّيَـافِيُّ جَـرْجَـرَا(٢)

فقوله «لا يهتدي لمناره» أي: أن له مناراً إلا أنه لا يهتدي بـه، وليس المراد ذلـك، بل المراد أنه لا منار له يهتدي به.

ولي أنا في هذا بيت من الشعر، وهو:

أَدْنَيْنَ جِلْبَـابَ الْحَيَـاءِ فَلَنْ يُـرَى لِـذُيُـولِـهِـنَّ عَـلَى الـطَّـرِيـقِ غُـبَـارُ

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يَمْشِينَ هَوْناً لحيائهن فلا يظهر لذيولهن غبار على

(١) من قصيدة له مطلعها:

خَـلِيـلَيَّ مُـرَّا بِـي عَـلَى أُمِّ جُـنْـدَبِ لِنَـقْـضِيَ حَـاجَـاتِ الْـفُـؤَادِ الـمُـعَـذَّبِ

(٢) اللاحب: الطريق الـواضح، والمنـار: اسم جنس جمعي، واحده منـارة، وسافـه: ـ بالفـاء ـ شمه، ووقع في ج، ب «ساقه» بالقاف، وهو تحريف، والعـود ـ بفتح العين المهملة وسكـون الواو ـ البعير الهرم، والديافي ـ بكسر الـدال المهملة بعدهـا ياء ـ المنسـوب إلى دياف، وهي قرية بالشام، ويقال: بالجزيرة، ووقع في ب، ج، «النياطي» وجرجر: ردد صوته.

الطريق، وليس المراد ذلك، بل المراد أنهن لا يَمْشِين على الطريق أصلاً: أي أنهنّ مُخَبَّآت لا يَخْرُجْن من بيوتهن؛ فلا يكون إذاً لذيولهن على الطريق غبار، وهذا حسن رائق، وهو أظهر بياناً من قوله:

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ *

فمن استعمل هذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا، وإلا فَلْيَدَعْ، على أن الإكثار من استعماله عَسِر؛ لأنه لا يظهر المعنى فيه.

النوع الرابع عشر

في الاستدراج

وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو مُخَادَعات الأقوال التي تقوم مَقَام مُخَادعات الأفعال؛ والكلام فيه وإن تضمن بلاغةً فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها، والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيراً في خلابه، لا قصيراً في خطابه، فإذا لم يتصرّف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا[1] فليس بكاتب، ولا شبيه له إلا صاحب الْجَدَل فكما أن ذاك يَتَصَرَّف في المغالطات القياسية فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية.

وقد ذكرت في هذا النوع ما يُتَعَلَّم منه سلوك هذه الطريق.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ألا ترى ما أحسن مَأخَذَ هذا الكلام وألطفه؛ فإنه أَخَذَهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم؛ فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعداه، أو يكون صادقاً [وإنْ يَكنْ صادقاً] يصبكم بعض الذي يَعِدكم إن تعرضتم له، وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول: إنما قال ﴿يُصِبْكم بعض الذي﴾ وقد علم أنه نبيٌّ صادق وأن كلَّ ما يعدهم به لا بد وأن يصيبهم، لا

(١) كذا. ونرى الصواب حذف كلمة «وإلا».

بعضه؛ لأنه احتاج في مُقَاوِلة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه؛ فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه، فقال: ﴿وإنْ يَكُ صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ وهو كلام المنصف في مقابلة غير المشتطّ، وذلك أنه حين فَرَضَهُ صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يَعِدُ به، لكنه أردف بقوله: ﴿يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ لِيَهْضِمَهُ بعض حقه في ظاهر الكلام، فَيُرِيهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً، فضلاً عن أن يتعصّب له، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل؛ كأنه بَرْطَلهم في صدر الكلام بما يزعمونه؛ لئلا ينفروا منه، وكذلك قوله في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: هو على الهدى، ولو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة، ولا عَضَّده بالبينات، وفي هذا الكلام من خِدَاع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به، وقد تضمن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حقَّ التأمل أعطيته حقه من الوصف.

ومما يجري على هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا۝إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً۝يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا۝يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا۝يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ هذا كلام يَهُزُّ أعطاف السامعين، وفيه من الفوائد ما أذكره، وهو لما أراد إبراهيم عليه السلام أن يَنْصَح أباه ويَعِظَهُ ويُنْقذه مما كان متورِّطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عَصَى به أمر العقل؛ رَتَّبَ الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن، مُسْتَنْصحاً في ذلك بنصيحة ربه، وذاك أنه طلب منه أولاً العِلَّة في خطيئته طلبَ مُنَبِّهٍ على تماديه مُوقِظٍ من غفلته؛ لأن المعبود لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب إلا أنه بعضُ الخلق يَسْتَخِفُّ عقلَ مَنْ أهَّله للعبادة ووَصَفه بالربوبية، ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبيين، فكيف بمن جعل المعبودَ جماداً لا يسمع ولا يبصر، يعني به الصنم، ثم ثَنَّى ذلك بدعوته إلى الحق مُتَرَفِّقاً به، فلم يَسِمْ أباه

بـالجهل المـطلق، ولا نفسَهُ بـالعلم الفائق، ولكنـه قال: إنَّ معي لَـطَائِفَةً من العلم وشيئاً منه، وذلك علم الدلالة على سلوك الـطريق، فلا تستنكف؛ وَهَبْ أني وإيـاك في مسير، وعندي معرفة بهـداية الـطريق دونك، فـاتَّبعني أُنْجِكَ من أن تضـل، ثم ثَلَّث ذلك بتثبيطه عماكان عليه ونهيه، فقال: إن الشيطان الـذي استعصى على ربك وهـو عَدُوُّك وعـدو أبيك آدم هـو الذي وَرَّطَـك في هذه الـورطـة، وألقـاك في هـذه الضلالة، وإنما ألغى إبراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته في نصيحة أبيه لأنه لإِمْعَانِهِ في الإخـلاص لم يذكـر من جنايتي الشيـطان إلا التي تختص بالله، وهي عصيـانه واستكبـاره، ولم يلتفت إلى ذكر معـاداتـه آدم وذريتـه، ثم رَبَّـع ذلـك بتخـويفه إيـاه سوء العـاقبة، فلم يُصَـرِّح بأن العقـاب لاحِقٌ به، ولكنـه قـال: ﴿إني أخاف أن يمسك عذاب﴾ فنكر العذاب ملاطَفَـةً لأبيه، وصـدَّر كل نصيحـة من هذه النصائح بقوله: ﴿يا أبتِ﴾ توسُّلاً إليه واستعطافاً، وهذا بخلاف مـا أجابـه به أبـوه، فإنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْـرَاهِيمُ﴾ فأقبـل عليه بفـظاظة الكفـر، وغلظ العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل قوله يـا أبت بقولـه يا بنيّ وقـدَّم الخبر على المبتـدأ في قـوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ﴾ لأنـه كان أهَمَّ عنـده، وفيه ضـرب من التعجب والإنكـار لرغبة إبراهيم عن آلهته.

وفي القـرآن الكريم مـواضع كثيـرة من هذا الجنس، لا سيمـا في مخاطبـات الأنبيـاء صلوات الله عليهم للكفار، والـرد عليهم، وفي هذين المثـالين المذكـورين ههنا كفاية ومَقْنَع.

وبلغني حديث تفاوض فيه الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ومعـاوية بن أبي سفيان في أمر ولده يزيد، وذاك أن معاوية قال للحسين: أما أُمُّكَ فاطمة فـإنها خيـر من أمـه، وبنت رسول الله ﷺ خيـر من امرأة من كلب، وأمـا حُبِّي يـزيـدَ فـإني لـو أعطيت به مثلك مِلْءَ الغُوطَـة لما رضيت، وأمـا أبوك وأبـوه فإنهمـا تحاكمـا إلى الله فحكم لأبيـه على أبيك؛ وهـذا كلام من معـاوية كلمـا أمـررتـه بفكـري عجبتُ من سَدَاده، فَضْلاً عن بـلاغته وفصـاحته، فـإن معاويـة عَلِمَ ما لعلي رضي الله عنـه من السَّبْق إلى الإسلام والأثر فيه، وما عنـده من فضيلة العلم، فلم يعرض في المنـافرة

إلى شيء من ذلك، ولم يقل أيضاً: إن الله أعطاني الدنيا ونزعها منكم؛ لأن هذا لا فضل فيه؛ إذ الدنيا ينالها البر والفاجر، وإنما صانَعَ عن ذلك كله بقوله: «إن أباك وأباه تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك» وهذا قول إيهامي يُوهِم شبهة من الحق، وإذا شاء من شاء أن ينافر خصمه ويستدرجه إلى الصمت عن الجواب فليقل هكذا.

النوع الخامس عشر

في الإيجاز

وهو حذف زيادات الألفاظ؛ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فُرْسَان البلاغة من سَبَقَ إلى غايتها وما صَلَّى، وضَرَبَ في أعلى درجاتها بالقِدْحِ المُعَلَّى، وذلك لعلو مكانه، وتعذر إمكانه.

والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة، بل أعني أن مَدَار النظر في هذا النوع إنما يختصّ بالمعاني؛ فَرُبَّ لفظٍ قليل يدل على معنى كثير، وربّ لفظ كثير يدل على معنى قليل، ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة؛ فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم بكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، ولهذا سَمَّى النبيّ ﷺ الفاتحة أم الكتاب، وإذا نظرنا الى مجموعها وَجَدْناه يسيراً، وليست من الكثرة إلى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرها من السور الطوال؛ فعلمنا حينئذ أن ذلك الأمر يرجع إلى معانيها.

والكلام في هذا الموضع يخرج بنا إلى غير ما نحن بصدده؛ لأنه يحتاج فيه إلى ذكر المراد بالقرآن الكريم وما يشتمل عليه سوره وآياته إلى حصر أقسام معانيه، لكنا نشير في ذلك إشارة خفيفة؛ فنقول:

المراد بالقرآن هو دعوة العباد إلى الله تعالى، ولذلك انحصرت سوره وآياته في ستة أقسام: ثلاثة منها هي الأصول، وثلاثة هي الفروع.

أما الأصول فالأول منها: تعريفُ المدعوِّ إليه، وهو الله تعالى، ويشتمل هذا الأصل على ذِكْرِ ذاته وصفاته وأفعالهٓ؛ والأصل الثاني: تعريف الصراط المستقيم الذي تجب مُلَازمته في السلوك إلى الله تعالى ويشتمل هذا الأصل على التَّبَتُّلِ بعبادة الله بأفعال القلب وأفعال الجوارح؛ والأصل الثالث: تعريف الحال بعد الوصول إلى

الله تعالى، أعني بعد الموت، ويشتمل هذا الأصل على تفصيل أحوال الدار الآخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب، وأشباه ذلك؛ فهذه الأصول الثلاثة.

وأما الفروع فالأول منها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة، ولطائف صنع الله بهم من النّصْرَة والإِدَالة، وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمحادِّينَ لها، وكيفية صُنْع الله في التَّدْمير عليهم والتنكير بهم، والفرع الثاني: ذكر مُجَادلة الخصوم ومحاجَّتهم، وحملهم بالمجادلة والمحاجَّة على طريق الحق، وهؤلاء هم اليهود والنصارى ومن يجري مجراهم من أرباب الشرائع، والفلاسفة والملحدة من غير أرباب الشرائع؛ والفرع الثالث: تعريف عِمَارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهْبَة للاستعداد، وذاك قياس الشريعة، وتبيين الحكمة في أوامرها التي تتعلق بأفعال أهل التكليف.

فهذه الأقسام الستة المشار إليها هي التي تدور معاني القرآن عليها ولا تتعداها وههنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه، ولا حاجة إلى ذكره.

وإذا نظرنا إلى سورة الفاتحة وتأمَّلنا ما فيها من المعاني وجدناها مشتملة على أربعة أقسام من الستة المذكورة، ولذلك سماها النبي ﷺ «أم الكتاب» كما أنه قال: «إن سورة الإخلاص تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن» وإذا نظرنا في الأقسام الستة وجدنا سورة الإخلاص بمنزلة ثلث القرآن، وكذلك قال ﷺ: «آية الكرسي سيدة آي القرآن» ويروى أنه سأل أبيَّ بن كعب رضي الله عنه فقال: «أي آيةٍ مَعَكَ فِي كِتَابِ اللهِ أعْظَم؟» فقال: الله لا إله إلا هو الحي القيوم؛ فضرب في صدره، وقال: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ» وكل هذا يرجع إلى المعاني لا إلى الألفاظ، فاعرف ذلك وبينه لرموزه وأسراره.

واعلم أن جماعة من مُدَّعي علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم قسمين: فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات، ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرأ في مَلإٍ من عوامّ الناس؛ فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم

يقع لأكثرهم حتى يقال في ذكر الحرب: التقى الجمعان، وتطاعن الفريقان، واشتد القتال، وحمي النضال، وما جرى هذا المجرى.

والمذهب عندي في ذلك ما أذكره، وهو أن فَهْمَ العامة ليس شرطاً معتبراً في اختيار الكلام؛ لأنه لو كان شرطاً لوجب على قياسه أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم؛ ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم؛ لأن العلة في اختيار تطويل الكلام إذا كانت فهم العامة إياه فكذلك تجعل تلك العلة بعينها في اختيار المبتذل من الكلام؛ فإنه لا خلاف في أن العامة إلى فهمه أقربُ من فَهْم ما يقل ابتذالهم إياه، وهذا شيء مدفوع، وأما الذي يجب تَوَخِّيه واعتماده فهو أن يُسْلَك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني، بحيث لا تزيد هذه على هذه، مع الإيضاح والإبانة، وليس على مُسْتَعْمِلِ ذلك أن يَفْهم العامة كلامه؛ فإن نور الشمس إذا لم يَرَه الأعمى لا يكون ذلك نقصاً في استنارته، وإنما النقص في بصر الأعمى حيث لم يستطع النظر إليه:

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لاَ تَفْهَمَ الْبَقَرُ

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فلنرجع إلى ما هو غرضنا ومهمنا من الكلام على الإيجاز، وحدّه وأقسامه، ونوضح ذلك إيضاحاً جلياً، والله الموفق للصواب.

فنقول: حدُّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل هو ضد ذلك، وهو أن يُدَلَّ المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه، كقول الْهُجَيْر السَّلُولي من أبيات الحماسة(١):

طَلُوعُ الثَّنَايَا بِالْمَطَايَا وَسَابِقٌ ... إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ (٢)

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام في حماسته وأولها قوله:

إِنَّ ٱبْنَ عَمِّي لاَبْنُ زَيْدٍ، وَإِنَّهُ ... لَبَلاَّلُ أَيْدِي جِلَّةِ الشَّوْلِ بِالدَّمِ

(انظر شرح التبريزي: ٤ - ١٦١).

(٢) «طلوع الثنايا» أراد أنه يسمو إلى المكارم لأنه بعيد الهمة «يبتدرها» يخف إليها ويسبق غيره إلى بلوغها «يقدم» يجعل له السبق والغلب على أقرانه.

فصدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة إليه، وعجزه من مَحَاسن الكلام المتواصفة، وموضع التطويل من صدره أنه قال: «طَلُوع الثنايا بالمطايا» فإن لفظة المطايا فضلة لا حاجة إليها، وبيان ذلك أنه لا يخلو الأمر فيها من وجهين: إما أن يريد أنه سابق الهمة إلى معالي الأمور، كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق:

* أَنَا ٱبْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا *

أي: أنا الرجل المشهور السابق إلى معالي الأمور؛ فإن أراد الْعُجَير بقوله «طلوع الثنايا» ما أشرت إليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى؛ لأن معالي الأمور لا يُرْقَى إليها بالمطايا، وإن أراد الوجه الآخر، وهو أنه كثير الأسفار؛ فاختصاصه الثنايا بالذكر دون الأرض من المفاوز وغيرها لا فائدة فيه، وعلى كلا الوجهين فإن ذكر المطايا فضلة لا حاجة إليه، وهو تطويل بارد غَثّ.

فقِسْ على هذا المثال ما يجري مجراه من التطويلات التي إذا أسقطت من الكلام بقي على حاله لم يتغير شيء.

وكذلك يجري الأمر في ألفاظ يُوصَل بها الكلام؛ فتارةً تجيء لفائدة، وذلك قليل، وتارةً تجيء لغير فائدة، وذلك كثير؛ وأكثر ما ترد في الأشعار ليوزن بها الأبيات الشعرية، وذلك نحو قولهم: لعمري، ولعمرك، ونحو أصْبَح وأمْسَى وظَلّ وأضْحَى وبات، وأشباه ذلك، ونحو يا صاحبي ويا خليلي، وما يجري هذا المجرى.

فمما جاء منه قول أبي تمام[1]:

أَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ السُّيُوفِ وَكَانَتْ أَحَقَّ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ[2]

---

(١) من قصيدة له يرثي فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:

نَعَاءِ إِلَى كُلِّ حَيٍّ نَعَاءِ فَتَى الْعَرَبِ ٱخْتَطَّ رَبْعَ الْفَنَاءِ

(٢) في الديوان «أقروا لعمري بحكم السيوف».

فإن قوله «لعمري» زيادة لا حاجة للمعنى إليها، وهي حشو في هذا البيت، لا فائدة فيه إلا إصلاح الوزن لا غير، ألا ترى أنها من باب القَسَم، وإنما يرد القسم في موضع يؤكد به المعنى المراد، إمَّا لأنه مما يشك فيه أو مما يَعِزّ وجوده أو ما جرى هذا المجرى، وهذا البيت الشعري لا يفتقر معناه إلى توكيد قسميّ؛ إذ لا شك في أن السيوف حاكمة، وأن كل أحد يُقِرُّ لحكمها، ويذعن لطاعتها وكذلك قوله أيضاً[١].

إذَا أَنَا لَمْ أَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ الْغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ

فقوله «الْغَدَاةَ» زيادة لا حاجة للمعنى إليها؛ لأنه يتم بدونها؛ لأن عثرات الدهر لم تنله الغداة ولا العشي، وإنما نالته، ونيلها إياه لا بد وأن يقع في زمن من الأزمنة كائناً ما كان، ولا حاجة إلى تعيينه بالذكر.

وعلى هذا ورد قول البحتري[٢]:

مَا أَحْسَنَ الأَيَّامَ إلَّا أَنَّهَا يَا صَاحِبَيَّ إذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ[٣]

فقوله «يا صاحبي» زيادة لا حاجة بالمعنى إليها؛ إلا أنها وردت لتصحيح الوزن لا غير.

وهذه الألفاظ التي ترد في الأبيات الشعرية لتصحيح الوزن لا عيب فيها، لأنا لو عبناها على الشعراء لحجَّرْنا عليهم وضيقنا، والوزن يضطر في بعض الأحوال إلى مثل ذلك، لكن أذا وردت في الكلام المنثور فإنها إن وردت حشواً ولم ترد لفائدة كانت عَيْباً.

---

(١) من قصيدة له يشكو فيها دهره، وأولها قوله:

صَرِيعُ هَوًى تُغَادِيهِ الْهُمُومُ بِنَيسَابُورَ لَيْسَ لَهُ حَمِيمُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها يوسف بن محمد، وأولها قوله:

بَيْنَ الشَّقِيقَةِ فَاللِّوَى، فَالأَجْرَعِ دِمَنٌ حُبِسْنَ عَلَى الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ

(٣) في الديوان «ما أحسن الأيام لولا أنها».

وقد ترد في الأبيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الأحسن، كقول البحتري(١):

قَوْمٌ أَهَانُوا الْوَفْرَ حَتَّى أَصْبَحُوا أَوْلَى الأَنَامِ بِكُلِّ عِرْضٍ وَافِرِ(٢)

فقوله «أصبحوا» بمعنى صاروا: أي أنهم صاروا أولى الناس بالأعراض الوافرة، وهذه اللفظة لم ترد في هذا البيت حشواً كما وردت في بيتي أبي تمام المقدم ذكرهما.

وسأزيد هذا الموضع بياناً بمثال أضربه للتطويل، حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه، والمثال الذي أضربه هو حكاية أوردت بمحضر مني، وذاك أنه جلس إليّ في بعض الأيام جماعة من الإخوان، وأخذوا في مفاوضة الأحاديث، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التي تقع في العالم، فذكر كل من الجماعة شيئاً، فقال شخص منهم: إني كنت بالجزيرة العمرية في زمن الملك فلان، وكنت إذ ذاك صبياً صغيراً، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان في الحارة الفلانية، وصعدنا ألى سطح طاحون لبني فلان، وأخذنا نلعب على السطح، فوقع صبي منا الى أرض الطاحون، فوطئه بغل من بغال الطاحون، فخفنا أن يكون آذاه، فأسرعنا النزول إليه، فوجدناه قد وطئه البغل؛ فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيراً منها؛ فقال له شخص من الحاضرين: والله إن هذا عيّ فاحش، وتطويل كثير لا حاجة إليه؛ فإنه بصدد أن تذكر أنك كنت صبياً تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبي منكم إلى أرض الطاحون، فوطئه بغل من

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الله بن طاهر، وأولها قوله:

لاَ زَالَ مُخْتَفَلُ الْغَمَامِ الْبَاكِرِ يَهْمِي عَلَى حُجُرَاتِ أَعْلَى الحَاجِرِ

(٢) قبل هذا البيت قوله:

كَشَفَتْ لَنَا سِيَرُ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَمْرِ نَاهٍ بِالسَّدَادِ وَآمِرِ
لاَ يَقْتَفِي أَثَرَ الْغَرِيبِ وَلاَ يَرَى قَلَقَ المَطِيِّ عَلَى الطَّرِيقِ الْجَائِرِ
مُتَقَبِّلٌ شَرَفَ الْحُسَيْنِ وَمُصْعَبٍ وَفَعَالَ عَبْدِ اللهِ بَعْدُ وَطَاهِرِ

بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه، ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة في بلد نعرفه أو في بلد لا نعرفه، ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قدحاً في غرابتها، وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية في الحارة الفلانية في طاحون بني فلان، وكان زمن الملك فلان، فإن مثل هذا كله تطويل لا حاجة إليه، والمعنى المقصود يفهم بدونه.

فاعلم أيها الناظر في كتابي هذا أن التطويل هو زيادات الألفاظ في الدلالة على المعاني، ومهما أمكنك حذف شيء من اللفظ في الدلالة على معنى مِن المعاني فإن ذلك اللفظ هو التطويل بعينه.

وأما الإيجاز فقد عرفتك أنه دلالة اللفظ على المعنى، من غير أن يزيد عليه.

وهو ينقسم قسمين: أحدهما: الإيجاز بالحذف، وهو ما يحذف منه المفرد، والجملة؛ لدلالة فَحْوَى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه؛ والقسم الآخر: ما لا يحذف منه شيء، وهو ضربان: أحدهما: ما ساوي لفظه معناه، ويسمى التقدير، والآخر ما زاد معناه على لفظه، ويسمى القصر.

واعلم أن القسم الأول الذي هو الإيجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفه في استخراجه؛ لمكان المحذوف منه.

وأما القسم الثاني فإن التنبه له عسر؛ لأنه يحتاج إلى فَضْل تأمل، وطول فكرة؛ لخفاء ما يستدل عليه، ولا يستنبط ذلك إلا من رَسَتْ قَدَمُهُ في ممارسة علم البيان، وصار له خليقةً وملكة، ولم أجد أحداً عَلَّمَ هذين القسمين بعلامة، ولا قَيَّدَهما بقيد، وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتي من هذا الباب عند تفصيل أمثلتهما فليؤخذ من هناك.

فإن قيل: إن هذا التقسيم الذي قسمته في المحذوف وغير المحذوف ليس بصحيح؛ لأن المعاني ليس أجْسَاماً كالألفاظ حتى يصحَّ التقدير بينهما، ثم لو سلمت جواز التقدير في المُسَاواة لم أسَلِّم جوازالزيادة، فليس لقائل أن يقول: هذا المعنى زائد على هذا اللفظ؛ لأنه إن قال ذلك قيل: فمن أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ، وقد علم أن الألفاظ إنما وضعت للدلالة على إفهام المعاني؛

فإن قال: إنها فُهِمَتْ من شيء خارج عن اللفظ، قيل له: فتلك الزيادة بإزاء ذلك الشيء الخارج عن اللفظ، والباقي مساوٍ للفظ، وإن قال: إنها فهمت من اللفظ، قيل: فكيف تفهم منه وهي زائدة عليه؟ فإن قال: إنها فهمت من تركيبه، لأن التركيب أمر زائد على اللفظ، قيل: الألفاظ تدلّ بانفرادها على معنى، وبتركيبها على معنى آخر، واللفظ المركب يدلّ على معنى مركب، واللفظ المفرد يدلّ على معنى مفرد، وتلك الزيادة إن أريد بها زيادة معنى المركب على المركب فلا يخلو: إما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها، أو من دلالة شيء خارج؛ فإن كانت مفهومه من دلالته عليها لم تكن زائدة عليه؛ إذ لو كانت زائدة عليه لما دلّ عليها، وإن كانت مفهومة من دلالة الشيء الخارج عنه فهي بإزاء ذلك الشيء الخارج، والباقي مساوٍ للباقي.

فالجواب عن ذلك أن نقول: هذا الذي ذكره كلام شبيه بالسفسطة، وهو باطل من وجهين: أحدهما: أن المعاني إذا كانت لا تزيد على الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعاني؛ لأنهما متلازمان على قياسك، ونحن نرى معنى قد دلّ عليه بألفاظ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شيء لا ينقص ذلك المعنى، بل يبقى على حاله، والوجه الآخر: إن الإيجاز بالحذف أقوى دليلاً على زيادة المعاني على الألفاظ؛ لأنا نرى اللفظ يدلّ على معنى لم يتضمنه، وفهم ذلك المعنى ضرورة لا بد منه، فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه.

فإن قيل: إن المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لا بد له من تقدير لفظ آخر يدل عليه، وتلك الزيادة بإزاء ذلك اللفظ المقدر.

قلت في الجواب عن ذلك: هذا لا ينقض ما ذهبت إليه من زيادة المعنى على اللفظ؛ لأن المعنى ظاهر، واللفظ الدال عليه مضمر، وإذا كان مضمراً فلا ينطق به، وإذا لم ينطق به فكأنه لم يكن، وحينئذ يبقى المعنى موجوداً، واللفظ الدال عليه غير موجود، وكذلك كل ما يعلم من المعاني بمفهوم الخطاب؛ ألا ترى أنك إذا قلت لمن دخل عليك: أهلاً وسهلاً، علم أن الأهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وَجَدْتَ أهْلاً وَلَقِيتَ سَهْلاً، إلا أن لفظتي وجدت ولقيت

محذوفتان، والمعنى الذي دَلَّا عليه باقٍ، فصار المعنى حينئذ مفهوماً مع حذفهما فهو إذاً زائد لا محالة، وكذلك جميع المحذوفات على اختلافها وتَشَعُّب مقاصدها، وهذا لا نزاع فيه؛ لبيانه ووضوحه.

وقد سنح لي في زيادة المعنى على اللفظ في غير المحذوفات دليل أنا ذاكره، وهو أنا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة، واللفظ واحد، والمعاني التي تحته متعددة.

فأما الذي يدل على معنيين فالكنايات جميعها، كالذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا خرجوا من عنده لا يتفرقون إلا عن ذَوَاقٍ، وهذا يدلّ على معنيين: أحدهما: إطعام الطعام: أي أنهم لا يخرجون من عنده حتى يَطْعَمُوا، الآخر: أنهم لا يتفرقون إلا عن استفادة علم وأدب يقوم لأنفسهم مقام الطعام لأجسامهم.

وأما الذي يدل على ثلاثة معانٍ فكقول أبي الطيب المتنبي[١]:

وَأَظْلَمُ أهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

فهذا يدلّ على ثلاثة معانٍ: الأول: أنه يحسُد من أنعم عليه، الثاني: ضد الأول، الثالث: أنه يحسد كل ربِّ نعمة كائناً من كان: أي يحسد من بات في نعماء نفسِهِ يتقلب.

وهذا وأمثاله من أدلّ الدليل على زيادة المعنى على اللفظ، وهو شيء استخرجته، ولم يكن لأحد فيه قول سابق.

وحيث فرغنا من الكلام على هذا الموضع فلنتبعه بذكر أقسام الإيجاز المشار إليها أولاً وما ينصرف إليه؛ فنقول: أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر، شبيه

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها كافوراً، وأولها قوله:

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقُ، والشَّوْقُ أَغْلَب ... وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ، والْهَجْرُ أَعْجَبُ

وقد مضى أول الكتاب ذكر هذا البيت، وذكر المؤلف مثل ما ذكر هنا.

بالسحر، وذاك أنك ترى فيه تَرْكَ الذكر أفصح من الذكر، والصَّمْتَ عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجِدُك أنْطَقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكونُ مبيناً إذا لم تبين، وهـذه جملة تنكرها حتى تَخْبُر، وتدفعها حتى تَنْظُر.

والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدلّ على المحذوف؛ فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه، ولا سبب، ومِنْ شَرْط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام الى شيء غثّ لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن؛ وقد يظهر المحذوف بالإعراب كقولنا: وسهلاً، فإن نصب الأهل والسهل يدلّ على ناصب محذوف، وليس لهذا من الحسن ما للذي لا يظهر بالإعراب، وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى، كقولنا: فلان يَحُلّ ويَعْقد؛ فإن ذلك لا يظهر المحذوف فيه بالإعراب، وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى: أي أنه يحلّ الأمور ويعقدها، والذي يظهر بالإعراب يقع في المفردات من المحذوفات كثيراً، والذي لا يظهر بالإعراب يقع في الجمل من المحذوفات كثيراً.

وسأذكر في كتابي هذا ما وصل إليّ علمه، وهو ينقسم قسمين: **أحدهما**: حذف الجمل، **والآخر**: حذف المفردات، وقد يرد كلام في بعض المواضع ويكون مشتملاً على القسمين معاً.

فأما القسم الأول، وهو الذي تحذف منه الجمل؛ فإنه ينقسم الى قسمين أيضاً: أحدهما: حذف الجمل المفيدة التي تستقل بنفسها كلاماً، وهذا أحسن المحذوفات جميعها، وأدّلها على الاختصار، ولا تكاد تجده إلا في كتاب الله تعالى؛ والقسم الآخر: حذف الجمل غير المفيدة، وقد وردا ههنا مختلطين، وجملتهما أربعة أضرب:

الضرب الأول: حذف السؤال المقدر، ويسمى الاستئناف، ويأتي على وجهين:

الوجه الأول: إعادة الأسماء والصفات، وهذا يجيء تارة باعادة اسم مَنْ تقدم

الحديث عنه، كقولك: أَحْسَنْتُ إلى زيدٍ زَيْدٌ حقيق بالإحسان، وتارة يجيء بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد صديقُكَ القديم أهلٌ لذلك منك؛ وهو أحسن من الأول وأبلغ؛ لانطوائه على بيان الموجب للإحسان وتخصيصه.

فممّا ورد من ذلك قوله تعالى: ﴿آلم.ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والاستئناف واقع في هذا الكلام على ﴿أولئك﴾ لأنه لما قال ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ إلى قوله ﴿بالآخرة هم يوقنون﴾ اتجه لسائل أن يقول: ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً.

الوجه الثاني: الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ.إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ.قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فمخرج هذا القول مخرج الاستئناف؛ لأن ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه، وكأن قائلاً قال: كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي لوجهه بروحه؟ فقيل: قيل ادخل الجنة؛ ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول لا إلى المقول له مع كونه معلوماً، وكذلك قوله تعالى ﴿يا ليت قومي يعلمون﴾ مُرَتَّب على تقدير سؤال سائل عما وجد.

ومن هذا النحو قوله عز وجل: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ.مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَكَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ والفرق بين إثبات الفاء في سوف كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وبين حذف الفاء ههنا في هذه الآية أن إثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل،

وحذفها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف؛ للتفنن في البلاغة، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف؛ وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه، فاعرفه إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني: الاكتفاء بالسبب عن المسبب، وبالمسبب عن السبب:

فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ولكنا أوحيناه إليك، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الْفَتْرة، ودل به على المسبب الذي هو الوحي، على عادة اختصارات القرآن؛ لأن تقدير الكلام: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى موسى إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول على آخرهم ـ وهو القرن الذي أنت فيهم ـ العمر: أي أَمَدُ انقطاع الوحي، فاندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك، وعرفناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى؛ فالمحذوف إذاً جملة مفيدة، وهي جملة مطولة دل السبب فيها على المسبب.

وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فإن في هذا الكلام محذوفاً لولاه لما فهم، لأنه قال: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك﴾ وهذا لا بد له من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام، وتقديره: ولكن عرفناك ذلك وأوحيناه إليك رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك؛ فذكر الرحمة التي هي سبب إرساله ألى الناس، ودل بها على المسبب الذي هو الإرسال.

وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾

فقوله ﴿ولنجعله آية للناس﴾ تعليل مُعَلَّله محذوف: أي وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس، فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله، وهو جعله آية للناس، ودل به على المسبب الذي هو الفعل.

ومما ورد من ذلك في الأخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضي الله عنه والرجل الأنصاري الذي خاصمه في شراح الحرة التي يسقي منها النخل، فلما حضرا بين يدي رسول الله ﷺ قال للزبير: «اسْقِ ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ» فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله؛ أَنْ كان ٱبْنَ عمتك، فَتَلَوَّنَ وجهُ رسول الله ﷺ، وقال: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ ٱحْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجُدُرِ» وفي هذا الكلام محذوف تقديره: أن كان ابن عمتك حكمت له، أو قضيت له، أو ماجرى هذا المجرى، فذكر السبب الذي هو كونه ابن عمته، ودل به على المسبب الذي هو الحكم أو القضاء؛ لدلالة الكلام عليه.

وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: إذا أردت قراءة القرآن، فاكتفى بالمسبب الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الإرادة، والدليل على ذلك أنّ الاستعاذة قبل القراءة، والذي دلَّت عليه أنها بعد القراءة، كقول القائل: إذا ضربت زيداً فاجلس؛ فإن الجلوس إنما يكون بعد الضرب، لا قبله، وهذا أولى من تأول من ذهب إلى أنه أراد فإذا تعوذت فاقرأ، فإن ذلك قلباً لا ضرورة تدعو إليه، وأيضاً فليس كل مستعيذ واجبة عليه القراءة.

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ والوضوء إنما يكون قبل الصلاة، لا عند القيام إليها؛ لأن القيام إليها هو مباشرة لأفعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك، وهذا إنما يكون بعد الوضوء، وتأويل الآية إذا أردت القيام ألى الصلاة فاغسل، فاكتفى بالمسبب عن السبب.

وكذلك ورد قول النبي ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلْيَتَوَضَّأْ» أي: إذا أراد القيام إلى الصلاة، وإنما يعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأن الفعل مسبب عن الإرادة، وهو مع القصد إليه موجود، فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ أي: فضرب فانفجرت منه، فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار عن السبب الذي هو الضرب.

الضرب الثالث: وهو الإضمار على شريطة التفسير، وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره؛ فيكون الآخر دليلاً على الأول.

وهو ينقسم ألى ثلاثة أوجه:

الأول: أن يأتي على طريق الاستفهام، فتذكر الجملة الأولى دون الثانية، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ تقدير الآية: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه، ويدل على المحذوف قوله: ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾.

الوجه الثاني: يرد على حدّ النفي والإثبات، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ تقديره: لا يستوي منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقاتل ومَنْ أنفق من بعده وقاتل، ويدل على المحذوف قوله: ﴿أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾.

الوجه الثالث: أن يرد على غير هذين الوجهين؛ فلا يكون استفهاماً، ولا نفياً وإثباتاً، وذلك كقول أبي تمام[١]:

يَتَجَنَّبُ الآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا ... فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه في إثباته؛ فمنها ما يجيء فيه:

يَتَجَنَّبُ الأَيَّامَ خِيفَةَ غَيِّهَا ... فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

(١) من قصيدة له يمدح فيها المأمون العباسي، وأولها قوله:

دِمَنٌ أَلَمَّ بِهَا فَقَالَ سَلَامُ ... كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإِلْمَامُ

انظر الديوان (٢٧٩ بيروت).

وليس بشيء؛ لأن المعنى لا يصح به، وكنت سُئلت عن معناه، وقيل: كيف ينطبق عجز البيت على صدره، وإذا تجنب الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاماً؟ فأفكرت فيه وأنعمت نظري فسنح لي في القرآن الكريم آية مثله، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ وفي صدر البيت إضمار فُسِّر في عجزه، وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة، ثم يخاف تلك الحسنة، فكأنما حسناته آثام، وهو على طباق الآية سواء.

ومن الإضمار على شريطة التفسير قول أبي نواس:

سُنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

فحذف لفظ الاستكانة من الأول، وذكره في الثاني: أي سنة العشاق واحدة، وهي الاستكانة، فإذا أحببت فاستكن، ومن الناس من يقول: «فإذا أحببت فاسْتَنِنِ» وهذا لا معنى له؛ لأنه إذا لم يبين سنة العشاق ما هي فبأي شيء يستنّ المستنّ منها؛ لكنه ذكر السنة في صدر البيت من غير بيان ثم بينها في عجزه.

الضرب الرابع: ما ليس بسبب ولا مسبب، ولا إضمار على شريطة التفسير، ولا استئناف.

فأما ما حذف فيه من الجمل المفيدة، فكقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ.ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ. وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة، تقديرها: فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بمقالة يوسف، فعجبوا لها، أو فصدقوه عليها، وقال الملك ائتوني به، والمحذوف إذا كان كذلك دلّ عليه الكلام دلالة ظاهرة؛ لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف؛ دلالة الحاشيتين عليه.

وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة أيضاً: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً.قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.قَالُوا يَا أَبَانَا

اَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ.قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ قد حذف أيضاً من هذا الكلام جملة مفيدة، تقديرها: ثم إنهم تجهّزوا وساروا الى مصر، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه.

وقد ورد هذا الضرب في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ في هذا محذوف، وهو جواب الاستفهام؛ لأنها لما قالت: ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ احتاج الى جواب لينتظم بما بعده من ردّه الى أمه، والجواب: فقالوا نعم، فدلّتهم على امرأة، فجيء بها وهي أمه ولم يعلموا بمكانها، فأرضعته، وهذه الجملة الثانية ـ أعني قوله تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه﴾ ـ تدلّ على المحذوف؛ لأنّ ردّه إلى أمه لم يكن إلا بعد ردّ الجواب على أخته، ودلالتها إياهم على امرأة ترضعه، ويكفي هذا الموضع وحده لمن يتبصر في مواقع المحذوفات وكيفيتها.

ومما يجري على هذا المنهج قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام وقصة الهدهد في إرساله بالكتاب إلى بَلْقِيسَ ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وفي هذا محذوف، تقديره: فأخذ الكتاب وذهب به، فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت يا أيها الملأ.

ومن حذف الجمل المفيدة ما يعسر تقدير المحذوف منه، بخلاف ما تقدم، ألا ترى أنّ الآيات المذكورة كلها إذا تأملها المتأمل وجد معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التي حذفت منها، ثم إذا قدر تلك المحذوفات سهل تقديرها ببديهة النظر، والذي أذكره الآن ليس كذلك، بل إذا تأمله المتأمل وجده غير متصل المعنى، وإذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه.

فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ

فَوَاقٍ، وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ. اَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فهذا الكلام إذا تأمله المتأمل لم يجده متصل المعنى، ولم يتبين له مجيء ذكر داود عليه السلام رَدِفاً لقوله تعالى: **﴿اصبر على ما يقولون﴾** وإذا أراد أن يقدر ههنا محذوفاً يوصل به المعنى عسر عليه، وتقديره يحتمل وجهين: أحدهما: أنه قال: **﴿اصبر على ما يقولون﴾** وخَوِّفهم أمر معصية الله وعَظِّمَهَا في عيونهم بذكر قصة داود الذي كان نبيًّا من الأنبياء وقد آتاه الله ما آتاه من النبوة والملك العظيم، ثم لما زلّ زلّة قوبل بكذا وكذا، فما الظن بكم أنتم مع كفركم؟ الوجه الآخر: أنه قال: **﴿اصبر على ما يقولون﴾** واحفظ نفسك أن تزلّ في شيء مما كُلِّفْتَهُ من مصابرتهم واحتمال أذاهم، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلّة فلقي من توبيخ الله ما لقي؛ فهذا الكلام كما تراه يحتاج إلى تقدير حتى يتصل بعضه ببعض، وهو من أغمض ما يأتي من المحذوفات، وبه يتنبه على مواضع أخرى غامضة.

وأما ما ورد من هذا الضرب في حذف الجمل التي ليست بمفيدة فنحو قوله تعالى: **﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا.قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا.قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً.قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا.يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾** هذا الكلام قد حذف منه جملة دلّ عليها صدره، وهو البشرى بالغلام، وتقديرها: ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا له: يا يحيى خذ الكتاب بقوّة، فالجملة المحذوفة ليس من الجمل المفيدة.

على هذا النهج ورد قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ.قَالَ يَا هَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**

قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وقد حذف من هذا الكلام جملة، إلا أنها غير مفيدة، وتقديرها: فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال من عبادة العجل قال لأخيه هٰرون: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألّا تتبعني.

وكذلك ورد قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل: **﴿قَالَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ. قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾** وفي هذا محذوف، وتقديره: فلما جاء به قال نكروا لها عرشها؛ لأن تنكيره لم يكن إلا بعد أن جيء به إليه، وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره، وكان ذلك دليلاً عليه.

ومما ورد على ذلك شعراً قول أبي الطيب المتنبي(١):

لَا أُبْغِضُ الْعِيسَ لٰكِنِّي وَقَيْتُ بِهَا
قَلْبِي مِنَ الْهَمِّ أَوْ جِسْمِي مِنَ السَّقَمِ

وهذا البيت فيه محذوف، تقديره: لا أبغض العيس لإنضائي إيّاها في الأسفار، ولكني وقيت بها كذا وكذا؛ فالثاني دليل على حذف الأول.

وهذا موضع يحتاج في استخراجه واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر. وممّا يتصل بهذا الضرب حذف ما يجيء بعد أَفْعَلَ؛ كقولنا: «الله أكبر» فإنّ هذا يحتاج إلى تمام: أي أكبر من كل كبير، أو أكبر من كل شيء يتوهم كبيراً، أو ما جرى هذا المجرى، ومثله يرد قولهم: زيد أحسن وجهاً، وأكرم خلقاً، تقديره أحسن وجهاً من غيره، وأكرم خلقاً من غيره، أو ما يسدّ هذا المسد من الكلام.

---

(١) من قصيدة له يذكر مسيره من مصر ويرثي فيها فاتكاً، وأولها قوله:

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمِ

وعليه ورد قول البحتري(١):

اللهُ أَعْطَاكَ المَحَبَّةَ فِي الوَرَى ... وَحَبَاكَ بِالفَضْلِ الَّذِي لاَ يُنْكَرُ
وَلأَنْتَ أَمْلأُ فِي العُيُونِ لَدَيْهِمُ ... وَأَجَلُّ قَدْراً فِي الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ

أي: أنت أملأ في العيون من غيرك.

أما القسم الثاني المشتمل على حذف المفردات فإنه يتصرف على أربعة عشر ضرباً:

الأول: حذف الفاعل، والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل، كقول العرب: أرْسَلَتْ، وهم يريدون جاء المطر؛ ولا يذكرون السماء، ومنه قول حاتم:

أَمَاوِيَّ؛ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

يريد النفس، ولم يجر لها ذكر

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ والضمير في ﴿بَلَغَتْ﴾للنفس، ولم يجر لها ذكر.

وقد نص عثمان بن جني رحمه الله تعالى على عدم الجواز في حذف الفاعل، وهذه الآية وهذا البيت الشعري وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف(٢) ما ذهب إليه، إلّا أن حذف الفاعل لا يجوز على الإطلاق، بل يجوز فيما

---

(١) البيتان آخر قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ويهنئه بالصوم، ويذكر خروجه يوم الفطر، وأولها قوله:

أُخْفِي هَوًى لَكِ فِي الضُّلُوعِ وَأُظْهِرُ ... وَأُلاَمُ فِي كَمَدٍ عَلَيْكِ وَأُعْذَرُ

(٢) أخطأ المؤلف رحمه الله في فهم كلام أبي الفتح وكلام غيره من نحاة البصريين، ولم يفرق بين الإضمار والحذف؛ ونحا منحاه أهل الكوفة الذين جعلوا هذه الأمثلة ونحوها من باب حذف الفاعل، ولولا أن الكتاب ليس موضعاً لهذه المجادلات لأوفيتك هذه المسألة بحثاً حتى تعلم علم اليقين أن أبا الفتح عثمان بن جني معترف بأن الضمير في الآية عائد إلى النفس=

هـذا سبيله؛ وذاك أنـه لا يكـون إلا فيمـا دل الكـلام عليـه، ألا تـرى أن التي تبلغ التـراقي إنما هي النفس، وذلـك عند المـوت، فعلم حينئذ أن النفس هي المـرادة، وإن كان الكلام خالياً عن ذكرها، وكذلك قول حاتم «حشرجت» فإن الحشرجة إنمـا تكون عند الموت.

وأما قول العرب «أرسلت» وهم يريدون أرْسَلَتْ السماء فإن هذا يقـولونـه نظراً إلى الحال، وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجيء المـطر، ولـم ترد في شيء من أشعارهم، ولا في كلامهم المنثـور، وإنما يقـولها بعضهم لبعض إذا جـاء المـطر، فـالفـرق بينهـا وبين «حشـرجت» وبين (بلغت التـراقي) ظـاهـر، وذاك أنّ «حشـرجت» و(بلغت التراقي) يفهم منهـا أن النفس التي حشرجت، وأنهـا هي التي بلغت التـراقي، وأما «أرسلت» فلولا شـاهد الحـال وإلا لم يجز أن تكـون دالة على مجيء المطر، ولو قيل في معرض الاستسقـاء: إنا خـرجنا نسـأل الله فلم نَزَلْ حتى أرسلت؛ لفهم من ذلـك أن التي أرسلت هي السماء، ولا بـد في الكـلام من دليـل على المحذوف، وإلا كان لغواً لا يلتفت إليه.

الضرب الثاني: حذف الفعل وجوابه؛ اعلم أن حـذف الفعل ينقسم قسمين: أحـدهما يـظهر بـدلالة المفعـول عليه، كقـولهم في المثل: أَهْلَكَ وَاللَّيْـلَ، فنصب «أهلك والليل» يدل على محذوف ناصب، تقديره: الْحَقْ أَهْلَكَ وَبَادِرِ اللَّيْلَ، وهـذا مثل يضرب في التحـذير؛ وعليـه ورد قولـه تعالى: ﴿**فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا**﴾

ومما ورد منه في الأخبار النبوية أن جابراً تزوج فقال له رسول الله ﷺ: ما تزوجت؟

= وأنها لم يتقدم لهـا مرجـع وأن الضمير في بيت حـاتم راجع إلى النفس أيضـاً وأنها لم يتقـدم ذكرها، ومثلهمـا قـول الله تعالى: ﴿**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ فإن فـاعل «تـوارت» يعود إلى الشمس ولـم يتقدم لها ذكر، وغاية ما في الأمر أن مرجع ضمير الغائب قد لا يكون مذكوراً في الكلام متقدماً ولا متأخـراً ولا مدلـولاً عليه بشيء في الكـلام، وإنما يكـون مفهومـاً من قرائن الحال، ومن قرائن الحال انحصار للفاعل في شيء معين بسبب فعله، كـالنفس بالنـظر لبلوغ التراقي والحشرجة، وهلم جراً.

قال: ثيباً؛ فقال له: «فَهلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ» يريد فهلا تزوجت جارية، فحذف الفعل لدلالة الكلام عليه.

ومما ورد منه شعراً قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الكافية التي يمتدح بها عضد الدولة أبا شجاع بن بويه، ومطلعها:

* فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا(١) *

وسأذكر الموضع الذي حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض، وهي من محاسن ما يؤتى به في معنى الوداع، ولم يأت لغيره مثلها، وهي:

إِذَا التَّوْدِيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِي ... عَلَيْكَ الصَّمْتُ لَا صَاحَبْتَ فَاكَا
وَلَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ مَا تَمَنَّى ... مُعَاوَدَةٌ لَقُلْتُ وَلَا مُنَاكَا
قَدِ اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ ... وَأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا
فَأَكْتُمُ؟ مِنْكَ نَجْوَانَا وَأُخْفِي ... هُمُوماً قَدْ أَطَلْتُ لَهَا الْعِرَاكَا
إِذَا عَاصَيْتُهَا كَانَتْ شِدَاداً ... وَإِنْ طَاوَعْتُهَا كَانَتْ رِكَاكَا
وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ ... يَقُولُ لَهُ قُدُومِي: ذَا بِذَاكَا
وَمِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إِذَا أَنَخْنَا ... يُقَبِّلُ رَحْلَ تُرْوَكَ وَالْوِرَاكَا(٢)
يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطِّيبَ بَعْدِي ... وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَا(٣)
يُحَدِّثُ مُقْلَتَيْهِ النَّوْمُ عَنِّي ... فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَنْ نَدَاكَا
وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ ... إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَا(٤)

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* فَلَا مَلِكٌ إِذاً إِلَّا فَدَاكَا *

(٢) تروك ـ بضم فسكون ففتح ـ اسم ناقة كان أهداها له عضد الدولة.

(٣) في الأصول «وقد علق العبير» ولها وجه لكنه ضعيف، وما أثبتناه عن الديوان. وصاك الشيء بالشيء: لصق به. قال الأعشى:

وَمِثْلُكِ مُعْجَبَةٌ بِالشَّبَابِ ... وَصَاكَ الْعَبِيرُ بِأَجْلَادِهَا

(٤) الابتشاك ومثله التبشك: الكذب.

وَلَا إِلَّا بِأَنْ يُصْغِي وَأَحْكِي فَلَيْتَكَ لَا يُتَيِّمُهُ هَوَاكَا

فقوله «ولا مُنَاكَا» فيه محذوف، تقديره: ولا صاحبت مناكا، وكذلك قوله «ولا إلا بأن يصغي وأحكي» فإن فيه محذوفاً، تقديره: ولا أرضى إلا بأن يصغي وأحكي.

أما القسم الآخر؛ فإنه لا يظهر فيه قسم الفعل؛ لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه، وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام.

فمما جاء منه قوله تعالى ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقوله ﴿لقد جئتمونا﴾ يحتاج إلى إضمار فعل: أي فقيل لهم لقد جئتمونا، أو فقلنا لهم.

وقد استعمل هذا القرآن الكريم في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ فقوله: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ يحتاج إلى تقدير الفعل المضمر.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فقوله: ﴿وإن جاهداك﴾ لا بد له من إضمار القول: أي وقلنا إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

ومن هذا الضرب إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ وهو لأمركم وحده، وإنما المراد أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم؛ لأن معنى أجمعوا من أجمع الأمر إذا نَوَاه وعزم عليه، وقد قرأ أبي رضي الله عنه ﴿فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم﴾ وهذا دليل على ما أشرت اليه، وكذلك هو مثبت في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل؛ وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ قوله: ﴿فضرب الرقاب﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً؛ فحذف الفعل

وأقيم المصدر مقامه، وفي ذلك اختصار مع إعطاء معنى التوكيد المصدري.

وأما حذف جواب الفعل فإنه لا يكون في الأمر المحتوم، كقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ فجزم يخوضوا ويلعبوا لأنهما جواب أمر ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وحذف الجواب في هذا لا يدخل في باب الإيجاز؛ لأنا إذا قلنا ذرهم أي اتركهم لا يحتاج ذلك إلى جواب، وكذلك ما يجري مجراه، وإنما يكون الجواب بالفاء في ماض، كقولنا: قلت له اذهب فذهب، وحينئذ يظهر الجواب المحذوف، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيراً.فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية؛ فإن تقديره فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميراً، فذكر حاشيتي القصة أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها، أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ.أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ.قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ.فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ فجواب الأمر من هذا الكلام محذوف، تقديره: فأرسله معهم، ويدلنا على ذلك ما جاء بعده من قوله: ﴿فلما ذهبوا به﴾ كما حذف أيضاً في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ.يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ الآية، فجواب الأمر من هذا الموضع محذوف، وتقديره: فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه، فقال له: يوسف أيها الصديق؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ.قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ الآية؛ ففي هذا الكلام حذف واختصار استغنى عنه بدلالة الحال عليه، وتقديره: فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف، فدعا الملك بالنسوة، وقال لهنّ: ما خطبكنّ.

وهكذا ورد قوله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وقد حذف جواب الأمر ههنا، وتقديره: فأَتَوْهُ به، فلما كلمه، وفي سورة يوسف عليه السلام محذوفات كثيرة من أولها إلى آخرها.

فانظر أيها المتأمل إلى هذه المحذوفات المذكورة ههنا التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام؛ لظهور معناها وبيانه، ودلالة الحال عليه، وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون محذوفات الكلام.

الضرب الثالث: حذف المفعول به، وذلك مما نحن بصدده أخص؛ فإن اللطائف فيه أكثر وأعجب، كقولنا: فلان يَحُلّ ويَعْقِد، ويُبْرِم ويَنْقُض ويضر وينفع، والأصل في ذلك على إثبات المعنى المقصود في نفسك للشيء على الإطلاق.

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى • وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

ومن بديع ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ • فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فإن في هاتين الآيتين قد حذف المفعول به في أربعة أماكن؛ إذ المعنى وجد أمةً من الناس يسقون مَواشيهم، وامرأتين تذودان مواشيهما، وقالتا لا نسقي مواشينا، فسقى لهما مواشيهما؛ لأن الغرض[1] أن يعلم أنه كان من الناس سقي ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي؛ فأما كون المسقي غنماً أو إبلاً أو غير ذلك فخارج عن الغرض.

وقد ورد في الشعر من هذا النوع قول الْبَعِيث بن حريث من أبيات الحماسة[2]:

---

(١) هذه علة الحذف.

(٢) من كلمة له اختارها أبو تمام في باب الحماسة، وأولها قوله: =

دَعَـانِي يَـزِيـدُ بَعْـدَ مَـا سَـاءَ ظَنُّـهُ وَعَبْسٌ وَقَـدْ كَـانَـا عَلَى جـدِّ مَنْكِبِ
وَقَـدْ عَـلِمَـا أَنَّ الْـعَـشِـيـرَةَ كُـلَّـهَـا سِـوَى مَحْضَرِي مِنْ حَـاضِـرِينَ وَغُيَّبِ

فالمفعول الثاني من «علما» محذوف؛ لأن قوله: «أن العشيرة» في موضع مفعول علما الأول، وتقدير الكلام: قد علما أن العشيرة سوى محضري من حاضرين وغيب لا غَنَاءَ عندهم، أو سَوَاءٌ حضورُهم وغيبتهم، أو ما جرى هذا المجرى.

ومن هذا الضرب أيضاً حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والإرادة، كقوله تعالى: **﴿لَـوْ شَـاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ﴾** فمفعول شاء ههنا محذوف، وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: **﴿وَلَـوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـدَى﴾** ومما جاء على مثال ذلك شعراً قول البحتري(١):

لَـوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَـاحَـةَ حَـاتِمٍ كَـرَمـاً وَلَـمْ تَـهْـدِمْ مَـآثِـرَ خَـالِـدِ

الأصل في ذلك: لـو شئت ألَّا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها؛ فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه في الثاني.

وقد تقدم أن من الواجب في حكم البلاغة ألَّا تنطق بالمحذوف ولا تظهره إلى اللفظ، ولو أظهرت لصرت إلى كلام غث.

ومجيء المشيئة بعد «لو» وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفةً غير مُعَدَّاة إلى شيء كثيرٌ شائع بين البلغاء، ولقد تكاثر هذا الحذف في «شاء» و«أراد» حتى إنهم لا يكادون يبرزون المفعول، إلا في الشيء المستغرب، كقوله تعالى: **﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾**.

= خَـيَـالٌ لِأُمِّ الـسَّـلْـسَـبِـيـلِ وَدُونَـهَـا مَـسِـيـرَةُ شَـهْـرٍ لِلْـبَـرِيـدِ الْـمُـذَبْـذَبِ
انظر شرح التبريزي (١ ـ ٣٥١).

(١) من كلمة له يمدح فيها الخضر بن أحمد الثعلبي، وأولها قوله:

عَجَبـاً لِـطَيْفِ خَيَـالِـكِ الْمُتَعَـاهِـدِ وَلِـوَصْلِكِ الْمُتَـقَـارِبِ الْـمُـتَبَـاعِـدِ

على هذا الأسلوب جاء قول الشاعر(١):

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلٰكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

فلو كان على حد قوله تعالى ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ لوجب أن يقول: ولو شئت لبكيت دماً، ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه لأنه أليق في هذا الموضع، وسبب ذلك أنه كان بدْعاً عجيباً أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً؛ فلما كان مفعول المشيئة مما يستعظم ويستغرب كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر.

الضرب الرابع: وهو حذف المضاف والمضاف إليه، وإقامة كل واحد منهما مقام الآخر، وذلك باب عريض طويل شائع في كلام العرب، وإن كان أبو الحسن الأخفش رحمه الله لا يرى القياس عليه.

فأما حذف المضاف فكقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فحذف المضاف إلى يأجوج ومأجوج، وهو سَدُّهما، كما حذف المضاف إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية.

ومن ذلك أيضاً قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ أي: خَصْلة من اتقى، وإن شئت كان تقديره ولكن ذا البر من اتقى، والأولى أولى؛ لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع، والخبر أولى بذلك من المبتدأ؛ لأن الاتساع بحذف الأعجاز أولى منه بحذف الصدور.

وقد حذف المضاف مكرراً في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر حافر فرس الرسول؛ وهذا الضرب أكثر اتساعاً من غيره.

ومما جاء منه شعراً قول بعضهم من شعراء الحماسة(٢):

(١) هو للخزيمي يرثي أبا الهيذام من كلمة أولها قوله:

قَضَى وَطَراً مِنْكَ الْحَبِيبُ الْمُوَدِّعُ وَحَلَّ الَّذِي لاَ يُسْتَطَاعُ فَيُدْفَعُ

(٢) نسبهما أبو هلال لجثامة بن قيس أخي بلعاء بن قيس، وانظر شرح التبريزي (٤ ـ ١٧٥).

إذَا لاَقَيْتِ قَوْمِي فاسْأَلِيهِمْ ... كَفَى قَوْماً بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرَا[١]
هَلَ اعْفُو عَنْ أُصُولِ الْحَقِّ فِيهِمْ ... إذَا عَسُرَتْ وَأَقْتَطِعُ الصُّدُورَا

أراد أنه يقتطع ما في الصدور من الضغائن والأوغام: أي يزيل ذلك بإحسانه من عفو وغيره، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

أما حذف المضاف إليه فإنه قليل الاستعمال؛ ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده.

وربما أدخل في هذا الموضع ما ليس منه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قيل: أراد ظهر الأرض، فحذف المضاف إليه، وليس كذلك؛ فإن الهاء والألف قائمة مقام الأرض، ألا ترى أن قوله: ﴿ظهرها﴾ يريد الأرض؛ لأنه ضمير راجع إليها.

وكذلك ورد قول جرير[٢]:

إذَا أَخَذَتْ قَيْسٌ عَلَيْكَ وَخِنْدِفُ ... بِأَقْطَارِهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ أَيْنَ تَسْرَحُ[٣]

وهذا لا يسمى إيجازاً، وإنما هو تعويض[٤] بالضمير عن الضمير.

الضرب الخامس: وهو حذف الموصوف والصفة، وإقامة كل منهما مقام الآخر، ولا يكون اطراده في كل موضع، وأكثره يجيء في الشعر، وإنما كانت كثرته في الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس في اطراده.

فمما جاء منه في الشعر قول البحتري من أبيات في صفة إيوان كسرى[٥]؛ فقال في

---

(١) رواية الحماسة «كفى قومي بصاحبهم خبيراً».

(٢) من قصيدة له أولها:

أَجِدَّ رَوَاحُ الْقَوْمِ أمْ لاَ تَرَوُّحُ ... نَعَمْ كُلُّ مَنْ يُعْنَى بِجُمْلٍ مُتَرَّحُ

(٣) وقع في ب، ج «بأنظارها» وهو تحريف، وصوابه من الديوان والنقائض.

(٤) في ب، ج «تعريض» بالراء المهملة، وهو تحريف، والتصويب عن ١.

(٥) من قصيدته التي مطلعها قوله:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

ذكر التصاوير التي في الإيوان، وذلك أن الفُرْسَ كانت تحارِبُ الروم فَصَوَّرُوا صورة مدينة أنْطَاكية في الإيوان وحرب الروم والفرس عليها؛ فمما ذكره في ذلك قوله:

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كِيَّةَ ٱرْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ
وَالْمَنَايَا مَوَاثِلُ وَأَنُوشِرْ وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ[١]
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْ فَرَ يَخْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ

فقوله «على أصفر» أي: على فرس أصفر، وهذا مفهوم من قرينة الحال؛ لأنه لما قال «على أصفر» علم بذلك أنه أراد فرساً أصفر.

والصفة تأتي في الكلام على ضربين: إما للتأكيد والتخصيص، وإما للمدح والذم، وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل، لا من مقامات الإيجاز والاختصار، وإذا كان الأمر كذلك لم يلق الحذف به، هذا، مع ما ينضاف إليه من الالتباس وضد البيان، ألا ترى أنك إذا قلت: مررت بطويل، لم يبن من هذا اللفظ الممرور به إنسان هو أم رُمْح أم ثَوب أم غير ذلك، وإذا كان الأمر على هذا فحذف الموصوف إنما هو شيء قام الدليل عليه أو شهدت به الحال، وإذا استبهم كان حذفه غير لائق.

ومما يؤكد عندك ضعف حذفه أنك تجد من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه، وذاك أن تكون الصفة جملة، نحو: مررت برَجُلٍ قام أبوه، ولقيت غلاماً وَجْهُهُ حسن، ألا تراك لو قلت: مررت بقام أبوه، ولقيت وجهه حسن؛ لم يجز.

وقد ورد حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ فإنه لم يرد أن الناقة كانت

---

(١) وقع هذا البيت في ب، ج محرفاً تحريفاً شنيعاً، ونحن نثبته لك على صورته الصحيحة، ونذكر لك ههنا صورته فيهما لتعرف مقدار الفساد الذي أصابه، فقد ورد على هذه الصورة:

والمنايا مواثلٌ وأنوشِرْ وان يرمي الصفوف تحت الدرس

والدرفس: اسم راية أنوشروان.

مبصرة، ولم تكن عمياء، وإنما يريد آية مبصرة، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه.

ولقد تأملت حذف الموصوف في مواضع كثيرة فوجدت أكثر وقوعه في النداء وفي المصدر؛ أما النداء فكقولهم: يا أَيُّهَا الظَّرِيف، تقديره: يا أيها الرجل الظريف، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ تقديره: يا أيها الرجل الساحر، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تقديره: يا أيها القوم الذين آمنوا، وأما المصدر فكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللهِ مَتَاباً﴾ تقديره: ومن تاب وعمل عملاً صالحاً.

وقد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ﴾ أي: قوم دون ذلك.

وأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها، فإنه أقلُّ وجوداً من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، ولا يكاد يقع في الكلام إلا نادراً؛ لمكان استبهامه.

فمن ذلك ما حكاه سيبويه رحمه الله من قولهم: سِيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ، وهم يريدون ليل طويل، وإنما حذفت الصفة في هذا الموضع لما دلّ من الحال عليه، وذاك أنه يحسن في كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وهو أن يكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: «كان والله رجلاً» أي رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريماً، أو ما جرى هذا المجرى من الصفات، وكذلك تقول: «سألناه فوجدناه إنساناً» أي إنساناً سَمْحاً، أو جواداً، أو ما أشبهه، فعلى هذا ونحوه تحذف الصفة، فأما إن عَرِيَت عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز.

وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ إلا في صفة تقدمها ما يدل عليها، أو تأخر عنها، أو فهم ذلك من شيء خارج عنها:

أما الصفة التي تقدمها ما يدل عليها فقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ

غَضْباً﴾ فحذف الصفة: أي كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً، ويدلّ على المحذوف قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فإن عَيْبَهُ إياها لم يخرجها عن كونها سفينة، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب، فحذفت الصفة ههنا لأنه تقدمها ما يدلّ عليها.

وأما التي تأخر عنها ما يدلّ عليها فقول بعض شعراء الحماسة(١):

كُلُّ امْرِيءٍ سَتَئِيمُ مِنْـــهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَئِيمُ(٢)

فإنه أراد كل امريء متزوّج؛ إذ دلّ عليه ما بعده من قوله: «ستئيم منه أو منها يئيم» إذ لا تئيم هي إلا من زوج ولا يئيم هو إلا من زوجة، فجاء بعد الموصوف ما دلّ عليه، ولولا ذلك لما صح معنى البيت؛ إذ ليس كل امريء يئيم من عرس إلا إذا كان متزوّجاً.

وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شيء خارج عن الكلام فقول النبيّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إِلاَّ فِي المَسْجِدِ» فإنه قد علم علم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث؛ فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال، وهذا شيء لم يعلم من نفس اللفظ، وإنما علم من شيء خارج عنه.

الضرب السادس: وهو حذف الشرط وجوابه.

فأما حذف الشرط فنحو قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ فالفاء في قوله تعالى: ﴿فاعبدون﴾ جواب شرط محذوف، لأن المعنى إن أرضي واسعة فإن لم تُخْلِصُوا لى العبادة في أرض فأخلصوها في غيرها،

---

(١) هو يزيد بن الحكم الثقفي، والكلمة التي منها هذا البيت يعظ فيها ابنه بدراً، وأولها قوله:

يَا بَدْرُ وَالأَمْثَالُ يَضْرِبُهَا لِذِي اللُّبِّ الْحَكِيمُ.

(٢) وقع في ج، ب «ستنيم» بالنون في كل موضع ذكرت فيه هذه الكلمة وهو تحريف شنيع، والتصحيح عن ديوان الحماسة وشرحه (انظر شرح التبريزي: ٣٠ ـ ١٨٣). وتقول: آمت المرأة تئيم أَيْمًا وَأَيْمَةً وَأُيُوماً؛ إذا مات زوجها.

ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فَحَلَقَ فعليه فدية.

وكذلك قولهم: الناس مَجْزِيُّونَ بأعمالهم: إنْ خَيْراً فخيراً، وإن شرًّا فشراً: أي إن فَعَلَ المرءُ خيراً جُزي خيراً، وإن فَعَلَ شرًّاً جُزي شراً.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تقدير ذلك: فأفطر فعدة من أيام أخر؛ ولهذا ذهب داود الظاهري إلى الأخذ بظاهر الآية، ولم ينظر إلى حذف الشرط؛ فأوجب القضاء على المريض والمسافر، سواء أفطر أم لم يفطر.

ومن حذف الشرط قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ•وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ اعلم أن هذه الفاءَ التي في قول الشاعر: «فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا»[١] وحقيقتها أنها في جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام، كأنه قال: إن صحّ ما قلتم إن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص، وكذلك هذه الآية، يقول: إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث: أي قد تبين بطلان قولكم.

أما حذف جواب الشرط فكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن جواب الشرط ههنا محذوفٌ تقديره: إن كان القرآن من عند

---

(١) يشير إلى قول الشاعر:

قَالُوا خُراسانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ، فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا

الله وكفرتم به ألستم ظالمين، ويدل على المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

الضرب السابع: وهو حذف القسم وجوابه:

فأما حذف القسم فنحو قولك «لَأَفْعَلَنَّ» أي والله لأفعلن، أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها.

وأما حذف جوابه فكقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ۝وَلَيَالٍ عَشْرٍ۝وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ۝هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ۝إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ۝ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ﴾ فجواب القسم ههنا محذوف، تقديره: لَيُعَذَّبُنَّ، أو نحوه، ويدل على ذلك ما بعده من قوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾؛ إلى قوله: ﴿سَوْطَ عذاب﴾.

ومما ينتظم في هذا السلك قوله تعالى: ﴿قٓ۝وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فإن معناه ق والقرآن المجيد لَتُبْعَثُنَّ، والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث في قوله: ﴿أَئِذا متنا وكنا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيد﴾.

وقد ورد هذا الضرب في القرآن كثيراً؛ كقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً۝وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً۝وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً۝فَٱلسَّابِقَاتِ سَبْقاً۝فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً۝يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ۝تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ فجواب القسم ههنا محذوفٌ، تقديره: لَتُبْعَثُنَّ أو لَتُحْشَرُنَّ، ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة في قوله: ﴿يوم ترجف الراجفة۝تتبعها الرادفة﴾ وكذلك إلى آخر السورة.

الضرب الثامن: وهو حذفُ «لو» وجوابها، وذاك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها.

فأما حذف «لو» فكقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ

﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تقديره ذلك إذا لو كان معه آلهة لذهب كل إلهٍ بما خلق.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ تقديره: إذا لو فعلتَ ذلك لارتاب المبطلون، وهذا من أحسن المحذوفات.

ومما جاء من ذلك شعراً قول بعضهم في صدر الحماسة[1]:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بَنُو ٱللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا
إِذاً لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عِنْدَ الْحَفِيظَةِ إِنْ ذُو لُوثَةٍ لَانَا

فلو في البيت الثاني محذوفة؛ لأنها في البيت الأول قد استوفت جوابها بقوله: «لم تستبح إبلي» ثم حذفها في الثاني، وتقدير حذفها إذا لو كنت منهم لقام بنصري معشر خشن، وإذا لو كانوا قومي لقام بنصري معشر حسن.

وأما حذف جواب «لو» فإنه كثير شائع، وذلك كقولك: لو زُرْتَنَا لو أَلْمَمْتَ بنا، معناه لأحسنا إليك، أو لأكرمناك، أو ما جرى هذا المجرى.

ومما ورد منه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ فإن جواب «لو» ههنا محذوف، تقديره: لرأيت أمراً عظيماً، وحالاً هائلة، أو غير ذلك مما جرى مجراه.

ومما جاء على نحو من هذا قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ تقديره لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه، وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون ناصراً ينصرهم؛ لَمَا كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هَوَّنَهُ عليهم.

---

(١) هو قريط بن أنيف (بزنة التصغير فيهما) أحد بني العنبر.

ومما يجري على هذا النهج قوله تعالى: ﴿لَو أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فجواب لو في هذا الموضع محذوفٌ، كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لو أن لي بكم قوة لدفعتكم، أو منعتكم، أو ما أشبهه، وكذلك قوله: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ لكان هذا القرآن.

وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة وأوضحها؛ لعلم المخاطب به؛ لأن قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ يتسارع الفهم [فيه] إلى أن الكلام يحتاج الى جواب.

ومما جاء منه شعراً قول أبي تمام في قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورية[1].

لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنَتْ لَهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضُبِ[2]

فإن هذا محذوف الجواب، تقديره: لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أُهْبَة الحذار، أو غير ذلك.

وأعلم أن حذف هذا الجواب لا يسوغ في أي موضع كان من الكلام، وإنما يحذف ما دلّ عليه مكان المحذوف، ألا ترى أنه قد ورد في القرآن الكريم غير محذوف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ.لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ وهذا ليس كالذي تقدم من الآيات؛ لأن تلك علم مكان المحذوف منها، وهذه الآية لو حذف الجواب فيها لم يعلم مكانه؛ لأنه يحتمل وجوهاً، منها أن يقال: لَما آمنوا، أو لَطَلَبُوا ما وراء ذلك، وقد تقدم القول في أول باب الإيجاز أنه لا بد من دلالة الكلام على المحذوف.

الضرب التاسع: وهو حذف جواب «لولا»

---

(١) أول هذه القصيدة قوله:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

(٢) في الديوان «كمنت له المنية».

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِٱللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِٱللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فجواب «لولا» ههنا محذوف، تقديره: لَمَا أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تقديره: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعجَّل لكم العذاب، أو فعل بكم كذا وكذا.

الضرب العاشر: وهو حذف جواب «لَمَّا» وجواب «أمَّا».

فأما حذف جواب «لما» فكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن جواب «لما» ههنا محذوف، وتقديره: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حُلوله، وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه الْمِحْنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة، وقوله «إنا كذلك نجزي المحسنين» تعليل لِتَخْويل ما خَوَّلهما من الفرح والسرور بعد تلك الشدة العظيمة.

وأما حذف جواب «أما» فنحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

الضرب الحادي عشر: وهو حذف جواب «إذا».

فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ألا ترى كيف حذف الجواب عن «إذا» في هذا الكلام، وهو مدلول عليه بقوله: ﴿إلا كانوا

عنها معرضين﴾ كأنه قال: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا، ثم قال: ودأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.

الضرب الثاني عشر: حذف المبتدأ والخبر.

أما حذف المبتدأ فلا يكون إلا مفرداً، والأحسن هو حذف الخبر؛ لأن منه ما يأتي جملة؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّـلائِي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّـلائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وههنا قد حذف خبر المبتدأ، وهو جملة من مبتدأ وخبر، وتقديرها: واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر(١).

ومما ورد منه شعراً قول أبي عُبَادة البحتري(٢):

كُلُّ عُذْرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَلَكِنْ أَعْوَزَ الْعُذْرُ مِنْ بَيَاضِ الْعِذَارِ

وهذا قد حذف منه خبر المبتدأ، إلا أنه مفرد غير جملة، وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول، أو مسموع، أو ما جرى هذا المجرى.

الضرب الثالث عشر: وهو حذف «لا» من الكلام، وهي مرادة.

وذلك كقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ يريد به لا تفتؤ: فحذفت «لا» من الكلام وهي مرادة.

وعلى هذا جاء قول امريء القيس(٣):

---

(١) لا يلزم هذا التقدير حتى يكون من حذف الجملة، بل يجوز أن يكون التقدير: واللائي لم يحضن كذلك؛ فيكون من حذف الجار والمجرور، أو يكون التقدير: واللائي لم يحضن مثلهن؛ فيكون من حذف اسم مفرد.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد ويستوهبه غلاماً، وأولها قوله:

أَبُكَاءً فِي الدَّارِ بَعْدَ الدَّارِ وَسُلُوّاً بِزَيْنَبٍ عَنْ نَوَارِ

وانظر الديوان (٢ ـ ٢٤ مصر).

(٣) من قصيدة له مطلعها قوله:

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الخَالِي

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

أي: لا أبرح قاعداً، فحذفت «لا» في هذا الموضع وهي مرادة.

ومما جاء منه قول أبي مِحْجَنٍ الثقفي لما نهاه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن شرب الخمر، وهو إذ ذاك في قتال الفرس بالقادسية[1]:

رَأَيْتُ الْخَمْرَ صَالِحَةً وَفِيهَا ... مَنَاقِبُ تُهْلِكُ الرَّجُلَ الْحَلِيمَا
فَلاَ وَاللهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي ... وَلاَ أَسْقِي بِهَا أَبَداً نَدِيمَا

يريد «لا أشربها»؛ فحذف «لا» من الكلام وهي مفهومه منه.

الضرب الرابع عشر: وهو حذف الواو من الكلام وإثباتها.

وأحسن حذوفها في المعطوف والمعطوف عليه، وإذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وإيجازاً، كقول أنس بن مالك رضي الله عنه: كان أصحاب رسول الله ﷺ يَنَامُونَ يُصَلُّونَ ولا يَتَوَضَّئُونَ، أو قال: ثم يصلون لاَيَتَوَضَّئُونَ، فقوله «لا يتوضئون» ـ بحذف الواو ـ أبلغ في تحقيق عدم الوضوء من قوله «ولا يتوضئون» بإثباتها؛ كأنه جعل ذلك حالةً لهم لازمة: أي أنها داخلة في الجملة، وليست جملة خارجة عن الأولى؛ لأن واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه، وإذا حذفت في مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جملة واحدة.

وقد جاء مثل ذلك في القرآن الكريم، وذلك أنه يذكر جمل من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها، ثم تسرد سرداً بغير عاطف، كقوله تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ تقدير هذا الكلام: لا يألونكم ووَدُّوا ما عنتم

---

(١) لم أجد هذين البيتين في ديوان أبي محجن الثقفي الذي رواه وشرحه أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري صاحب الصناعتين وهو مطبوع في ليدن (عام ١٣٠٣ من الهجرة).

وقد بدت البغضاء من أفواههم، فلما حذفت الواو جاء الكلام أوجز، وأحسن طلاوة، وأبلغ تأليفاً ونظماً، وأمثاله في القرآن الكريم كثير.

واعلم أنه قد حذفت الواو وأثبتت في مواضع؛ فأما إثباتها فنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾، وأما حذفها فنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾.

وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو وإثباتها في كل موضع، وإنما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين.

ولنبين لك في ذلك رسْماً تَتَّبعه، فنقول: اعلم أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد «إلّا» يجوز إثبات الواو في خبره وحذفها، كقولك: ما رأيت رجلاً إلا وعليه ثياب، وإن شئت قلت: إلا عليه ثياب، بغير واو؛ فإن كان الذي يقع على النكرة ناقصاً فلا يكون إلا بحذف الواو، نحو قولك: ما أظن دِرهَماً إلا هو كافيك، ولا يجوز إلا وهو كافيك، بالواو؛ لأن الظن يحتاج ألى شيئين، فلا يعترض فيه بالواو؛ لأنه يصير كالمكتفي من الأفعال باسم واحد، وكذلك جواب ظَنَنْتُ وكَانَ وإنّ وأشباهها، فخطأ أن تقول: إن رجلاً وهو قائم، ونحو ذلك، ويجوز هذا في «ليس» خاصة، تقول: ليس أحد إلا وهو قائم؛ لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة[١] ألا ترى أنك تقول: ليس أحد، وما من أحد، فجاز فيها إثبات الواو، ولم يجوز في أظن؛ لأنك لا تقول: ما أظن أحداً، فأما أصبح وأمسى ورأى فإن الواو فيهن أسهل؛ لأنهن توأم في حال[٢]، وكان وأظن ونحوهما بنين على النقص، إلا إذا كانت تامة، وكذلك «لا» في التنزيه وغيرها، نحو: لا رجل، وما من رجل؛ فيجوز إثبات الواو فيها وحذفها.

---

(١) في جميع الأصول «بليس وبحرف نكرة» ونرى أنه لا بد من زيادة الواو حتى تصير العبارة «يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة» والمعنى أن الكلام قد يتوهم تمامه بليس ونكرة نحو ليس أحد، وبحرف ونكرة نحو ما من أحد.

(٢) يريد أخوات الحال؛ إذ يقرب معناهن من معنى الحال، وهو «في حال كذا».

واعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئاً لا يجوز القياس عليه، كقول بعضهم[١]:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمَ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكِتَّانِ مَلْثُومُ[٢]

فقوله «بسَبَا الكتان» يريد بسبائب الكتان[٣]، وكذلك قول الآخر:

يُذْرِينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لِجُنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تُذْكِي سَنَابِكُهَا الْحُبَا[٤]

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن، وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله.

---

(١) هو علقمة بن عبدة، من قصيدة طويلة أولها قوله:

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ أَمْ حَبْلُهَا إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مَصْرُومُ

(٢) شبه الإبريق بظبي في طول عنقه وإشرافه، وجعله على شرف وهو المكان العالي المشرف لأن ذلك مما يزيد في طول عنقه للناظر، ومفدم ـ بالفاء ـ جعل الفدام ـ بزنة كتاب ـ على فيه، والفدام: خرقة تجعل في فم الإبريق، ووقع في الأصول «مقدم» بالقاف، وهو تحريف.

(٣) سبائب الكتاب: جمع سبيبة، وهي الشقة مطلقاً، وقيل: هي الشقة البيضاء، ومثل الحذف في هذا البيت قول لبيد:

دَرَسَ الْمَنَا بِمُتَالِعٍ فَأَبَانِ وَتَقَادَمَتْ بِالْحَبْسِ فَالسُّوبَانِ

(٤) وقع هذا البيت في ا، ب، ج على صورة من التحريف الغريب، وهي:

يَذْرُ بْنُ جَنْدَل حائز لجنوبها فكأنما تذكي سنابكها الحبا

والصواب ما أثبتناه، وهو في اللسان (ح ب ح ب) ويذرين: مضارع أذرى مسنداً إلى نون النسوة والمراد بها الخيل، والجندل: الصخر، والحائر ـ بالراء المهملة، وأراد الحباحب وهو رجل من بني محارب بن خصفة، وكان لا يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا ترى، فضرب بناره المثل؛ لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فقالوا: نار الحباحب، لما تنيره الخيل بحوافرها، وربما جعلوا الحباحب اسماً لتلك النار، كما قال الكسعي:

مَا بَالُ سَهْمِي يُوقِدُ الْحُبَاحِبَا قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَائِبَا

ويقال: الحباحب: طائر أطول من الذباب في دقة يطير فيما بين المغرب والعشاء كأنه شرارة. ومعنى البيت الذي نحن بصدد شرحه أن هذه الخيل تذري الحصا في جريها فتصبب به جنوبها.

وأمـا القسم الثاني من الإيجاز فهو مـا لا يحذف منه شيء، وذلك ضـربان: أحدهما: مأساوي لفظه معناه، ويسمى التقدير، والآخـر: ما زاد معنـاه على لفظه، ويسمى الإيجاز بالقصر.

فـأما الإيجـاز بالتقـدير فـإنه الـذي يمكن التعبير عن معنـاه بمثـل ألفـاظه وفي عدتها.

أما الإيجاز بالقصر فإنه ينقسم قسمين: أحدهما: ما دل لفظه على محتملات متعددة، وهذا يمكن التعبير عنه بمثـل ألفاظـه وفي عدتهـا، والآخر: مـا يدل لفـظه على محتمـلات متعددة، ولا يمكن التعبيـر عنه بمثـل ألفاظـه وفي عدتهـا، لا، بل يستحيل ذلك.

ولنـورد الآن الضرب الأول الـذي هو الإيجـاز بالتقـدير، فممـاجاء منه قولـه تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ.مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَـهُ فَقَدَّرَهُ.ثُمَّ السَّبِيـلَ يَسَّرَهُ.ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ.ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ.كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ فقوله ﴿قتل الإنسان﴾ دعاء عليه، وقوله ﴿ما أكفره﴾ تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله عليه، ولا نرى أسلوبـاً أغلظ من هذا الـدعاء والتعجب، ولا أخشن مَسًّـا، ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيـه، ولا أجمع لـلأئمة على قِصـرَ متنه، ثم إنـه أخذ في صـفة حالـه من ابتـداء حدوثـه إلى منتهى زمانـه، فقال ﴿من أي شيء خلقـه﴾ ثم بين الشيء الذي خلق منه بقوله ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ أي: هيأه لما يصلح له ﴿ثم السبيل يسره﴾ أي: سَهَّـل سبيله وهو مخـرجه من بـطن أمـه، أو السبيـل الـذي يختـار سلوكـه من طريقي الخير والشر، والأول أولى؛ لأنه تالٍ لخلقته وتقـديره، ثم بعـد ذلك يكـون تيسير سبيله لما يختاره من طريقي الخير والشر ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي: جعله ذا قبـر يُوَارَى فيه ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي: أحياه ﴿كلا﴾ ردع للإنسان عما هو عليـه ﴿لما يقض ما أمره﴾ أي: لم يقض مع تَطَاوُل زمـانه مـا أمره الله بـه، يعني أن إنسانـاً لم يخل من تقصير قط، ألا ترى إلى هذا الكلام الذي لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك، لأنك كنت تذهب بجزء من معناه، والإيجاز: هو ألّا يمكنك أن تسقط شيئاً من ألفاظه.

والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فقوله ﴿فله ما سلف﴾ من جوامع الكلم، ومعناه أن خطاياه الماضية قد غفرت له وتاب الله عليه فيها، إلا أن قوله ﴿فله ما سلف﴾ أبلغ: أي أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنما هو له، وكذلك ورد قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فعليه كفره كلمة جامعة تغني عن ذكر ضروب من العذاب؛ لأن من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة.

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فهذه الآية من جوامع الآيات الواردة في القرآن الكريم؛ وروي أن النبيّ ﷺ قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له: يا ابن أخي، أعِدْ، فأعاد النبي ﷺ قراءتها عليه، فقال له: إنَّ له لَحَلاَوة، وَإنَّ عَليهِ لَطَلاَوَة، وإنَّ أعلاه لَمُثْمِر، وإن أسفله لَمُغْدِق، وما هو بقول البشر.

ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وهذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التي دلّت على تخويف وإرهاب ترقّ القلوب، وتَقْشَعِرّ منه الجلود، وهي مشتملة مع قصرها على حال الإنسان منذ خلقه إلى حين حشره وحشر غيره من الناس، وتصوير ذلك الأمر الفظيع في أسهل لفظ وأقربه، وما مررت عليها ألا جَدَّت لي موعظةً وأحدثت عندي إيقاظاً.

ومن هذا الضرب ما ورد عن النبيّ ﷺ في دعائه لأبي سلمة عند موته فقال: «اللّهمَّ ارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمُهْتَدِينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ» وهذا دعاء جامع بين الإيجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها؛ فأوله مفتتح بالمهمّ الذي يفتقر إليه المدعوّ له في تلك الحال، وهو رفع درجته في

الآخرة، وثانيه مردف بالمهم الذي يؤثر المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا، وثالثه مختتم بالجمع بين الداعي والمدعو له، وهذا من الإيجاز البليغ الذي هو طباق ما قصد له، وكلام النبيّ ﷺ هكذا كما قال: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ».

وكذلك ورد قوله ﷺ يوم بدر؛ فإنه قال: «هٰذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ» وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿فله ما سلف﴾.

ولما جرح عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجراحة التي مات بها اجتمع إليه الناس، فجاءه شابٌّ من الأنصار، وقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله، لَكَ مِنْ صُحْبة رسول الله وقدم في الإعلام ما علمت، ووليت فعدلت، ثم شهادة.

وهذا كلام سديد قد حوى المعنى المقصود، وأتى به في أوجز لفظ وأحسنه؛ ومع ما فيه من الإيجاز فإنه مستغرب، وسبب استغرابه أنه جعل المَسَاءة بُشْرَى، وأخرجها مُخْرَج المسرة، وتلطف في ذلك فأبلغ، ولو أراد الكاتب البليغ والخطيب المِصْقَع، أن يأتي بذلك على هذا الوجه لأعوزه.

ومن هذا النمط ماكتبه طاهر بن الحسين إلى المأمون عند لقائه عيسى بن مَاهَان وهَزْمه إياه وقتله؛ فكتب إليه: كتابي إلى أمير المؤمنين ورأسُ عيسى بن مَاهَانَ بين يديّ، وخاتمه في يدي، وعسكره مصرف تحت أمري، والسلام.

وهذا من الكتب المختصرة التي حَوَتِ الغرضَ المطوّل، وما يكتب في هذا المقام مثله.

ولما أرسل المهلب بن أبي صفرة أبا الحسن المدائني إلى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الأزارقة كلمه كلاماً مُوجَزاً كالذي نحن بصدد ذكره ههنا، وذاك أن الحجاج سأله فقال: كيف تركت المهلب؟ فقال: أدرك ما أمَّل، وأمِنَ ممَّا خاف؛ فقال: كيف هو لجنده؟ قال: والد رَءُوف، قال: كيف جنده له؟ قال: أولاد بَرَرَة؛ قال: كيف رِضاهم عنه؟ قال: وَسِعَهُم بفضله، وأغْنَاهم بِعَدْله؛ قال: كيف تَصْنَعُون إذا لقيتم العدوّ؟ قال: نلقاهم بجدنا، ويلقوننا بجدهم، قال: كذلك الجد إذا لقي الجد؛ قال: فأخبرني عن بني المهلب؛ قال: هم أحْلَاسُ القتال بالليل، حُمَاة

السرج بالنهار، قال: أيهم أفضل؟ قال: هم كحلقة مَضْرُوبة لا يُعْرَفُ طَرَفاها؛ فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله هو الكلام الْفَصْل الذي ليس بمصنوع.

وقد ورد في الأخبار النبوية من هذا الضرب شيء كثير، وسأورد منه أمثلة يسيرة.

فمن ذلك قول النبي ﷺ: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ» وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة، وذاك أنه يشتمل على جلّ الأحكام الشرعية؛ فإن الحلال والحرام إما أن يكون الحكم فيهما بيناً لا خلاف فيه بين العلماء، وإما أن يكون خافياً يتجاذبه وُجُوه التأويلات؛ فكل منهم يذهب فيه مذهباً.

وكذلك جاء قوله ﷺ: «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَانَوَى» فإن هذا الحديث أيضاً من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية.

ومن ذلك قوله ﷺ: «الْمُضعِفُ أَمِيرُ الرَّكْبِ» وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر، فقال ﷺ: «سيروا بسير أضعفكم» إلا أن الأول أحسن؛ لأنه أبلغ معنى فإن الأمير واجب الحكم فهو يُتَّبع، وإذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم، وهذا المعنى لا يوجد في قوله: «سيروا بسير أضعفكم».

وأحسن من هذا كله ما ورد عنه ﷺ في حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته: «مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» فقوله: «تعبد الله كأنك تراه» من جوامع الكلم؛ لأنه ينوب مناب كلام كثير، كأنه قال: تعبد الله مخلصاً في نيتك، واقفاً عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع، آخذاً أُهْبَة الحذر، وأشباه ذلك؛ لأن العبد إذا خدم مولاه ناظراً إليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل وما ينتهي إليه الطَّوْق.

ومما أطربني من ذلك حديث الحديبية، وهو أنه جاء بُدَيْلُ بن ورْقَاء إلى النبي ﷺ فقال له: إني تركتُ كَعْبَ بن لؤي بن عامر بن لؤي معهم العُوذُ المَطَافِيلُ، وهم مُقَاتِلُوك وصَادُّوك عن البيت؛ فقال له النبيّ ﷺ: «إنَّ قُرَيْشاً قَدْ نَهَكَتْهُمْ

الْحَرْبُ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً ويَدَعُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرْ عَلَيْهِمْ وَأَحَبُّوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ وَإِلَّا كَانُوا قد جموا، وَإِنْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هٰذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي هٰذِهِ وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ» وهذا الحديث من جوامع الكلم، وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف الواصف.

وأما ما ورد من ذلك شعراً فقول النابغة[١]:

وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وتخصيصه الليل دون النهار مما يُسْأَلُ عنه.

وكذلك قوله[٢]:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول الأعشى في اعتذاره إلى أوْسِ بن لام عن هجائه إياه[٣]:

وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي لَنَادِمٌ ... وَإِنِّي إِلَى أَوْسِ بْنِ لَامٍ لَتَائِبُ
وَإِنِّي إِلَى أَوْسٍ لِيَقْبَلَ عِذْرَتِي ... وَيَصْفَحَ عَنِّي مَا حَيِيتُ لَرَاغِبُ
فَهَبْ لِي حَيَاتِي فَالْحَيَاةُ لِقَائِمٍ ... بِشُكْرِكَ فِيهَا خَيْرُ مَا أَنْتَ وَاهِبُ
سَأَمْحُو بِمَدْحٍ فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ ... كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

وهذا من المعاني الشريفة في الألفاظ الخفيفة، وهو من طنانات الأعشى المشهورة.

---

(١) من قصيدة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر، وأولها قوله:

عَفَا ذُو حسًى مِنْ فَرْتَنَى فَالْفَوَارِعُ ... فَشَطَّا أرِيكٍ فَالتِّلَاعُ الدَّوَافِعُ

(٢) من كلمة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر أيضاً، وأولها قوله:

أَتَانِي ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ! ـ أَنَّكَ لُمْتَنِي ... وَتِلْكَ الَّتِي أهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

(٣) هذه الأبيات مذكورة في زيادات ديوان الأعشى، وليس معها شيء.

وعلى نحو منه جاء قول الفرزدق[١]:

صَبَحْنَاهُمُ الشُّعْثَ الْجِيَادَ كَأَنَّهَا قَطاً هَيَّجَتْهُ يَوْمَ رِيحٍ أَجَادِلُهْ[٢]
إِلَى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بَنَاتِهِمْ بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ كَثِيرٍ صَوَاهِلُهْ[٣]
إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْكَحَتْنَا رِمَاحُنَا مِنَ الْقَوْمِ أَبْكَاراً كِرَاماً عَقَائِلُهْ
وَإِنَّا لَمَنَّاعُونَ تَحْتَ لِوَائِنَا حِمَانَا إِذَا مَا عَادَ بِالسَّيْفِ حَامِلُهْ

وهذا من محاسن ما يجيء في هذا الباب.

ومما يجري هذا المجرى قول جرير[٤]:

تَمَنَّى رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ مَنِيَّتِي وَمَا ذَادَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ ذَائِدٌ مِثْلِي[٥]
فَلَوْ شَاءَ قَوْمِي كَانَ حِلْمِي فِيهِمُ وَكَانَ عَلَى جُهَّالِ أَعْدَائِهِمْ جَهْلِي[٦]

---

(١) من قصيدة له أولها:

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِي وَأَهْلِهِ وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُهْ

وهي إحدى مناقضاته لجرير.

(٢) رواية النقائض:

صَبَحْنَاهُمُ الْجُرْدَ الجِيَادَ كَأَنَّهَا قَطاً أَفْزَعَتْهُ يَوْمَ طَلٍّ أَجَادِلُهْ

(٣) رواية النقائض:

إِلَى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بَنَاتِهِمْ بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ جَمٍّ صَوَاهِلُهْ

والمراد بالأرعن الجيش، وهذا البيت متصل بما بعده في النقائض ولكن بينه وبين الذي قبله في رواية النقائض أبيات كثيرة.

(٤) من قصيدة له يهجو فيها البعيث والفرزدق، وأولها قوله:

عُوجِي عَلَيْنَا وَارْبَعِي رَبَّةَ الْبَغْلِ وَلَا تَقْتُلِينِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي

(٥) رواية النقائض والديوان:

* تَمَنَّى رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ لِيَ الرَّدَى *

(٦) في ا، ب، ج:

* وَكَانَ عَلَى جُهَّالِ أَعْدَائِهِمْ مِثْلِي *

=

وكذلك ورد قوله متغزلاً، وهو من محاسن أقواله(١):

سَـرَتِ الْـهُمُـومُ فَبِتْنَ غَـيْـرَ نِيَـامِ   وَأَخُـو الْـهُمُـومِ يَـرُومُ كُـلَّ مَـرَامِ
ذُمَّ الـمَنَـازِلَ بَـعْـدَ مَـنْـزِلَـةِ الـلِّوَى   وَالْـعَـيْشَ بَـعْـدَ أُولَئِـكَ الأَقْـوَامِ
وَلَـقَـدْ أَرَاكِ وَأَنْتِ جَـامِعَـةُ الْهَـوَى   أَثْنِي بِـعَـهْـدِكِ خَـيْـرَ دَارِ مُقَـامِ
طَـرَقَتْـكَ صَـائِـدَةُ الْقُلُوبِ فَلَيْسَ ذَا   حِيـنَ الـزِّيَـارَةِ فَـارْجِعِي بِسَـلَامِ
تُجْـرِي السِّـوَاكَ عَـلَى أَغَـرَّ كَـأَنَّـهُ   بَـرَدٌ تَـحَـدَّرَ مِنْ مُـتُـونِ غَـمَـامِ
لَـوْ كَـانَ عَهْـدُكِ كَـالَّـذِي حَـدَّثْتِنَـا   لَـوَصَلْتِ ذَاكِ فَكَـانَ خَـيْـرَ ذِمَـامِ
وَلَـقَـدْ أَرَانِـي وَالْـجَـدِيـدُ إِلَى بِـلًى   فِي مَـوْكِبٍ طُـرُفِ الْـحَـدِيثِ كِرَامِ(٢)
لَـوْلَا مُرَاقَـبَـةُ الْـعُـيُـونِ أَرَيْـتِـنَـا   حَـدَقَ الـمَـهَـا وَسَـوَالِـفَ الآرَامِ(٣)
وَإِذَا صَـرَفْـنَ عُـيُـونَـهُـنَّ بِـنَـظْرَةٍ   نَفَـذَتْ نَـوَافِـذُهَـا بِغَيْـرِ سِهَـامِ(٤)
هَـلْ تَـنْـفَـعَـنَّـكَ إِنْ قَـتَـلْنَ مُـرَقَّـشاً   أَوْ مَـا فَـعَـلْنَ بِـعُـرْوَةَ بْـنِ حِـزَامِ

وحلاوة هذا الكلام أحسن من إيجازه، ولقد أعوز غيره أن يأتي بمثله حتى أقرّ بإعوازه.

= وهو تحريف، وما أثبتناه عن الديوان والنقائض. هذا، وبين البيتين بيت آخر؛ وهو قوله:

كَـأَنَّـهُـمُ لَا يَـعْـلَمُـونَ مَـوَاطِـنِـي   وَقَـدْ عَـلِمُـوا أَنِّي أَنَـا الـسَّـابِقُ الـمُـبْلِي

(١) هذه قصيدة من نقائضه للفرزدق، والأبيات التي ذكرها المؤلف ههنا ليست متصلة في أصل النقائض.

(٢) يروى:

* فِـي فِـتْـيَـةٍ طُـرُفِ الْـحَـدِيـثِ كِـرَامِ *

ويروى:

* فِـي فِـتْـيَـةٍ طَـرْفَـى الْـحَـدِيـثِ كِـرَامِ *

وطرف وطرفى: كلاهما جمع طريف مثل مريض ومرضى ومثل نذير ونذر؛ وهو قليل.

(٣) في النقائض «أرينَنا» بنون جماعة الإناث، وفيها «مقل المها».

(٤) هذا البيت والذي بعده ليسا في رواية النقائض.

ومن باب الإيجاز الذي يسمى التقدير قول علي بن جبلة:

وَمَا لِامْرِيءٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ ... وَلَوْ حَمَلَتْهُ فِي السَّمَاءِ المَطَالِعُ
بَلَى هَارِبٌ مَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ... ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

فهذا هو الكلام الذي ألفاظه وِفَاقَ معانيه؛ فإنه قد اشتمل على مدح رجل بشُمول ملكه وعموم سلطانه، وأنه لا مَهْرَب عنه لمن يحاوله، وإن صعد السماء، ثم ذكر جميع الْمَهَارب في المشارق والمغارب، وأشار إلى أنه يبلغ الظلام والضياء، وذلك مما لم تزد عبارته على المعنى المندرج تحته، ولا قصرت عنه.

ومن هذا الضرب قول أبي نواس(١)، وهو من نادر ما يأتي في هذا الموضع:

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأدْلَجُوا ... بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَرى ... وَأضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ ... وَإنِّي عَلَى أمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهاً تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ(٢)
فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ... وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ومما انتهى إليّ من أخبار ابن المزرع قال: سمعت الجاحظ يقول: لا أعرف شعراً يفضل هذه الأبيات التي لأبي نواس، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلاق فقال: والله يا أبا عثمان إن هذا لهو الشعر، ولو نقر لطن، فقلت له: ويحك!! ما تفارق عمل

---

(١) في الديوان (ص ٢٩٥) وقد ترك المؤلف بيتين يقعان بين الثالث والرابع فيما ذكره، وهما قوله:

وَلَمْ أدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَت بِهِ ... بِشَرْقِيِّ سَابَاط الدِّيَارُ الْبَسَابِسُ
أقَمْنَا بِهَا يَوْماً وَيَوْماً وَثَالِثَا ... وَيَوْماً لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ

(٢) في ا، ب، ج «قرار بها كسرى» وهو تحريف، وما أثبتناه عن الديوان والمها: اسم جنس جمعي واحده مهاة، وهي البقرة من أبقار الوحش، وتدريها. تختلها لتصطادها.

الجرار والخزف، ولعمري إن الجاحظ عرف فوصف، وخبر فشكر، والذي ذكره هو الحق.

وعلى هذا الأسلوب جاء قول أبي تمام(١):

إنَّ الْقَوافِيَ وَالمَسَاعِيَ لَمْ تَزَلْ ... مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا أَصَابَ فَرِيدَا(٢)
هِيَ جَوْهَرٌ نَثْرٌ فَإِنْ أَلَّفْتَهُ ... بِالشِّعْرِ صَارَ قَلاَئِداً وَعُقُودَا
فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ وَكُلِّ مُقَامَةٍ ... يَأْخُذْنَ مِنْهُ ذِمَّةً وَعُهُودَا
فَإِذَا الْقَصَائِدُ لَمْ تَكُنْ خُفَرَاءَهَا ... لَمْ تَرْضَ مِنْهَا مَشْهَداً مشْهُودَا
مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَانَتِ الْعَرَبُ الأُلَى ... يَدْعُونَ هٰذَا سُودَداً مَحْدُوداً
وَتَندُّ عِنْدَهُمُ الْعُلاَ إِلاَّ عُلاً ... جُعِلَتْ لَهَا مِرَرُ الْقَرِيضِ قُيُودَا

وأما الضرب الثاني: وهو الإيجاز بالقصر؛ فإن القرآن الكريم مَلآن منه، وقد تقدم القول أنه قسمان: أحدهما: ما يدلّ على محتملات متعددة.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى.فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ فقوله: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ من جوامع الكلم التي يستدلّ على قلتها بالمعاني الكثيرة: أي غشيهم من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كُنْهَهُ ألا الله، ولا يحيط به غيره.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ فجمع في الآية جميعَ مكارم الأخلاق؛ لأن في الأمر بالمعروف صلة الرحم، ومنعَ اللسان عن الغيبة وعن الكذب، وغَضّ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني، وأولها قوله:

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا ... وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدَا

(٢) في الديوان «مثل الجمان».

الطرف عن المحرمات، وغير ذلك، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم، وغيرهما.

وقال بعض الأعراب في دعائه: اللهم هَبْ لِي حَقَّكَ، وأَرْضِ عني خلقك؛ فقال النبيّ ﷺ: «هذا هو البلاغة».

ومن ذلك قوله عزل وجلّ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾؛ فإنه دخل تحت الأمن جميع المحبوبات، وذلك أنه نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة، وغير ذلك من أصناف المكاره.

وأشباهُ هذا في القرآن الكريم كثيرة؛ فهو يكثر في بعض الصور، ويقلّ في بعض، قال النبيّ ﷺ: «مَنْ شَاءَ يَرْتَعُ في الرِّيَاضِ الأَنَائِقِ فَعَلَيْهِ بِآلِ حم».

ومن ذلك قول النبيّ ﷺ: «الْخَرَاجُ بِالضَّمَانِ»؛ وذاك أن رجلاً اشترى عبداً، فأقام عنده مدة، ثم وجد به عيباً، فخاصم البائع إلى النبيّ ﷺ، فَرَدَّه عليه؛ فقال: يا رسول الله، إنه استغلَّ غلامي، فقال: «الخراج بالضمان» ومعنى قوله: «الخراج بالضمان» أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغلّه ثم وَجَدَ به عيباً دلَّسه عليه البائعُ فله أن يردَّه ويسترجع الثمن جميعه، ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان في مال المشتري، وضمانُهُ عليه، وإذا كان ضمانه عليه فخراجه له: أي له ما تحصَّل من أجرة عمله.

وأما ما ورد شعراً، فقول السَّمَوْءَل بن عاديا الْغَسَّاني من جملة أبياته اللامية المشهورة، وذلك قوله منها(١):

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيْسَ إِلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

فإن هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها: من سماحة، وشجاعة، وعفة، وتواضع، وحلم، وصبر، وغير ذلك؛ فإن هذه الأخلاق كلها من ضَيْم النفس؛ لأنها تجد بحملها ضَيْماً: أي مشقة وعَناء.

(١) تقدم كثير من أبيات هذه القصيدة في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وقد تقدم القول أن الإيجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات كثيرة، وهذا البيت من ذلك القبيل، ولا أعلم أن شاعراً قديماً ولا حديثاً أتى بمثله، وقد أخذه أبو تمام فأحسن في أخذه، وهو:

وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ طَالِباً إنْصَافَهَا فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تُظْلَمِ

ففاز في بيته هذا بالمقابلة بين الضدين في الظلم والإنصاف، ثم قال: «فعجبت من مظلومة لم تظلم» وهذا أحسن من الأول، ومعنى قوله: «ظلمت نفسك طالباً إنصافها» أي: أنك أكرهتها على مشاقّ الأمور وإذا فعلت ذلك فقد ظلمتها، ثم إنك مع ظلمك إياها قد أنصفتها؛ لأنك جلبت إليها أشياء حسنة تكسبها ذكراً جميلاً ومجداً مؤثّلاً، فأنت مُنْصِف لها في صورة ظالم، وكذلك قوله: «فعجبت من مظلومة لم تظلم» أي أنك ظلمتها وما ظَلَمْتَهَا لأن ظلمك إياها أدّى إلى ما هو جميل حسن.

وهذا القدر في الأمثلة كاف في هذا الباب.

القسم الآخر من الضَّرب الثاني؛ في الإيجاز بالقصر وهو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعْوَزُها إمكاناً، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً.

فمن ذلك ما ورد في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فإنه قوله تعالى: ﴿الْقِصَاصُ حياة﴾ لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة، لأن معناه أنه إذا قُتِل القاتل امتنع غيره عن القتل؛ فأوجب ذلك حياةً للناس، ولا يلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم: الْقَتْلُ أنْفَى لِلْقَتْلِ؛ فإن مَنْ لا يعلم يظن أن هذا على وزن الآية، وليس كذلك، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه: **الأول**: أن (القصاص حياة) لفظتان، و«القتل أنفى للقتل» ثلاثة ألفاظ؛ **الوجه الثاني**: أن في قولهم «القتل أنفى للقتل» تكريراً ليس في الآية؛ **الثالث**: أنه ليس كل قتل نافياً للقتل؛ إلا إذا كان على حكم الْقِصَاص.

وقد صاغ أبو تمام هذا الوارد عن العرب في بيت من شعره، فقال[1]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق، وأولها قوله:

وَأَخَـافَكُمْ كَـيْ تُغْمِـدُوا أَسْيَـافَكُمْ   إِنَّ الـدَّمَ الْمُعْتَـرَّ يَحْـرُسُـهُ الـدَّمُ[1]

فقوله «إن الـدم المعتر يحـرسه الـدم» أحسن مما ورد عن العـرب من قولهم «القتـل أنفى للقتل».

ويروى عن معن بن زائدة أنه سأله أبو جعفـر المنصور فقـال له: أيمـا أحبُّ إليك دولتنا أو دولـة بني أمية؟ فقـال: ذاك إليك، فقـولـه «ذاك إليـك» من الإيجـاز بالقصر الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة؛ لأن معنى قوله «ذاك إليـك» وهو لفظتان أنه زاد إحسانك على إحسان بني أمية فأنتم أحب ألي، وهذه عشرة ألفاظ.

فـإن قيـل: كيف لا يمكن التعبيـر عن ألفـاظ أخـرى مثلهـا وفي عـدتهـا وفي المترادف من الألفاظ ما هو دليل على خلاف ذلك؟ فإنه إذا قيل راح ثم قيـل مُدَامـة أو سُلَافة كان ذلك سواء، وقامت هذه اللفظة مقام هذه اللفظة.

قلت في الجـواب: ليس كل الألفـاظ المترادفـة يقوم بعضهـا مقام بعض، ألا تـرى أن لفظة «القصـاص» لا يمكن التعبير عنهـا بما يقـوم مقامهـا، ولما عبـر عنهـا بالقتل في قول العرب «القتل أنفى للقتل» ظهر الفرق بين ذلـك وبين الآية في قـولـه تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ فالذي أردته أنا إنما هـو الكلام الـذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها، فإن كان كذلـك وإلا فليس داخلاً في هذا القسم المشار إليه.

= أَرْضٌ مُصَـرَّدَةٌ وَأُخْـرَى تُثْجَمُ   تِـلْكَ الْـتِـي رُزِقَـتْ وَأُخْـرَى تُـحْـرَمُ

ومصردة: لا شجر بها، وتثجم: تمطر على الدوام. انظر الديوان (٢٧١ بيروت).

(١) «المعتر» المضطرب، وهو هكذا في الديوان. ووقع في ا، ب، ج «المغبر».

النوع السادس عشر

في الإطناب

هـذا النـوع من الكـلام أنْعَمْتُ نـظري فيـه، وفي التكـريـر، وفي التـطويـل؛ فملكتني حَيْرة الشَّبَه بينها طويلاً، وكنت في ذلك كعُمَـرَ بن الخطاب رضي الله عنـه في الكَلَالة حيث قال: قَدْ أعياني أمْرُ الكَلَالة، وكنت سألت رسول الله ﷺ عنهـا كثيراً حتى ضَرَبَ في صدري، وقال: «ألَا يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْف[١]».

وبعد أن أنعمت نظري في هذا النوع الذي هو الإطنـاب وجدتُ ضـرباً[٢] من ضروب التأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصداً للمبالغة، ألا ترى أنه ضَرْبٌ مفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره؛ لأن من التأكيد ما يتعلق بالتقديم والتأخير؛ كتقـديم المفعـول، وبـالاعتـراض[٣]؛ كـالاعتـراض بين القسم وجـوابـه وبين المعـطوف والمعطوف عليه، وأشباه ذلك، وسيأتي الكلام عليـه في بابـه. وهذا الضـرب الذي هو الإطناب ليس كذلك.

ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه؛ فمنهم من ألحقه بالتطويل الذي هـو ضد الإيجاز، وهو عنده قسم غيره، فأخطأ من حيث لا يـدري؛ كأبي هـلال العسكري، والغـانمي، حتى إنه قـال: إن كتب الفتوح ومـا جَرَى مجـراها ممـا يُقْرَأ على عـوامّ الناس ينبغي أن تكون مُطَولة مُطْنَباً فيها؛ وهذا القول فاسد؛ لأنه إن عنى بذلك أنهـا تكون ذات معانٍ متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره فـذلك مُسَلَّم، وإن عني بذلك أنها تكون مُكَرَّرة المعاني مُطَولة الألفاظ قصداً لإفهام العامة فهـذا غير مُسَلَّم، وهـو مما لا يـذهـب إليـه مَنْ عنـده أدنى معـرفـة بعلم الفصـاحـة

(١) في ا، ب، ج «أنه الصنف» بصاد ونون وفاء، وهو تحريف وانظر النهاية.
(٢) كذا في جميع الأصول، ولعله «وجدته ضرباً من ضروب التأكيد ـ إلخ».
(٣) في ا، ب، ج «بالاعتراض» بدون الواو.

والبلاغة، ويكفي في بطلانه كتاب الله تعالى؛ فإنه لم يُجْعل لخواصّ الناس فقط، وإنما جعل لعوامهم وخواصّهم، وأكثره لا بل جميعه مفهومُ الألفاظ للعوام، إلا كلمات معدودة، وهي التي تسمى غريب القرآن، وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة الأولى المختصة بالألفاظ، وعلى هذا فينبغي أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوامّ الناس وخواصهم ذاتَ ألفاظٍ سَهْلَة مفهومة، وكذلك الأشعار والخطب، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه بِنَجْوَة عن هذا الفن، وعلى هذا فإن الإطناب لا يختص به عوام الناس، وإنما هو للخواصّ كما هو للعوام. وسأبين حقيقته في كتابي هذا، وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التي خَبَط أرباب علم البيان من أجلها، وقالوا أقوالاً لا تعرب عن فائدة.

والذي عندي فيه أنه إذا رجعنا إلى الأسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسباً لمسماه، وهو في أصل اللغة مأخوذ من أطْنَبَ في الشيء إذا بالغ فيه، ويقال: أطْنَبَتِ الريح؛ إذا اشتدَّتْ في هُبُوبها، وأطنب في السير؛ إذا اشتد فيه، وعلى هذا فإنْ حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة في إيراد المعاني، وهذا لا يختص بنوع واحد من أنواع علم البيان، وإنما يوجد فيها جميعها؛ إذ ما من نوع منها إلا ويمكن المبالغة فيه، وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يفرد هذا النوع من بينها، ولا يتحقق إفراده الا بذكر حَدِّه الدال على حقيقته.

والذي يُحَدُّ به أن يقال: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة؛ فهذا حَدُّه الذي يميزه عن التطويل؛ إذ التطويل هو: زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة، وأما التكرير فإنه: دلالة على المعنى مردّداً، كقولك لمن تستدعيه: أَسْرِعْ أَسْرِعْ؛ فإن المعنى مردّد واللفظ واحد، وسيرد بيان ذلك مفصّلاً في بابه بعد باب الإطناب بعضها بعضاً؛ وإذا كان التكرير هو إيراد المعنى مردداً فمنه ما يأتي لفائدة ومنه ما يأتي لغير فائدة؛ فأما الذي يأتي لفائدة(١) فإنه جزء من الإطناب وهو أخص منه؛ فيقال حينئذ: إن كل تكرير يأتي لفائدة فهو إطناب وليس كل إطناب تكريراً يأتي لفائدة،

(١) في ا، ب، ج «فأما الذي يأتي لغير فائدة» وهو خطأ أجمعت عليه هذه النسخ، والصواب حذف كلمة «غير» وذلك يدرك بالتأمل البسيط.

وأما الذي يأتي من التكرير لغير فائدة فإنه جزء من التطويل، وهو أخص منه، فيقال حينئذ: إن كل تكرير يأتي لغير فائدة تطويل، وليس كل تطويل تكريراً يأتي لغير فائدة.

وكنت قدمت القول في باب الإيجاز بأن الإيجاز هو: دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه.

وإذا تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار إليها فإن مثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق؛ فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد إليه، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على مُنَزَّه من المنازه لا يوجد في طريق التطويل، وسيأتي بيان ذلك بضرب الأمثلة التي تسهل من معرفته.

والإطناب يوجد تارةً في الجملة الواحدة من الكلام، ويوجد تارةً في الجمل المتعددة، والذي يوجد في الجمل المتعددة أبلغ؛ لاتساع المجال في إيراده.

وعلى هذا فإنه بجملته ينقسم قسمين:

القسم الأول: الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام؛ وهو يرد حقيقة، ومجازاً؛ أما الحقيقة فمثل قولهم: رأيته بعيني، وقَبَضْتُه بيدي، ووطئته بقدمي، وذُقْتُه بفمي، وكل هذا يظن الظان أنه زيادة لا حاجة إليها، ويقول: إن الرؤية لا تكون إلا بالعين، والْقَبْض لا يكون إلا باليد، والوطء لا يكون إلا بالقدم والذَّوْق لا يكون ألا بالفم، وليس الأمر كذلك، بل هذا يقال في كل شيء يعظم مَنَالُه(١) ويعز الوصول أليه، فيؤكد الأمر فيه على هذا الوجه دلالةً على نيله والحصول عليه، كقول أبي عُبَادَةَ البحتري(٢):

---

(١) في ا، ب، ج «يعظم مثاله» وتأمل في قوله بعد ذلك «دلالة على نيله والحصول عليه» تدرك أن «يعظم مناله» بالنون أولى.

(٢) من قصيدة يمدح فيها الهيثم الغنوي، وأولها قوله:

رُوَيْدَكَ إنَّ شَأْنَكَ غَيْرُ شَانِي ... وَقَصْرَكَ؛ لَسْتُ طَاعَةَ مَنْ نَهَانِي

تَـأَمَّـلْ مِـنْ خِـلَالِ السَّجْفِ وَانْـظُرْ   بِعَيْنِـكَ مَـا شَـرِبْتُ وَمَنْ سَقَـانِي [١]
تَجِـدْ شَمْسَ الضُّحَى تَـدْنُـو بِشَـمْسٍ   إِلَـيَّ مِـنَ الـرَّحِيـقِ الْـخُسْـرُوَانِـي

ولما كان الحضـور في هذا المجلس ممـا يعز وجـوده، وكان السـاقي فيه على هـذه الصفة من الحسن؛ قال: أنظر بعينك.

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْـوَاهِكُمْ﴾؛ فإن هـذا القول لمـا كان فيه افتراء عَظَّم الله تعالى على قائله، ألا ترى إلى قوله تعالى في قصـة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْـوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَـهُ هَيِّناً وَهُـوَ عِنْدَ ٱللهِ عَظِيمٌ﴾ فصرَّح في هذه الآية بما أشرت أليه من تعظيم الأمر المقول.

وفي مساق الآية المشار إليها جاء قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللهُ لِـرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلـلائِي تُظَاهِـرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَـا جَعَلَ أَدْعِيَـاءَكُمْ أَبْنَـاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِـأَفْوَاهِكُمْ وَٱللهُ يَقُـولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْـدِي السَّبِيلَ﴾ ألا تـرى أن مَسَاق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته: أنْتِ عليَّ كظهر أمي، ويقـول لمملوكه: يـا بنيّ؛ فضرب الله لذلك مثالاً، فقال: كيف تكون الزوجة أمًّا؟ وكيف يكون المملوك ابناً؟ والجمع بين الزوجية والأمومة وبين العبودية والبنوّة في حالة واحدة كالجمع بين القلبين في الجوف، وهذا تعظيم لما قالوه، وإنكـار له؛ ولمـا كان الكـلام في حال الإنكـار والتعـظيم أتى بـذكـر الجـوف، وإلا فقـد علم أن القلب لا يكـون ألا في الجوف، والتمثيل يصح بقوله: ﴿ما جعـل الله لرجـل من قلبي﴾ وهو تـام، لكن في ذكر الجوف فائدة، وهي ما أشرت اليها وفيها أيضاً زيادة تصـوير للمعنى المقصـود؛ لأنه إذا سمعه المخاطب به صَوَّر لنفسه جَوْفاً يشتمـل على قلبين، فكان ذلـك أسرع إلى إنكاره.

وعليه ورد قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فكمـا أن القلب لا يكـون إلا في الجَوْف فكـذلك السقف لا يكـون إلا من فَـوْقَ، وهـذا مقام تـرهيب

(١) في الديوان «تأمل من خلال الشك فانظر».

وتخويف، كما أن ذاك مقام إنكار وتعظيم، ألا ترى إلى هذه الآية بكمالها وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولذكر لفظة ﴿فوقهم﴾ فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام، وأنت تحسُّ هذا من نفسك؛ فإنك إذا تَلَوْتَ هذه الآية يخيَّل اليك أن سقفاً خرَّ على أولئك من فوقهم، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة.

وفي القرآن الكريم من هذا النوع كثير؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ وكل هذه الآيات إنما أطنب فيها بالتأكيد لمعانٍ اقتضتها؛ فإن النفخ في الصور الذي تقوم به الأموات من القبور مَهُول عظيم دلّ على القدرة الباهرة، وكذلك حمل الأرض والجبال، فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما: ﴿نفخة واحدة﴾ و﴿دكة واحدة﴾ أي: أن هذا الأمر المهول العظيم سَهْلٌ يسير على الله تعالى يفعل ويمضي الأمر فيه بنفخة واحدة ودكة واحدة، ولا يحتاج فيه الى طول مدة ولا كلفة مشقة، فجيء بذكر الواحدة لتأكيد الإعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه.

وهذه المواضع وأمثالها ترد في القرآن الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها، وليس الأمر كذلك؛ فإن هذه الأسرار البلاغية لا يتنبه لها إلا العارفون بها، وهكذا يرد ما يرد منها في كلام العرب.

وههنا نكتة لا بد من الإشارة إليها؛ وذاك أني نظرت في قوله تعالى: ﴿نفخة واحدة﴾ و﴿دكة واحدة﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى﴾ فوجدت ذلك غَيْرَ مَقِيس على ما تقدم، وسأبينه ببيان شاف؛ فأقول: إن قوله تعالى: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ إنما جيء به لتوازن الفقر التي نظمت السورة كلها عليها، وهي: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ ولو قيل: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة﴾ ولم يقل الثالثة الأخرى لكان الكلام عارياً عن الطلاوة والحسن، وكذلك لو قيل: ومناة الأخرى، من غير أن يقال الثالثة لأنه نقص في الفقرة الثانية عن الأولى، وذاك قبيح، وقد

تقدم الكلام عليه في باب السجع، لكن التأكيد في هذه الآية جاء ضِمْناً لتوازن الفقر وَتَبَعاً، وأما ﴿نفخة واحدة﴾ و﴿دكة واحدة﴾ فإنما جيء بلفظ الواحدة فيهما وقد علم أن النفخة هي واحدة والدكة هي واحدة لمكان نظم الكلام؛ لأن السورة التي هي ﴿الحاقة﴾ جارية على هذا المنهاج في توازنها السجعي، ولو قيل نفخة من غير واحدة ودكة من غير واحدة ثم قيل بعدهما: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ لكان الكلام منثوراً(١) محتاجاً إلى تمام، لكن التأكيد جاء فيهما ضمناً وتبعاً، وإذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ ظاهر، وذاك أن نفخة هي واحدة ومناة هي الثالثة.

وأما ما جاء منه على سبيل المجاز فقوله تعالى: ﴿فَإِنَها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تُعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الْحَدَقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب تشبيه، ومثل؛ فلما أريد إثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف؛ ليتقرر أن مكان العمي إنما هو القلوب لا الأبصار.

وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه، وافرة لطائفه، والمجاز فيه أحسن من الحقيقة؛ لمكان زيادة التصوير في إثبات وصف الحقيقي للمجازي، ونفيه عن الحقيقي.

وأما القسم الثاني المختص بالجمل فإنه يشتمل على ضروب أربعة:

الأول منها: أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعاني متداخلة، إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر، وذلك كقول أبي تمام(٢):

---

(١) كذا في ا، ب، ج؛ ولعله «مبتوراً» بباء موحدة فتاء مثناة.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب، وأولها قوله:

لَيْسَ الْوُقُوفُ يَكُفُّ شَوْقَكَ فَانْزِلِ ... تَبْلُلْ غَلِيلاً بِالدُّمُوعِ فَيُبْلَلِ

قَـطَعَتْ إِلَيَّ الـزَّابِـيَيْـنِ هِـبَـاتُـهُ   والْتَـاثَ مَـأْمُولُ السَّحَـابِ السُّبِـلِ[٢]
مِـنْ مِـنَّـةٍ مشْـهُـورَةٍ وَصَنِـيـعَـةٍ   بِـكْـرٍ وَإِحْسَـانٍ أغَـرَّ مُـحَـجَّـلِ

فقوله: «منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل» تداخلت معانيه؛ إذ المنة والصنيعة والإحسان متقارب بعضه من بعض، وليس ذلك بتكرير؛ لأنه لو اقتصر على قوله منة وصنيعة وإحسان لجاز أن يكون تكريراً، ولكنه وصف كل واحدة من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير، فقال: «منة مشهورة» فوصفها بالاشتهار لعظم شأنها، و«صنيعة بكر» فوصفها بالْبَكَارة: أي أنها لم يُؤْتَ بمثلها من قبل، و«إحسان أغر محجل» فوصفه بالغرة والتحجيل: أي هو ذو محاسن متعددة، فلما وصف هذه المعاني المتداخلة التي تدلّ على شيء واحد بأوصاف متباينة صار ذلك إطناباً، ولم يكن تكريراً.

ولم أجد في ضروب الإطناب أحسن من هذا الموضع، ولا ألطف، وقد استعمله أبو تمام في شعره كثيراً، بخلاف غيره من الشعراء، كقوله[٢]:

زَكِـيٌّ سَجَـايَـاهُ تُـضِـيفُ ضُـيُـوفَـهُ   وَيُـرْجَى مُـرَجِّيـهِ ويُسْـأَلُ سَـائِلُهْ[٣]

فإن غرضه من هذا القول إنما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء، إلا أنه وصفه بصفات متعددة؛ فجعل ضيوفه تضيف، وراجيه يُرجَى، وسائله يُسْأَل، وليس هذا

---

(١) وقع هذا البيت في ب، ج هكذا:

قـطعت إليّ الـرائبـين هبـاتـه   التـاث مـأمـور السحـاب المسبـل

وفي ا «الزابيين» وبقية البيت كما في ب، ج. والزابيان: نهران، والهبات: العطايا، واحدها هبة. والتاث: أبطأ. والمسبل: الممطر.

(٢) من قصيدة له يرثي فيها القاسم به طوق، وأولها قوله:

جَـوًى سَـاوَرَ الأَحْشَـاء وَالْقَـلْبُ وَاغِـلُهْ   وَدَمْـعٌ يُضِـيمُ الْعَـيْـنَ وَالْجَـفْـنُ هَـامِـلُهْ

انظر الديوان (٣٧٧ بيروت).

(٣) في الديوان «ولكن سجاياه ـ الخ» وقد أكثر أبو تمام من ذكر هذا المعنى، فمنه قوله في قصيدة يمدح فيها المعتصم:

إذَا آمِـلٌ سَـامَـاهُ قَـرْطَسَ فِـي الـمُـنَـى   مَـوَاهِـبَـهُ حَـتَّـى يُـؤَمَّـلَ آمِـلُهْ

تكريراً؛ لأنه لا يلزم من كون ضيوفه تضيف أن يكون راجيه مرجواً، ولا أن يكون سائله مسئولاً؛ لأن ضيفه يستصحب ضيفاً طمعاً في كلام مضيفه، وسائله يسأل: أي [أنه] يُعْطِي السائل عطاءً كثيراً يصير به مُعْطياً، وراجيه يرجى: أي أنه إذا تعلق به رجاء راج فقد أيْقَنَ بالفلاح والنجاح فهو حَقِيق بأن يُرْجَى؛ لمكان رجائه إياه، وهذا أبلغ الأوصاف الثلاثة.

الضرب الثاني: يسمى النفي والإثبات، وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي، ثم يذكر على سبيل الإثبات، أو بالعكس، ولا بد أن يكون في أحدهما زيادة ليست في الآخر، وإلا كان تكريراً، والغرض به تأكيد ذلك المعنى المقصود.

فمما جاء منه قوله تعالى: **﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾**.

واعلم أن لهذا الضرب من الإطناب فائدة كبيرة، وهو من أوكد وجوهه، ألا ترى أنه قال: **﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾** ثم قال: **﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** والمعنى في ذلك سواء، إلا أنه في الثانية قوله: **﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾** ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير، وهذا الموضع ينبغي أن يتأمل وينعم النظر فيه.

وعليه ورد قوله تعالى: **﴿أَلم غُلِبَتِ الرُّومُ.فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ.فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ.بِنَصْرِ ٱللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.وَعْدَ ٱللهِ لَا يُخْلِفُ ٱللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**

فقوله: **﴿يعلمون﴾** بعد قوله: **﴿لا يعلمون﴾** من الباب الذي نحن بصدد ذكره، الا ترى أنه نفى العلم عن الناس بما خفي عنهم من تحقيق وعده، ثم أثبت لهم العلم

بظاهر الحياة الدنيا؛ فكأنهم علموا وما علموا؛ إذ العلم بظاهر الأمور ليس بعلم، وإنما العلم هو ما كان بالباطن من الأمور.

الضرب الثالث: هو أن يذكر المعنى الواحد تامًّا لا يحتاج إلى زيادة، ثم يضرب له مثال من التشبيه، كقول أبي عبادة البحتري(١):

ذَاتُ حُسْنٍ لَوِ اسْتَزَادَتْ مِنَ الْحُسْـ ... ـنِ إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا
فَهْيَ كَالشَّمْسِ بَهْجَةً وَالْقَضِيبِ اللَّـ ... ـدْنِ قَدًّا وَالرِّيمِ طَرْفاً وَجِيدَا(٢)

ألا ترى أن الأول كاف في بلوغ الغاية في الحسن؛ لأنه لما قال: «لو استزادت لما أصابت مزيداً» دخل تحته كل شيء من الأشياء الحسنة، إلا أن للتشبيه مزية أخرى تفيد السامع تصويراً وتخييلاً لا يحصل له من الأول، وهذا الضرب من أحسن ما يجيء في باب الإطناب.

وكذلك ورد قوله(٣):

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُودَدٍ ... سَمَاحاً مُرَجًّى وَبَأْساً مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخاً ... وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فالبيت الثاني يدلّ على معنى الأول؛ لأن البحر والسيف للبأس المهيب، إلا أن في الثاني زيادة التشبيه التي تفيد تخيلاً وتصويراً.

الضرب الرابع: أن يستوفي معاني الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو

---

(١) من قصيدة له يفتخر فيها، وأولها قوله:

إِنَّمَا الْغَيُّ أَنْ يَكُونَ رَشِيدَا ... فَانْقُصَا مِنْ مَلَامِهِ أَوْ فَزِيدَا

(٢) رواية الديوان:

فَهِيَ الشَّمْسُ بَهْجَةً وَالْقَضِيبُ الْـ ... ـغَضُّ لِيناً وَالرِّيمُ طَرْفاً وَجِيدَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان، وأولها قوله:

لَوَتْ بِالسَّلَامِ بَنَاناً خَضِيبَا ... وَلَحْظاً يَشُوقُ الْفُؤَادَ الطَّرُوبَا

قصيدة، وهذا أصعب الضروب الأربعة طريقاً، وأضيقها باباً؛ لأنه يتفرع إلى أساليب كثيرة من المعاني، وأرباب النظم والنثر يتفاوتون فيه، وليس الخاطر الذي يقذف بالدرر في مثله إلا معدوم الوجود، ومثاله ومثال الإيجاز مثال مجمل ومفصل؛ وقد تقدم القول بأن الإيجاز والإطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك إليه ثلاثة طرق، وقد أوردت ههنا أمثلة لهذه الأساليب الثلاثة، وجعلتها على هيئة المقصد الذي تسلك إليه الطرق الثلاثة.

فمن ذلك ما ذكرته في وصف بستان ذات فواكه متعددة؛ فإذا أريد وصفه على حكم الإيجاز قيل: فيه من كل فاكهة زوجان؛ وهذا كلام الله تعالى؛ وقد جمع جميع أنواع الفاكهة بأحسن لفظ وأخصره. وإذا أريد وصف ذلك البستان على حكم الإطناب قيل فيه ما أذكره، وهو فصل من كتاب أنشأته، وهو: جنة عَلَتْ أَرْضَهَا أن تمسك ماء، وغنيت بيَنْبُوعها أن تَسْتَجْدِيَ سماء، وهي ذات ثمار مختلفة الغرابة، وتربة مُنْجِبة وما كل تربة توصف بالنَّجابة، ففيها المشمش الذي يسبق غيره بقدومه، ويقذف أيدي الجانين بنجومه، فهو يَسْمُو بطيب الفرع والنِّجار، ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نُضَار، وله زَمَنُ الربيع الذي هو أعدل الأزمان، وقد شبه بسن الصبا في الأسنان، وفيها التفاح الذي رقّ جِلْدُه، وعظم قَدُّه، وتورّد خَدُّه، وطابت أنفاسه فلابَانُ الوادي ولا رنْدُه، وإذا نظر إليه وجد منه حظ الشم والنظر، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر، وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة، وأكثرها ألوان زينة، وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة فَقِطْفُه يميل بكف قاطفه، ويُغْرِي بالوصف لسان واصفه، وفيها الرُّمَّان الذي هو طعام وشراب، وبه شبهت نهود الكعاب، ومن فضله أنه لا نَوَى له فيرمى نواه، ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه، وفيها التين الذي أقسم الله به تنويهاً بذكره، واستتر آدم عليه السلام بورقه إذا كَشَفَت المعصية من ستره، وخصّ بطول الأعناق فما يرى بها من مَيَل فهو نَشْوَة من سكره، وقد وصف بأنه راق طعماً، ونعم جسماً، وقيل هذا كُنَيِّفٌ مُليء شهداً لا كنيف مليء علماً، وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه وشكله، ويشغل بلذة منظره عن لذة أكله، وهو الذي فَضَلَ ذوات الأفنان بعرجونه، ولا تماثل بينه وبين الحلواء هذا خلق الله فأروني ماذا

خلق الذين من دونه، وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها، وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها، ولقد دخلتها فاسْتَهْوَتْني حَسَداً، ولم أصاحبها على قوله لن تبيد هذه أبداً.

فهذا الوصف على هذه الصورة يسمى إطناباً؛ لأنه لم يَعْرَ عن فائدة، وذاك الأول هو الإيجاز؛ لأنه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة.

وأما التطويل فهو أن تعد الأصناف المذكورة تَعْدَاداً من غير وصف لطيف، ولا نعت رائق، فيقال: مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل، وكذا وكذا.

وانظر أيها المتأمل إلى ما أشرت إليه من هذه الأقسام الثلاثة في الإيجاز والإطناب والتطويل، وقس عليها ما يأتي منها.

وسأزيد ذلك بياناً بمثال آخر؛ فأقول:

قد ورد في باب الإيجاز كتاب كتبه طاهر بن الحسين إلى المأمون رحمه الله تعالى، يخبره بهزيمة عيسى بن مَاهَان وقتله إياه، وهو: كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يَدَيَّ، وخاتمه في يَدِي، وعسكره مُصَرَّف تحت أمري، والسلام.

وهذا كتاب جامع للمعنى، شديد الاختصار.

وإذا كتب ما هو في معناه على وجه الإطناب قيل فيه ما أذكره، وهو ما أنشأته مثالاً في هذا الموضع؛ ليعلم به الفرق بين الإيجاز والإطناب، وهو: أصدر كتابه هذا وقد نُصِرَ بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وانقلب باليد الْمَلأَى والعين الْقَرِيرة، وكان انتصاره بجَدّ أمير المؤمنين لا بحَدّ نصله، والجد أغنى من الجيش وإن كثرت أمداد خيله ورَجْلِه، وجيء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسد غير جسده، وليس له قدم فيقَال إنه يسعى بقدمه ولا يد فيقال إنه يبطش بيده، ولقد طال وطُولُه مؤذن بقصر شأنه، وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه، وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذي كان الأمر يجري على نقش أسطره، وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنية دون مصدره، وكذلك البغي مَرْتَعُه وبيل

وصُرَعُه جليل، وسَيْفُه وإن مضى فإنه عند الضرب كَليل، وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك ورأسه، وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء إلى على أساسه، والعساكر التي كانت على أمير المؤمنين حرباً صارت له سِلْمَا، وأعطته البيعة عِلْما بفضله وليس من تَابَعَ تقليداً كمن تابع علماً، وهم الآن مُصَرَّفون تحت الأوامر، مُمْتَحَنُون بكشف السرائر، مطيفون باللواء الذي خصه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر، وكما سرت خطوات القلم في أثناء هذا القرطاس، فكذلك سرت طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس، وليس في البلاد ما يغلق بمشيئة الله باباً، ولا يحسر نقاباً، وعلى الله إتمام النعم التي افتتحها، وإجابة أمير المؤمنين إلى مقترحاته التي اقترحها، والسلام.

وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى؛ إلا أنه فصل ذلك الإجمال.

ولو كتبت على وجه التطويل الذي لا فائدة فيه لقيل: أصدر كتابه في يوم كذا من شهر كذا، والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر عدوه الباغي، وتطاعن الفريقان، وتزاحف الجمعان، وحمي القتال، واشتد النزال، وترادفت الكتائب، وتلاحقت المقانب، وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه وقطع، ونزع الخاتم من يده وخلع، وترك جسده طعاماً للطيور والسباع، والذئاب والضباع، وانجلت الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره، وخذلان عدوه وقهره؛ والسلام.

فهذا الكتاب يشتمل على تطويل لا فائدة فيه؛ لأنه كرر فيه معاني يتم الغرض بدونها، وذكر ما لا حاجة إليه في الإعلام بالواقعة.

فانظر إلى هذه الكتب الثلاثة وتأملها كما تأملت الذي تقدمها.

وبعد ذلك إني أورد لك كتاباً وتقليداً يوضحان لك فائدة الإطناب، أما الكتاب فإنه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدي الكفار، وذلك في معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني عنه، وكان الفتح في السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة: خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وجعل أيام دولته أتراباً، ومناقب مجدها هِضَاباً، وزادها على

مرور الأيام شباباً، وأوسعها توشية وإذهاباً، إذا أوسع غيرها تلاشياً وذهَـاباً، ومنحهـا في الدنياوالآخرةعطاء وفاقـاً لاعطاء حسـاباً، ومثـل جدودهـا في عيون الأعـداء شيئاً عُجَاباً، وأراهم منها وراءهم في اليقظة إرهاباً وإرعاباً، وفي المنام إبلاً صعـاباً تقـود خيلاً عرابًا، لو جمعت العصور في صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخراً، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخراً، وليس ذلك إلا لخـظوته بـالدولـة الناصـرية التي كستـه حبراً وقلدته دُرَرًا؛ ودونت لـه من المحامـد سيراً، وجعلت في كـل ناحيـة من وجهه شمساً وقمرًا، وقَيَّض الله لها من الخادم ولياً يوصل يومه في طاعتها بأمسه؛ ولا يرى إلا ومن نفسه في خدمتها رقيب على نفسه، وطـالما سعى بين يـديها بمَسَـاعٍ نغصّ بأخبارها محافل القوم، ويقال له فيها: ما ضَـرَّك ما صَنَعْتَ بعـد اليوم، وقـد سلفت منها آيات تتمايل في أشباهها وأضرابها، واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأم كتابها، وهي فتح البيت المقدس الـذي تفتحت له أبـواب السماء، وكثـرت بأحـاديث مجده كواكب الظلماء، واسترد حَقَّ الإسلام وطالمـا سعت الهمم في طلبه بـالزاد والمـاء، ومن أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى، وأطال منه كل ما قَصَّرَته يد الكفر وكانت هي الـطولى، وبه صحّ لهذا البيت معنى اسمـه، وانتقل إلى الـطهارة ونـزاهتها عن الـرِّجس ووَصْمه، ولم يحـزه الخادم حتى طـوى ما حـولـه من البـلاد المنجدة والغائِرة، وكان مركزاً لدائرتها فغادره وهـو طرف من أطـراف الدائـرة، ولما شـارفه نـظر منه إلى ظُلَّة من الـظلَل، ورأى بلداً قـد اسْتَقـرَّ على متن الجبـل مثـل الجبل، ويطيف بـه وادٍ تستهزيء عصمتـه بِنُوبِ الـدهر، وقـد انعطف على جـوانبه انعطاف الحبوة على الظهر، والمسـالك إليـه مع ذلـك ذات تعاريـح ومعارج، وهي ضَيِّقـة مُسْتَوْعِـرة يطلق عليهـا اسم الطرق ولا يـطلق عليها اسم المنـاهج؛ فلمـا رآه قال: هذا أمنية لمن يرى، وعلم حينئذ أن كُلَّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الْفَـرَا، الا أن لسان حاله خاطبه وهو أفصح الخطاب، وقال: امْدُدْ يدك فليس دونهـا من حجاب، وكـان قد بَرَزَ من السلاح في لباس رائـع من المنعة، وأخـرج من السواد الأعـظم ما خـدع العيـون والحرب خُـدْعَة، ومـا يمنع رقـاب البلاد بكثـرة السواد، ولا يحمى بعَـوَالي الأسوار بل بعَوَالي الصِّعَاد، وفي يوم كذا وكذا خَيَّم المسلمون في عقد داره، ونزلوا منه نزول الجـار ألى جانب جـاره، ثم ارتادوا مَوْقِفاً للقتال وإن لـم يكن هنـاك موقف يقرب مناله ولا يتسع محاله، واتفق الرأي على لسان المنجنيق في خطبة عقيلية أبلغ

خطاباً، وأدنى من المطلوب طلاباً، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انْبَجَسَتْ عيون أهله دماء، كما انبجست عيون الحجر ماء، هذا والعزائم تنظر إلى هذا الرأي نظر المستجهل، وتَصُدُّ عنه صدود المستعجل، وتقول: ما بِارْتِيَادِ السهل تملك الصعاب، ومن ابتنى السيف صرحاً لم ينأ عنه بلوغ الأسباب، والحديد لا يُفْلَح إلا بالحديد، والركن الشديد لا يصدم إلا بركن شديد، فعندها صَمَّم الخادم أن يلقى البلد مُوَاثباً لا مواربا، وأن يجعل للزحف جانباً وللمنجنيق جانباً، ونَوَى أن يبدي صفحة وجهه أمام الناس، وتأسَّى برسول الله ﷺ في الاتقاء به إذا اشتد الباس، ولا شك أن قلوب الجيوش بمنزلة قلوبها، وأن النفاذ لأسنة الرماح لا لكعوبها، ولا يشتفي من الوغى إلا من كان طرفه أمام طرفه، ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه، ولما وقع الزَّحْف صُورع البلد صراعاً، بعد أن قورع قراعاً، ثم هزّ هزة طوته بيمينها ونشرته بشمالها، وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نكالها، وبدون ذلك يكون عَذرك أُدِيمه، وعطف شكيمه، ولم يكن قتاله بالسهام التي غايتها أن تصفّ أجنحتها للمطار، وتنال بكلومها من فوق الأسوار، بل بالسيوف التي إذا جالدت بلداً أخذت بكظمه، وتوغلت في هجمه، وأغنت بسرعة خطواتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هدمه، والسيف ليس بمُرْتَوٍ من النفس التي تظل طائشة عند لقائها، جائشة عند استيفائِها؛ فالقلوب توصف بأنها تجيش إذا كانت أعداداً، والنفوس لا تجيش إلا ذا كانت ثماداً، وما يستوي وجوه الأقران في إقدامها وإحجامها، فمنها المظلم إذا رَابَهَا الروع بإشراقها، ومنها المشرق إذا شَابَهَا الروع بإظلامها، وكانت وجوه المؤمنين في هذا المقام أحظى بلباس الإشراق، وأتم أبدراً والبدور لا يكون تمامها في الْمَحَاق؛ فما منهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض، ومشى الى جنة عرضها السموات والأرض، حتى اتسع المكرُّ وضاق بأعداء الله المقر، وحرقت أوعار الخنادق، وصار الرجال لمنطقة السور كالمناطق، ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لا تدخله لام التعريف، وكانت أجنحة الملائكة مطيفة بهم فأكرم بالْمُطَاف به وبالمطيف، وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التي هي الفوز الأكبر، وقَرَنَها بإدناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التي هي أرض المحشر، فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد، وأيسر ذلك أن أرواحهم في حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة إلى يوم المعاد، ولما رأى الكفار أن صَلِيبَهُمْ قد صار

خواراً، وأن زئيرهم قد انقلب خواراً؛ أذعنت أيديهم باستسلامها، وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها، وبالبلد عن النفوس وحمامها، فأبى السيف أن يترك رقابا تغذي بأكلها، ويحل من عشقها على مداومة وصلها، وذكر الخادم أنَّ سلف هؤلاء انتزاع هذا البلد قَسْرًا، وفتك بمن كان به من المسلمين غَدْرًا، وذلك ثأر ذخره آلله لك حتى تحظى في الآخرة بثوابه، وتتجمل في الدنيا بزينة أثوابه، والمسلم أخو المسلم يأخذ بدمه، وإن تطاولت أمداد السنين على قدمه، فيا بُعْدَ عهد هذا الثأر من ثائِره، ويا طيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره، ولما تحقق العزم على ذلك أشار ذوو الرأي بقبول الفدية المبذولة، وألا يحمل العدو على ما ليست نفسه عليه بمحمولة، فإن النقد إذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار، واسْتَضْرَى حتى يلتحق بالسباع الضَّوَار، وهؤلاء إذا رأوا عين القتل تجردوا للقتال، وركبوا الأهوال للنجاة من الأهوال، ومن يُدْعَ إلى خطة رشد فليقبلها، ومن أنشط له عقل الأمور فلا يعقلها، وعلى كل حال فإن الفدية للمسلمين أرغب، وأموال يُتَقَوَّى بها على العدو خير من دماء تذهب، هذا، وبالبلد من أسارى المسلمين مَنْ حَيَاةُ أحدهم بحياة كل نفس، ومَنْ حُرْمَتُه عند آلله مما طلعت عليه الشمس، ولا يُوَازِى فتحه عنوة أن يتعدى إليهم أضراره، ولا شك أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره، فرأى الخادم عند ذلك أن الرأي مشترك، وأن له معتركاً كما أن السيف له معترك، وتقرر تسليم البلد ودموع أهله قد خضبت أحداقها وأقرحت آماقها ولم تطب أنفسهم بفراق قمامه حتى كادت الهام تفارق أعناقها، فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم، وتشيل نعامتهم، ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار، وكيف يرجى النصر من معبود تقر شيعته بقتله، أم كيف يدفع عن غيره من كان هو مبتلى بمثله، وهذه عقول سخيفة نفذ فيها كيد شيطانها، وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها، ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار، زائِد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار، واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار، وزاده فَخْراً إلى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوي الذي كان في تلك الأرض موعده ومن صخرتها مَصْعَدُه، وذلك هو الإسراء الذي ركب إليه ظهر البراق، واستفتح له أبواب السبع الطِّباق، ولَقِيَ فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم فظفر خير ملقى بخير لاق، وبركة ذلك اليوم سرت إلى هذا

فأطالت من شهرته، وضمنته نصرة الدين الحنيف الذي لله عناية بنصرته، وجعلته تاريخاً يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبي ﷺ بدار هجرته، وإذا أنصف واصفه قال: إنه لليوم البدري في اقتراب النسب، وإنه العجيبة التي لم تجفل عنها الأيام في صفر وإنما أجفلت عنها في رجب، فما أكثر الفائز فيه والمغبون، والمسرور والمحزون فمن جد راكب ومن جد راجل، ومن عز قادم وذل راحل، ولطالما جد الخادم في السعي له وأبصار العدا تزلقه، وألسنتهم تَسْلُقُه، وما منهم إلا من أكثر الشناعة بأن ذلك السعي للاستكثار من البلاد، والله يعلم أنه لم يكن إلا للاستكثار من موارد الجهاد، لا جرم أن صدق النية كان له عقبى الدار، وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عقبى الْبَوَار، ويوم هذا الفتح يفتقر قبله إلى أيام تجلو بياضه عن سوادها، ويلقح لها بطون المساعي حتى يكون هو نتيجة ميلادها، ولما ظفر به الخادم لم يكن لأهل النِّجامة فيه قول يرد كذابه، ولا يقبل صوابه والشهب الطالعة على ذوات السروج، أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج، على أنهما وإن اتفقا رَجْماً فإنهما يختلفان علماً، فعلم هذه يسأل عنه ثغر الأعناق، وعلم هذه يسأل عنه بطون الأوراق، ولما دخل البلد وجد به أمماً لولا أن ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة، وغالبوا السيوف مصابرة، وهم طوائف مختلفو الألسنة والألوان، وإن قيل إنهم أناسى فإنَّ صُوَرَهُمْ صور الجان، ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها، وفحصت الشعر عن أوساط رءوسها، وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها، ولما رأوا طلعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بِالْجُؤَار واصطرخوا جميعاً كما يَصْطَرِخون غداً في النار، وزادهم غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة، وقد صار الناقوس أذاناً، وكلمة الكفر إيماناً، وأقيمت الجمعة، وهي أول جمعة حظي الأقصى بمشهدها، وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها، فمن باكٍ بدمعة سروره الباردة، ومن مُجِيل نَظَرَه في نعمة الله الواردة، ومن شاكر للزمن الذي أبقاه إلى يومه هذا الذي كُلُّ الأيام له حاسدة مَنْ كان وُلِدُه تقدم قبله أو بعده فكأنه لم يولد، وكانت هذه الجمعة في رابع شعبان، وهو الشهر الذي جعله الله طليعة لشهر الصيام، وليلة نصفه هي الليلة المعروفة بإحياء قيامها إلى حين وفاة شخص الظلام، والتي يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوي الذنوب والآثام، وجيء باللِّواء الأسود فركز من المنبر في أعلاه، ونطق لسان حاله فقال: من كان

رسول الله ﷺ مولاه فأنا مَوْلاَه، ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بياناً من لسانه، غير أن هذا يُزْهَى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزة سلطانه، ولما ذُكِرَتْ سِمَات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذي ملأ المسجد بعَجِيجِه، وسَبَقَ الكرامُ الكاتبون بزميله إلى السماء ووشيجه، وكان اليوم فَصْلاً، والموقف حَفْلاً، وذلك الدعاء فرضاً لا نفلا، ولا ينتهي النصف إلى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تَسْتَلْبِثُ الْعَجْلَانِ وتستحلب الأذهان وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الذي فطر الإنسان، ومن جملة ذلك ما تُبُوهِيَ في حسنه من البِيَع والصَّوَامع، ذوات الأبنية الروائع، التي روضت بالزخارف ترويض الأزهار، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحي إليها بالأسرار، وما منها إلا ما يقال: إنه إرَمُ ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا في توسيعها بضروب الاختيار، وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار، وقيل فيها: هذه روضات جنان لا أفنية ديار، هذا إلى غيره مما وجد من معبودات القوم الموصوفة بأنها آلة الصُّلُب، اللاتي من ذوات النصب، وأكثر ذلك وجد في المسجد موضوعاً، وعلى قبته مرفوعاً، فأنزلت على قرونها، وآسْتُنَّ بسنة رسول الله ﷺ في طعن عيونها، واستوطن المؤمن مكان الكَفُور، وبُدِّلت الظلمات بالنور، وقالت الصخرة: الآن جمع بيني وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام، والجمع بين الأختين في هذا الأمر من الحلال لا من الحرام، وقال الأقصى: سبحان الذي أسرى إليَّ بجنده، كما أسرى بعبده، وأعاد لي عهود الفتح الأول بهذا الفتح الذي أتى من بعده، وعَوْدُ الذاهب أرْجَى لدوام أحقابه، وخُلُودُ الإنسان لا يكون إلا في مآبه، وهذا هو الخطب الذي جدد للإسلام عهود ابن خَطَّابه، رضي الله عنه! إلا أن مستنقذ الطريدة أولى بها من صاحبها، ولئن غصبتها يد غالبة فقد جاء الله باليد التي غصبتها من غاصبها، هذا، ولم يستنقذها الخادم إلا بإنضاء سلاح أنفته الوقعة الأولى التي استأصلت حماة البلاد، واستباحت أغيالها بقتل الآساد، فكانت لهذا الفتح عنواناً، ولتقرير أصوله بنياناً، ولم يَنْجُ بها من طواغيت الكفر إلا طاغية ترابلس، فإن السيوف أسْأَرَتْهُ وبفؤاده قلق من أوجالها، وفي عينه دهش من أهوالها، وقد قَرَنَ الله هذا الفتح ببشرى موته، وكفى المسلمين مؤنة الاهتمام لِفَوْتِهِ؛ ففر من الوقعة ولم ينج بذلك الفرار، واعتصم بذات جداره، فقتله الخوف من وراء الجدار، ولا فرق بين قتيل خوف السفار، وبين قتيل

الشفار، ولقد فرّ من المكروه إلى مثله، لكنه انتقل من ميتة عِزِّهِ الى ميتة ذُلِّه، وكذلك آثار الخادم في أعداء الله فهم هلكى بسيفه في مواقف الطراد، فإن فَرُّوا فبخوفه على جنوب الوساد، وبعد هذه فهل يَمْتَرُونَ في أن دماءهم قد استجابت لمراده، وأن سواء لديه من أمكن منها فيَ دنوه ومن امتنع منها في بعاده، وكل ذلك مستمد من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التي من شأنها أن تجعل الرؤيا حقاً، وأحاديث الأمال صدقاً، وتُقَرِّبَ بعيدات الأمور حتى تجعل الشرق غرباً والغرب شرقاً، فهذا الفتح منسوب إليها، وإن كان الخادم هو الساعي في تسهيله، والمجاهد بنفسه وماله في سبيله، فعلى عطف دولتها ترقم أعلامه، وفي أيامها تؤرخ أيامه، ولو أبيح للقلم الخيلاء في مقام المقال، كما أبيح لصاحبه في مقام القتال، لاختالت مشيته في هذا الكتاب، ولقال وأسهب فليس الإكثار هٰهنا من الإسهاب، لكنه منعه من ذلك أن يكون ممن فخر بعمله فأبطله، وأرسل خطابه إلى الديوان العزيز فلم يقبضه بالأدب حين أرسله، وقد ارتادمَنْ يُبَلِّغ عنه مشاريح هذه الوقائع التي اختصرها، ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها، ويكون مكانه من النباهة كريماً كمكانها، وهي عرائس المساعي فَأَحْسَنُ الناس بياناً مؤهل لإيداع حسانها، والسائر بها فلان وهو راوي أخبار نصرها التي صحبها في تجريح الرجال، وَعَوَالِي إسنادها مأخوذة من طرق الْعَوَال، والأيام والليالي رواة فما الظن برواية الأيام والليال، وستتلو هذه الأخبار الصادقة بمشيئة الله أخبار مثلها صادقة، وما دامت السيوف ناطقة في يد الخادم فالألسنة عنها ناطقة، وللآراء العالية مزيد العلو، إن شاء الله تعالى.

وأما التقليد فإنه تقليد أنشأته لمنصب الحسبة، وهو: أما بعد؛ فقد جعل الله جزاء التمكين في أرضه، أن يقام بحدود فرضه، ونحن نسأله التوفيق لهذا الأمر الذي ثقل حمله، وعدم أهله، فقد جيء بنا في زمن أصبح الناس فيه سدى، وعاد الإسلام فيه غريباً كما بَدَا، وهو الزمن الذي كثرت فيه أشراط اليوم الأخير، وغربلت فيه الأمة حتى لم يبق إلا حُثَالَة التمر والشعير، ومِنْ أَعَمِّ ما نقرر بناءه ونقدم عناءه، ونصلح به الزمن وأبناءه، أن نمضي أحكام الشريعة المطهرة على ما قررته، في تعريف ما عرفته وتنكير ما نكرته، ومَدَارُ ذلك على النظر في أمر الحِسْبَة التي تتنزل

منه بمنزلة السلك من العقد، والكف من الزَّنْد، وقد أخلصنا النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها، ويُصْطَفَى لها ولا يصطفيها، وهو أنت أيها الشيخ الأجل فلان أحسن الله لك الأثر، وصدق فيك النظر؛ فتولَّهَا غير موكول إليها، بل مُعَاناً عليها. وآعلم أن الناس قد أماتوا سننا وأَحْيَوْا بِدَعًا، وتفرقوا فيما أحدثوهُ من المحدثات شيعاً، وأظلم منهم من أَقَرَّهُمْ على أمرهم، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم، فإن السكوت عن البدعة رضاً بمكانها، وترك النهي عنها كالأمر بإتيانها، ولم يأت بنا الله تعالى إلا ليعيد الدين قائماً على أصوله، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله.

ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم الذي هو عصمة مالهم، وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم، فابدأ أولاً بالنظر في العقائد واهْدِ فيها ألى سبيل الْفِرْقَة الناجية الذي هو سبيل واحد، وتلك الْفِرْقَة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا، وقالوا رَبُّنَا آللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، وَمَنْ عَدَاهم شُعَبٌ دانوا أديانا، وَعَبَدُوا من الأهواء أوثانا، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً، ولو نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم؛ فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولاً، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً، وليكن قتله على رءوس الأشهاد، ما بين حاضر وباد، فما تَكَدَّرَتِ الشرائع بمثل مقالته، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته، والمنتمي إليها يُعْرَفُ بنكره، ويستدل عليه بظلمة كفره، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار، وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار، وما تجده من كتبها التي هي سموم ناقعة، لا علوم نافعة، وأفاعي ملففة، لا أقوال مؤلفة؛ فاستأصل شَافَتَهَا بالتمزيق، وافعل بها ما يفعله آلله بأهلها من التحريق؛ ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها، والكشف عن مكامن أسرارها؛ فمن وُجِدَتْ في بيته فليؤخذ جهاراً، ولينكل به إشهاراً، وليقل: هذا جزاء من استكبر استكباراً، ولَمْ يَرْجُ لله وَقَاراً، وأما من تَحَدَّثَ في الْقَدَرِ، وقال فيه بمخالفة نص الخبر، فليس في شيء من رِبْقَة الإسلام، وإن تَنَسَّكَ بمداومة الصلاة والصيام، قال النبي ﷺ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذِهِ الأُمَّةِ». والمراد بذلك أنهما ماثلوا بين الله والعبد والضياء والظلمة، فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تُخْزَى فليقابل جمعها بالتكسير، واسمها بالتصغير، ولتنقل ألى ثقل

الحدود عن خفة التعزير، ومن كان منها ذا مكانة نابهة فليهبط، أو شهادة عادلة فليسقط، وكذلك يجري الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم، أو قال بحدوث القرآن القديم.

ومن مُلْحِدِي القرآن فرقة فرقت بين المعنى والخط، وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط، وكل هؤلاء قوم خَبُثَتْ سرائرهم، وعميت بصائرهم، وعظمت عند الله جرائمهم، فخذهم بالتوبة التي تطهر أهلها، وتجُبُّ ما قبلها، وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان، والقلبُ لاهٍ في قبضة النسيان، بل هي عبارة عن الندم على ما فات، واستئناف الإخلاص فيما هو آت، وقد جعل الله التائب من أحبابه، ووصفه في مواضع كثيرة من كتابه، ومن فضله أن الملائكة يستغفرون لذنبه، ويشفعون له الى ربه، فإن أَبَتْ هذه الطوائف إلا إصراراً، ولم يزدهم دعاؤك إلا فراراً؛ فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم طبعاً، وألحقهم بالذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعاً، فخذهم عند ذلك بحد الجلد، فإن لم ينجع فبحد ذوات الحد؛ فإن هذه أمراض عمى لا ترجى لها الإفاقة، ولا تبريء منها إلا الدماء المراقة.

وأما الفرقة المدعوة بالرافضة، التي هي لمارفعه الله خافضة، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه، ولا من الإسلام إلا رَسْمه، وإذا نُقِّب عن مذهبهم وجد على العصبية موضوعاً، ولغير ما شرعه الله ورسوله مشروعاً، ذَبُّوا عَنْ عليٍّ رضي الله عنه فأسلموه، وأخروه إذ قَدَّمُوه، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها، وأولوها على ما أولوها، فتبع الآخر منهم الأول على غمة، وقالوا: إنَّا وجدنا آباءنا على أمة، وههنا غير ما ذكرناه من عقائِد محلولة(١)؛ ومذاهب غير منقولة ولا مقبولة، وبالهدي يتبين طريق الضلال، وبالصحة يظهر أثر الاعتلال، ولا عقيدة إلا عقيدة السنة والكتاب، ولا دين إلا دين العجائِز الماءُ والمحراب.

وإذا فرغنا من الوصية بالأصول التي هي للدين مِلَاك، فَلْنُتْبِعْهَا بالفروع التي هي له مِسَاك، وأول ذلك الصلاة، وهي في مباني الإسلام الخَمس أوكد خَمْسِهِ،

---

(١) كذا في ا، ب، ج؛ ولعلها «منحولة».

وآخر ما وَصَّى بـه رسول الله ﷺ عنـد مفارقـة نَفْسِهِ، ومن فضلهـا أنها الْعَمَـلُ الذي ينهى عن الفحشـاء والمنكر، ولا عـذر في تركهـا لأحد من النـاس فيقال إنـه يعذر، فاجمع الناس إليها، واحملهم عليها، ومُرْهم بالاجتماع لها في المساجد، ونادِ فيهم بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة واحـد، وراقبهم عند أوقـات الأذان! في الأسواق التي هي معركة الشيطان؛ فمن شغل بتثمير مكسبه، ولَهَـا عنها بـالإقبال على لهـوه ولعبه؛ فَخُذْهُ بالآلة العمرية التي تَضَعُ من قَدْره، وتُذِيقه وَبَالَ أَمْرِهِ، ولا يمنعـك عن ذي هيبة هيبته، ولا عن ذي شيبـة شيبته، فـإنما أهلك الـذين قبلكم أنهم كانـوا إذا سَرَق فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، ومِنْ مهمات الصـلاة يوم الجمعـة الذي هـو في الأيام بمنـزلة الأعيـاد في الأعوام، وفيـه الساعـة المخصوصة بالدعاء المجاب، التي ما صادفها عبد إلا ظفـر بالـطِّلَاب، فمر النـاس بابتداره في البواكر، والفوز فيه بقربان البدنات الأخـاير، فـإنه اليـوم الذي لم تـطلع الشمس على مثله، وبـه فضل هـذا الدين على أهـل الكتاب من قبله، فهـو وَاسِطَة عِقْدِ الأيام السبعة، ولاشتماله على مجموع فضلها سمي يوم الجمعـة، وفي الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح في شهر رمضان والـرغائب في أول جمعـة من رجب وليلة النصف من شعبان، فلتملأ المسـاجد في هـذه المواسم التي تكثـر فيها شهادات الأقلام، في كَتْبِ الطاعات ومحـو الآثام، ومَنْ حَضَـرَها وليس همـه إلا أن يمر بها طروقاً، ويواعد إليه أخدانه رَفَثاً أو فسوقاً؛ فهؤلاء هم الْخَلْفُ الذين أضاعـوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فابعث عليهم قـوماً يسلبـونهم سلباً، ويـوجعونهم ضَـرْبًا، ويملئون عيونهم مهابة وقلوبهم رعباً، فبيوت الله مطهرة من هذه الأدناس، ولم تعمر لشيـاطين الإنس وإنما عمـرت للناس، فـلا يحضرهـا إلا راكـع وسـاجـد، أو ذاكـر وحامد.

وههنا عظيمة عضيهة، وفاحشة يفقه لها من ليست نفسه بفقيهة، وهي الـرِّبَا، فإنه قد كثر أكله، وتظاهر به فاعله، وقال فساق الفقهـاء بتأويله، وتـوصلوا إلى شبهة تحليله، ولا يتسارع إلى ذلك إلا من أعمى الله قلبه، ومَحَقَ كسبه، قـال النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا وَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا» ونحن نأمرك

أن تشمر في هذا الأمر تشميراً يرهبه النـاس[1]، ولا تدع رِبـاً حتى تضعه وأول ربـا تضعه ربا العباس، فتأديب الكبير قاض بتهـذيب الصغير، والأسـوة بالـرفيع خـلاف الأسوة بالنظير، وجل معاملة الربا تجري في سوق الصرف الذي تختلف بـه النقود، وتفترض فيه العقـود، ويخاض في نـار نيره إلى النـار ذات الوقـود، وبه قـوم أوسعوا عيون الموازين غمزاً، وألسنتها همزاً ولمزاً، وأصبح الدرهم والدينار عنـدهم بمنزلـة الصنمين الـلات والْعُزَّى، ولا يُـرَى منهم إلا مَنِ الحرصُ مُفَـاضٌ على ثيابـه، وقـد جمع بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه، فعَدِّل مَيْلَ هؤلاء تعديلاً، وتَخَوَّلْهُمْ على مرور الأيام تخويلاً واعلم أنك قد وليت من الكيل والميزان أمرين هلكت فيهما الأمم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختيـار والاختبار، ولا تُقِـلْ أهْلَهُمَا عَثْـرَةً فإن الإقـالة لا تنهى عن الْعَثَـار، وكل هؤلاء من سـواد الناس ممن لم يَـزْكُ غَرْسُـه، ولا فقهت نَفْسُه، وليس همه إلا فرجه أو ضِرْسُه، فخذهم بآلـة التعزيـز التي هي نزاعـة للشَّوَى، تدعو من أدبر وتولى، ومن آثارها أنها ترجّ أرض الرأس رجًّا، وتفرج سماءه فرجاً، ويسلك بصاحبه هدياً ونهجاً.

وقد كثر في الأسـواق الخِلاَبـة والنَّجَس وتَلَقِّي الرُّكْبَـان وبَيْعُ الْحَـاضِرِ للبـادي وتَنْفِيق السِّلعة باليمين الكذابة، وكل هذه من المحظورات التي وردت الأخبار النبوية ببيـانها، والنهي عن تـورُّد مكانهـا، فَمَنْ قارف شيئاً منها جـاهلاً بتحـريمـه فقـوّمـه بالتعليم، واهده إلى الصراط المستقيم، ومَنْ عَرَفَ ما اقترف فأذِقْهُ حَرَّ التأديب، قَبْلَ أن يُذَاق غداً حَرَّ التعذيب، وأعلمه أن الأرزاق بيد الله تعالى لا ينقصها عجز القاعد ولا يزيدها حرص الكادح، وقد ينقلب الجاهد فيهـا بصفقة الخـاسر والْـوَادِعُ بصفقة الرابح، ومن سنـة الله تعالى أن ينمي الحـلال وإن كان يسيـراً، ويَمْحَقَ الحرام وإن كان كثيراً، ومن الناس من آتاه الله مالاً فَبَثَّ في الأسواق جنود ذهبه ووَرِقِهِ، واحتكر ما حمله الميزان من ذوات رطله ووسعه الكيل من ذوات وسْقِـه، فأصْبَـحَ فقراء بلده في ضيق من عدم الرفق، ومدد الرزق، فليمنـع هؤلاء أن يجعلوا رزق الله مُحْتَكَراً،

(١) في ا، ب، ج «برهة الباس» وما أثبتناه عن د.

ومعاش عباده مُحْتَجَراً، وليؤمروا بأن يتراحموا، ولا يتزاحموا، وأن يأخذ الغني منهم بقدر الْكَفَاف، ويترك للفقير ما يعينه على الإسعاف، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حكرة في سوقنا، لا يَعْمِدْ رجال بأيديهم فضول من أذهاب إلى رزق من أرزاق الله تعالى ينزل بساحتنا فيحتكرونه علينا، ولكن أيُّما جَالبٍ جلب على عمود كبده فذلك ضيف عمر فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله» وأما التسعير فإنه وإن آثره القاطنون، وحكم به القاسطون، وقيل: إن في ذلك للفقير تيسير العسير؛ فليس لأحد أن يكون يَدَ الله في حفظ ما رفع، وبذل ما منع، فقف أنت حيث أوقفك حكم الحق، ودَعْ ما يَعِنُّ من مصلحة الخلق، ولا تكن ممن اتبع الرأي والنظر، وترك الآية والخبر، فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ومما نأمرك به أن تمحو الصغيرة، كما تمحو الكبيرة؛ فإن لَمَمَ الذنوب كالقطر يصير مُجْتَمِعهُ سيلاً متدفقاً، وكان أوله قَطْراً متفرقاً.

وقد استمر في الناس عوائد تهاونوا باستمرارها، ولم ينظروا ألى ثقل أَوْزَارِها؛ فمن ذلك لُبْسُ الذهب والحرير الذي لم يلبسه إلا مَنْ عدم عند الله خَلَاقاً، وإن قيل إنه شعار للغني فلم يزد صاحبه من الحسنات إلا إملاقا، ولَلُبْسُ عباءة مع التقوى أحسن في العيون شعاراً، وأعظم في الصدور وقاراً، ويلتحق بهذه المعصية صَوْغُ الذهب والفضة آنيةً يمنع منها حق الصدقات وهو حق يُقَاتَلُ مانعه، ويُعْصَى في استعمالها أمْرُ الله وهو حدٌّ من حدوده يعاقب عاصيه ويثاب طائعه، وكذلك يجري الحكم في الصور المرقومة في البيوت والثياب، وعلى الستور المغلقة على الأبواب، وإخراجها في ضروب أشكال الحيوان لملاعبة الصبيان، وذلك مماثلة لخلق الله في التقدير، ولهذا يؤمر صانعه بنفخ الروح فيما صوّره من التصوير.

ومما يغلظ نكيره إطالة الذيول للاجترار، والمباهاة لما فيها من عنجهية التيه والاستكبار، ولَنْ يَخْرِقَ صاحِبُهَا الأرضَ بإعجابه، ولا يبلغ طول الجبال بإطالة

ثيابه، قال النبيّ ﷺ: «إِنَّ ٱللهَ لَا يَنْظُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ».

ومما هو أشد نكيراً أمر الحمامات؛ فإن الناس قد أصروا بها على الإجهار، وترك الاستتار، والتهاون بأمر العورات التي لصاحبها اللعنة وله سوء الدار، والنساء في هذا المقام أشد تهالكاً من الرجال، وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن في فاحشة الابتذال، ولهن مُحْدَثَات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإتراف، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان في حساب، وتلك من لباس الشُّهْرَة الذي لا يستر منه إسبال مِرْطٍ ولا إدناء جلباب، ومن جملتها أنهن يَعْتَصِبْنَ عصائب كأمثال الأسنمة، ويخرجن من جهارة أشكالها في الصور المعلمة، وقد أخبر رسول الله ﷺ بها فيما ورد عنه من الأخبار، وجعل صاحبها معدوداً من زمرة أصحاب النار.

ومما حِيدَ فيه عن السنن قراءةُ القرآن بضروب الألحان، وتلك قراءة تخرج حروفها من غير مَخْرَج، وتبدو معوجة وهو قرآن عربي غير ذي عِوَج، وقد أمر الله بترتيله، وإيراده على هيئة تنزيله؛ فَمَنْ قرأه بالترجيع والترديد، وزَلْزَلَ حروفه بالتمطيط والتمديد؛ فقد ألحقه بدرجات الأغاني، وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعاني، قال النبي ﷺ: «ٱقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونَ أَهْلِ الْفِسْقِ وَلُحُونَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَسَيَجِيءُ بَعْدِي قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالنَّوْحِ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ» ويلتحق بذلك اقتناء الْقَيْنَات المغنيات اللاتي يلعبن بالعقول لعبهن بالأسماع، ويُغْنِين الشيطانَ بغنائهن عن بَثّ الجنود والأشياع، وفُتْيَا النفس الأمارة في ذلك أن تقول: هؤلاء إماء يحل نغمة سماعهن، كما يحل ما تحت قناعهن، وقد علم أن لكل شيء نماماً، وقد ينقلب الحلال فيصير حراماً، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، قال النبي ﷺ «لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ الْمُغَنِّيَاتِ وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ» وفي مثل هذا أنزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ وكذلك يجري الحكم في المواشط اللاتي يجعلن الحسن موفوراً، والقبح مستوراً، ويخدعن نظر الناظر حتى يجعلنه مسحوراً؛ فهن يُبْدِين

صدقاً من كذب، وَجداً من لعب، وفعلهن هـذا من الغش الذي نهى رسـول الله ﷺ عنه، وقال: إنـه ليس منه، وقـد لَعَنَ الْوَاصِلَةَ والمستـوصلة والواشمـة والمستوشمـة والواشرة والمستوشرة، ومِنْ غِشِّ المنكرات أيضاً خِضَـابُ الشَّيْب الذي يخـالف فيه الظاهر الباطن، ويتخلَّق صاحبه بخلق الكاذب الخـائن، وهَبْ أنه أخفى لـون شعره وهل يخفي أخْلَاق لباسه، وإذا استَسَنَّ ملائم المرء فلا يغنيه سواد عارضـه ولا سواد رأسـه، وقد جعـل الله الشيب من نعمه المبشـرة بطول الأعمـار، وسماه نـوراً للونـه وهـدايته ولا تستـوي الظلمـات والأنوار، قـال النبي ﷺ(١) الشيب أن يشتغل بتغيير صيغـة الكـتاب، ويـدأب في محو سـواد العقاب ببيـاض الثواب، ففي بقيـة عمره مندوحة لادخار ما يُحْمَد ذخره، وتبديل ما تقدم سطره.

ومما خولفت فيه السنةعقـد مجالس التعـازي لحضور النـاس، وإظهار شعـار الأسود والأزرق من اللباس، والتشبيه بالجاهلية في النـوح والندب، ومـجـاوزة دمع العين وخشـوع القلب إلى الإعلان بـإسخاط الـرب، وقد تـواطأ النسـاء على ضرْب الخيام على القبور، وجعل الأعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور، فصارت المـآتم بينهم ولائم والمنادب عندهم مآدب، وربما نشـأ من ذلك مـا يغض طرفـاً، ويجدع أنفاً، ويوجب حداً وقذفاً.

وهكذا أهمل أمر الإسلام في تشبيه أهل الذمة بأهله، وما كـانوا ليشـابهوه في زي غرته ويخالفوه في سلوك سبله، ولا بد مِنَ الْغِيَار بأن يَشُدَّ النصـراني عقدة زُنـاره، ويُصَفِّر اليهودي أعلى إزاره، وليمنعوا من الظاهر بطغيان النعمة وعلو الهمة، ويؤمروا بـالـوقـوف عنـد مـا حكم عليهم من الأحكـام، وأخـذوا فيـه بـالاختفـاء والاكتتـام، فخمورهم تستر، وشعائر دينهم لا تظهر، وموتاهم تقبـر بالخمـول قبل أن تقبـر؛ فلا يوقد خلف ميتهم مصباح، ولا يتبع بنَدْب ولا صياح.

---

(١) هكـذا ورد في ا، ب، ج، د؛ ونعتقد أنـه قد سقط من جميـع هذه النسـخ الحـديث النبـوي الدال على فضيلة الشيب، وقد يكون المؤلف بيض له ثم غفل عنه، ومن الأحـاديث في ذلك قوله ﷺ : «الشيب نـور المؤمن، لا يشيب الرجـل شيبة في الإسـلام إذا كانت لـه بكل شيبـة حَسنة ورفع بها درجة».

ومما عرف الناس منكره إثارة التحريش بين الحيوانات، وهي ذوات أكباد رطبة، وأخلاق صعبة، وما منها إلا ما يحل أكله، ولا يحل قتله، كالكبش والحجلة والديك والسماني وما أشبهها، وقد أكثر الناس من اقتنائها، والمواظبة على إضرام شَحْنائها، ولربما نشأ من ذلك فتنة تؤل إلى ضراب، وشق ثياب، وإحداث شِجَاج، وإثارة عَجَاج، وتحزب إلى أحزاب كثيرة وأفواج.

ويتصل بهذه المنكرات المذكورة أشياء أخرى تجري مَجْرَاها في التقديم، وتتنزل منزلتها في التحريم، فاحكم فيها بحكمك، وامض في شبهاتها بدليل علمك، ونُبْ عنا في التذكير والتحذير، والتعريف والتنكير، حتى يتقوَّمَ الأوَد، ويتضح الرشد، ويمكث في الأرض ما ينفع ويذهب الزَّبَد، وليكن عملك لله الذي يسمع ويرى، وله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

واعلم أن الأمر بالمعروف عبادة يتعدى نفع صاحبها إلى غيره، وتستضيف خير المأمور بها إلى خيره، وهي الجهاد الأكبر الذي تقاتل فيه عواصي النفوس، وتضرب به رءُوس الشهوات التي هي أمنع من معاقد الرءوس، فقتيله يحيا بقتله، وجريحه يوسي بجراحة نصله، وبمثل هذا الجهاد تستنزل أَمْدَادُ النعم مضعفة، كما تستنزل أمداد النصر مردفة، فأقدِمْ عليه ذا عزم باتر، وطرف ساهر، وقدم ثابت صابر، حتى تظل لمعاقل الشيطان فاتحاً، وتكون فيمن دعا إلى الله وعمل صالحاً.

واعلم أنك في صبيحة كل يوم يَبْتَدِرُكَ المَلَكُ والشيطان، وكل منهما يقول: يأيها الإنسان، فإن أجبت نداء الملك كتبك في زمرة من مهد لجنبه، وخاف مقام ربه، وعَرَج بك ألى الله طيبا نَشْرُه، مُضَاعَفاً أجره، وإن أجبت نداء الشيطان كتبك في زمرة من أغواه، وقَرَنَك بمن أغفل الله قلبه واتبع هواه، ثم نزل به إلى الأرض خبيثاً مخبثاً، وأقبل به على إخوانه من الشياطين محدثاً.

وهذا آخر ما عهدناه إليك من العهد الذي طوقت اليوم بكتابه، وسَتُنَاقش غداً على حسابه، وكما جعلناه لك في الدنيا ذكراً، فاجعله لك في الآخرة ذخراً، إن شاء الله تعالى؛ والسلام.

وهذا الذي ذكرته في هذين من الكتاب والتقليد يتضمن إطناباً مستوفى

الأقسام، ولولا خوف الإطالة التي لا حاجة إليها لأوردت قصائد من الشعر أيضاً، حتى لا يخلو الموضع من ضرب أمثلة من المنظوم والمنثور، لكن في الذي ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه ونظائره.

فإن قيل: إن الإطناب في الكلام وضعتموه اسماً على غير مسمى؛ فإن الكلام لا يخلو من حالين: إما ألاَّ يزيد لفظه على معناه، وهو الإيجاز، أو يزيد لفظه على معناه، وهو التطويل، وليس ههنا قسم ثالث، فما الإطناب إذاً؟

قلت في الجواب: اعلم أن الإيجاز هو ضد التطويل، كما أن السواد ضد البياض، غير أن بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضداداً؛ فالإطناب لا إيجاز هو ولا تطويل، كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضاً ولا سواداً، وقد قدمنا القول أن الإطناب يأتي في الكلام مؤكداً كالذي يأتي بزيادة التصوير للمعنى المقصود إما حقيقة وإما مجازاً، والتطويل ليس كذلك؛ فإنه التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك المعنى بدونه، فإذا حذفت تلك الزيادة بقي المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شيء، وهذا بخلاف الإطناب، فإنه إذا حذفت منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه، وذهبت فائدة التصوير والتخييل التي تفيد السامع ما لم يكن إلا بها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وهذا لا يسمى إيجازاً؛ لأنه أتى فيه بزيادة لفظ، وهو ذكر الصدور، وقد علم أن القلوب لا تكون إلا في الصدور، ولا يسمى تطويلاً؛ لأن التطويل لا فائدة فيه أصلاً، وهذا فيه فائدة، وهي ما أشرنا إليه، وكذلك باقي أقسام الإطناب التي نبهناه عليها، وهذا لا نزاع فيه.

النوع السابع عشر

في التكرير

قد تقدم الكلام في صدر كتابي هذا على تكرار الحروف، وما [أشبه] ذلك مما يختلط بهذا النوع الذي هو تكرار المعاني والألفاظ.

واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ.

وحَدّه هو: دلالة اللفظ على المعنى مردَّدًا، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة، وبالتطويل أخرى، وقد تقدم الكلام على الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة في باب الإطناب، فلا حاجة إلى إعادته ههنا، وأما التكرير فقد عرفتكه.

وهو ينقسم قسمين: أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ.

فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه أسْرِعْ أسْرِعْ، ومنه قول أبي الطيب المتنبي(١).

وَلَمْ أرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَامُ

وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك: أطِعْني ولا تَعْصِني، فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية.

وكل من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وغير مفيد، ولا أعني بالمفيد ههنا ما يعنيه النحاة، فإنه عندهم عبارة عن اللفظ المركب؛ إما من الاسم مع الاسم، بشرط أن يكون للأول بالثاني علاقة معنى يسع مكلفاً جهله، وإما من الاسم مع

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن علي العجلي، وأولها قوله:

فُؤادٌ مَا تُسَلِّيهِ المُدَامُ ... وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

الفعل التام المتصرف، على هذا الشرط أيضاً، وإما من حرف النداء مع الاسم؛ فهذا هو المفيد عند النحاة، وأنا لم أقصد ذلك ههنا، بل مقصودي من المفيد أن يأتي لمعنى، وغير المفيد أن يأتي لغير معنى.

واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيداً له، وتشييداً من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك؛ إما مبالغة في مدحه أو في ذمه، أو غير ذلك، ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر، والوسط عارٍ منه؛ لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أو ذم أو غيرهما، والوسط ليس من شرط المبالغة؛ وغير المفيد لا يأتي في الكلام إلا عيًّا وخطَلاً من غير حاجة إليه.

فأما الأوّل - وهو الذي يوجد في اللفظ والمعنى - فإنه ينقسم الى ضربين: مفيد، وغير مفيد.

فالأول المفيد وهو فرعان: **الأول**: إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد، والمقصود به غرضان مختلفان، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ هذا تكرير في اللفظ والمعنى، وهو قوله: ﴿**يحق الحق**﴾ و﴿**ليحق الحق**﴾، إنما جيء به ههنا لاختلاف المراد، وذاك أن الأول تمييز بين الإرادتين، والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها، وأنه ما نصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ.قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ**﴾ فكرر قوله تعالى: ﴿**قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ وقوله: ﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني**﴾ والمراد به غرضان مختلفان، وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة

والإخلاص في دينه، والثاني إخبار بأنه يخصُّ الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه؛ ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة في الثاني، وأخّره في الأول؛ لأن الكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل من أجله، ولذلك رتب عليه ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾.

وعليه ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وظاهر الأول والثاني أنهما سواء في المعنى، وليس كذلك؛ لأن الثاني فيه تخصيص غير موجود في الأول، ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد الأفضل، وقلنا: الأفضل زيد، كان في الثاني تخصيص له بالفضل، وهذا التخصيص لا يوجد في القول الأول الذي هو زيد الأفضل، ويجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها؛ فيقال: زيد الأجمل، أو زيد الأنقص، وإذا قلنا: الأفضل زيد، وجب تخصيصه بالفضل، ولم يمكن تغييره عنه، وكذلك يجري الحكم في هذه الآية؛ فإن الله تعالى قال: ﴿إنما المؤمنون آلذين آمنوا بآلله ورسوله﴾، ثم قال: ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ فوصفهم بالامتناع عن الذهاب إلا بإذنه، وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ فجاء بصفة غير تلك الصفة، ولما قال: ﴿إن آلذين يستأذنونك أولئك آلذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ وجب تخصيصهم بذلك الوصف دون غيره، وهذا موضع حسن في تكرير المعاني.

ومما يُعَدُّ من هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه، وليس الأمر كذلك؛ فإن معنى قوله ﴿لا أعبد﴾ يعني في المستقبل: من عبادة آلهتكم، وإلا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلٰهي، ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي: وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني أنه لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية في وقتٍ

مًا فكيف يرجى ذلك مني في الإسلام؟ ﴿ولا أنتم عابدون﴾ في الماضي فيّ وقت مًا ما أنا على عبادته الآن.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فكرر ﴿الرحمن الرحيم﴾ مرتين والفائدة في ذلك أن الأول يتعلق بأمر الدنيا، والثاني يتعلق بأمر الآخرة؛ فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين في كونه خَلَق كلًّا منهم على أكمل صفة، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه، حتى البقة والذباب، وقد يرجع إلى غير الخلق كإدرار الأرزاق وغيرها، وأما ما يتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية في يوم القيامة الذي هو يوم الدين.

وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه؛ فانظر إلى سوابقه ولواحقه؛ لتنكشف لك الفائدة منه.

ومما ورد في القرآن الكريم مكرراً قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [فكرر قوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾] ليؤكده عندهم ويقرره في نفوسهم، مع تعليق كل واحد منهما لعلة؛ فجعل الأول كونه أميناً فيما بينهم، وجعل علة الثاني حَسْمَ طمعه عنهم، وخُلُوَّه من الأغراض فيما يدعوهم أليه.

من هذا النحو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وإنما كرر تكذيبهم ههنا لأنه لم يأت به على أسلوب واحد، بل تنوع فيه بضروب من الصنعة، فذكره أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل؛ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنوع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثناء من الوضع

على وجه التوكيد والتخصيص المبالغةُ المسجِّلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه.

وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض، وبه تعريف موقع التكرير، والفرق بينه وبين غيره؛ فافهمه إن شاء الله تعالى.

الفرع الثاني من الضرب الأول: إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد، والمراد به غرض واحد؛ كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ والتكرير دلالة [على] التعجب من تقديره وإصابته الغرض، وهذا كما يقال: قَتَلَه الله ما أشجعه! أو ما أشعره! وعليه ورد قوله الشاعر:

* أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمي ثُمَّتَ ٱسْلَمِي(١) *

وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته.

وعليه ورد الحديث النبوي؛ وذاك أن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ بَنِي هِشَام بْن المُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيًّا فَلاَ آذن ثُمَّ لاَ آذَنُ ثُمَّ لاَ آذَنُ إِلَّا أَنْ يُطَلِّقَ عَلِيٌّ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُم» فقوله: «لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن» من التكرير الذي هو أشد موقعاً من الإيجاز؛ لانْصِبَاب العناية إلى تأكيد القول في منع عليّ رضي الله عنه من التزوج بابنة أبي جهل بن هشام.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ ومن أجل ذلك نقول: لا إِلَهَ إلَّا الله وحده لا شريك له؛ لأن قولنا: «لا إِلَهَ إلَّا الله» مثل قولنا: «وحده لا شريك له» وهما في المعنى سواء، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته، وذاك لأن مِنَ الناس مَنْ يخالف فيه كالنصارى والثَّنَوِية، والتكرير في مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز، وأحسن، وأَسَدُّ موقعاً.

ومما جاء في مثل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً

---

(١) عجز هذا البيت قوله:

* ثَلاثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلَّمِي *

﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً تَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ۝وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ فقوله: ﴿من قبله﴾ بعد قوله: ﴿من قبل﴾ فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول؛ فاسْتَحْكَم بأسهم، وتمادى إبلاسهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

وعلى ذلك ورد قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ فقوله: ﴿لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ يقوم مقام قوله: ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ لأن مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر لا يدين دين الحق، وإنما كرر ههنا للخطب على المأمور بقتالهم، والتسجيل عليهم، بالذم، ورجمهم بالعظائم؛ ليكون ذلك أدْعَى لوجوب قتالهم وحربهم، وقد قلنا: إن التكرير إنما يأتي لما أهَمَّ من الأمر الذي بِصَرْفِ العناية إليه يثبت ويتقرر.

كذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ۝أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فتكرير لفظه ﴿أولئك﴾ من هذا الباب الذي أشرنا إليه؛ لمكان شدة النكير، وإغلاظ العقاب بسبب إنكارهم البعث.

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ فإنه إنما تكررت لفظة ﴿هم﴾ للإيذان بتحقيق الْخَسَار، والأصل فيها وهم في الآخرة الأخسرون؛ لكن لما أريد تأكيد ذلك جيء بتكرير هذه اللفظة المشار اليها.

كذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾.

أمثال هذا في القرآن كثير.

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة القصص: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً

يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ فقوله تعالى: ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾ بتكرير أنْ مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته ألى قتل الأول، بل كان عنده إبطاء في بَسْط يده إليه، فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾.

وجرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في هذه الآية؛ فقال: إن أنْ الأولى زائدة، ولو حذفت فقيل فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وقد اتفق النحاة على أنَّ أنْ الواردة بعد لَمّا وقبل الفعل زائدة، فقلت له: النحاة لا فُتْيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما، من حيث إنهم نحاة، ولا شك أنهم وَجَدُوا أنْ ترد بعد لَمَّا وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت، فقالوا: هذه زائدة، وليس الأمر كذلك، بل إذا وردت لَمَّا وورد الفعل بعدها بإسقاط أنْ دلّ ذلك على الفور، وأذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخٍ وإبطاء.

وبيان ذلك وجهين:

أحدهما: أني أقول: فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدِلّة على المعاني، فإذا أوردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأَوْلَى أن تحمل تلك اللفظة على معنى، فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل: هذه زائِدة دخولُهَا في الكلام كخروجها منه، ولما نظرت أنا في هذه الآية وجدت لفظة «أنْ» الواردة بعد «لَمَّا» وقبل الفعل دالة على معنى، وإذا كانت دالة على معنى فكيف يسوغ أن يقال: إنها زائدة.

فإن قيل: إنها إذا كانت دالة على معنى فيجوز أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت إليه.

قلت في الجواب: إذا ثبت أنها دالّة على معنى فالذي أشرت إليه مَعْنًى

مناسب واقع في موقعه، وإذا كان مناسباً واقعاً في موقعه فقد حصل المراد منه، ودلَّ الدليل حينئذ أنها ليست بزائدة.

الوجه الآخر: أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحاً في كلام الله تعالى، وذاك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجه إليها، والمعنى يتم بدونها، وحينئذ لا يكون كلامه معجزاً؛ إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه، وإن التطويل عيب في الكلام، فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز؟ هذا محال.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجبّ وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثَمَّ إبطاء بعيد، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة، ولو لم يكن ثَمَّ مدة بعيدة وأَمَدٌ مُتَطَاول لما جيء بأنْ بعد لَمَّا وقبل الفعل، بل كانت تكون الآية فلما جاء البشير ألقاه على وجهه.

وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة؛ لأنها ليست من شأنهم.

واعلم أن من هذا النوع قسماً يكون المعنى فيه مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ، وذلك يأتي في الألفاظ المترادفة، وقد ورد في القرآن الكريم، واستعمل في فصيح الكلام.

فمنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ والرجز هو العذاب.

وعليه ورد قول أبي تمام[1]:

نَهُوضٌ بِثِقْلِ الْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ ... وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافي، وأولها قوله:

نُسَائِلُهَا أَيَّ الْمَوَاطِنِ حَلَّتِ ... وَأَيَّ بِلَادٍ أَوْطَنَتْهَا وَأَيَّتِ

والثقل: هو العبء، والعبء: هو الثقل، وكذلك ورد قول البحتري[1]:

وَيَـوْمَ تَـثَـنَّتْ لِـلْوَدَاعِ وَسَـلَّمَـتْ بِعَيْنَيْنِ مَـوْصُـولٍ بِلَحْـظِهِمَـا السِّحْـرُ

تَـوَهَّمْتُهَـا أَلْـوَى بِـأَجْفَـانِهَـا الْكَـرَى كَـرَى النَّوْمِ أَوْ مَـالَتْ بِـأَعْـطَافِهَـا الْخَمْـرُ

فإن الكرى هو النوم.

وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعـاطي هذه الصنـاعة وظنـوه مما لا فائدة فيه، وليس كذلـك، بل الفـائدة فيـه هي التأكيـد للمعنى المقصود، والمبـالغة فيه.

أما الآية فالمراد بقوله تعـالى: ﴿عَذَابٌ مِنْ رِجْـزٍ﴾ أي: عذاب مُضَـاعَف من عذاب.

وأما بيت أبي تمام فإنه تضمن المبالغة في وصف الممدوح بحمله للأثقال.

وأما بيت البحتري فإنه أراد أن يشبه طَرْفَهَـا لِفُتُوره بـالنائم؛ فكـرر المعنى فيهِ على طريق المضاف والمضاف إليه تأكيداً له وزيادة في بيانه.

وهذا الموضع لم ينبه عليهِ أحد سواي.

ولربما أدخل في التكوير من هذا النوع ما ليس منه، وهو موضع لم ينبـه عليه أيضاً أحد سواي.

فمنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَـابُوا مِنْ بَعْـدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلما تكرر ﴿إن ربك﴾ مرتين عُلم أن ذلك أدل على المغفرة.

(١) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل، وأولها قوله:

مَـتَـى لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ بَـدَا طَـلَـلٌ قَـفْـرُ جَـرَى مُـسْتَـهِـلٌّ لاَ بَـكِـيءٌ وَلاَ نَـزْرُ

وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومثل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير، وليست كذلك، وقد أنعمت نظري فيها فرأيتها خارجةً عن حكم التكرير، وذاك أنه إذا طال الفصل من الكلام، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به؛ فالأولى في باب الفصاحة أن يُعاد لفظ الأول مرة ثانية؛ ليكون مقارناً لتمام الفصل؛ كي لا يجيء الكلام منثوراً؛ لا سيما في إنَّ وأخواتها؛ فإذا وردت إنَّ وكان بين اسمها وخبرها فُسْحَة طويلة من الكلام فإعادة إنَّ أحسن في حكم البلاغة والفصاحة؛ كالذي تقدم من هذه الآيات.

وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة[١]:

أَسِجْناً وَقَيْداً وَاشْتِيَاقاً وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ امْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ هَذَا إِنَّهُ لَكَرِيمُ

فإنه لما طال الكلام بين اسم إنَّ وخبرها أعيدت إنَّ مرة ثانية؛ لأن تقدير الكلام، وإنَّ آمراً دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريمٌ؛ لكن بين الاسم والخبر مَدًى طويل؛ فإذا لم تُعَدْ إنَّ مرة ثانية لم يأت على الكلام بَهْجَة ولا رَوْنَق، وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً.

وكذلك يجري الأمر إذا كان خبر إنَّ عاملاً في معمول يَطُول ذكره؛ فإن إعادة الخبر ثانية هو الأحسن.

وعلى هذا جاء قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فلما

(١) انظر البيتين في الحماسة (شرح التبريزي: ٣ - ٢٧٠).

قال ﴿إني رأيت﴾ ثم طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ الرؤية فيقول ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾.

وكذلك جاءت الآية المذكورة ههنا قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ فإنه لما طال الفصل أعاد قوله ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ فاعلم ذلك، وضع يدك عليه.

وكذلك الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾.

وكذلك الآية الأخرى، وهي: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾.

ومن باب التكرير في اللفظ والمعنى الدال على معنى واحد قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ.يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾؛ فإنه إنما كرر نداء قومه ههنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سِنَة الْغَفْلة، ولأنهم قومه وعشيرته، وهم فيما يُوبِقُهم من الضلال، وهو يعلم وَجْهَ خلاصهم، ونصيحتُهُمْ عليه واجبة؛ فهو يتحزن لهم، ويتلطف بهم، ويستدعي بذلك ألَّا يتهموه؛ فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وأن ينزلوا على نصيحته لهم، وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأسد موقعاً من الاختصار؛ فاعرفه إن شاء الله تعالى.

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى في سورة القمر: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ.وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ فإنه قد تكرر ذلك في السورة كثيراً، وفائدته أن يجدِّدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين آدّكاراً وإيقاظاً، وأن يستأنفوا تَنَبُّهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث إليه، وأن تُقْرَعَ لهم العصا مَرَّاتٍ لئلا يغلبهم السهو وتستولي عليهم الغفلة.

وهكذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذلك عند كُل نعمة عَدَّدها على عباده.

أمثال هذا في القرآن الكريم كثير.

ومما ورد من هذا النوع شعراً قول بعض شعراء الحماسة[١]:

هُنَـاكَ هُنَاكَ الْفَضْـلُ والْخُلُقُ الْجَزْلُ ... إلَى مَعْـدِنِ الْعِـزِّ الْمُـؤَثَّـلِ وَالنَّـدَى

فقوله «هناك هناك» من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز؛ لأنه في معرض مدح، فهو يقرر في نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الأوصاف المذكورة مشيراً إليها، كأنه قال: أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومفاده.

وكذلك ورد قول المساور بن هند:

جَـزَى اللهُ عَنِّي غَـالِبـاً مِنْ عَـشِيـرَةٍ ... إذَا حَـدَثَـانُ الـدَّهْـرِ نَـابَتْ نَـوَائِبُـهْ

فَكَمْ دَافَعُـوا مِنْ كُـرْبَـةٍ قَدْ تَـلَاحَمَتْ ... عَـلَيَّ وَمَـوْجٍ قَـدْ عَلَتْنِـي غَـوَارِبُـهْ

فصدر البيت الثاني وعجزه يدلان على معنى واحد؛ لأن تلاحم الكرب عليه كتعالي الموج من فوقه، وإنما سوغ ذلك لأنه مقام مدح وإطراء، ألا ترى أنهُ يصف إحسان هؤلاء القوم عند دَثَان دهره في التكرير، وفي قبالته لو كان القائل هاجياً؛ فإن الهجاءَ في هذا كالمدح، والتكرير إنما يحسن في كلا الطرفين، لا في الوسط.

واعلم أنه إذا وردت «إنِ» المكسورة المخففة بعد «ما» كانت بمعناها سواء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إنْ هُمْ إلاَّ كَالأَنْعَام﴾ فإنْ وَما بمعنى واحد، وإذا أوردت من بعد ما كانت من باب التكرير، كقولنا: ما إنْ يَكُونُ كذا وكذا: أي ما يكون كذا وكذا، وإذا وردت في الكلام فإنما ترد في مثل ما أشرنا إليه من التكرير؛ فإن استعملت في غير ما يكون منها لفائدة ينتجها تكريرها كان استعمالها لغواً لا فائدة فيه.

(١) البيت من كلمة نسبهما أبو تمام لخلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة (انظر شرح التبريزي: ٤ - ٢٧٩).

وقد زعم قوم من مدعي هذه الصناعة أن أبا الطيب المتنبي أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه، وهو قوله[1]:

الْعَارِضُ الْهَتِنُ آبْنُ الْعَارِضِ الْهَتِنِ آبْـــنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ آبْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ

وليس في هذا البيت من تكرير؛ فإنهُ كقولك: الموصوف بكذا وكذا آبن الموصوف بكذا وكذا: أي أنهُ عريق النسب في هذا الوصف.

وقد ورد في الحديث النبوي مثل ذلك؛ كقول النبي ﷺ في وصف يوسف الصديق عليه السلام: «الْكَرِيمُ آبْنُ الْكَرِيمِ آبْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحٰقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ».

ولقد فاوضني في هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب، وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره، فوقفته على مواضع الصواب منه، وعرفته أنه كالخبر النبوي من جهة المعنى سواء بسواء، لكن لفظه ليس بمرضيّ على هذا الوجه الذي قد استعمل فيه؛ فإنّ الألفاظ إذا كانت حِسَاناً في حال انفرادها فإن استعمالها في حال التركيب يزيدها حسناً على حسنها، أو يذهب ذلك الحسن عنها، وقد تقدم الكلام على ذلك في المقالة الأولى من الصناعة اللفظية، ولو تهيأ لأبي الطيب المتنبي أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب، أو ما يجري مجراها؛ لكان أحسن، وكذلك لفظة الْهَتِن، فإنها ليست بمرضية في هذا الموضع على هذا الوجه، ولفظة العارض، وإن كانت قد وردت في القرآن وهي لفظة حسنة فالفرق بين ورودها في القرآن الكريم وورودها في هذا البيت الشعري ظاهر؛ وقد تقدم الكلام على مثلها من آية وبيت لأبي الطيب أيضاً، وهو في المقالة اللفظية عند الكلام على الألفاظ المفردة فليؤخذ من هناك، وكثيراً ما يقع الجهالُ في مثل هذه المواضع، وهم الذين قيل فيهم:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبيد الله محمد بن عبد الله القاضي الأنطاكي، وأولها قوله:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وَكَــذَا كُــلُّ أَخِــي حَــذْلَــقَــةٍ مَــا مَشَى فِي يَــابِسٍ إلَّا زَلَقْ

فتـرى أحدهم قـد جمع نفسـه وظنَّ على جهله أنه عـالم، فيسـرع في وصف كلام بالإيجاز وكلام بالتطويل أو بالتكـرير، وإذا طـولب بأن يبـدي سبباً لمـا ذكره لم يوجد عنده من القول شيء إلا تحكماً محضاً صادراً عن جهل محض.

الضرب الثاني من التكـرير في اللفظ والمعنى، وهـو غير المفيـد؛ فمن ذلك قول مَرْوَان الأصغر:

سَقَى اللهُ نَجْــداً وَالسَّــلَامُ عَلَى نَجْــدِ وَيَا حَبَّــذا نَجْــدٌ عَلَى النَّـأْيِ وَالْبُعْــدِ
نَــظَرْتُ إِلَـى نَـجْــدٍ وَبَـغْـدَادُ دُونَـهَــا لَعَلِّي أَرَى نَـجْــداً وَهَيْـهَاتَ مِـنْ نَجْــدِ

وهـذا من العيّ الضعيف، فإنـه كرر ذكـر نجـد في البيت الأول ثـلاثـاً، وفي البيت الثـاني ثلاثـاً، ومراده في الأول الثنـاء على نجد، وفي الثـاني أنه تلفت إليهـا ناظراً من بغداد، وذلك مَرْمًى بعيد، وهذا المعنى لا يحتاج إلى مثـل هذا التكـرير؛ أما البيت الأول فيُحْمَل على الجائز من التكرير؛ لأنه مقام تشوق وتحرق وَمَوْجِدَة بفراق نجد، ولما كان كذلـك أجيز فيـه التكريـر، على أنه قـد كان يمكنـه أن يصوغ هـذا المعنى الوارد في البيتين معاً من غير أن يأتي بهذا التكريرَ المتتابع ست مرات.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبي نواس[١]:

أَقَـمْنَــا بِـهَــا يَــوْمــاً وَيَــوْمــاً وَثَــالِثــاً وَيَــوْمــاً لَــهُ يَـوْمُ التَّــرَحُّــلِ خَــامِسُ

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام، ويا عجباً له يأتي بمثل هـذا البيت السخيف الـدال على العيّ الفاحش في ضمن تلك الأبيات[١] العجيبة الحسن التي تقدم ذكرها في باب الإيجاز، وهي:

* وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا *

---

(١) انظر الكلمة التي منها هذا البيت في (ص ١١٦) من هذا الجزء.

ومن هذا الباب أيضاً ما أوردناه في صدر هذا النوع وهو قول أبي الطيب[1] المتنبي:

وَلَـمْ أَرَ مِثْلَ جِيـرَانِـي وَمِثْلِي　　لِـمِثْلِي عِنْـدَ مِثْلِهِمُ مُقَـامُ

فهذا هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصاً، ألا ترى أنه يقول: لم أر مثل جيراني في سوء الجوار، ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم، إلا أنه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله أيضاً:

وَقَلْقَلْتُ بِـالْهَمِّ الَّـذِي قَلْقَـلَ الْحَشَى　　قَـلاَقِـلَ عِيسٍ كُـلُّهُـنَّ قَـلاَقِـلُ

وأما القسم الثاني من التكرير، وهو الذي يوجد في المعنى دون اللفظ؛ فذلك ضربان: مفيد، وغير مفيد.

الضرب الأول: المفيد، وهو فرعان.

الأول: إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين مختلفين، وهو موضع من التكرير مشكل؛ لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد.

فمما جاء منه حديث حاطب بن أبي بَلْتَعَةَفي غزوة الفتح، وذاك أن النبي ﷺ أمر علي بن أبي طالب والزُّبَيْر والمِقْدَاد رضي الله عنهم فقال: «اذهبوا إلى رَوْضة خاخ؛ فإن بها ظَعِينةً معها كتاب، فأتوني به» قال علي رضي الله عنه: فخرجنا تَتَعَادى بنا خَيْلُنَا حتى أتينا الروضة، وإذا فيها الظعينة، فأخذنا الكتاب من عقاصها، وأتينا به رسول الله ﷺ وإذا هو من حَاطِب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شأن رسول الله ﷺ، فقال له: ما هذا يا حاطب؟ فقال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابة تَحْمُون بها أموالهم وأهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتَّخذ عندهم يَداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك

(١) مضى هذا البيت في (ص ١٤٨) من هذا الجزء.

كُفْراً، ولا ارْتِدَاداً عن ديني، ولا رِضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ صَدَقكم» فقوله: ما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، من التكرير الحسن، وبعضُ الجهال يظنه تكريراً لا فائدة فيه، فإن الكفر والارتداد عن الدين سواء، وكذلك الرضا بالكفر بعد الإسلام، وليس كذلك، والذي يدل عليه اللفظ هو أني لم أفعل ذلك وأنا كافر: أي باق على الكفر، ولا مرتداً: أي أني كفرت بعد إسلامي، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام: أي ولا إيثاراً لجانب الكفار على جانب المسلمين، وهذا حسن في مكانه، واقع في موقعه؛ وقد يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذي نحن بصدد ذكره ههنا، وهو الذي يكون التكرير فيه يدل على معنى واحد، وسيأتي بيانه في الفرع الثاني الذي يلي هذا الفرع الأول، والذي يجوزه أن هذا المقام هو مقام اعتذار وتنصُّل عما رُمِي به من تلك القارعة العظيمة التي هي نِفَاق وكفر؛ فكرر المعنى في اعتذاره قَصْداً للتأكيد والتقرير لما ينفي عنه ما رُمي به.

ومما ينتظم بهذا السلك أنه إذا كان التكرير في المعنى يدلّ على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير؛ لأن الأمر بالمعروف خاص، والخير عام، فكل أمر بالمعروف خير، وليس كل خير أمراً بالمعروف، وذاك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف، ففائدة التكرير ههنا أنه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ فإن الجبال داخلة في جملة الأرض، لكن لفظ الأرض عام، والجبال خاص، وفائدته ههنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليه، وتفخيم أمرها، وقد ورد هذا في القرآن الكريم كثيراً.

ومما ورد منه شعراً قول [المُقَنَّعِ الكِنْدِيّ(١)] من أبيات الحماسة:

(١) في جميع الأصول بياض في مكان اسم الشاعر مما يدل على أن المؤلف بيض له ثم غفل عنه، والأبيات في الحماسة وانظر (شرح التبريزي: ٣ - ١٧١).

وَإنَّ الَّـذِي بَـيْنِي وَبَـيْـنَ بَـنِـي أَبِي ... بَـيْـنَ بَـنِـي عَـمِّي لَـمُـخْـتَـلِفُ جِـدًّا
إذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَـرْتُ لُـحُـومَـهُـمْ ... وَإنْ هَـدَمُـوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَإنْ ضَيَّعُـوا غَيْبِي حَفِـظْتُ غُيُـوبَهُـمْ ... وَإنْ هُمْ هَـوُوا غَيِّ هَـوِيتُ لَهُمْ رُشْـدَا

فهذا من الخاص والعام؛ فإن كل لحم يؤكل للإنسان فهو تضييع لغيبه، وليس كل تضييع لغيبه أكلاً للحمه، ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب، وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلي عن النصرة والإعانة ومنه إهمال السعي في كل ما يعود بالنفع كائناً ما كان، وعلى هذا فإن هذين البيتين من الخاص والعام المشار إليه في الآية المقدم ذكرها، وهو موضع يرد في الكلام البليغ ويظن أنه لا فائدة فيه.

الفرع الثاني: إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنى واحد لا غير، وقد سبق مثال ذلك في أول هذا الباب، كقولك: أطعني ولا تَعْصِنِي؛ فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية، والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب.

والكلام في هذا الموضع كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان الغرض به شيئاً واحداً، ولا نجد شيئاً من ذلك يأتي في الكلام إلا لتأكيد الغرض المقصود به؛ كقوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ فإنه إنما كَرَّر العفو والصفح والمغفرة، والجميع بمعنى واحد؛ للزيادة في تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته، وهذا وأمثاله يُنْظَر في الغرض المقصود به، وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز من لَمْحَة الإيجاز وأولى بالاستعمال.

وقد ورد في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿**قَالَ إنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلَى الله وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ فإن البَثَّ والحزن بمعنى واحد، وإنما ههنا لشدة الخطب النازل به، وتكاثر سهامه النافذة في قلبه، وهذا المعنى كالذي قبله.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ بعد ثلاثة وسبعة تنوب مناب قوله ثلاثة وسبعة مرتين لأن عشرة هي ثلاثة وسبعة، ثم قال (كاملة) وذلك توكيد

ثالث، والمراد به إيجاب صوم الأيام السبعة عند الرجوع في الطريق على الفور، لا عند الوصول إلى البلد كما ذهب إليه بعض الفقهاء، وبيانه أني أقول: إذا صَدَر الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجرداً من قرينة تُخْرِجه عن وصفه ولم يكن مُوَقَّتاً بوقت معين كان ذلك حَثًّا على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور؛ فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام: قم، قم، قم، فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة.

فإن قلت: الغرض بتكرير الأمر أن يتكرر في نفس المأمور أنه مُرَاد منه، وليس الغرض الحثَّ على المبادرة إلى امتثال الأمر.

قلت في الجواب: إن المرة الواحدة كافية في معرفة المأمور أن الذي أُمِرَ به مُرَاد منه، والزيادة على المرة الواحدة لا تخلو: إما أن تكون دالة على ما دلت عليه المرة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم تكن في المرة الواحدة؛ فإن كانت دالة على ما دلت عليه المرة الواحدة كان ذلك تطويلاً في الكلام لا حاجة إليه، وقد ورد مثله في القرآن الكريم، كهذه الآية المشار إليها وغيرها من الآيات، والتطويل في الكلام عَيْبٌ فاحش عند البلغاء والفصحاء، والقرآن مُعْجز ببلاغته وفصاحته، فكيف يكون فيه تطويل لا حاجة إليه، فينبغي أن تكون تلك الزيادة دالة على معنى زائدٍ على ما دَلَّت عليه المرة الواحدة، وإذا ثبت هذا فتلك الزيادة هي الحث على المبادرة إلى امتثال الأمر؛ فإن سلمت لي ذلك وإلا فَبَيِّن معنى تلك الزيادة ببيان غير ما ذكرته أنا، ولا أراك أن تستطيع ذلك.

فإن قلت: إن الواو في قوله تعالى: ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾ لولا أن تؤكد بقوله (تلك عشرة) لظن أنها وردت بمعنى أو: أي فثلاثة أيام في الحج أو سبعة إذا رجعتم، فلما قيل (تلك عشرة) زال هذا الظن، وتحققت الواو أنها عاطفة، وليست بمعنى أو.

قلت في الجواب: هذا باطل من أربعة أوجه: **الوجه الأول**: أن الواو العاطفة لا تجعل بمعنى أو أين وردت من الكلام، وإنما تجعل بمعنى أو حال ضرورة

ترجيح جانبها على جانب جعلها عاطفة؛ لأن الأصل فيها أن تكون عاطفة، فإذاعُدِلَ بها عن أصلها احتاج إلى ترجيح، ولا ترجيح ههنا؛ **الوجه الثاني**: بلاغي، وذاك أن القرآن الكريم منتهى البلاغة والفصاحة لمكان إعجازه، فلو كان معنى الواو في هذه الآية بمعنى أو لقيل فثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم، ولم يحتج إلى هذا التطويل، في قوله ﴿**فثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة**﴾ **الوجه الثالث**: أن هذا الصوم حكم من أحكام العبادات، والعبادات يجب فيها الاحتياط أن تُؤدَّى على أكمل صورة؛ لئلا يدخلها النقص، وإذا كان الأمر على ذلك فكيف يظن أن الواو في هذه الآية بمعنى أو؟ **الوجه الرابع**: أن السبعة ليست مماثلة للثلاثة، حتى تجعل في قُبَالتها؛ لأن معنى الآية إذا كانت الواو فيها بمعنى أو إما أن تصوموا ثلاثة أيام في الحج أو سبعة إذا رجعتم.

فإن قلت: هذا تعبد لا يعقل معناه كغيره من التعبدات التي لا يعقل معناها.

قلت في الجواب: إن لنا من التعبدات ما لا يعقل معناه؛ كعدد ركعات الصلوات، وعدد الطواف والسعي، وأشباه ذلك، ولنا ما يُعْقَل معناه، كهذه الآية، فإنا نعقل التَّفَاوُتَ بين الصوم في الحضر والسفر، ونعقل التفاوت بين العدد الكثير والعددِ القليل، وعلى هذا فلا يخلو: إما أن يكون صوم الأيام السبعة عند الرجوع في الطريق، أو عند الوصول إلى البلد؛ فإذا كان في الطريق فإنه أشق من الصوم بمكة؛ لأن الصوم في السفر أَشَقُّ من الصوم في الحضر؛ فكيف يجعل صوم سبعة أيام في السفر في مقابلة صوم ثلاثة أيام بمكة؟ وإن كان الصوم عند الوصول إلى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول إلى البلد؛ لأن كليهما صوم في المُقَام ببلد من البلاد لا تفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة أيام في مقابلة سبعة أيام على غير مثال ولا تساوٍ؛ فعلى كلا التقديرين لا يجوز أن تكون الواو في ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾ بمعنى أو؛ فتحقق إذاً أنها للعطف خاصة، وإذا كانت للعطف خاصة فتأكيدها بعشرة كاملة دليل على أن المراد وجود صوم الأيام السبعة في الطريق قبل الوصول إلى البلد.

فإن قلت: إن الصوم بمكة أشق من الصوم في الطريق؛ لأن الواجب عليه

الصوم بمكة في نَصَبٍ وتعب بتصريف زمانه في السعي والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك.

قلت في الجواب: هذا لا يلزم؛ إذ الواجب عليه سعي واحد، وطواف واحد، لا غير، وما عدا ذلك نافلة لا يلزم، ونحن في هذا المقام ناظرون إلى ما يجب لا إلى النافلة، والذي يجب أداؤه بمكة يفرغ منه في ساعة واحدة، فكيف تجعل الزيادة على ذلك دليلاً يُورَدُ في هذا المقام؟ هذا غير وارد.

هكذا ورد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ.فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ.عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فقوله ﴿غير يسير﴾ بعد قوله ﴿عسير﴾ من هذا النوع المشار إليه، وإلا فقد علم أن العسير لا يكون يسيراً، وإنما ذكر ههنا على هذا الوجه لتعظيم شأن ذلك اليوم في عُسْره وشدَّته على الكافرين.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد، وإنما حسن إيرادهما معاً في مَعْرِض واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من قومهم؛ حيث لم يؤمنوا بالله وحده، وللمبالغة في إظهار القطيعة والمُصَارَمة.

وورود مثل ذلك في مثل هذا الموضع كالإيجاز في موضعه، ولن ترى شيئاً يرد في القرآن الكريم من هذا القبيل إلا وهو لأمر اقتضاه؛ وإن خَفِيَ عنك موضعُ السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين به.

ومما ورد منه شعراً قول بعضهم في أبيات الحماسة(١)

---

(١) هذان البيتان في الحماسة غير منسوبين، ولم ينسبهما التبريزي ولا غيره من الشراح (انظر التبريزي: ١ ـ ٢٩١).

نَـزَلْـتُ عَلَى آلِ الـمُـهَـلَّبِ شَـاتِـيـاً بَعِيـداً عَنِ الأَوْطَانِ فِي زَمَنِ الْمَحْـلِ (١)
فَمَـا زَالَ بِي إِكْـرَامُـهُـمْ وَافْـتِقَـادُهُـمْ وَإِحْسَـانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُـهُمْ أَهْـلِي (٢)

فإن الإكرام والافتقاد داخلان تحت الإحسان، وإنما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع، والإيجاب لحقه.

وعلى هذا ورد قول الأعشى في قصيدته المشهورة التي يمدح بها النبي ﷺ؛ فقال منها(٣):

فَـآلَيْـتُ لَا أَرْثِـي لَـهَـا مِـنْ كَـلاَلَـةٍ وَلَا مِنْ وَجًى حَـتَّى تُـلَاقِـي مُحَـمَّـدَا

فإن الْوَجَى والْكَلَالَة معناهما سواء، وإنما حسن تكريره ههنا للإشعار ببعد المسافة.

الضرب الثاني من القسم الثاني: في تكرير المعنى دون اللفظ، وهو غير المفيد؛ فمن ذلك قول أبي تمام(٤):

قَسَمَ الـزَّمَـانُ رُبُـوعَهَـا بَيْنَ الصَّبَـا وَقَـبُـولِـهَـا وَدَبُـورِهَـا أَثْـلَاثَـا

فإن الصَّبَا هي الْقَبُولُ، وليس ذلك مثل التكرير في قوله تعالى: **﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾** فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى، ولا مثل التكرير في قوله تعالى: **﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾** فيما يرجع إلى تكرير المعنى دون اللفظ، وقول أبي تمام الصَّبَا وَالْقَبُول لا يشتمل إلا على معنى واحد لا غير.

وهذا الضرب من التكرير قد خَبَطَ فيه علماء البيان خبطاً كثيراً، والأكثر منهم

(١) في الحماسة «في زمن محل».
(٢) في الحماسة «إكرامهم وافتقاؤهم وإلطافهم».
(٣) أولها قوله:

أَلَـمْ تَغْـتَـمِضْ عَـيْـنَـاكَ لَـيْـلَةَ أَرْمَـدَا وَبِـتَّ كَـمَـا بَـاتَ الـسَّلِيمُ مُسَـهَّـدَا

(٤) هذا البيت هو التالي لمطلع القصيدة، والمطلع قوله:

قِـفْ بِـالـطُّلُوْلِ الـدَّارِسَـاتِ عُـلَاثَـا أَضْـحَـتْ حِـبَـالُ قَـطِـيـنِـهِـنَّ رِثَـاثَـا

أجازه؛ فقالوا: إذا كانت الألفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحداً فليس استعمال ذلك بمعيب، وهذا القول فيه نظر؛ والذي عندي فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقاً إذا أتى لغير فائدة، وأما الناظم فإنه يعاب عليه في موضع دون موضع؛ أما الموضع الذي يعاب استعماله فيه فهو صُدُور الأبيات الشعرية وما والاها، وأما الموضع الذي لا يعاب استعماله فيه فهو الأعجاز من الأبيات؛ لمكان القافية، وإنما جاز ذلك ولم يكن عيباً لأنه قافية، والشاعر مضطر إليها، والمضطر يحل له ما حرم عليه؛ كقول امرىء القيس في قصيدته اللامية التي مطلعها:

* أَلَا انْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

فقال:

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وإذا كان قليل الهموم فإنه لا يبيت بأوجال، وهذا تكرير للمعنى، إلا أنه ليس بمعيب؛ لأنه قافية؛ وكذلك ورد قول الحطيئة(١):

قَالَتْ أُمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الْعَزَاءَ وَإنَّ الصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا
هَلَّا الْتَمَسْتِ لَنَا إنْ كُنْتِ صَادِقَةً مَالاً نَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فالبيت الأول معيب؛ لأنه كرر العزاء والصبر؛ إذ معناهما واحد، ولم يردا قافية؛ لأن القافية هي الباء، وأما البيت الثاني فليس بمعيب؛ لأن التكرير جاء في النَّشَب وهو قافية.

ومما يجري هذا المجرى قول المنخل اليشكري(٢):

---

(١) من قصيدة له أولها قوله:

طَافَتْ أُمَامَةُ بِالرُّكْبَانِ آوِنَةً يَا حُسْنَهُ مِنْ قَوَامٍ مَا وَمُنْتَقَبَا

(٢) من كلمة اختارها أبو تمام في الحماسة، وأولها قوله:

إنْ كُنْتِ عَاذِلَتِي فَسِيرِي نَحْوَ الْعِرَاقِ وَلَا تَحُورِي

وانظر شرح التبريزي (٢ - ١٠٣).

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ الْخِدْرَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
الْكَاعِبِ الْحَسْنَاءِ تَرْفُلُ فِي الدِّمْقْسِ وَفِي الْحَرِيرِ

فإن الدِّمَقْسَ والحرير سواء، وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك.

فإن قيل: إن الحرير هو الإبريسم المنسوج، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ فإنه لم يرد خيوط إبريسم، وإنما أراد أثواباً من الإبريسم، وأما الدِّمَقْسُ فإنه خيوط الإبريسم محلولة، بدليل قول امريء القيس:

* وَشحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ (١) *

فإنه لم يرد إبريسماً منسوجاً، وإنما أراد خيوط الإبريسم.

فالجواب عن ذلك: أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه؛ لأن المرأة لا ترفل في خيوط من الإبريسم، وإنما ترفل في الأثواب منه، وأما قول امريء القيس «كهداب الدِّمَقْسِ» فإنه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الإبريسم لما احتاج أن يقول «كهداب» فإن الهُدَّابَ جمع هدب، ثم قال «المُفَتَّلِ» فدلَّ بذلك على أن الدمقس يطلق على الإبريسم، سواء كان منسوجاً أو غير منسوج؛ وكذلك الحرير أيضاً، وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة، ألا ترى أنه لما قال المنخل «ترفل في الدمقس وفي الحرير» فهم من ذلك أنه أراد أثواباً من الدمقس ومن الحرير؛ لأن الرفول لا يكون في خيوط من الإبريسم، وإنما يكون في أثوابه.

ومما يجري على هذا النهج قول الآخر من شعراء الحماسة(٢):

---

(١) هذا عجز بيت من معلقته المعروفة، وصدره مع بيت سابق عليه:

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا المُتَحَمَّلِ
فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمٍ كهداب الدمقس المفتل

(٢) هو الهذيل بن مشجعة البولاني، والبيت من كلمة له في الحماسة، وهو أولها بيتاً، وانظر شرح التبريزي (٤ ـ ٢١٣).

إنِّي وَإنْ كَانَ آبْنُ عَمِّيَ غَائِباً لَمُقَادِفٌ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ

فإن خلفاً ووراء بمعنى واحد، وإنما جاز تكرارهما لأنهما قافية.

وعلى هذا ورد قول أبي تمام[١]:

دِمَنٌ كَأَنَّ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِباً دِمَناً لَدَى آرَامِهَا وَحُقُودَا[٢]

فإن الدمنة هي الحقد.

وكذلك قول أبي الطيب المتنبي[٤]:

بَحْرٌ تَعَوَّدَ أَنْ يُذِمَّ لأَهْلِهِ مِنْ دَهْرِهِ وَطَوَارِقِ الْحِدْثَانِ

فَتَرَكْتَهُ وَإذَا أَذَمَّ مِنَ الْوَرَى رَاعَاكَ وَآسْتَثْنَى بَنِي حَمْدَانِ

فإن الدهر وطوارق الحدثان سواء، وإنما جاز استعمال ذلك لأنه قافية.

وأما ما ورد في أثناء الأبيات الشعرية فكقول عنترة[٤]:

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

---

(١) هذا البيت هو البيت التالي لمطلع القصيدة، وهي من مدائحه في خالد بن يزيد الشيباني، والمطلع قوله:

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدَا

(٢) وقع في ب، ج «دمنا لدى آثارنا» وهو تحريف، وما أثبتناه عن الديوان.

(٣) من قصيدته التي أولها:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

وهي من مدائحه في سيف الدولة الحمداني.

(٤) من معلقته التي أولها قوله:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

فقوله «أقوى وأقفر» من المعيب؛ لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة؛ إذ الضرورة لا تكون إلا في القافية كما أريتك.

وأما ما ورد من صدور الأبيات فكقول البحتري في قصيدته العينية[1]:

أَلَمَّتْ وَهَلْ إلْمَامُهَا بِكَ نَافِعُ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

فإن قوله «ألمت» وقوله «زارت خيالا» سواء، ولا فرق إذاً بين صدر البيت وعجزه.

فإن قيل: إنه أراد بالإلمام زيارة اليقظة، ثم قال «وزارت خيالاً».

فالجواب عن ذلك أنه لم يرد إلا زيارة المنام في الحالتين؛ لأنه قال «ألمت وهل إلمامها بك نافع» ولو كان الإلمام في اليقظة لما قال «وهل إلمامها بك نافع»؛ فإنه لا نفع من زيارة المحبوب في اليقظة، وهذا غير خاف لا يحتاج إلى السؤال عنه.

فإن قيل: لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر؟.

قلت في الجواب: أما الناثر إذا سجع كلامه فالغالب أن يأتي به مزدوجاً على فقرتين من الفقر، ويمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرهما، فَيَسْلَم منه؛ وأما الشاعر فإنه يصوغ قصيداً ذا أبيات متعددة على قافية من القوافي؛ فإذا تكرر لديه شيء من الكلام في آخر بيت من الأبيات عسر إبداله من أجل القافية، وهذا غير خافٍ، والسؤال عنه غير وارد.

وهذا الذي ذكرته إذا ورد في غير القافية سمي إخلاءً، ويقال: إن البحتري كان يُخْلِي كثيراً في شعره، وهو لعمري كذلك، إلا أن حسن سبكه ورَوْنَق ديباجته يغفر له ذلك.

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان، وبعده قوله:

بِنَفْسِيَ مَنْ تَنْأَى وَيَدْنُو ادِّكَارُهَا وَيَبْذُلُ عَنْهَا طَيْفُهَا وَتُمَانِعُ

ويروى عنه أنه كان إذا مثل بين يدي الفتح بن خاقان وزير المتوكل مـادحاً له اخْتَالَ بين يديه مُعْجَباً بنفسه، فتقدَّم خطوات ثم تأخـر، وقال: أيَّ شيء تسمعـون، فنقم عليه ذلك بعض حسدته، وحمـل الفتح بن خـاقان عليـه، فقال لـه الفتح: لـو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفوراً له فيما يقوله.

النوع الثامن عشر

في الاعتراض

وبعضهم يسميه الحشو.

وحدّه: كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقي الأول على حاله.

مثال ذلك أن تقول: زيد قائم؛ فهذا كلام مفيد، وهو مبتدأ وخبر؛ فإذا أدخلنا فيه لفظاً مفرداً قلنا: زيد وآلله قائم، ولو أزلنا الْقَسَمَ منه لبقي الأول على حاله، وإذا أدخلنا في هذا الكلام لفظاً مركباً قلنا: زيد عَلَى ما بِهِ مِنَ المرضِ قائم، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظاً مركباً، وهو قولنا «على ما به من المرض» فهذا هو الاعتراض، وهذا حده.

وآعلم أن الجائز منه وغير الجائز إنما يؤخذ من كتب العربية؛ فإنه يكون مُسْتَقْصًى فيها، كالاعتراض بين الْقَسَم وجوابه، وبين الصفة والموصوف، وبين المعطوف والمعطوف عليه، وأشباه ذلك مما يحسن استعماله، وكالاعتراض بين المضاف والمضاف إليه، وبين إنَّ واسمها، وبين حرف الجر ومجروره، وأمثال ذلك مما يقبح استعماله، وليس هذا مكانه؛ لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيرِهِ مما أشرنا إليه في صدر الكتاب.

وليس المراد ههنا من الاعتراض إلا ما يفرق به بين الجيد والرديء، لا ما يعلم به الجائز وغير الجائز؛ لأن كتابي هذا موضوع لذكر ما يتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصفي الفصاحة والبلاغة، فالذي أذكره في باب الاعتراض إنما هو ما اشتمل على شيء من هذين الوصفين المشار إليهما.

واعلم أن الاعتراض ينقسم قسمين: أحدهما: لا يأتي في الكلام إلا لفائدة،

وهو جار مجرى التوكيد، والآخر: أن يأتي في الكلام لغير فائدة؛ فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه، وإما أن يؤثر في تأليفه نقصاً وفي معناه فساداً.

فالقسم الأول ـ وهو الذي يأتي الكلام لفائدة ـ كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ • إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ • فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾؛ ففي هذا الكلام اعتراضان: أحدهما قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وذلك اعتراض بين القسم الذي هو ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ وبين جوابه الذي هو ﴿إنه لقرآن كريم﴾ وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذي هو ﴿قَسَم﴾ وبين صفته التي هي ﴿عظيم﴾ وهو قوله: ﴿لو تعلمون﴾ فذانك اعتراضان كما ترى، وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هي تعظيم لشأن المقسم به في نفس السامع، ألا ترى إلى قوله: ﴿لو تعلمون﴾ اعتراضاً بين الموصوف والصفة وذلك الأمر بحيث لو علم وُفِّيَ حقه من التعظيم، وهذا مثل قولنا: إن هذا الأمر لعظيم بحيث لو تعلم يا فلان عظمه لقَدَرْتَهُ حَقَّ قَدْره؛ فإن ذلك يكبر في نفس المخاطب، ويظل متطلعاً إلى معرفة عظمه.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وتقديره: ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون؛ فاعترض بين المفعولين[1] بسبحانه، وهو مصدر يدلّ على التنزيه[2] فكأنه قال: ويجعلون لله البنات، وهو منزّه عن ذلك، ولهم ما يشتهون، وفائدة هذا الاعتراض ههنا ظاهرة.

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ فقوله: ﴿لقد علمتم﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، وفائدته تقرير إثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة: أي إنكم قد علمتم هذا منا، ونحن مع علمكم به نُقْسِم بالله على صدقه.

(١) الأحسن أن يقول «بين المتعاطفين».

(٢) في ج «يدل على التنزيل» وهو خطأ.

وقد ورد الاعتراض في القرآن كثيراً، وذلك في كل موضع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة في المعنى المقصود.

ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهذا الاعتراض بين إذا وجوابها؛ لأن تقدير الكلام وإذا بدّلنا آية مكان آية قالوا إنما أنت مفتر، فاعترض بينهما بقوله تعالى: ﴿والله أعلم بما ينزِّل﴾ وهو مبتدأ وخبر، وفائدته إعلام القائلين إنه مفتر أن ذلك من الله وليس منه، وأنه أعلم بذلك منهم.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ أشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذي قد طبق مَفْصِل البلاغة، وفائدته أنه لما وصَّى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم من المشاق في حمل الولد وفِصَاله؛ إيجاباً للتوصية بها، وتذكيراً بحقها، وإنما خَصَّها بالذكر دون الأب لأنها تتكلَّف من أمر الولد ما لا يتكلفه، ومن ثم قال النبيّ ﷺ لمن قال له: مَنْ أَبَرُّ؟ فقال: «أمَّكَ ثُمَّ أمَّكَ ثُمَّ أمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ».

ومما جاء على هذا الأسلوب قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقوله: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وفائدته أن يقرر في نفوس المخاطبين وقلوب السامعين أن تَدَارُؤ بني إسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم في إخفائه وكتمانه؛ لأن الله تعالى مظهرٌ لذلك، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان: وإذ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها، ولا يخفى على البليغ الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه.

ومما ورد من ذلك شعراً قول امريء القيس(١):

---

(١) من قصيدة له طويلة أولها قوله:

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ... وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وقد تقدم بيت منها قريباً، انظر (س ١٨ ص ١٦٩ من هذا الجزء).

وَلَــوْ أَنَّ مَــا أَسْـعَى لِأَدْنَـى مَـعِـيشَــةٍ كَفَـانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيــلٌ مِنَ الْـمَــالِ
وَلٰـكِـنَّـمَــا أَسْـعَـى لِـمَـجْـدٍ مُـؤَثَّــلٍ وَقَــدْ يُـدْرِكُ المَجْـدَ المُؤَثَّـلَ أَمْثَــالِي

تَقديره: كفاني قليل من المال؛ فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله: «ولم أطلب» وفائدته تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء، وإنما الذي يحتاج الى الطلب هو المجد المؤثل.

وكذلك قول جرير[1]:

وَلَــقَــدْ أَرَانِـي وَالْـجَـدِيـدُ إِلَــى بِـلًى فِي مَــوْكِبٍ طُــرُفِ الْحَــدِيثِ كِــرَامِ

تقديره: ولقد أراني في موكب طرف الحديث؛ فاعترض بين المفعولين، وإنما جاء بهذا الاعتراض تعزِّياً عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذي فاز به من عِشْرَة أولئك الأحباب، ولقد أعهدني في كذا وكذا من اللذة، وذلك قد مضى وسلف وبَلِيَ جديده، وكذلك كلُّ جديد فإنه إلى بِلًى.

والاعتراض إذا كان هكذا كسا الكلام لطفاً إن كان غزَلًا، وكساه أبهة وجلالاً إن كان مديحاً أو ما يجري مجراه من أساليب الكلام، وإن كان هجاء كساه تأكيداً وإثباتاً، كقول كثيّر[2]:

لَــوَ اَنَّ الْـبَــاخِـلِيــنَ وَأَنْـتِ مِــنْـهُــمْ رَأَوْكِ تَــعَــلَّـمُــوا مِـنْكَ الْــمِــطَالَا

فقوله «وأنت منهم» من محمود الاعتراض ونادره، وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد، وتقدير هذا الكلام قبل الاعتراض: لو أن الباخلين رأوك؛ فاعترض بين اسم إنَّ وهو الباخلين وبين خبرها وهو رأوك بالمبتدأ والخبر الذي هو «وأنت منهم».

ومن محاسن ما جاء في هذا الباب قول المضرب السعدي[3]:

---

(١) هو من قصيدة له من نقائضه مع الفرزدق، وتقدم ذكر أبيات منها وفي أثنائها هذا البيت فانظر (ص ١١٥ من هذا الجزء).

(٢) هو بيت مفرد ثابت في ديوانه (١ ـ ١٥١).

(٣) كذا وقع في ا، ب، ج، نسبة هذين البيتين للمضرب السعدي، وهما من شعر الحماسة=

فَلَوْ سَأَلْتْ سَرَاةَ الْحَيِّ سَلْمَى عَلَى أنْ قَدْ تَلَوَّنَ بِي زَمَانِي
لَخَبَّرَهَا ذَوُو أحْسَابِ قَومِي وَأَعْدَائِي فَكُلٌّ قَدْ بَلاَنِي

وهذا اعتراض بين «لو» وجوابها، وهو من فائق الاعتراض ونادره، وتقديره: فلو سألت سراة الحي سلمى لخبرها ذوو أحساب قومي وأعدائي، وفائدة قوله: «على أن قد تلوّن بي زماني» أي: أنهم يخبرون عني على تَلَوُّن الزمان بي، يريد تنقُّلَ حالاته من خير وشر، وليس مَنْ عَجَمَه الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا أبان عنه.

ومن ذلك قول أبي تمام(١):

وَإنَّ الْغِنَى لِي إنْ لَحَظْتَ مَطَالِبِي مِنَ الشِّعْرِ إلاَّ فِي مَدِيحِكَ أطْوَعُ

وهذا البيت في اعتراضان: الأول بين اسم «إن» وخبرها، تقديره: وإن الغنى أطوع لي من الشعر، فاعترض بين الاسم والخبر بقوله: «إن لحظت مطالبي» وأما الاعتراض الثاني فقوله: «إلا في مديحك» فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة، وموضعها التأخير، فاعترض بها بين الجملة التي هي خبر إن، وتقدير البيت بجملته: وأن الغنى أطوع لي من الشعر إن لحظت مطالبي إلا في مديحك، وفائدة قوله: «إلا فيمديحك»من الاعتراض الذي اكتسب به الكلام [رقةً] فائدة حسنة، والمراد به وصف جود الممدوح بالإسراع، ووصف خاطر شعره بالإسراع إذا كان في مدحه خاصة دون غيره، فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معاً، وهو من محاسن ما يجيء في هذا الموضع.

وكذلك ورد قوله(٢):

= (انظر شرح التبريزي: ١ ـ ١٢٥) وهما لسوّار بن المضرب السعدي فلعل أصل العبارة «قول ابن المضرب السعدي» فسقطت كلمة ابن.

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعد محمد بن يوسف، وأولها قوله:

أَمَا إنَّهُ لَوْلاَ الْخَلِيطُ الْمُوَدَّعُ وَرَبْعٌ خَلاَ مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعُ

(٢) من أبيات له يمدح فيها أبا سعيد، وأولها قوله:

أَبَا سَعِيدٍ وَمَا وَصْفِي بِمُتَّهَمِ عَلَى المَعَالِي، وَمَا شُكْرِي بِمُخْتَرَمِ

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِي فِي صَحِيفَتِهِ   رَدَّ الصِّقَالِ بَهَاءَ الصَّارِمِ الْخَذِمِ
وَمَا أُبَالِي وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ   حَقَنْتَ لِي مَاءَ وَجْهِي أَمْ حَقَنْتَ دَمِي

فقوله «وخير القول أصدقه» اعتراض بين المفعول والفعل؛ لأن موضع حَقَنْتَ نصب؛ إذ هو مفعول أُبَالي، وفائدته إثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم: أي أن هذا القول صدق ليس بكذب.

وأما القسم الثاني ـ وهو والذي يأتي في الكلام لغير فائدة ـ فهو ضربان:

الضرب الأول: يكون دخوله في الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسناً ولا قبحاً؛ فمن ذلك قول النابغة(١):

يَقُولُ رِجَالٌ يَجْهَلُونَ خَلِيقَتِي   لَعَلَّ زِيَاداً لَا أَبَالَكَ غَافِلُ

فقوله «لا أبالك» من الاعتراض الذي لا فائدة فيه، وليس مؤثراً في هذا البيت حسناً ولا قبحاً.

ومثله جاء قول زهير(٢):

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ   ثَمانِينَ حَوْلاً لا أَبَالَكَ يَسْأَمِ

وقد وردت هذه اللفظة ـ وهي «لا أبالك» ـ في موضع آخر فكان للاعتراض بها فائدة حسنة، كقول أبي تمام:

* عِتَابَكِ عَنِّي لَا أَبَالَكِ وَاقْصِدِي *

---

(١) من قصيدة له يرثي فيها النعمان بن المنذر، وأولها قوله:
دَعَاكَ الْهَوَى وَاسْتَجْهَلَتْكَ المَنَازِلُ   وَكَيْفَ تَصَابِي الْمَرْءِ وَالشَّيْبُ شَامِلُ
ووقع في ا، ب، ج «لعل زيادا لا أبا لك عاقل» وهو تصحيف، وأثبتنا ما في نسخ الديوان.
(٢) من قصيدته المعلقة التي أولها:
أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ   بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

فإنه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم.

الضرب الثاني ـ وهو الذي يؤثر في الكلام نقصاً، وفي المعنى فساداً ـ وقد تقدم ذكر أمثاله وأنظاره في باب التقديم والتأخير، وإنما جيء بذكره ههنا مُكَرَّراً لإتمام التقسيم الاعتراضي فيما أفاد وفيما لا يفيد، وقد ذكرت من ذلك مثالاً واحداً أو مثالين؛ فمما ورد منه قول بعضهم[(١)]:

فَقَدْ وَالشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءٌ ... بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فإن هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك، وهو الفصل بين قَدْ والفعل الذي هو بَيَّنَ، وذلك قبيح؛ لقوة اتصال قَدْ بما تدخل عليه من الأفعال ألا تراها تُعَدُّ مع الفعل كالجزء منه، ولذلك أدخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ وقول الشاعر[(٢)]:

وَلَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَيَّ بِهَا ... حَذَرَ المَوْتِ وَإِنِّي لَفَرُورُ[(٣)]

إلا إن فُصِلَ بين قَدْ والفعل بالقسم فإن ذلك لا بأس به، نحو قوله: قَدْ وَٱللهِ كان ذاك، وقد فصل في هذا البيت أيضاً بين المبتدأ الذي هو الشَّكُّ وبين الخبر الذي هو عَنَاءٌ بقوله بَيَّنَ لي، وفصل بين الفعل الذي هو بَيَّنَ وبين فاعله الذي هو صُرَدٌ بخبر المبتدأ الذي هو عَنَاءٌ؛ فجاء معنى البيت كما تراه، كأنه صورة مُشَوَّهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض.

---

(١) سبق ذكر هذا البيت فارجع إليه في (ص ٤٣ من هذا الجزء).

(٢) البيت أول كلمة لعمرو بن معديكرب الزبيدي اختارها أبو تمام في الحماسة، وبعده قوله:

وَلَقَدْ أَعْطِفُهَا كَارِهَةً ... حِينَ لِلنَّفْسِ مِنَ المَوْتِ هَرِيرُ

(٣) وقع في ا، ب، ج «وإني لقرور» بالقاف، وما أثبتناه عن الحماسة «لفرور» بالفاء. وانظر شرح التبريزي (١ ـ ١٧٦) وقد ذكر أن بعضهم يرويه «لقرور» بالقاف؛ اعتماداً على أن المرء لا يمدح نفسه بالفرار، ثم غلط من يروي ذلك، استناداً إلى قول الشاعر نفسه بعد ذلك:

كُلُّ مَا ذَلِكَ مِنِّي خُلُقٌ ... وَبِكُلٍّ أَنَا فِي الرَّوْعِ جَدِيرُ

ومن هذا الضرب قول الآخر:

نَـظَرْتُ وَشَخْصِي مَـطْلِعَ الشَّمْسِ ظِلُّهُ   إِلَى الْغَرْبِ حَتَّى ظله الشمس قَدْ عقـل

أراد نـظرت مـطلعَ الشمس وشخصي ظله إلى الغـرب حتى عقـل الشمس: أي حاذاها، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذي هـو شَخْصي وبين خبره الجملة، وهو قوله ظِلّه إلى الغرب، وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعـل وفاعله بالأجنبي، وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويورثها اختلالاً.

واعلم أن النـاثر في استعمـال ذلك أكثـر مَلاَمَـةً من الناظم، وذاك أن النـاظم مضطر إلى إقامة ميزان الشعـر، وربما كـان مَجَالُ الكـلام عليه ضيقـاً، فيلقيه طلبُ الوزن في مثل هذه الورطات؛ وأما الناثر فلا يضطر إلى إقامة الميزان الشعري، بـل يكون مَجَالُ الكلام عليه واسعاً، ولهذا إذا اعترض في كلامه اعتراضاً يُفْسِدُهُ تـوجه عليه الإنكار، وحق عليه الذم.

النوع التاسع عشر

في الكناية والتعريض

وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً.

وقد تكلم علماء البيان فيه؛ فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض، ولم يفرقوا بينهما، ولا حَدُّوا كلًّا منهما بحد يفصله عن صاحبه، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر، وأدخلوا أحدهما في الآخر؛ فذكروا للكناية أمثلة من التعريض، وللتعريض أمثلة من الكناية؛ فممن فعل ذلك الغانمي وابن سنان الخفاجي والعسكري؛ فأما ابن سنان فإنه ذكر في كتابه[1] قول امريء القيس:

فَصِرْنَا إلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُهَا
وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةَ أيَّ إذْلَالِ[2]

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة، وهو مثال للتعريض.

ووجدت في كتاب التذكرة لابن حَمْدُون البغدادي، وكان مشاراً إليه عندهم بفضيلة ومعرفة، لا سيما فن الكتابة؛ فوجدت في كتابه ذلك باباً مقصوراً على ذكر الكناية والتعريض، وما قيل فيهما نظماً ونثراً، وهو محشوّ بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما، وقد أورد أيضاً في بعضه أمثلة غَثَّة باردة.

---

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ١٧٦.

(٢) البيت من طويلته التي أولها:

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وقد تقدم الاستشهاد بأبيات منها غير مرة، وذكرنا لك في كل مرة هذا المطلع مبالغة في تدليل الأمر وتيسيره عليك (انظر ص ١٦٩ و ١٧٦ من هذا الجزء).

وسأذكر ما عندي في الفرق بينهما، وأميز أحدهما عن الآخر؛ ليعرف كل منهما على انفراده؛ فأقول:

أما الكناية فقد حُدَّت بحد؛ فقيل: هي اللفظ الدالّ على الشيء على غير الْوَضْع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه، كاللَّمْس وَالجِمَاع؛ فإن الجماع اسم موضوع حقيقي واللمس كناية عنه، وبينهما الوصف الجامع، إذ الجماع لمس وزيادة، فكان دالاً عليه بالوضع المجازي.

هذا الحد فاسد؛ لأنه يجوز أن يكون حَدًّا للتشبيه؛ فإن التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقي لجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الأوصاف؛ ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد أسد، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضح الحقيقي، بوصف جامع بين زيد والأسد، وذلك الوصف هو الشجاعة، ومن ههنا وقع الغلط لمن أشرت إليه في الذي ذكره في حد الكناية.

وأما علماء أصول الفقه فإنهم قالوا في حد الكناية: إنها اللفظ المحتمل، يريدون بذلك أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه.

وهذا فاسد؛ فإنه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية، دليل ذلك قول النبي ﷺ «إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ» فإن هذا اللفظ يدلّ على المعنى وعلى خلافه، وبيان ذلك أنه يقول في أحد معنييه: إنك إذا لم يكن لك وازع يَزَعُك عن الحياء فافعل ما شئت، وأما معناه الآخر فإنه يقول: إذا لم تفعل فعلاً يُسْتَحَى منه فافعل ما شئت، وهذا ليس من الكناية في شيء؛ فبطل إذاً هذا الحد؛ ومثال الفقيه في قوله «إن الكناية هي اللفظ المحتمل» مثال مَنْ أراد أن يَحُدَّ الإنسان فأتى بحد الحيوان؛ فعبر بالأعم وكذلك يقال ههنا، فإن كل كناية لفظ محتمل، وليس كل لفظ محتمل كناية.

والذي عندي في ذلك أن الكناية إذا وردت تَجَاذَبَهَا جانبا حقيقة ومجاز، وجاز حَمْلَها على الجانبين معاً، ألا ترى أن اللمس في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يجوز حمله على الحقيقة والمجاز؛ وكل منهما يصح به المعنى، ولا يختلّ، ولهذا ذهب الشافعي رحمه الله ألى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد، فأوجب

الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة، وذلك هو الحقيقة في اللمس، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع، وذلك مجاز فيه، وهو الكناية، وكل موضع تَرِدُ فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز، ويجوز حمله على كليهما معاً، وأما التشبيه فليس كذلك، ولا غيره من أقسام المجاز؛ لأنه لا يجوز حمله إلا على جانب المجاز خاصة، ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى، ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد أسد، لا يصح إلا على جانب المجاز خاصة، وذاك أنا شبهنا زيداً بالأسد في شجاعته، ولو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى، لأن زيداً ليس ذلك الحيوان ذا الأربع والذَّنَب والْوَبَر والأنياب والمخالب.

وإذا كان الأمر كذلك فحدُّ الكناية الجامع لها هو: أنها كل لفظةٍ دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز.

والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره، يقال: كَنَيْتُ بكذا عن كذا، فهي تدل على ما تكلمت به، وعلى ما أردته من غيره، وعلى هذا فلا تخلو: إما أن تكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز، أو في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز، أو في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة، وليس لنا قسم رابع، ولا يصح أن تكون في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة؛ لأن ذلك هو اللفظ المشترك، وإذا أطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهماً غير مفهوم، وإذا أضيف إليه القرينة صار مختصاً بشيء بعينه، والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة؛ لأنه يختص بشيء واحد بعينه لا يتعداه إلى غيره، وكذلك لا يصح أن تكون الكناية في لفظ تجاذَبَه جانبا مجاز ومجاز؛ لأن المجاز لا بدَّ له من حقيقة نقل عنها؛ لأنه فَرْعٌ عليها، وذلك اللفظ الدال على المجازين إما أن يكون للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة، فإن كان لها شركة في الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثة أشياء أحدها الحقيقة، وهذا مخالف لأصل الوضع؛ لأن أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره، وههنا تكون قد تكلمت بشيء وأنت تريد شيئين غيره؛ وإن لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة كان ذلك مخالفاً للوضع أيضاً؛ لأن أصل الوضع أن

تتكلم بشيء وأنت تريد غيره؛ فيكون الذي تكلمت به دالاً على ما تكلمت به وعلى غيره، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة في الدلالة لم يكن الذي تكلمت به دالاً على ما تكلمت به، وهذا محال؛ فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز، وهذا الكلام في حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحد فيه قول سابق.

واعلم أن الكناية مشتقة من الستر، يقال: كَنَيْت الشيء؛ إذا سترْته، وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يستر فيها المجاز بالحقيقة؛ فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معاً. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فإنه إن حمل على الجماع كان كناية؛ لأنه ستر الجماع بلفظ اللمس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد، وإن حمل على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة، ولم يكن كناية، وكلاهما يتمُّ به المعنى، وقد تأولت الكناية بغير هذا، وهي أنها مأخوذة من الْكُنْيَة التي يقال فيها: أبو فلان، فإنا إذا نادينا رجلاً اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا: يا أبا محمد، كان ذلك مثل قولنا: يا عبد الله؛ فإن شئنا ناديناه بهذا، وإن شئنا ناديناه بهذا، وكلاهما واقع عليه، وكذلك يجري الحكم في الكناية، فإنا إذا شئنا حملناها على جانب المجاز، وإذا شئنا حملناها على الحقيقة، إلا أنه لا بدَّ من الوصف لجامع بينهما، لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فكنى بذلك عن النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث، ولولا ذلك لقيل في مثل هذا الموضع: إن أخي له تسع وتسعون كبشاً ولي كبش واحد، وقيل: هذه كناية عن النساء، ومن أجل ذلك لم يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أنه أراد بالثياب القلب، على حكم الكناية؛ لأنه ليس بين الثياب والقلب وصفٌ[1] جامع، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحاً.

(١) قد استعمل العرب الثياب وهم يريدون القلب، فمن ذلك قول عنترة:

فشككْتُ بالرُّمْحِ الأصمِّ ثيابه ... ليْسَ الْكريمُ على الْقنا بمُحرَّمِ

فإن قيل: فما الدليل على اشتقاق الكناية من كَنَيْتُ الشيء، إذا سترته، ومن الكنية؟

قلت في الجواب: أما اشتقاقها من كَنَيْتُ الشي إذا سترته فإن المستور فيها هو المجاز؛ لأن الحقيقة تفهم أولاً، ويتسارع الفهم إليها قبل المجاز؛ لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية، وأما المجاز فإنه يفهم منه بعد فهم الحقيقة، وإنما يفهم بالنظر والفكرة، ولهذا يحتاج إلى دليل، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ؛ فالحقيقة أظهر، والمجاز أخفي، وهو مستور بالحقيقة،ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فإن الفهم يتسارع فيه إلى الحقيقة التي هي مصافحة الجسد الجسد، واما المجاز الذي هو الجماع فإنه يفهم بالنظر والفكر، ويحتاج الذاهب إليه إلى دليل؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ. وأما اشتقاقها من الكنية فلأن محمداً في هذه الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل: أي الاسم الموضوع بإزائه أولاً، وأما أبو عبد الله فإنه طارٍ عليه بعد محمد؛ لأنه لم يكن له إلا بعد أن صار له ولد اسمه عبد الله، وكذلك الكناية؛ فإن الحقيقة لها هو الاسم الموضوع بإزائها أولاً في أصل الوضع، وأما المجاز فإنه طارٍ عليها بعد ذلك؛ لأنه فرع، والفرع إنما يكون بعد الأصل، وإنما يعمد إلى ذلك الفرع للمناسبةالجامعة بينه وبين الأصل على ما تقدم الكلام فيه، وهذا القدر كاف في الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار إليهما.

فإن قيل: إنك قد ذكرت أقسام المجاز في باب الاستعارة التي قدمت ذكرها في كتابك هذا، وحصرتها في أقسام ثلاثة، وهي: التوسع في الكلام، والاستعارة، والتشبيه، ونراك قد ذكرت الكناية في المجاز أيضاً، فهل هي قسم رابع لتلك الأقسام الثلاثة أم هي من جملتها؟ فإن كانت قسماً رابعاً، فذلك نَقْضٌ للحَصْر الذي حصرته، وإن كانت من جملتها فقد أعدت ذكرها ههنا مرة ثانية، وهذا المكرر لا حاجة إليه.

فالجواب عن ذلك أني أقول: أما الحصر الذي حصرته في باب الاستعارة فهو ذاك، ولا زيادة عليه، وأما الكناية فإنها جزء من الاستعارة، ولا تأتي إلا على حكم الاستعارة خاصة، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له،

وكذلك الكناية، فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام؛ فيقال: كل كناية استعارة، وليس كل استعارة كناية، ويفرق بينهما من وجه آخر، وهو أن الاستعارة لفظها صريح والصريح هو: ما دل عليه ظاهر لفظه، والكناية: ضد الصريح؛ لأنها عدول عن ظاهر اللفظ، وهذه ثلاثة فروق: أحدهما: الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز.

وقد تقدم القول في باب الاستعارة أنها جزء من المجاز، وعلى ذلك فتكون نسبته الكناية إلى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص.

وكان ينبغي أن نذكر الكناية عند ذكر الاستعارة في النوع الأول من هذه الأنواع المذكورة في المقالة الثانية، وإنما أفردتها بالذكر ههنا من أجل التعريض؛ لأن من العادة أن يذكرا جميعاً في مكان واحد.

وقد يأتي في الكلام ما يجوز أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة، وذلك يختلف باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده، كقول نصر بن سيار في أبياته المشهورة التي يحرض بها بني أمية عند خروج أبي مسلم:

أرَى خَلَلَ الرَّمَادِ ومِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالزَّنْدَيْنِ تُورَى ... وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ
أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ: لَيْتَ شِعْرِي ... أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ هَبُّوا فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ ... وَإِنْ رَقَدُوا فَإِنِّي لَا أُلَامُ

فالبيت الأول لو ورد بمفرده كان كناية؛ لأنه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز: أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر في خلل الرماد، وأنه سيضطرم، وأما المجاز فإنه أراد أن هناك ابتداءَ شَرٍّ كامنٍ ومثله بوَمِيض جمر من خلل الرماد، وإذا نظرنا إلى الأبيات جملتها اختصّ البيت الأول منها بالاستعارة دون الكناية.

وكثيراً ما يرد مثل ذلك ويشكل؛ لتجاذبه بين الكناية والاستعارة، على أنه لا يشكل إلا على غير العارف.

وأما التعريض: فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: وآلله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عُرْيَان والبرد قد آذاني؛ فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دَلَّ عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح، كقولك للمرأة: إنَّكِ لَخَلِيَّة وإني لَعَزَبٌ؛ فإن هذا وأمثاله لا يدلّ على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً، والتعريض أخفي من الكناية؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عُرْضه: أي من جانبه، وعُرْض كل شيء: جانبه.

وآعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً؛ فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبتة، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التَّلْويح والإشارة، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب، وعلى هذا فإن بيت آمريء القيس(١) الذي ذكره ابن سِنَان مثالاً للكناية هو مثال للتعريض؛ فإن غَرَضَ آمريء القيس من ذلك أن يذكر الجماع، غير أنه لم يذكره، بل ذكر كلاماً آخر يفهم الجماع من عرضه؛ لأن المصير إلى الْحُسْنَى ورقة الكلام لا يفهم منهما ما أراده آمرؤ القيس من المعنى لا حقيقة ولا مجازاً، وهذا لا خفاء به فاعرفه.

---

(١) هو قوله:

فَصِرْنَا إلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلاَمُنَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إذْلاَلِ

وقد سبق في أول الكلام على هذا النوع.

وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض وميزنا أحدهما عن الآخر فلنفصلهما، ونذكر أقسامهما، ولنبدأ أولاً بالكناية؛ فنقول:

آعلم أن الكناية تنقسم قسمين: أحدهما: ما يحسن استعماله، والآخر ما لا يحسن استعماله، وهو عيب في الكلام فاحش.

وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة: تمثيلاً، وإردافاً، ومجاورة.

فأما التمثيل فهو أن تراد الإشارة إلى معنى فَيُوضَعَ لفظ لمعنى آخر، ويكون ذلك مثالاً للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه، كقولهم: فُلَانٌ نَقِيُّ الثوب: أي مُنَزَّه من العيوب.

وأما الإرداف فهو أن تُرَاد الإشارة إلى معنى فَيُوضَعَ لفظ لمعنى آخر، ويكون ذلك رادفاً للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه ولازماً له، كقولهم: فلان طويلُ النِّجَاد: أي طويل القامة؛ فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له، بخلاف نَقَاء الثوب في الكناية عن النزاهة من العيوب؛ لأن نَقَاء الثوب لا يلزم منه النزاهة من العيوب، كما يلزم من طول النِّجَاد طولُ القامة.

وأما المجاورة فهي أن تريد ذكر الشيء فتتركه إلى ما جاوره، كقول عنترة[١]:

بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ
قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشَّمَالِ مُفَدَّمِ

يريد بالزجاجة الخمر، فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر؛ لأنها مجاورة لها.

وهذا التقسيم غير صحيح؛ لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه

(١) البيت من معلقته التي أولها قوله:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

مختصاً بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل، كقولنا: الحيوان ينقسم أقساماً منها الإنسان، وحقيقته كذا وكذا، ومنها الأسد وحقيقته كذا وكذا، ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا، ومنها غير ذلك؛ وههنا لم يكن التقسيم كذلك؛ فإن التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية؛ لأن الكناية إنما هي أن تُرَاد الإشارة إلى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر، ويكون ذلك اللفظ مثالاً للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾ فإنه أراد الإشارة إلى النساء، فوضع لفظاً لمعنى آخر، وهو النعاج، ثم مثل به النساء، وهكذا يجري الحكم في جميع ما يأتي من الكنايات؛ لكن منها ما يَتَّضِح التمثيل فيه وتكون الشُّبْهِيَّة بين الكناية والمكنىّ عنه شديدةَ المناسبة، ومنه ما يكون دون ذلك في الشبهية، وقد تأمَّلْت ذلك، وحَقَّقْت النظر فيه؛ فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة، ألا ترى إلى قولهم: فلانٌ نقيُّ الثوب، وقولهم اللمس كناية عن الجماع؛ فإن نَقاءَ الثوب أشدُّ مناسبة وأوضح شبهاً؛ لأنا إذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة، وإذا قلنا اللمس كالجماع لم يكن بتلك الدرجة في قوة المشابهة، وهذا الذي ذكر من أن من الكناية تمثيلاً وهو كذا وكذا غير سائغ ولا وارد، بل الكناية كلها هي ذاك، والذي قدمته من القول فيها هو الحاصر لها، ولم يأت به أحد غيري كذلك.

وأما الإرداف فإنه ضرب من اللفظ المركب، إلا أنه اختصَّ بصفة تخصه، وهي أن تكون الكناية دليلاً على المكنى عنه ولازمه له، بخلاف غيرها من الكنايات، ألا ترى أن طول النِّجَاد دليلٌ على طول القامة ولازم له، وكذلك يقال: فلان عظيم الرَّمَاد: أي كثير إطعام الطعام، وعليه ورد قول الأعرابية في حديث أم زَرْع في وصف زوجها: له إبلٌ قَلِيلَاتُ المَسَارح كثيرات المَبَارك، إذا سَمِعْنَ صوت

المزهر أيقن أنهن هَوَالك، وغرضُ الأعرابية من هذا القول أن تصفَ زوجها بالجود والكرم، إلا أنها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح، وإنما ذكرته من طريق الكناية على وجه الإرداف الذي هو لازم له.

وكذلك ورد في الأخبار النبوية أيضاً، وذاك أن امرأة جاءت إلى النبيّ ﷺ فسألته عن غسلها من الحيض، فأمرها أن تغتسل، ثم قال: «خُذِي فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا» قالت: كيف أتطهر بها؟ فقال: «تَطَهَّرِي بِهَا» قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: «سُبْحَانَ ٱللهِ! تَطَهَّرِي بِهَا» فاجتذبتها عائشة رضي الله عنها إليها، وقالت: تَتَبَّعِي بها أثَرَ الدم، فقولها «أثر الدم» كناية عن الفرج على طريق الإرداف؛ لأن أثر الدم في الحيض لا يكون إلا في الفرج، فهو رادف له.

ومما ورد من ذلك شعراً قول عمر بن أبي ربيعة[1]:

بَعِيــدَةُ مَهْــوَى الْقُــرْطِ إمَّــا لِنَــوْفَــلٍ   أَبُــوهَــا وَإِمَّــا عَـبْــدُ شَمْسٍ وَهَــاشِمُ

فإن بُعْدَ مَهْوَى القُرْط دليل على طول العنق.

ومن لطيف هذا الموضع وحسنه ما يأتي بلفظه مثل؛ كقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح: مثلي لا يفعل هذا: أي أنا لا أفعله، فنفى ذلك عن مثله ويريد نفيه عن نفسه؛ لأنه إذا نفاه عمن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لا محالة؛ إذ هو ينفي ذلك عنه أجدر، وكذلك يقال: مِثْلُكَ إذا سُئِلَ أعطى: أي أنت إذا سئلت أعطيت، وسبب ورود هذه اللفظة في هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هذه أوصافهم تثبيتاً للأمر وتوكيداً، ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه، ولم يَرْسُ فيه قدمه، وهذا مثل قول القائل إذا كان في مدح إنسان: أنت من القوم الكرام: أي لك في هذا الفعل سابقة، وأنت حقيق به، ولست دخيلاً فيه.

---

(١) البيت من أبيات له رواها أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني (١ ـ ١٥٧ دار الكتب) وأول هذه الأبيات قوله:

نَـظَرْتُ لَـهَـا بِـالْـمُـحَـصَّـبِ مِـنْ مِـنًـى   وَلِـي نَـظَـرٌ لَـوْلاَ الـتَّـحَـرُّجُ عَـارِمُ

وقد ورد هذا في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والفرق بين قوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ وبين قوله ليس كالله شيء هو ما أشرت إليه، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا مثل له حتى يكون لمثله مثل، وإنما ذكر ذلك على طريق المجاز قصداً للمبالغة.

وقد يأتي هذا الموضع بغير لفظة مثل وهي مقصودة، كقولك للعربي: العربُ لا تَخْفِرُ الذِّمَمَ: أي أنت لا تخفر الذمم، وهذا أبلغ من قولك: أنت لا تخفر الذمم، وهذا أبلغ من قولك: أنت لا تخفر الذمم؛ لما أشرت إليه.

وعلى نحو من هذا جاء قول أبي الطيب المتنبي(١):

أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِي مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ(٢)

وإذا فرغت من ذكر الأصول التي قدمت ذكرها فإني أتبعها بضرب الأمثلة نثراً ونظماً، حتى يزداد ما ذكرته وضوحاً.

---

(١) البيت من قصيدة له يرثي فيها أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة، وأولها قوله:

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فِي الرَّمْلِ ... وَهٰذَا الَّذِي يُضْنِي كَذَاكَ الَّذِي يُبْلِي

(٢) «من القوم الذي» حذف النون من الذين، كما حذفها الأشهب بن رميلة في قوله:

وَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ ... هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

وكما حذفها أمية بن الأسكر الكناني في قوله:

قَوْمِي الَّذُو بِعُكَاظٍ طَيَّرُوا شَرَراً ... مِنْ رُوسِ قَوْمِكَ ضَرْباً بِالْمَصَاقِيلِ

وكما حذفها عمرو بن كلثوم التغلبي في قوله:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّيَّ اللذَا ... قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلَالَا

والتلعب بالأسم الموصول في العربية كثير؛ لأنهم يستكثرون ثلاثة أشياء تدل على شيء واحد، وهي الموصول والصلة والعائد، فلما استطالوا هذه الأشياء مع أنها لا تكون جملة مستقلة استهانوا بها واستساغوا الحذف فيها؛ فأحياناً يحذفون من الموصول، وأحياناً يحذفون الموصول برمته، وأحياناً يحذفون الصلة، وأحياناً يحذفون العائد، وهذا كله كثير الشواهد في العربية ولولا أن يكون في الإتيان بها إطالة عليك، مع أن هذا الكتاب ليس مختصاً بمثل هذه المباحث، لجئتك بالكثير من شواهد هذه الحذوف.

فمن ذلك ما ورد في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة؛ فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله؛ فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً؛ لأن الغيبة إنما هي ذكر مَثَالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة، وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه، فهذا القول مُبَالغة في استكراه الغيبة، وأما جَعْلُ اللحم ميتاً فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها، وأما جَعْلُه ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فلما جُبِلَت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشَّهْوَة لها مع العلم بقبحها؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً؛ لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ والأرض التي لم يطئُوها كناية عن مناكح النساء، وذلك من حسن الكناية ونادره.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ فكني بالماء عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال، وهذه الآية قد ذكرها أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الموسوم بـ «إحياء علوم الدين» وفي كتابه الموسوم بـ «الجواهر» و«الأربعين» وأشار بها إلى أن في القرآن الكريم إشارات وإيماآت لا تنكشف إلا بعد الموت، وهذا يدلّ على أن الغزالي رحمه الله لم يعلم أن هذه الآية من باب الكنايات الذي لفظها يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز.

وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية، وإذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز، وليس الأمر كذلك، وبينهما وصف جامع، كهذه الآية وما جرى مجراها، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء، وعلى العلم، وكذلك يجوز حمل الأودية على مَهَابط الأرض، وعلى القلوب، وهكذا يجوز حمل الزَّبَد على الْغُثَاء الرابي الذي تقذفه السيول، وعلى الضلال، وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حمله على الطرفين معاً سوى الكناية.

وبلغني عن الفراء النحوي أنه ذكر في تفسيره آية، وزعم أنها كناية، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ آللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ فقال: إن الجبال كناية عن أمر رسول الله ﷺ وما جاء به من الآيات، وهذه الآيةُ من باب الاستعارة، لا من باب الكناية؛ لأن الكناية لا تكون إلا فيما جاز حمله على جانبي المجاز والحقيقة، والجبال ههنا لا يصح بها المعنى إلا إذا حملت على جانب المجاز خاصة؛ لأن مكر أولئك لم يكن لتزول منه جبال الأرض؛ فإن ذلك محال.

وأما ما ورد منها في الأخبار النبوية فقول النبي ﷺ: «إِنَّهُ كانت امرأة فيمن كان من قبلنا، وكان لها ابنُ عَمٍّ يُحِبُّهَا، فَرَاوَدَها عن نفسها، فامتنعت عليه، حتى إذا أصابتها شِدَّةٌ فجاءت إليه تسأله، فَرَاوَدَها، فمكنته من نفسها؛ فلما قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرجل من المرأة قالت له: لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه» فقام عنها وتركها، وهذه كناية واقعة في موقعها.

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ: «رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ» يريد بذلك النساء، فكنى عنهنَّ بالقوارير، وذاك أنه كان في بعض أسفاره وغُلَامٌ أسود آسمه أَنْجَشَةُ يَحْدُو، فقال له: «يا أنجشة، رويدك سوقك بالقوارير» وهذه كناية لطيفة.

وكذلك ورد حديث الحديبية، وذاك أنه لما نزل رسول الله ﷺ على الركية جاءه بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُزَاعي في نفر من قومه من أهل تهامة، فقال: تركْتُ كعبَ بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عداد مياه الحديبية معهم الْعُوذُ المَطَافيل، وهم مقاتلوك وصَادُّوك عن البيت، وهذه كناية عن النساء والصبيان، والعوذ: جنع عائذ،

وهي الناقة التي وصعت وقَوِيَ ولدها، وهذا يجـوز حمله على طريق الحقيقـة، كما جاز حمله على طريق المجاز: أي معهم الأموال من الإبل، وهي كانت جُـلّ أموال العرب: أي أنهم قد أحضروا أموالهم ليقاتلوا دونها؛ ولما جاز حمل العوذ المطافيل على النساء والصبيان وعلى الأموال كان من باب الكناية.

ومن ذلك ما ورد في إقامة الحد على الزاني، وهو أن يشهد عليه برؤية المِيلِ في المُكْحُلة، وذلك كناية عن رؤية الفرج في الفرج.

ومن لطيف الكناية أن امرأة جاءت إلى عائشة رضي الله عنها فقالت لها: أقَيِّدُ جملي؟ فقـالت عائشـة رضي الله عنها: لا، أرادت المـرأة أنها تصنـع لزوجهـا شيئاً يمنعه عن غيرها: أي تربطه أن يأتي غيـرها، فـظاهر هـذا اللفظ هو تقييـد الجمل، وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها.

وكـذلـك يـروى عن عمـر بن الخـطاب رضي الله عنـه، وذاك أنـه جـاء إلى النبي ﷺ فقـال: يا رسـول الله، هلكت، قال: «وَمَـا أَهْلَكَكَ» قـال: حـولْتُ رَحْلِي البارِحَة، فقال له النبي ﷺ «أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ والْحَيْضَة».

ويروى أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضي الله عنه، فمكثت المـرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها، وإنما كان ملتفتاً إلى صلاته، فدخل عليها عمرو بعـد ثـلاث، فقال: كيف تَـرَيْنَ بعلك؟ فقالت: نعم البعـل إلا أنه لم يُفَتِّشْ لنـا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً، فقولها «لم يفتش لنا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً» من الكنـاية الغـراء الظاهرة.

ومن ألطف ما بلغني في هذا قول عبد الله بن سلام، فإنه رأى على رجل ثوبـاً معصفـراً، فقال: لـو أن ثوبـك في تَنُّور أهلك أو تحت قـدرهم كان خيـراً، فـذهب الرجل فأحرقه، نظراً ألى حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه، وإنما أراد المجاز منه، وهو أنك لـو صَرَفْتَ ثمنـه إلى دقيق تخبزه أو حـطب تطبـخ به كـان خيراً، والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين، فالرجل فهم منه الظاهر الحقيقي فمضى فأحرق ثوبه، ومراد عبد الله غيره.

ومن هذا القسم ما ورد في أمثال العرب كقولهم: إيَّاكَ وَعَقِيلة المِلْحِ ، وذاك كناية عن المرأة الحسناء في مَنْبِتِ السوء؛ فإن عقيلة الملح هي اللؤلؤة وتكون في البحر، فهي حسنة وموضعها ملح.

وكذلك قولهم: لَبِسَ لَهُ جِلْدَ النَّمِرِ، كناية عن العداوة، وقد يقاس على هذا أن يقال: ليس له جلد الأسد، ولبس له جلد الذئب، ولبس له جلد الأرقم؛ لأن هذا كله مثل قولهم: لبس له جلد النمر، إذا العداوة محتملة في الجميع.

وكذلك قولهم: قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ المِجَنِّ، كناية عن تغيير المودة.

ومما ورد في ذلك شعراً قول أبي نُوَاس.

لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

وهذا له حكاية، وهو أنه كان لأبي نواس صديقة تغشاه، فقيل له: إنها تختلف إلى آخر من أهل الريب، فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوماً من الأيام فرآها تدخل منزل ذلك الرجل، ثم إن ذلك الرجل جاءه،وكان صديقاً له، فكلمه، فصرف وجهه عنه، ثم نظم قصيدته المشهورة التي مطلعها:

* أَيُّهَا المنْتَابُ عَنْ عُفُرِهْ[1] *

وهذا البيت من جملة أبياتها.

وكذلك ورد قوله أيضاً:

وَنَاظِرَةٍ إليَّ مِنْ النِّقَابِ تُلَاحِظُنِي بِطَرْفٍ مُسْتَرَابِ
كَشَفْتُ قِنَاعَهَا فَإِذَا عَجُوزٌ مُمَوَّهَةُ المَفَارِقِ بِالْخِضَابِ
فَمَا زَالَتْ تُحَمِّسُنِي طَوِيلاً وَتَأْخُذُ فِي أَحَادِيثِ التَّصَابِي

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* لَسْت مِنْ لَيْلِي وَلَا سَحَرِهْ *

انظر الديوان (٦٦).

تُحَـاوِلُ أَنْ يَقُـومَ أُبُـو زِيَـادٍ ... وَدُونَ قِيَـامِـهِ شَيْـبُ الْغُـرَابِ
أَتَـتْ بِجِـرَابِـهَـا تَكْـتَـالُ فِيـهِ ... فَقَامَـتْ وَهْيَ فَارِغَةُ الْجِـرَابِ

فقوله «أتت بجرابها تكتال فيه» من باب الكناية؛ إذا الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكذلك الكيل أيضاً.

ومما جاء من هذا الباب قول أبي تمام في قصيدته التي يستعطف بها مالك بن طَوْق على قومه؛ ومطلعها:

* أَرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وَأَرْضٌ تَثْجِ (١) *

مَا لِي رَأَيْتُ تُـرَابَـكُمْ يَبِسَ الثَّـرَى ... مَـا لِـي أَرَى أَطْـوَادَكُـمْ تَـتَـهَـدَّمُ(٢)

«فيبس الثرى» كناية عن تنكر ذات البين، تقول: يَبِسَ الثرى بيني وبين فلان؛ إذا تنكر الود الذي بينك وبينه، وكذلك «تهدُّم الأطواد»؛ فإنه كناية عن خفَّة الحلوم وطَيْش العقول.

ومن الكناية الحسنة قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التي مطلعها:

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة، وعجزه قوله:

* تِلْكَ الَّتِي رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرَمُ *

ووقع في ب، ج «وأخرى منجم» بالميم، والصواب عن الديوان ويحتمله ما في ا.

(٢) رواية الديوان على غير هذا الوجه، وهاك البيت في وسط أبيات يتضح بها معناه:

فَسَتَـذْكُـرُونَ غَـداً صَنَـائِـعَ مَـالِـكٍ ... إِنْ جَـلَّ خَـطْـبٌ أَوْ تُـدُوفِـعَ مَـغْـرَمُ
فَمَنِ النَّـقِـيُّ مِـنَ الْعُـيُـوبِ وَقَـدْ غَـدَا ... عَـنْ دَارِكُـمْ؟ وَمَـنِ الْعَـفِـيـفُ الْمُـسْـلِمُ؟
مَـا لِـي رَأَيْـتُ ثَـرَاكُـمْ يَـبِـسـاً لَـهُ ... مَـا لِـي أَرَى أَطْـوَادَكُـمْ تَـتَـهَـدَّمُ؟
مَـا هٰـذِهِ الْـقُـرْبَـى الَّـتِي لَا تُـتَّـقَـى ... مَـا هٰـذِهِ الـرَّحِـمُ الَّـتِـي لَا تُـرْحَـمُ؟
حَـسَـدُ الْعَـشِـيـرَةِ لِلْعَـشِـيـرَةِ قُـرْحَـةٌ ... تَـلِـدَتْ وَسَـائِـلُـهَـا وَجُـرْحٌ أَقْـدَمُ

* وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ[1] *

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِي قَنَصٌ   شُهْبُ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخَمُ

يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوي في المنال منه هو وغيره؛ فهو البازي، وغيره الرَّخمة، وإن حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائِزاً.

وعلى هذا ورد قول الأُقَيْشِرِ الأسدي ، وكان عِنِّيناً لا يأتي النساء، وكان كثيراً ما يصف ذلك من نفسه، فجلس إليه يوماً رجل من قيس، فأنشده الأُقَيْشِرُ[2]:

وَلَقَدْ أَرُوحُ بِمُشْرِفٍ ذِي مَيْعَةٍ   عَسِرِ الْمَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ
مَرِحٍ يَطِيرُ مِنَ الْمِرَاحِ لُعَابُهُ   وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَقَدَّدُ

ثم قال له: أتبصر الشعر؟ قال: نعم، قال: فما وصفت؟ قال: فرساً، قال: أفكنت تركبه لو رأيته؟ قال: إي والله وأثني عطفه، فكشف له عن أيره، وقال: هذا وصفت، فقم فاركبه، فوثب الرجل عن مكانه، وقال: قبحك الله من جليسٍ سائِرِ اليوم!.

وكذلك أيضاً يحكى أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك، وكان جميل الوجه، فاختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد، فراوده عن نفسه، فوثب من عنده، ودخل على هشام مغضباً، وهو يقول:

إِنَّهُ وَٱللهِ لَوْلَا أَنْتَ لَمْ   يَنْجُ مِنِّي سَالِماً عَبْدُ الصَّمَدْ

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

(٢) وقع في ا، ب، ج، د «الأقيس» وهو خطأ، وصوابه الأقيشر، وانظر البيتين مع نسبتهما في آخر شرح التبريزي على الحماسة (٤ ـ ٣٥٦) وانظر (ص ٢١٣ من هذا الجزء).

فقال هشام: ولم ذلك؟ قال:

إِنَّـهُ قَـدْ رَامَ مِـنِّـي خُـطَّةً لَـمْ يَـرُمْهَـا قَـبْـلَهُ مِـنِّي أَحَـدْ

قال: ما هي؟ قال:

رَاحَ جَـهْـلاً بِـي وَجَـهْـلاً بِـأَبِـي يُـدْخِـلُ الْأَفْعَى عَـلَى حَبْسِ الْأَسَـدْ

قال: فضحك هشام، وقال: لو فعلت به شيئاً لم أنكره عليك.

ومن ألطف ما سمعته في هذا الباب قول أبي نُوَاس في الهجاء:

إِذَا مَـا كُـنْـتَ جَـارَ أَبِـي حُـسَـيْـنٍ فَـنَـمْ وَيَـدَاكَ فِـي طَـرَفِ السِّـلَاحِ
فَـإِنَّ لَـهُ نِـسَـاءً سَـارِقَـاتٍ ـ إِذَا مَـا بِـتْـنَ أَطْـرَافَ ـ الـرِّمَـاحِ
سَـرَقْـنَ وَقَـدْ نَـزَلْـتُ عَـلَيْـهِ أَيْـرِي فَـلَمْ أَظْـفَـرْ بِـهِ حَـتَّى الـصَّـبَـاحِ
فَـجَـاءَ وَقَـدْ تَـخَـدَّشَ جَـانِـبَـاهُ يَئِـنُّ إِلَـيَّ مِـنْ أَلَـمِ الْـجِـرَاحِ

فتعبيره عن العضو المشار إليه بأطراف الرماح تعبير في غاية اللطافة والحسن.

وقد أدخل في باب الكناية ما ليس منه، كقول نُصَيْب:

فَعَـاجُـوا فَـأَثْنَـوْا بِـالَّـذِي أنْتَ أَهْلُهُ وَلَـوْ سَكَتُـوا أَثْنَتْ عَلَيْـكَ الْحَقَـائِبُ

وهذا يروى عن الجاحظ، وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة؛ فإن الكناية هي ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز، وههنا لا يصح ذلك، ولا يستقيم؛ لأن الثناء للحقائب لا يكون إلا مجازاً، وهذا من باب التشبيه المضمر الأداة الخارج عن الكناية، والمراد به أن في الحقائب من عطاياك ما يعرب عن الثناء لو سكت أصحابها عنه[١].

وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية، فإنه لا يحسن استعماله؛ لأنه عيب في الكلام فاحش، وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه.

---

(١) في البيت على هذا التفسير استعارة مكنية أو مجاز عقليّ.

فمما جاء منه قول الشريف الرضي يرثي امرأة:

* إنْ لَمْ تَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نِصَالِ [١] *

وفي هذا من سوء الكناية ما لا خفاء بـه؛ فإن الوهم يسبق في هـذا الموضـع إلى ما يقبح ذكره، وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوَّه صورته؛ فإن الفرزدق رثى امرأته فقال[٢]:

وَجَفْنِ سِلاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْهِ الْبَوَاكِيَا[٣]

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لَوَ انَّ الْمَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لَيَالِيَا[٤]

وهذا حسن بديع في معناه، وما كني عن امرأةٍ ماتت بجمع أحسن من هذه الكناية، ولا أفخم شأناً، فجاء الشريف الرضي فأخذ معناها وفعل به ما ترى، وليس كل من تصرف في المعاني أحسن في تصريفها، وأبقى هذه الرموز في تأليفها.

وقد عكس هذه القصة مع أبي الطيب المتنبي فأحسن فيما أساء به أبو الطيب طريق الكناية فأخطأ حيث قال[٥]:

---

(١) هكذا ورد هذا الشاهد في ا، ب، ج، د؛ وهو بهذه الصورة غير ما في ديوان الشريف الرضي (٢ ـ ٦٧٧) والبيت بتمامه هكذا:

إِلَّا يَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نُصُولِ ... غَالَتْهُ أَحْدَاثُ الزَّمَانِ بِغُولِ

أَوْ لَا يَكُنْ بِأَبِي شُبُولٍ ضَيْغَمٍ ... تُدْمَى أَظَافِرُهُ فَأُمُّ شُبُولِ

وهو مطلع قصيدة يعزي فيها أبا سعد علي بن محمد بن أبي خلف عن وفاة أخته.

(٢) البيتان أول كلمة له يقولها وقد ماتت جارية له وهي حبلى، وبعدهما قوله:

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَعْثُرُ بِالْفَتَى ... وَلَا يَسْتَطِيعُ رَدَّ مَا كَانَ جَاثِيَا

(٣) في الديوان «وغمد سلاح».

(٤) «لو» هذه هي الدالة على التمني، أو هي شرطية جوابها محذوف: أي لو أمهلته المنايا لظهر فضله. وفي ا، ب، ج «وفي جوفه في دارم» وما أثبتناه هو الصواب، ودارم: قوم الفرزدق.

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران، وأولها قوله:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

وأعجب لذوق المتنبي وغلظ طبعه وفساد اختياره! كيف يجعل هذا الكلام في قصيدة من قصائد المدح؟.

إنِّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلَاتِهَا

وهذه كناية عن النزاهة والعفة، إلا أن الفجور أحسن منها.

وقد أخذ الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجمل صورة حيث قال(١):

أحِنُّ إلَى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى وَأَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ(١)

وأمثال هذا كثير، وفيما ذكرناه من هذين المثالين مَقْنَع.

وأما التعريض فقد سبق الإعلام به، وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية.

فما جاء منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وغرض إبراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم؛ لأنه قال: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وذلك على سبيل الاستهزاء، وهذا من رموز الكلام، والقول فيه أن قَصْدَ إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الضم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته على أسلوب تعريضٍ يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم، والاستهزاء بهم، وقد يقال في هذا غير ما أشرت إليه، وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرض إبراهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه؛ فإن مَنْ دونه مخلوق من مخلوقاته، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالاً لما أراده.

ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أباه، وأولها قوله:

بِغَيْرِ شَفِيعٍ نَالَ عَفْوَ الْمَقَادِرِ أَخُو الْجِدِّ لَا مُسْتَنْصِراً بِالْمَعَاذِرِ

(٢) رواية الديوان هكذا:

وَللهِ قَلْبِي مَا أَرَقَّ عَلَى الْهَوَى وَأَصْبَبي إِلَى لَثْمِ الْخُدُودِ النَّوَاضِرِ
يَحِنُّ أَلَى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى وَيَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ

﴿إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فقوله: **﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾** تعريض بأنهم أحقُّ بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومُوازٍ لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم: **﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾**.

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قبل معاوية فعزله؛ فلما قدم عليه قال له: عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأَوْجَبَتْ عزلك: إحداهن أني أمَّرْتُكَ على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه، والثانية كراهتك أمر زياد، والثالثة أن ابنتي رملة اسْتَعْدَتْك على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها؛ فقال له مروان: أما عبد الله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه، وأما كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان فوالله إنه لتأتي على سَنَة وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوباً، يريد بذلك أن رملة بنت معاوية إنما استعدت لطلب الجماع، فقال له معاوية: يا ابن الْوَزَغ لست هناك، فقال له مروان: هو ذاك؛ وهذا من التعريضات اللطيفة.

ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة، فدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال عمر: أَيَّةُ ساعة هذه؟ فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، انْقَلَبْتُ من أمر السوق فسمعت النداء، فما زدت على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل؛ فقوله «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك السبق إليها؛ وهو من التعريض المعرب عن الأدب.

ووقفت في كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع، وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة؛ فقالت، أشكو إليك قلة الفأر في بيتي؛ فقال: ما أحسن ما وَرَّتْ عن حاجتها، املئوا لها بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي، وهو أن النبيّ ﷺ خرج

وهو مُحْتَضِن أحد آبني ابنته، وهو يقـول: «وَٱللهِ إنكم لتجبنون وتبخلُون وتجهلون، وإنكم لَمِنْ رَيْحَانِ ٱللهِ، وَإِنَّ آخِرَ وَطأَةٍ وُطئها ٱلله بوَجٍّ» آعلم أنَّ وَجّاً واد بـالطائف، والمـراد به غـزاة حُنَين، وحُنَين: وادٍ قبل وجٍّ؛ لأن غـزاة حنين آخر غـزاة أوقـع بهـا رسول الله ﷺ مع المشركين، وأما غزوتا الـطائف وتَبُوك اللتـان كانتـا بعد حُنَين فلم يكن فيهما وطأة: أي قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير مـلاقاة عـدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ﷺ «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» على ما قبله من الحديث هو التأسُّف على مفـارقة أولاده؛ لقـرب وفاتـه؛ لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته ﷺ كانت في ربيع الأول من سنـة إحدى عشـرة، وبينهمـا سنتان ونصف، فكـأنه قـال: وإنكم لمن ريحـان الله: أي من رزقـه، وأنـا مفارقكم عن قريب، إلا أنه صانَعَ عن قوله وأنا مفـارقكم عن قريب بقـولـه «إن آخـر وطأة وطئها الله بوج» وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ .

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشَّمَيْذَرِ الحارثي[1]:

بَنِي عَمِّنَـا، لَا تَـذْكُـرُوا الشِّعْـرَ بَعْـدَمَـا ... دَفَنْتُمْ بِصَحْـرَاءِ الْغُمَيْـرِ الْقَـوَافِيَـا[2]

وليس قصده ههنا الشعر، بل قصده ما جرى لهم في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبـة، إلا أنه لم يـذكر ذلـك بل ذكـر الشعر، وجعله تعـريضاً بمـا قصده: أي لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان.

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عَمْرو بن مَسْعدة الكاتب إلى المأمـون في أمر بعض أصحابه، وهو: أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان إلى أميـر المؤمنين ليتَطَوَّل في إلحـاقه بنُـظَرائـه من الخـاصـة، فـأعلمتـه أن أميـر المؤمنين لم يَجْعَلْني في مَـرَاتب المُسْتَشْفِعين، وفي ابتدائه بذلك تعدِّي طاعَتِهِ، فوقَّـع المأمـون في ظهر كتـابه: قـد عرفتُ تصريحَكَ وتعريضَكَ لنفسك، وقد أجبناك إليهما.

---

(١) وقـع في ا، ب، ج «الشميـرد الحـارثي» وهـو تحـريف، وتصـويبـه عن شـرح الحمـاسـة (١ ـ ١١٨).

(٢) البيت أول كلمـة اختارهـا أبـو تمـام في مستهـل كتـاب الحمـاسـة (انـظر شـرح التبـريـزي: ١ ـ ١١٨).

واعلم أن هـذين القسمين من الكنـايـة والتعـريض قـد وردا في غيـر اللغـة العربية، ووجدتهما كثيراً في اللغة السريانية؛ فإن الإنجيل الذي في أيـدي النصارى قد أتى منهما بالكثير.

وممـا وجدتـه من الكنايـة في لغة الفـرس أنه كـان رجـل من أسـاورة كسـرى وخواصه فقيـل: إن الملك يختلف إلى امرأتـك، فهجرهـا لذلـك، وترك فـراشها، فأخبرت كسرى، فدعاه وقال له: قد بلغني أن لك عيناً عذبة وأنك لا تشرب منهـا؛ فما سبب ذلك؟ قال: أيها الملك، بلغني أن الأسد يَرِدُهَا فخفته، فاستحسن كسرى منه هذا الكلام، وأسْنَى عطاءه.

النوع العشرون

في المغالطات المعنوية

وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه؛ لما فيه من التورية.

وحقيقته: أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض، والنقيض أحسن موقعاً، وألطف مأخذاً.

فالأول الذي يكون له مثل يقع في الألفاظ المشتركة، فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي(١):

يَشُلُّهُمُ بِكُلِّ أَقَبَّ نَهْدٍ لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ(٢)
وَكُلِّ أَصَمَّ يَعْسِلُ جَانِبَاهُ عَلَى الْكَعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مُمَارُ(٣)
يُغَادِرُ كُلَّ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ وَلَبَّتُهُ لِثَعْلَبِهِ وِجَارُ(٤)

فالثعلب: هو هذا الحيوان المعروف، والْوِجَارُ: اسم بيته، والثعلب أيضاً هو طَرَف

---

(١) من قصيدة له يقولها وقد أوقع سيف الدولة ببني عقيل وبني قشير وبني العجلان وبني كلاب حين عاثوا في عمله وخالفوا عليه، ويذكر إجفالهم من بين يديه وظفره بهم، وأول هذه القصيدة قوله:

طِوَالُ قَناً تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

(٢) يشلهم: يطردهم، والأقب: الضامر البطن، والنهد: العالي المرتفع.

(٣) الأصم: الشديد الذي ليس بأجوف. يعسل: يضطرب، والكعبان: اللذان في عامل الرمح، وهما يغيبان في المطعون، والممار: السائل الجاري.

(٤) قد فسر المؤلف الثعلب والوجار. والوجار: بكسر الواو وفتحها، يريد أن الرمح الموصوف يترك من التفت إليه ونحره مطعون.

سنان الرمح؛ فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن[١] ذكر الوِجَار في طرف السنان، وهذا نقل المعنى من مثل إلى مثله.

وعليه ورد قول المتنبي أيضاً[٢]:

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفَ كَفُّهُ ... وَكَانَا عَلَى العِلَّاتِ يَصْطَحِبَانِ[٣]
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ: ... رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي

فإن شَبيباً الخارجي الذي خرج على كافور الإخشيدي، وقصد دمشق وحاصرها، وقتل على حصارها؛ كان من قيس، ولم تزل بين قيس واليمن عَدَاوات وحروب، وأخبار ذلك مشهورة، والسيف يقال له «يماني» في نسبته إلى اليمن، ومراد المتنبي من هذا البيت أن شبيباً لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه: أنت يماني وصاحبك قيسي، ولهذا جانبه السيف وفارقه. وهذه مغالطة حسنة، وهي كالأولى إلا أنها أدق وأغمض.

وكذلك ورد قول بعضهم من أبيات يهجو بها شاعراً، فجاء من جملتها قوله:

وَخَلَطْتُمُ بَعْضَ الْقُرَانِ بِبَعْضِهِ ... فَجَعَلْتُمُ الشُّعَرَاءَ فِي الأَنْعَامِ

ومعنى ذلك أن الشُّعَراء اسم سورة من القرآن الكريم والأنْعَام اسم سورة أيضاً، والشعراء: جمع شاعر، والأنعام: ما كان من الإبل والبقر.

---

(١) قال العكبري: «وأحسن في هذه التورية والاستعارة بذكر الوجار والثعلب» اهـ (انظر: ١ ـ ١٠٤ طبع مطبعة الحلبي).

(٢) من قصيدة له يذكر فيها خروج شبيب ومخالفته كافوراً، وأولها قوله:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

(٣) شبيب: هو ابن جرير العقيلي، من قوم أصلهم من القرامطة، وكانوا مع سيف الدولة، وولي شبيب معرة النعمان دهراً طويلاً، واجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف، وأراد أن يخرج على كافور، وقصد دمشق فحاصرها؛ فيقال: إن امرأة ألقت عليه رحا فصرعته؛ فانهزم الذين كانوا معه لما مات؛ ويقال: إنه أكثر من شرب الخمر فحدث به صرع، ففي ساعة القتال أتته نوبة الصرع فتركه أصحابه ومضوا، فأخذه أهل دمشق فقتلوه.

وكذلك ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلاً كان على مذهب أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْوَجِيهَ رِسَالَةً ... وَإِنْ كَانَ لَا تُجْدِي لَدَيْهِ الرَسَائِلُ
تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَانِ بَعْدَ ٱبْنِ حَنْبَلٍ ... وَفَارَقْتَهُ إذْ أَعْوَزَتْكَ الْمَآكِلُ
وَمَا اخْتَرْتَ رَأيَ الشَّافِعِيِّ تَدَيُّناً ... وَلٰكِنَّمَا تَهْوَى الَّذِي مِنْهُ حَاصِلُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ أنْتَ لَا شَكَّ صَائِرٌ ... إلَى مَالِكٍ فَٱفْطِنْ لِمَا أَنَا قَائِلُ

ومالك: هو مالك ابن أنس صاحب المذهب رضي الله عنه، ومالك: هو خازن النار، وهذه مغالطة لطيفة.

ومن أحسن ما سمعته في هذا الباب قول أبي العلاء بن سليمان في الإبل:

صلْبُ الْعَصَا بالضَّرْب قَدْ دَمَّاهَا ... تَوَدُّ أنَّ آللهَ قَدْ أَفْنَاهَا
إِذَا أَرَادَتْ رَشَداً أَغْوَاهَا ... محاله من رقه إياها

فالضرب: لفظ مشترك؛ يطلق على الضرب بالعصا، وعلى الضَّرْبْ في الأرض، وهو المسير فيها، وكذلك دَمَّاها فإنه لفظ مشترك يطلق على شيئين: أحدهما يقال: دماه؛ إذا أسَالَ دمه، ودماه؛ إذا جعله كالدُّمْيَة، وهي الصورة، وهكذا لفظ الْفَنَاء فإنه يطلق على عِنَب الثَّعْلب، وعلى إذهاب الشيء إذا لم يبق منه بقية، يقال: أفناه؛ إذا أذهبه، وأفناه؛ إذا أطعمه الْفَنَاء، وهو عنب الثعلب، والرشد والغوى: نبتان، يقال: أغواه؛ إذا أضَلّه، وأغواه؛ إذا أطعمه الغوى، ويقال: طلب رشداً؛ إذا طلب ذلك النبت، وطلب رشداً؛ إذا طلب الهداية، وبعض الناس يظن هذه الأبيات من باب اللغز، وليس كذلك؛ لأنها تشتمل على ألفاظ مشتركة، وذلك معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه، واللغز: هو الذي يستخرج من طريق الْحَزْر والْحَدْس، لا من دلالة اللفظ عليه، وسأوضح ذلك إيضاحاً جليّاً في النوع الحادي والعشرين، وهو الذي يتلو هذا النوع؛ فليؤخذ من هناك.

ويروى في الأخبار الواردة في غَزَاة بدر أن النبيّ ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بَدْراً، فلقيهم رجل من العرب، فقال: مِمَّن القَوْمُ؟ فقال النبيّ ﷺ : «مِنْ مَاءٍ»، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء، من ماء؛ لينظر أيّ بطون العرب يقال لها ماء، فسار النبيّ ﷺ لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره، وهذا من المغالطة المثلية؛ لأنه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء، ويجوز أن يكون المراد أن خَلْقَهُمْ مِنْ مَاء.

وقد جاءني شيء من ذلك من الكلام المنثور.

فمنه ما كتبته في فصل من كتاب عند دخولي إلى بلاد الروم أصِفُ فيه الْبَرَدَ والثلج؛ فقلت: ومن صفات هذا الْبَرَد أنه يعقد الدر في خَلْفِه، والدمْعَ في طَرْفه، وربما تَعَدَّى إلى قليب الخاطر فأجَفَّه أن يجري بوَصْفِه؛ فالشمس مأسورة، والنار مقرورة، والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ، ومَسِيلات الجبال أنهار غير أنها جامدة لم تخض.

ومكان المغالطة من هذا الكلام في قولي: «والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ» فإن الشهباء من الخيل يقال فيها حَوْلية: أي لها حول، ويقال: إنها مَرُوضَة: أي ذُلِّلت للركوب، وهذه الأرض مَضَى للثلج عليها حول فهي شهباء حَوْلية؛ وقولي: «لم تُرَضْ» أي لم تسلك بعد.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم؛ فقلت: ولقد نزلت منه بِمُهَلَّبِي الصُّنع، أحَنَفي الأخلاق، ولقيته فكأني لم أُرَعْ ممَّنْ أحبُّ بلَوْعة الفِراق، ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول إني قد استبدلت به أهلاً ووطناً، وعهدي بالأيام وهي من الإحسان فاطمة فاستولدتها بجواره حَسَناً.

وهذه تورية لطيفة فإن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وَالْحَسَن رضي الله عنهما ولدها، وفاطمة: هي اسم فاعلة من الفِطَام، يقال: فَطَمَتْ فهي فاطمة، كما يقال: فَطَم فهو فاطم، والْحَسَن: هو الشيء الحسن.

ومن هذا الأسلوب ما كتبته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان، فقلت:

وعَهْدُه بقلمِي وهو يَتَحلَّى من البيان بأسمائه، وتبرز أنوار المعاني من ظلمائه، وقد أصْبَحَتْ يدي منه وهي حَمَّالة الحطب، وأصبح خاطري أبا جَهْلٍ بعد أن كان أبا لَهَب.

وهذا أحسن من الأول، وأخلب عبارة، فانظر أيها المتأمل إلى ما فيه من التورية اللطيفة، ألا ترى أن الخاطر يحمد فيوصف بأنه وَقَّاد ومُلْتَهب، ويُذَم فيوصف بأنه بليد وجاهل؛ وأبو لهب وأبو جهل: هما الرجلان المعروفان، وكذلك حَمَّالة الحطب هي المرأة المعروفة، وإذا ذُمَّ القلم قيل: إنه حطب، وإن صاحبه حَاطِب؛ فلما نقلت أنا هذا إلى المعنى الذي قصدته جئت به على حكم المغالطة، ووَرَّيْت فيه تورية، والمسلك إلى مثل هذه المعاني وتصحيح المقصد فيها عَسِرٌ جداً، لا جَرَم أن الإجادة فيها قليلة.

ومما يجري هذا المجرى ما ذكرته في وصف شخص بمعالي الأمور، وهو: مِن أَبَرِّ مَسَاعيه أنه حاز قُفْلَ المكرمات ومِفْتَاحها، فإذا سُئِل مَنْقَبَةً كان مَنَّاعَها وإذا سُئِلَ مَوْهبة كان مَنَّاحها، وأحسن أثراً من ذلك أنه أخذ بأعِنَّةِ الصِّعَاب وألان جِمَاحَها، فإذا شهد حَوْمَة حربٍ كان مَنْصُورَها وإذا لقي مُهْجَة خطب كان سَفَّاحَها.

والمغالطة في هذا الكلام في ذكر المنصور والسفاح؛ فإنهما لقبُ خليفتين من بني العباس، والسفاح: أول خلفائهم، والمنصور: أخوه الذي ولي الخلافة من بعده، وهما أيضاً من النصر في حَوْمَة الحرب والسَّفْح الذي هو الإراقة، والمُهْجَة: دم القلب؛ فكأني قلت: هو منصور في حومة الحرب، ومُرِيق لدم الخطوب، وقد اجتمع في هذا الكلام المنصور والمنصور، والسفاح والسفاح(1)، وهذا من المغالطة المثلية لا من النقيضية، ولا خفاء بما فيها من الحسن.

ومن ذلك ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان؛ فقلت: وقد علمت أن ذلك الأنس بقربه يعقب إيحاشاً، وأن تلك النَّهْلَة من لقائه تجعل الأكباد عِطَاشاً؛ فإن من شيمة الدهر أن يُبَدِّلَ الصَّفْوَ كَدَرَا، ويوسع أيام عُقُوقه طولاً وأيام بِرِّه قِصَراً، وما أقول

(1) كذا؛ ولعله «وقد اجتمع في هذا الكلام المنصور والسفاح» من غير تكرير.

إلا أنه شعر بتلك المسرة المسروقة فأقام عليها حدّ القطع، ورأى العيش فيها خَفْضاً فأزاله بعامل الرفع.

والمغالطة في هذا الكلام هي في ذكر الخفض والرفع؛ فإن الْخَفْض: هو سَعَة العيش، والخفض: هو أحد العوامل النحوية، والرفع: هو من قولنا: رفعت الشيء، إذا أزلته، والرفع: هو أحد العوامل النحوية أيضاً، وهذا من المغالطات الخفية.

ومن ذلك ما كتبته في فصل أصف فيه الْحُمَّى، وكنت إذ ذاك بحصن سُمَيْسَاط، وهو بلد من بلاد الأرمن، فقلت: ومما أكْرَهُ في حال المرض بهذه الأرض أنَّ الْحُمَّى خَيَّمَتْ بها فاستقرّت، ولم تقنع بأهلها حتى سَرَتْ إلى تربتها فَتُرَى وقد أخذتها النافضُ فاقْشَعَرَّت، ولم يشكل أمرها إلا لأنها حمى أرمنية مستعجمة اللسان، وقد تشتبه الأمراض وأهلِ بلادها في الأبان، وإذا كانت الحمى كافرة لم تزل للمسلم حرباً، وشَكَاتُها لا تسمى شكاة وإنما تسمى طعناً وضرباً، ولهذا صارت الأدوية في علاجها ليست بأدوية، وأصبحت أيامُ نَحْرِها في الناس غيرَ مبتدأةٍ بأيام تَرْوِيَة، وليس مَوْسِمُهَا في فَصْل معلوم بل كُلُّ فصول العام من مواسمها، ولو كاتبتها نصيبين أو ميافارقين بكتاب لترجمته بعبدها وخادمها.

والمغالطة ههنا في قولي: «وأصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدأة بأيام تروية» والمراد بذلك أنها تُقْبل بَغْتَة من غير تروٍّ: أي من غير تَلَبُّث، ويوم النحر: هو يوم عيدالأضحى، وقبله يومٌ يسمَّى يوم التروية؛ فالمغالطة حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا، إلا أن يوم النحر مبتدأ بيوم تروية، ولا خفاء بما في هذه المغالطة من الحسن واللطافة.

وأما القسم الآخر ـ وهو النقيض ـ فإنه أقل استعمالاً من القسم الذي قبله؛ لأنه لا يتهيأ استعماله كثيراً.

فمن جملته ما ورد شعراً لبعضهم، وهو قوله:

وَمَا أشْيَاءُ تَشْرِيهَا بِمَالٍ فَإنْ نَفَقَتْ فَأكْسَدُ مَا تَكُونُ

يقال: نَفَقَت السلعة؛ إذا راجت، وكان لها سوق، ونَفَقَت الدابة؛ إذا ماتت، وموضع المناقضة ههنا في قوله: إنها إذا نَفَقَت كسدت، فجاء بالشيء ونقيضه، وجعل هذا سبباً لهذا، وذلك من المغالطة الحسنة.

ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلد من بلاد الكفار؛ فقلت في آخر الكتاب[١]: وقد ارتاد الخادم من يُبَلِّغ عنه مشاريحَ هذه الوقائع التي اخْتَصَرَها، ويُمَثِّل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها، ويكون مكانُهُ من النباهة كريماً كمكانها، وهي عرائس المساعي فأحسَنُ الناس بياناً مؤهَّل لإبداع حسانها، والسائر بها فلان وهو راوي أخبار نَصْرِها التي صِحَّتُها في تجريح الرجال، وعَوَالي إسنادها مأخوذة من طرق الْعَوَال[٢]، واللَّيالي والأيامُ لَها رُوَاة فما الظن برواية الأيام والليال.

في هذا الفصل مغالطة نقيضية، ومغالطة مثلية؛ أما المغالطة المثلية فهي في قولي: «وعوالي إسنادها مأخوذة من طرق الْعَوَال»[٢] وقد تقدم الكلام على هذا وما يجري مجراه في القسم الأول؛ وأما المغالطة النقيضية فهي قولي: «وهو راوي أخبار نصرها التي صحتها في تجريح الرجل» وموضع المغالطة منه أنه يقال في رواة الأخبار: فلان عَدْل صحيح الرواية، وفلان مَجْرُوح: أي سقيم الرواية غير موثوق به، فأتيت بهذا المعنى على وجه النقيض، فقلت: صحة أخبار هذه الفتوح في تجريح الرجل: أي تجريحهم في الحرب، وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به.

وقد أوردت من هذه الأمثلة ما فيه كفاية ومقنع.

فإن قيل: إن الضرب الأول من هذا النوع هو التجنيس الذي لفظه واحد

---

(١) قد مضت هذه القطعة في آخر كتاب طويل كتبه المؤلف إلى دار الخلافة عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب يتضمن الإخبار بفتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدي الكفار، والكتاب يبتدي في (ص ١٣٢ من الجزء الثاني من هذا الكتاب) والقطعة المذكورة تجدها في أول (ص١٣٨ منه).

(٢) هذا من باب الجناس على ما يقرر هو بعد سطور.

ومعناه مختلف، كالمثال الذي مثلته في قول أبي الطيب المتنبي ثعلب ووجار؛ فإن الثعلب هو الحيوان المعروف، وهو أيضاً طَرَف السنان، وكذلك باقي الأمثلة.

قلت في الجواب: إن الفرق بين هذين النوعين ظاهر، وذاك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين؛ فهو يَسْتَوي في الصورة ويختلف في المعنى، كقول أبي تمام[1]:

بِكُلِّ فَتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا مُحَيّاً مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

فالضَّرْب: الرجل الخفيف، والضرب: هو الضرب بالسيف في القتال، فاللفظ لا بد من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف، والمغالطة ليست كذلك، بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة، ويدلّ به على مثله، وليس بمذكور.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الحُقْبُ أَنُحْلُ المَغَانِي لِلْبِلَى هِيَ أَمْ نَهْبُ

وقد تقدم الاستشهاد بهذا البيت في التجنيس في الجزء الأول.

النوع الحادي والعشرون

في الأحاجي

وهي الأغاليط من الكلام، وتسمى الألغاز، جمع لُغَز، وهو: الطريق الذي يلتوي ويشكل على سالكه، وقيل: جمع لَغْز ـ بفتح اللام ـ وهو: مَيْلك بالشيء عن وجهه، وقد يسمى هذا النوع أيضاً المُعَمَّى، وهو يشتبه بالكناية تارة، وبالتعريض أخرى، ويشتبه أيضاً بالْمُغَالَطات المعنوية، ووقع في ذلك عامة أرباب هذا الفن.

فمن ذلك أن أبا الفرج الأصفهاني ذكر بيتي الأقيشر الأسدي[1] في جملة الألغاز، وهما:

وَلَقَدْ أَرُوحُ بِمُشْرِفٍ ذِي مَيْعَةٍ عَسِرِ المَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ[2]
مَرِحٍ يَطِيرُ مِنَ الْمِرَاحِ لُعَابُهُ وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَقَدَّدُ[3]

وهذان البيتان من باب الكناية؛ لأنهما يُحْمَلان على الفرس، وعلى العضو المخصوص، وإذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الألغاز؟.

(١) وقع في ا، ب، ج «الأقيس» وهو تصحيف، وقد سبق مثله في باب الكناية والتعريض (ص ١٩٨ من هذا الجزء).

(٢) وقع في ا، ب، ج «يتقصد» بالقاف، وهو تحريف، وصوابه «يتفصد» بالفاء، والبيتان رواهما الخطيب التبريزي في آخر شرح الحماسة (٤ ـ ٣٥٦) وروى معهما بيتاً ثالثاً، وهو قوله:

حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مَشَقَّ ثَنِيَّةٍ طَوْراً أَغُورُ بِهَا وَطَوْراً أُنْجِدُ

وروى أبو تمام هذين البيتين بغير هذه الرواية ولم ينسبهما لمعين، وهما بروايته:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِمُشْرِفٍ يَافُوخُهُ عَسِرِ المَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَدَفَّقُ
أرِنٍ يسِيلُ مِنَ النَّشَاطِ لُعَابُهُ وَيكَادُ جِلْدُ إهَابِهِ يَتمَزَّقُ

(٣) في ا، ب، ج «يطير من المزاح» والتصويب عن التبريزي وهو المناسب لقوله «مرح».

وكذلك فعل الحريري في مقاماته؛ فإنه ذكر في الأحاجيّ التي جعلها على حكم الفتاوي كنايةً ومغالطةً معنوية، وظن أنهما من الأحاجيّ الملغزة، كقوله: أيحلُّ للصائم أن يأكل نهاراً، والنهار: من الأسماء المشتركة بين النهار الذي هو ضد الليل وبين فَرْخِ الْحُبَارَى؛ فإنه يسمى نهاراً، وإذا كان من الأسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية، لا من باب الأحاجيّ، والإلغاز شيء منفصل عن ذلك كله، ولو كان من جملته لما قيل: لغز، وأحْجِيَّة، وإنما قيل: كناية، وتعريض، أو مغالطة، ولكن وجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية، ومنه ما يطلق عليه التعريض، ومنه ما يطلق عليه المغالطة، ومنه شيء آخر خارج عن ذلك؛ فجعل لغزاً وأحجية.

وكنتُ قدَّمْتُ القول بأن الكناية هي اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز، فهو يحمل عليهما معاً، وأن التعريض هو ما يفهم من عُرْض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازاً، وأن المغالطة هي التي تطلق ويراد بها شيئان: أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعي، والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه.

وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد، وهو: كل معنى يُسْتَخْرج بالْحَدْس والحزْر، لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً، ويفهم من عرضه؛ لأن قول القائل في الضرس:

وَصَاحِبٍ لَا أَمَلُّ آلدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يَشْقَى لِنَفْعِي وَيَسْعَى سَعْيَ مُجْتَهِدِ[1]
مَا إنْ رَأَيْتُ لَهُ شَخْصاً فَمُذْ وَقَعتْ ... عَيْنِي عَلَيْهِ افْتَرَقْنَا فُرْقَةَ الأَبَدِ

لا يدل على أنه الضرس، لا من طريق الحقيقة، ولا من طريق المجاز، ولا من طريق المفهوم، وإنما هو شيء يحدس ويحزر، والخواطر تختلف في الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه.

---

(١) في ج «لا أمن الدهر صحبته» بالنون، وهو تحريف، وما أثبتناه عن ا، ب، د.

فإن قيل: إن اللغز يعرف من طريق المفهوم، وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم.

قلت في الجواب: إن الذي يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض، كقول القائل: إني لفقير، وإني لمحتاج؛ فإن هذا القول لا يدلّ على المسألة والطلبْ، لا حقيقة ولا مجازاً، وإنما فهم منه أن صاحبه مُتَعَرِّض للطلب، وهذان البيتان ليسا كذلك؛ فإنهما لا يشتملان على ما يفهم منه شيء إلا بالحدس والحزر، لا غير، وكذلك كل لغز من الألغاز.

وإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا الباب الذي هو اللغز والأحجية والمعمَّى يتنوع أنواعاً: فمنه المصحَّف، ومنه المعكوس، ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية، كقول القائل: إسمي إذا صحفته بالفارسية آخر، وهذا اسمه اسم تركي، وهو دنكر ـ بالدال المهلمة والنون، وآخر بالفارسية ديكر ـ بالدال المهملة والياء المعجمة بثنتين من تحت ـ وإذا صفحت هذه الكلمة صارت دنكر، بالنون، فانقلبت الياء نوناً بالتصحيف، وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض.

وإنما وضع واستعمل لأنه مما يَشْحَذ القريحة، ويُحِدّ الخاطر؛ لأنه يشتمل على معانٍ دقيقة يحتاج في استخراجها إلى توقّد الذهن، والسلوك في معاريج خفية من الفكر.

وقد استعمله العرب في أشعارهم قليلاً، ثم جاء المحدثون فأكثروا منه. وربما أتي منه بما يكون حسناً وعليه مسحة من البلاغة، وذلك عندي بين بين؛ فلا أعده من الأحاجيّ، ولا أعدُّه من فصيح الكلام.

فما جاء منه قول بعضهم:

قَدْ سُقِيَتْ آبَالُهُمْ بِالنَّارِ وَالنَّارُ قَدْ تَشْفِي مِنَ الأُوَارِ

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجاهة وتقدم، ولهم وسم معلوم؛ فلما وَرَدَت إبلهم الماء عُرِفت بذلك الوَسْم؛ فأَفْرَج لها الناسُ حتى شَرِبَت؛ وقد اتفق له أنه أتى في هذا البيت بالشيء وضده، وجعل أحدهما سبباً للآخر؛

فصار غريباً عجيباً، وذاك أنه قال: سقيت بالنار، وقال: إن النار تشفي من الأوَار، وهو العطش، وهذا من محاسن ما يأتي في هذا الباب.

ومما يجري على هذا النهج قول أبي نُوَاس في شجر الكرم(١):

لَنَا هَجْمَةَ لَا يَدَّرِي الذِّئْبُ سَخْلَهَا ... وَلَا رَاعَهَا غَضُّ الْفِحَالَةِ وَالْحَظْرُ
إِذَا امْتُحِنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا ... إِلَى الْحُوِّ إِلَّا أَنَّ أَوْبَارَهَا خُضْرُ

ومن هذا القبيل قول بعضهم:

سَبْعُ رَوَاحِلَ مَا يُنِخْنَ مِنَ الْوَنَا ... شِيمٌ تُسَاقُ بِسَبْعَةٍ زُهْرِ
مُتَوَاصِلَاتٌ لَا الدُّءُوبُ يُمِلُّهَا ... بَاقٍ تَعَاقُبُهَا عَلَى الدَّهْرِ

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه، وهي الأسبوع؛ فإن الزمان عبارة عنه، وذلك من الألغاز الواقعة في موقعها.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبي الطيب المتنبي في السن من جملة قصيدته التي مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات، وهي:

* الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ(٢) *

---

(١) البيتان من ستة أبيات وردت في الديوان (ص ٢٨٤) وفيهما بعض تغيير، ونحن نثبت لك الأبيات كلها على ما في الديوان:

لَنَا هَجْمَةٌ لَا يُدْرِكُ الذِّئْبُ سَخْلَهَا ... وَلَا رَاعَهَا نَزْوُ الْفِحَالَةِ وَالْخَطْرُ
إِذَا امْتُحِنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا ... إِلَى الْجَوِّ إِلَّا أَنَّ أَوْبَارَهَا خُضْرُ
فَإِنْ قَامَ فِيهَا الْحَالِبُونَ اتَّقَتْهُمْ ... بِنَجْلَاءَ ثقب الجوف دِرَّتُهَا الْخَمْرُ
مَسَارِحُهَا الْغَزِّيُّ مِنْ نَهْرِ صَرْصَرٍ ... فَقُطْرُبُلٌ فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْعَقْرُ
تُرَاثُ أَنُوشِرْوَانَ كِسْرَى، وَلَمْ تَكُنْ ... مَوَارِيثَ مَا أَبْقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصَرْتَ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلُ ابْنِ حُرَّةٍ ... لَهَا حَسَبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ لَهُ وَفْرُ

(٢) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي *

=

فقال:

وَحَشَاهُ عَادِيَةٍ بِغَيْرِ قَوائِمٍ ... عُقْمَ الْبُطُونِ حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ[١]

تَأْتِي بِمَا سَبَتِ الْخُيُولُ كَأَنَّهَا ... تَحْتَ الْحِسَانِ مَرَابِضُ الْغِزْلَانِ[٢]

وهذا حسن في بابه.

ومن ذلك قول بعضهم في حجر المحَكّ:

وَمُدَّرِعٍ مِن صَنْعَةِ اللَّيْلِ بُرْدَهُ ... يُفَوِّقُ طَوْراً بِالنُّضَارِ وَيُطْلَسُ[٣]

إِذَا سَأَلُوهُ عَنْ عَوِيصَيْنِ أَشْكَلَا ... أَجَابَ بِمَا أَعْيَا الْوَرَى وَهْوَ أَخْرَسُ

= وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف مما يتم به معناهما قوله:

وَالمَاءُ بَيْنَ عَجَاجَتَيْنِ مُخَلِّصٌ ... تَتَفَرَّقَانِ بِهِ وَتَلْتَقِيَانِ

رَكَضَ الأَمِيرُ وَكَاللُّجَيْنِ حَبَابُهُ ... وَثَنَى الأَعِنَّةَ وَهيَ كَالْعِقْيَانِ

فَتَلَ الْحِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ ... وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ

يريد أن جيش الأمير صار فريقين في عبور النهر؛ فريق عبروا، وفريق لم يعبروا، ولكل واحد منهما عجاج، والماء بينهما؛ فالعجاجتان تفترقان وتلتقيان، وقال أبو الفتح بن جني: بل يعني عجاجة المسلمين وعجاجة الروم، والأولى ما ذكرناه أولاً؛ فإن جيش الأمير عند عبور النهر لم يكن قاتل الروم بعد. واللجين: الفضة، والعقيان الذهب، والأعنة: جمع عنان، وهو ما يكون في رأس الفرس، والأعنة للخيل بمنزلة الأرسان لغيرها. يريد أن سيف الدولة عبر هذا النهر بجيشه وماؤه أبيض كالفضة، فلما قاتل الروم جرت دماؤهم إلى النهر فعاد أحمر كالذهب. والغدائر: جمع غديرة، وهي الذؤابة من الشعر والسفين: اسم جنس جمعي، واحده سفينة، والصلبان: جمع صليب، وهو الذي تعظمه النصارى، يريد اتخذ حبال سفنه من شعر القتلى وبناها من صلبانهم، أراد أنه غنم منهم وأسر الشيء الكثير.

(١) العقيم: الذي لا يلد، والحوالك: جمع حالكة، وهي السوداء. يريد أنه حشا الماء سفناً عادية بغير قوائم، وبطونها عقم؛ لأنها لا تلد، وهي سود الألوان؛ لأنها مقبرة.

(٢) الحسان: جمع حسناء، والمرابض: جمع مربض، وهو مأوى الغنم والوحش. يريد أن السفن تحمل الجواري التي سبتها الفوارس؛ فشبههن بالغزلان والسفن لها مرابض.

(٣) كذا في ا، ب، ج؛ وفي د «يفوف طهوراً».

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه، وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا، فأجاب عنه ببيتين على وزنه وقافيته، وهما:

سُؤَالُـكَ جُلْمُـودٌ مِنَ الصَّخْـرِ أَسْـوَدٌ   خَفِيفٌ لَـطِيفٌ نَـاعِمُ الْجِسْمِ أَطْـلَسُ
أُقِيمَ بِسُـوقِ الصَّرْفِ حُكْمـاً كَـأَنَّـهُ   مِنَ الـزَّنْجِ قَـاضٍ بِـالْخَلُوقِ مُـطَلَّسُ

وقد رأيت هذا الشاعر، وهو حائك بجزيرة ابن عمر، وليس عنده من أسباب الأدب شيء سوى أنه قد أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير، وهو مع ذلك يقول الشعر طبعاً، وكان يجيد في الكثير منه.

ومن الألغاز ما يرد على حكم المسائل الفقهية، كالذي أورده الحريري في مقاماته، وكنت سئلت عن مسألة منه، وهي:

وَلِـي خَـالَـةٌ وَأَنَـا خَـالُـهَـا   وَلِـي عَـمَّـةٌ وَأَنَـا عَـمُّـهَـا
فَـأَمَّـا الَّـتِـي أَنَـا عَـمٌّ لَـهَـا   فَـإِنَّ أَبِـي أُمُّـهُ أُمُّـهَـا
أَبُـوهَـا أَخِـي وَأَخُـوهَـا أَبِـي   وَلِـي خَـالَـةٌ هٰـكَـذَا حُكْـمُـهَـا
فَـأَيْـنَ الْـفَـقِـيـهُ الَّـذِي عِـنْـدَهُ   فُـنُـونُ الـدِّرَايَـةِ أَوْ عِـلْـمُـهَـا
يُـبَـيِّـنْ لَـنَـا نَـسَـبـاً خَـالِـصـاً   وَيَـكْـشِـفُ لِلنَّفْسِ مَـا هَـمُّـهَـا
فَـلَـسْـنَـا مَـجُـوسـاً وَلَا مُـشْـرِكِـينَ   شَـرِيـعَـةُ أَحْـمَـدَ نَـأْتَـمُّـهَـا

وهذه المسألة كتبت إليَّ فتأملتها تأمل غير ملجلج في الفكر، ولم ألبث أن أنكشف لي ما تحتها من اللغز، وهو أن الخالة التي الرجل خالُهَا تصور على هذه الصورة، وذاك أن رَجُلاً تزوج امرأتين: اسم إحداهما عائشة، واسم الأخرى فاطمة، فأولد عائشة بنتاً، وأولد فاطمة ابناً، ثم زوج بنته من أبي امرأته فاطمة، فجاءت ببنت، فتلك البنت هي خالة ابنه، وهو خالها؛ لأنه أخو أمها. وأما العمة التي هو عَمُّها فصورتها أن رجلاً له ولد، ولولده أخ من أمه، فزوج أخاه من أمه أمَّ أبيه، فجاء بنت، فتلك البنت هي عمته؛ لأنها أخت أبيه، وهو عمها؛ لأنه أخو أبيها، وأما قوله «ولي خالة هكذا حكمها» فهو أن تكون أمها أخته، وأختها أمه، كما قال «أبوها أخي

وأخوها أبي» وصورتها أن رجلاً له ولد، ولولده أخت من أمه، فزوجها من أبي أمه، فجاءت ببنت؛ فأختها أمه، وأمها أخته.

وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى قول بعضهم في الْخَلْخَال:

وَمَضْرُوب بِلاَ جُرْمِ مَلِيحِ اللَّوْنِ مَعْشُوقِ
لَهُ قَدُّ الْهِلاَلِ عَلَى مَلِيحِ الْقَدِّ مَمْشُوقِ
وَأَكْثَرُ مَا يُرَى أَبَداً عَلَى الأمْشَاطِ في السُّوقِ

وبلغني أن بعض الناس سمع هذه الأبيات؛ فقال: قد دخلت السوق فما رأيت على الأمشاط شيئاً، وظن أنها الأمشاط التي يُرَجَّلُ بها الشعر، وأن السوق سوق البيع والشراء.

واعلم أنه قد يأتي من هذا النوع ما هو ضروب وألوان؛ فمنه الحسن الذي أوردت شيئاً منه كما تراه، ومنه المتوسط الذي هو دونه في الدرجة، فلا يوصف بحسن ولا قبح؛ كقول بعضهم(١):

رَاحَتْ رَكَائِبُهُمْ وَفِي أَكْوَارِهَا أَلْفَانِ مِنْ عُمٍّ الأُثَيْلِ الْوَاعِدِ
مَا إنْ رَأَيْتُ وَلا بِارَكِب هكذا حَمَلَتْ حَدَائِقَ كَالظَّلاَمِ الرَّاكِدِ

وهذا يصف قوماً وفدوا على ملك من الملوك فأعطاهم نخلاً، وكتب لهم بها كتاباً، والأثيل: الموضع الذي كتب لهم إليه، والعم: العظام الرءوس من النخيل، والواعد: الأقناء من النخل، فلما حملوا الكتب في أكوارهم فكأنهم حملوا النخل، وهذا من متوسط الألغاز.

وقد جاء من ذلك ما هو بشع بارد؛ فلا يستخرج إلا بمسائل الجبر والمقابلة، أو بخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج والبياض والحمرة وغيرها،

(١) بحثت طويلاً عن هذين البيتين فلم يتيسر لي العثور عليهما في مرجع آخر، وقد أثبت ما في أصول هذا الكتاب مع أن صدر البيت الثاني قلق نافر يدل على حدوث تحريف كثير فيه.

ولئن كان معناه دقيقاً يدلّ على فرط الذكاء فإني لا أعده من اللغة العربية، فضلاً عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة، ولا فرق بينه وبين لغة الفرس والروم وغيرهما من اللغات في عدم الفهم.

وأما ما ورد من الألغاز نثراً فقد ألغز الحريري في مقاماته ألغازاً ضمنها ذكر الإبرة والمِرْوَد[1] وذكر الدينار، وهي أشهر كما يقال من قِفَا نَبْك؛ فلا حاجة إلى إيرادها في كتابي هذا.

وقد ورد من الألغاز شيء في كلام العرب المنثور غير أنه قليل بالنسبة إلى ما ورد في أشعارها، وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيئاً منها، ولا ينبغي أن يتضمن منها شيئاً؛ لأنه لا يستنبط بالْحَدْس والحزر كما تستنبط الألغاز.

وأما ما ورد للعرب فيروى عن امرىء القيس وزوجته عدة من الألغاز، وذاك أنه سألها قبل أن يتزوجها؛ فقال: ما اثنان وأربعة وثمانية؟ فقالت: أما الإثنان فَثَدْيَا المرأة، وأما الأربعة فأخْلاَفُ النَّاقة، وأما الثمانية فأَطْبَاءُ الْكَلْبَة؛ ثم إنه تزوجها وأرسل إليها هدية على يدِ عَبْدٍ له، وهي حُلَّة من عَصْب اليمن ونِحْيٌ من عَسَلٍ وَنِحْيٌ من سَمْن، فنزل العبدُ ببعض المياه، ولبس الحلة فَعَلِقَ طرفُها بسَمُرَة فانْشَقَّ، وفتح النِّحْيَين وأطعم أهلَ الماء، ثم قدم على المرأة وأهلها خُلُوفٌ، فسأل عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها الهدية، فقالت له: أَعْلِمْ مولاك أن أبي ذهب يُقَرِّبُ بعيداً ويبعد قريباً، وأن أمِّي ذهبت تَشُقُّ النفسَ نَفْسَين، وأن أخي يَرْقُبُ الشمس، وأَخْبِرْهُ أن سماءكم انشقَّتْ، وأن وعاءيكم نضبا؛ فعاد العبد إلى امرىء القيس وأخبره بما قالته له، فقال: أما أبوها فإنه ذهب يُحَالف قوماً على قومه، وأما أُمُّهَا فإنها ذهبت تُقْبِل امرأة، وأما أخوها فإنه في سَرْحٍ يرعاه إلى أن تغرب الشمس، وأما قولها: «إن

(١) للحريري كثير من الألغاز في عدة مقامات؛ فانظر المقامة الثانية والثلاثين وهي تتضمن أن أبا زيد قام بمائة مسألة فقهية ملغزة، وانظر المقامة السادسة والثلاثين، وانظر المقامة الثانية والأربعين، وانظر المقامة الرابعة والأربعين؛ وممن ألغز في الإبرة أبو العلاء، فقال:

سَعَتْ ذَاتُ سُمٍّ فِي قَمِيصِي فَغَادَرَت ... بِهِ أَثَراً وَاللهُ يَشْفِي مِنَ السُّمِّ
كَسَتْ قَيْصَراً ثَوْبَ الْجَمَالِ وَتُبَّعاً ... وَكِسْرَى، وَعَادَتْ وَهِيَ عَارِيَةُ الْجِسْمِ

سماءكم انشقت» فإن الْحُلّة انشقت، وأما قولها: «إن وعاءيكم نضبا» فإن النِّحْيَيْن نقصا، ثم قال للعبد: أصدقني، فقال له: إني نزلت بماء من مياه العرب، وفعلت كذا وكذا.

فهذا وأمثاله قد وَرَدَ عنهم إلا أنه يسير.

وكذلك يروى عن شن بن أقصى، وكان ألزم نفسه ألَّا يتزوَّج إلا امرأة تلائمه، فصاحبه رجل في بعض أسفاره، فلما أخذ منهما السير قال له شن: أتَحْمِلُني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جَاهِلُ؛ هل يحمل الراكب راكباً؟ فأمسك عنه، وسارا حتى أتيا على زَرْع، فقال شن: أترى هذا الزرع قد أُكِلَ؟ فقال له: يا جاهل؛ أما تراه في سُنْبُله، فأمسك عنه، ثم سارا، فاستقبلتهما جنازة، فقال شن: أترى صاحبها حَيّاً؟ فقال له الرجل: ما رأيت أجهل منك! أتراهم حملوا إلى القبر حيّاً؟ ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل، فسار به إلى بيته، وكانت له بنت، فأخذ يطرفها بحديث رفيقه، فقالت: ما نطق إلا بالصواب، ولا استفهم إلا عما يُسْتَفْهم عن مثله، أما قوله: «أتحملني أم أحملك» فإنه أراد أتُحَدِّثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث، وأما قوله: «أترى هذا الزرع قد أكل» فإنه أراد هل استسلف ربه ثمنه أم لا، وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فإنه أراد هَلْ خَلّف له عَقِباً يَحْيَا بذكره أم لا، فلما سمع كلام ابنته خرج إلى شن وحَدَّثه بتأويلها، فخطبها، فزوّجه إياها.

وأدق من هذا كله وألطف ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب شيرز، وهو أولهم الذي استنقذه من أيدي الروم بالمكر والخديعة، ولذلك قصة ظريفة، وليس هذا موضع ذكرها، وكان قبل ملكه إياها في خدمة محمود بن صالح صاحب حلب، وكان إذ ذاك يلقب بسديد الملك، فنبا به مكانه، وحدثت له حادثة أوجبت له أن هرب ومضى إلى مدينة ترابلس في زمن بني عمار أصحاب البلد، فأرسل إليه ابن صالح واستعطفه ليعود إليه، فخافه ولم يعد، فأحضر ابن صالح رجلاً من أهل حلب صديقاً لابن منقذ وبينه وبينه لُحْمَةُ مَودَّة أكيدة، وأجلسه بين يديه، وأمره أن يكتب إليه كتاباً عن نفسه يوثّقه من جهة ابن صالح ليعود، فما وسعه إلا أن يكتب وهو يعلم أن باطن الأمر في ذلك خلاف ظاهره، وأنه متى عاد ابن منقذ إلى حلب

هلك، فأفكر وهو يكتب في إشارة عمياء لا تُفْهَم؛ ليضعها فيه يحذر بها ابن منقذ، فأدَّاهُ فكره أن كتب في آخر الكتاب عند إنهائه «إن شاء الله تعالى»، وشدد إن وكسرها، ثم سلم الكتاب إلى ابن صالح، فوقف عليه، وأرسله إلى ابن منقذ، فلما صار في يده وعلم ما فيه قال: هذا كتاب صديقي، وما يَغُشُّني، ولولا أنه يعلم صفاء قلب ابن صالح لي لما كتب إليَّ ولا غرّني، ثم عزم على العود، وكان عنده ولده، فأخذ الكتاب وكرّر نظره فيه، ثم قال له: يا أبت، مَكَانَكَ، فإن صديقك قد حَذَّرك، وقال: لا تعد، فقال: وكيف؟ قال: إنه قد كتب إن شاء الله تعالى في آخر الكتاب، وشَدَّد إن وكسرها، وضبطها ضبطاً صحيحاً لا يصدر مثله عن سهو، ومعنى ذلك أنه يقول: إنَّ المَلاَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ، وإن شككت في ذلك فأرسل إلى حلب.

وهذا من أعجب ما بلغني من حِدَّة الذهن وفطانة الخاطر، ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة لما تفطَّن إلى مثل ذلك أبداً؛ لأنه ضرب من علم الغيب، وإنما الخوف دَلَّه على استنباط ما استنبطه.

ووجد لبعض الأدباء لغز في حَمَّام؛ فمنه ما أجاد فيه؛ كقوله: وقد أظَلَّتْهَا سماء ذات نُجوم، لا اسْتِرَاقَ لها ولا رجوم، وهي مركبة في فلك صحت استدارته، وسكنت إدارته:

أعْجِبْ بِهَا مِنْ أَنْجُمٍ عِنْدَ الصَّبَاحِ ظَاهِرَهْ
لَكِنَّهَا إذَا بَدَا نَجْمُ الظَّلَامِ غَائِرَهْ

فهي على القياس جنة نعيم، مبنية على لظى جحيم، لا خلود فيها ولا مُقَام، ولا تَزَاوُرَ بين أهلها ولا سلام، أنهارها متدفقة، ومياهها مُتَرَقْرِقَة، والأكوابُ بها موضوعة، والنمارق عنها منزوعة:

يُطِيعُ بِهَا المَوْلَى أوَامِرَ عَبْدِهِ وَيُصْبِحُ طَوْعاً فِي يَدَيْهِ مَقَاتِلُهْ
وَيُرْفَعُ عَنْهُ التَّاجُ عِنْدَ دُخُولِهِ وَتُسْلَبُ مِنْ قَبْلِ الْجُلُوسِ غَلاَئِلُهْ

هذا اللغز من فصيح الألغاز، ولا يقال: إن صاحبه في العمى صانع العكاز، وإذا تطرز غيره بلمعة من الوشي فهذا كله طراز.

ومما سمعته من الألغاز الحسان التي تجري في المحاورات ما يحكى عن عمر بن هبيرة وشريك النميري، وذاك أن عمر بن هبيرة كان سائراً على بِرْذَوْنٍ له، وإلى جانبه شريك النميري على بغلة، فتقدمه شريك في المسير، فصاح به عمر: اغْضُضْ من لجامها، فقال: أصلح الله الأمير، إنها مكتوبة[١]، فتبسم عمر ثم قال له: ويحك! لم أرد هذا، فقال له شريك: ولا أنا أردته.

وكان عمر أراد قول جرير[٢]:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

فأجابه شريك بقول الآخر[٣]:

لاَ تَأْمَنَنَّ فَزَارِيّاً نَزَلْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ[٤]

وهذا من الألغاز اللطيفة، وتَفَطُّن كل من هذين الرجلين لمثله ألطف وأحسن.

ومما يجري هذا المجرى أن رجلاً من تميم قال لشريك النميري: ما في الجوارح أحب إليّ من البازي؟ فقال له شريك: إذا كان يَصِيدُ القطا.

---

(١) في ا، ب، ج «مكبونة» بتقديم الباء الموحدة، وهو خطأ وصوابه «مكتوبة» بتقديم التاء المثناة، وتقول: كتب الدابة والبغلة والناقة ـ من باب نصر وضرب ـ إذا خزم حياءها بحلقة حديد أو صفر تضم شفريها لئلا ينزى عليها. وهذه القصة في خزانة الأدب (٤ ـ ١٦٨ بولاق).

(٢) هذا البيت من قصيدة له يهجو فيها الراعي النميري، وأولها قوله:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا ... وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

(٣) هذا البيت لسالم بن دارة من كلمة له يهجو فيها رافعاً الفزاري، وكان ابن دارة هجاء، وقد قتله رافع الفزاري بسبب ذلك (انظر الشعراء لابن قتيبة ٢٣٦ أوربة).

(٤) في ا، ب، ج «واكبتها بأسيار» بتقديم الباء الموحدة، وهو تحريف وانظر اللسان (ك ت ب) والشعراء لابن قتيبة (ص ٢٣٧ أوربة).

وكان التميمي أراد قول جرير(١):

أَنَا الْبَازِي الْمُطِلُّ عَلَى نُمَيْرٍ أُتِيحَ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصِبَابَا

وأراد شريك قول الطِّرِمَّاح(٢):

تمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ المَكَارِمِ ضَلَّتِ

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الأشخاص، ومن ههنا قيل: سبحان خالق أبي موسى وعمرو بن العاص.

---

(١) هذا البيت من قصيدته التي يهجو فيها الراعي النميري، والتي منها البيت السابق في القصة التي قبل هذه.

(٢) هو الطرماح بن حكيم أحد بني طيىء، والبيت من كلمة له يهجو فيها تميماً، وقبله قوله:

وَلَوْ خَرَجَ ٱلدَّجَّالُ يَنْشُدُ دِينَهُ لَوَافَتْ تَمِيمٌ حَوْلَهُ وَٱحْزَأَلَّتِ
فِرَاشَ ضَلالٍ بِالْعِرَاقِ وَجَفْوَةٍ إذَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَهَلَّتِ
فَخَرْتَ بِيَوْمِ الْعَقْرِ شَرْقِيَّ بَابِلٍ وَقَدْ جَبُنَتْ فِيهِ تَمِيمٌ وَفُلَّتِ
فَخَرْتَ بِيَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَكَ فَخْرُهُ وَقَدْ نَهِلَتْ مِنْكَ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ
كَفَخْرِ الإِمَاءِ الرَّائِحَاتِ عَشِيَّةً بِرَقْمِ حُدُوجِ الْحَيِّ لَمَّا ٱسْتَقَلَّتِ

وبعد ذلك البيت الذي رواه المؤلف، وبعد قوله:

وَلَوْ أَنَّ بُرْغُوثاً عَلَى ظَهْرِ قَمْلَةٍ يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ جَمَعَتْ يَوْماً تَمِيمٌ جُمُوعَهَا عَلَى ذَرَّةٍ مَعْقُولَةٍ لاسْتَقَلَّتِ
وَلَوْ أَنَّ أَمَّ الْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا مَظَلَّتَهَا يَوْمَ النَّدَى لا كَنَّتِ

النوع الثاني والعشرون

في المبادي والافتتاحات

هذا النوع هو أحد الأركان الخمسة البلاغية المشار إليها في الفصل التاسع من مقدمة الكتاب.

وحقيقة هذا النوع: أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام: إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني.

وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع.

والقاعدة التي يبني عليها أَسَاسُه أنه يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر؛ فإن كانت مديحاً صرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغَزَل أو لا يفتتحها بغزل، بل يرتجل المديح ارتجالاً من أولها، كقول القائل:

إنْ حَارَتِ الْأَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ ... فِي ذَا المَقَامِ فَعُذْرُهَا مَقْبُولُ
سَامِحْ بِفَضْلِكَ مَادِحِيكَ فَمَا لَهُمْ ... أَبَداً إلَى مَا تَسْتَحِقُّ سَبِيلُ
إنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إلَّا مُحْسِنٌ ... فَالْمُحْسِنُونَ إذاً لَدَيْكَ قَلِيلُ

فإن هذا الشاعر ارتجل المديح من أول القصيدة فأتى به كما ترى حسناً لائقاً.

وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث؛ كفتح مُقْفَل أو هزيمة جيش أو غير ذلك؛ فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه.

فإن قيل: إنك قلتَ: يجب على الشاعر كذا وكذا، فلم ذلك؟

قلت في الجواب: إن الغزل رقة محضة، والألفاظ التي تنظم في الحوادث المشار إليها من فَحْلِ الكلام ومتين القول، وهي ضدُّ الغزل، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث، والابتداء بالخوض في ذكرها، لا الابتداء بالغزل؛ إذ المهم واجبُ التقديم.

ومن أدب هذا النوع ألَّا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه، وهذا يرجع إلى أدب النفس، لا إلى أدب الدرس؛ فينبغي أن يحترز منه في مواضعه، كوصف الديار بالدُّثُور والمنازل بالْعَفَاء، وغير ذلك من تشتت الآلاف وذم الزمان، لا سيما إذا كان في التهاني؛ فإنه يكون أشد قبحاً، وإنما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلام في المديح مفتتحاً بشيء من ذلك تَطَيَّر منه سامعه.

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام؛ فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده تَوَفَّرت الدواعي على استماعه، ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، وكذلك الابتداءات بالنداء، كقوله تعالى في مفتتح سورة النساء: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ وكقوله تعالى في أول سورة الحج: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه، وكذلك الابتداءات بالحروف، كقوله تعالى: ﴿**ألم**﴾ و﴿**طس**﴾ و﴿**حم**﴾ وغير ذلك؛ فإن هذا أيضاً مما يبعث على الاستماع إليه؛ لأنه يَقْرَعُ السمع شيء غريب ليس له بمثله عادة؛ فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه.

ومن قبيح الابتداءات قول ذي الرمة:

* مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ[(١)] *

---

(١) هذا صدر المطلع وعجزه قوله:

* كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ * =

لأن مقابَلَةَ الممدوح بهذا الخطاب لا خَفاء بقبحه وكراهته.

ولما أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التي أولها:

* خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أوْ بَكَرُوا[1] *

قال له عند ذلك: لا، بل منك، وتطير من قوله؛ فغيرها ذو الرمة؛ وقال:

* خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاحُوا الْيَوْمَ أوْ بَكَرُوا *

ومَنْ شاء أن يذكر الديار والأطلال في شعره فليتأدب بأدب الْقَطَامى على جَفَاء طبعه، وبُعْدِه عن فطانة الأدب؛ فإنه قال:

* إنَّا مُحَيُّوكَ فَاْسْلَمْ أيُّهَا الطَّلَلُ[2] *

فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة،

وقد قيل: إن امرأ القيس كان يجيد الابتداء، كقوله:

* ألَا انْعَمْ صَباحاً أيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالي[3] *

وكقوله:

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ[4] *

= قال العباسي في معاهد التنصيص: «وكانت عين عبد الملك تدمع دائماً، فتوهم أنه خاطبه، وعرض به، فقال له: وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة؟ ومقته، وأمر بإخراجه» اهـ.

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* وَأزْعَجَتْهُمْ نَوًى فِي صَرْفِهَا غِيَرُ *

(٢) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* وَإنْ بَلِيتَ وَإنْ طَالَتْ بِكَ الطِّيَلُ *

(٣) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ في الْعُصُرِ الْخَالِي *

ويروى «ألا عم»، و «وهل يعمن».

(٤) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ *

ومما يكره من الابتداءات قول أبي تمام:

* تَجَرَّعْ أَسًى قَدْ أَقْفَرَ الْجَرَعُ الْفَرْدُ[١] *

وإنما ألقى أبا تمام في مثل هذا المكروه تَتَبُّعه للتجنيس بين تجرع والجرع، وهذا دأب الرجل؛ فإنه كثيراً ما يقع في مثل ذلك.

وكذلك استقبح قول البحتري:

* فؤادٌ مَلاَهُ الحُزْنُ حَتَّى تَصَدَّعا[٢] *

فإن ابتداء المديح بمثل هذا طِيَرَةٌ ينبو عنها السمع، وهو أجدر بأن يكون ابتداء مَرْثِية لا مديح، وما أعلم كيف يخفى على مثل البحتري وهو من مفلقي الشعراء.

وحكي أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه، وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم؛ فما رأى الناسُ أحْسَنَ من ذلك اليوم؛ فاستأذن إسحٰق بن إبراهيم المَوْصِلي في الإنشاد، فأذن له، فأنشد شعراً حسناً أجاد فيه، إلا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها، فقال:

يَا دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى وَمَحَاكِ يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلَاكِ

فتطير المعتصم بذلك، وتغامَزَ الناس على إسحٰقَ بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك، ثم أقاموا يَوْمَهم وانصرفوا، فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سُرَّ مَنْ رأى، وخرب القصر.

فإذا أراد الشاعر أن يذكر داراً في مديحه فليذكر كما ذكر أشجَعُ السُّلَمِيُّ حيث قال:

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة، وعجزه قوله:

* وَدَعْ حِسْيَ عَيْنٍ يَحْتَلِبْ مَاءَهُ الْوَجْدُ *

(٢) لم أجد هذا في شعر البحتري، وإنما وجدت له بيتاً قريباً من معنى ذلك وهو قوله رابع بيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب:

عَلَى أَنَّ قَلْبِي قَدْ تَصَدَّعَ شَمْلُهُ فُنُوناً لِشَمْلِ الْبِيضِ حِينَ تَصَدَّعَا

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامُ   خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الأيَّامُ

وما أجدر هذا البيت بمفتتح شعر إسْحٰقَ بنْ إبراهيم الذي أنشده للمعتصم؛ فإنه لو ذكر هذا أو ما جرى مجراه لكان حسناً لائقاً.

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: مَنْ أجاد الابتداء والمَطْلَع؛ ألا ترى إلى قصيدة أبي نواس التي أولها:

يَا دَارُ، مَا فَعَلَتْ بِكِ الأَيَّامُ   لَمْ تُبْقِ فِيكِ بَشَاشَةً تُسْتَامُ

فإنها من أشرف شعره وأعلاه منزلة، وهي مع ذلك مستكرهة الابتداء؛ لأنها في مدح الخليفة الأمين، وافتتاح المديح بذكر الديار ودُثُورها مما يُتَطَيَّر منه، لا سيما في مشافهة الخلفاء والملوك.

ولهذا يختار في ذكر الأماكن والمنازل ما رَقَّ لفظه، وحسن النطق به، كالعُذَيْب والْغُوَير وَرَامَة وَبَارِق والْعقيق، وأشباه ذلك.

ويختار أيضاً أسماء النساء في الغزل نحو سُعَاد وأمَيْم وفَوْز، وما جرى هذا المجرى.

وقد عيب على الأخطل في تغزّله بقذور، وهو اسم امرأة؛ فإنه مستقبح في الذكر، وقد عيب على غيره التغزل باسم تُمَاضِر، فإنه وإن لم يكن مستقبحاً في معناه فإنه ثقيل على اللسان، كما قال البحتري:

إنَّ لِلْبَيْنِ مِنَّةً لَا تُؤَدَّى   وَيَداً فِي تُمَاضِرٍ بَيْضَاءَ

فتغزله بهذا الاسم مما يشوّه رِقَّةَ الغزل، ويثقل من خفته، وأمثال هذه الأشياء يجب مراعاتها والتحرز منها.

وقد استثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمن وقعة من الوقائع؛ فإن ذكره لا يكره، وإن كان في اسمه كراهة، كما ذكر أبو تمام في شعره مواضع مكروهة الأسماء لضرورة ذكر الوقائع التي كانت بها، كذكر الحشال وعقوقس وأمثالهما، وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبي هنزيط وشميصاط وما جرى مجراهما، وهذا لا عيب

في ذكره؛ لمكان الضرورة التي تدعو إليه، وهكذا يسامح الشاعر والكاتب أيضاً في ذكر ما لا بد من ذكره وإن قبح. ومهما أمكنه من التورية في هذا المقام فليسلكها، وما لا يمكنه فإنه معذور فيه.

واعلم أنه ليس من شرط الابتداء ألَّا يكون مما يتطير منه فقط؛ فإن من الابتداءات ما يستقبح وإن لم يتطير منه، كقول أبي تمام:

* قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الْغُلَوَاءِ[1]

وكقوله[2]:

* تَقِي جَمَاتِي لَسْتُ طَوْعَ مُؤَنِّبِي[3] *

وكقول أبي الطيب المتنبي:

* أَقَلُّ فَعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ[4] *

وكقوله:

* كُفِّي أَرَانِي وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا[5] *

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت، وعجزه قوله:

* كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِي *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها عياش بن لهيعة الحضرمي، وعجزه قوله:

* وَلَيْسَ حَبِيبِي إِنْ عَذَلْتِ بِمُصْحِبِي *

(٣) تقي: فعل أمر مسند إلى ياء المؤنثة المخاطبة، وهو مقتطع من اتقى، ومثله قول الشاعر:

زِيَادَتَنَا نَعْمَانُ لاَ تَقْرَبَنَّهَا تَقِ اللهَ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي، وعجزه قوله:

* وَذَا الْجِدُّ فِيهِ - نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ - جَدُّ *

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له في مديح إنسان غير معين، وهو مما قاله في صباه، وعجزه قوله:

* هَمٌّ اقام على فؤادٍ أنجما *

والعجب أن هذين الشاعرين المفلقين يبتدئان بمثل ذلك، ولهما من الابتداءات الحسنة ما أذكره.

أما أبو تمام فإنه افتتح قصيدته التي مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورية فقال:

السَّيْف أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشَّكِّ والرِّيَب

وهذه الأبيات لها قصة، وذاك أنه لما حضر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل النِّجَامة أنها لا تفتح في ذلك الوقت، وأفاضوا في هذا، حتى شاع، وصار أحدوثة بين الناس، فلما فُتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى، وجعل السيف أصدق من الكتب التي خَبَّرَتْ بامتناع البلد واعتصامها؛ ولذلك قال فيها:

وَالْعِلْمُ فِي شُهُبِ الأرْمَاحِ لَامِعَةً بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أيْنَ الرِّوَايَةُ أمْ أيْنَ النُّجُومُ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصاً وَأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبِ

وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب.

وكذلك قوله في أول قصيدة يمدحه بها أيضاً، ويذكر فيها خروج بابك الخرمي عليه، وظفره به، وهي من أمهات شعره، فقال:

الْحَقُّ أبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنَ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وكذلك قوله متغزلاً:

عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا وَأَنْ تُعْتِبَ الْأَيَّامُ فِيهِمْ فَرُبَّمَا

وهذا من الأغزال الحلوة الرائقة، وهو من محاسن أبي تمام المعروفة.

وكذلك قوله في أول مرثية:

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإنْ كَانَ أسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَغْنَى الجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وأما أبو الطيب فإنه أكثر من الابتداءات الحسنة في شعره؛ كقوله في قصيدة يمدح بها كافوراً؛ وكان قد جرت بينه وبين ابن سيده نزغة، فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود، فقال:

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا ٱشْتَهَتْهُ الأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ

وهذا من بديع الابتداء ونادره.

وكذلك ورد قوله في سيف الدولة، وكان ابن الشُّمُشْقِيق[1] حَلَف لَيَلْقَيَنَّهُ كِفَاحاً، فلما التقيا لم يطق ذلك، وولى هارباً، فافتتح أبو الطيب قصيدته بِفَحْوَى الأمر، فقال:

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ
وَفِي الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ مَا دَلَّ أَنَّكَ فِي الْمِيعَادِ مُتَّهَمُ

وكذلك قوله وقد فارق سيف الدولة وسار إلى مصر، فجمع بين ذكر فراقه إياه ولقائه كافوراً في أول بيت من القصيدة، فقال:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتَ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتَ خَيْرُ مُيَمَّمِ

ومن البديع النادر في هذا الباب قوله متغزلاً في مطلع قصيدته القافية، وهي:

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي المَآقِي

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة إلى ذكرها.

---

(١) قال العكبري: «وهذا إشارة إلى تكذيب البطريق الذي حلف لملك الروم أنه لا بد أنه يلقى سيف الدولة في بطارقته، ويجتهد في لقائه بالبطارقة؛ ففعل، فخيب الله ظنه، وأتعس جده، فذكر ذلك أبو الطيب يرد عليه ويهجوه، ويريد لو كنت ممن إذا قال وفى لم يحتج إلى اليمين» اهـ، وبعد البيتين قوله:

آلَى الْفَتَى آبْنُ شُمُشْقِيقٍ، فَأَحْنَثَهُ فَتًى مِنَ الضَّرْبِ تُنْسَى عِنْدَهُ الْكَلِمُ
وَفَاعِلٌ مَا ٱشْتَهَى يُغْنِيهِ عَنْ حَلِفٍ عَلَى الْفِعَالِ حُضُورُ الْفِعْلِ وَالْكَرَمُ

ومن محاسن الابتداءات التي دلت على المعنى من أول بيت في القصيدة ما قرأته في كتاب الروضة لأبي العباس المبرد، فإنه ذكر غَزْوَةً غزاها الرشيد هرون رحمه الله في بلاد الروم، وأن نقْفُورَ مَلِكَ الروم خضع له، وبذل الجزية، فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نَقَضَ نقفورُ العهدَ، فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد؛ لمكان هيبته في صدور الناس، وبذل يحيى بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعاراً في إعلامه، فكلّهم أشْفَقَ من لقائه بمثل ذلك، إلا شاعراً من أهل جدة يكنى أبا محمد، وكان شاعراً مُفْلِقاً، فنظم قصيداً وأنشدها الرشيد، أولها:

نَقَضَ الَّذِي أعْطَيْتَهُ نقْفُورُ ... فَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ
أبْشِرْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ ... فَتْحٌ أَتَاكَ بِهِ الْإِلٰهُ كَبِيرُ
نقْفُورُ؛ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ - أنْ نَأَى ... عَنْكَ الْإِمَامُ - لَجَاهِلٌ مَغْرُورُ
أَظَنَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مُفْلِتٌ ... هَبِلَتْكَ أمُّكَ! مَا ظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد: أو قد فعل؟ ثم غزاه في بقية الثلج وفتح مدينة هِرَقْلَة.

وقرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصبهاني ما رواه من شعر سَدِيف في تحريض الخليفة السَّفَّاح رحمه الله علي بني أمية، فقال: قدم سَدِيفٌ من مكة إلى الحيرة، والسفاحُ بها، ووافق قدومه جلوس السفاح للناس، وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسي تَكْرِمَةً لهم؛ فلما دخل عليه سديف حَسَرَ لثامه، وأنشده أبياتاً من الشعر؛ فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك، وقال لآخر إلى جانبه: قَتَلَنَا والله العبدُ، فلما أنهى الأبيات أمر بهم السفاح فأُخرجوا من بين يديه وقُتلوا عن آخرهم، وكتب إلى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وَجَدُوه منهم، ومن الأبيات:

أصْبَحَ آلدِّينُ ثَابِتاً في الأَسَاسِ ... بِٱلْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ(١)

---

(١) الذي في شعر سديف، وهو مروى في كثير من كتب التاريخ والأدب:

أصْبَحَ المُلْكُ ثَابِتَ الآسَاسِ ... بِالْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ

أَنْتَ مَهْدِيُّ هَاشِمٍ وَهُدَاهَا كَمْ أُنَاسٍ رَجَوْكَ بَعْدَ إِيَاسِ
لاَ تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَاراً وَٱقْطَعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ وَغِرَاسِ
أَنْزِلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا ٱللَّـهُ بِدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِتْعَاسِ
خَوْفُهُمْ أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ فِيهِمْ وَبِهِمْ مِنْكُمُ كَحَزِّ الْمَوَاسِي
أَقْصِهِمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ وَٱحْسِمْ عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَأْفَةَ الْأَرْجَاسِ
وَٱذْكُرَنْ مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ وَقَتِيلاً بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ (١)
وَلَقَدْ سَاءَنِي وَسَاءَ سِوَائِي قُرْبُهُمْ مِنْ مَنَابِرٍ وَكَرَاسِي

وهذه الأبيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحاً وابتداء وتحريضاً وتأليباً، ولو وصفتها من الأوصاف بما شاء الله وشاء الإسهاب والإطناب لما بلغتُ مقدار ما لها من الحسن.

ومن لطيف الابتداءات ما ذكره مِهْيار(٢)، وهو:

---

(١) وقع في ا، ب، ج «بجانب الهرماس» وهو تحريف، وصوابه «بجانب المهراس». والمهراس ـ بكسر الميم وسكون الهاء ـ ماء بجبل أحد. والقتيل الذي بجانب المهراس: هو حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ، وكان مقتله في غزاة أحد، قتله عبد اسمه وحشيّ بتحريض هند أمّ معاوية بن أبي سفيان، انظر ياقوت في «مهراس» أما الهرماس ـ بكسر الهاء وسكون الراء فنهر نصيبين، وموضع في المعرة.

(٢) انظر الديوان (٣ ـ ١٩٤ دار الكتب) وبعد البيتين اللذين رواهما المؤلف قوله:

وَقَالَ فَلَمْ تَقْبَلْ وَلٰكِنْ تَلَوَّمَتْ عَلَى أَنَّهُ مَا قَالَ إِلَّا لِتَقْبَلَا
وَطَارَحَهَا أَنِّي سَلَوْتُ، فَهَلْ رَأَى لَهُ ٱلذَّمُّ مِثْلِي عَنْ هَوَى مِثْلِهَا سَلَا

وفي الديوان قبل ذكر القصيدة: «واتفق أن بعض الحسدة والسعاة وشى به في أمر محال اتصل بحضرة الملك شاهنشاه جلال الدولة ركن الدين أبي طاهر بن بويه، فاقتضى أن استدعي إلى داره، واعتقل ليلة على كشف الصورة اعتقالاً مميزاً جميلاً، ثم انكشفت له البراءة مما حكاه الساعي به، وقنع الملك بقوله ووثق بصحته، وبالغ في الإنعام بتمييزه وأفرج عنه إفراجاً طيباً مجملاً، وكان في عرض ذلك استبطأ منه خدمة مجلسه بالشعر، واستنكر ما يستعمله مع خدمة أوليائه من المدح، وما يخل به من فروض خدمته، فقال يشكر نعمته ويذكر القصة، ويعرض بالساعي، ويمدحه، وأنشدها بحضرته يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة» اهـ.

أمَــا وَهَــوَاهَــا عِــذْرَةً وَتَــنَــصُّــلا لَقَــدْ نَقَـلَ الْــوَاشِي إلَيْهَــا فَــأَمْحَــلا
سَعَى جُهْــدَهُ، لٰكِـنْ تَـجَــاوَزَ حَــدَّهُ وَكَـثَّــرَ فَــارْتَــابَـتْ، وَلَــوْ شَــاءَ قَـلَّلا

فإنه أبرز الاعتذار في هيئة الغزل، وأخرجه في مَعْرِض النسيب، وكان وشي بـه إلى الممدوح، فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن.

ومما جاء على نحو من ذلك قول بعض المتأخرين من العراقيين:

وَرَاءَكِ أَقْــوَالُ الْــوُشَــاةِ الْــفَــوَاجِــرِ وَدُونَــكِ أَحْــوَالُ الْغَــرَامِ الْمُخَــامِــرِ
وَلَــوْلَا وَلُــوعٌ مِنْـكِ بِـالصَّــدِّ مَـا سَعَــوْا وَلَــوْلَا الْهَــوَى لَمْ أَنْـتَـدِبْ لِلْمَعَــاذِرِ

فسلك في هذا القول مسلك مهيار، إلا أنه زاد عليه زيادة حسنة، وهي المعاتبة على الإصغاء إلى أقوال الوشاة والاستماع منهم، وذلك من أغرب ما قيل في هذا المعنى.

ومن الْحَذَاقة في هذا الباب أن تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبةً لمعاني تلك الكتب، وإنما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها لأن التحاميد لا تصدر في غيرها؛ فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد، كفتح مُقْفَل أو هزيمة جيش، أو ما جرى هذا المجرى.

ووجدت أبا إسحق الصابي ـ على تقدمه في فن الكتابة ـ قد أخلّ بهذا الركن الذي هو من أوكد أركان الكتابة، فإذا أتى بتحميدة في كتاب من هذه الكتب لا تكون مناسبةً لمعنى ذلك الكتاب، وإنما تكون في وادٍ والكتاب في واد، إلا ما قل من كتبه.

فما خالف فيه مطلع معناه[١] أنه كتب كتاباً يتضمن فتح بغداد وهزيمة الأتراك[٢] عنها، وكان ذلك فتحاً عظيماً؛ فابتدأ بالتحميد، فقال: الحمدُ لله رب

(١) كذا في ا، ب، ج؛ والأحسن «فما خالف فيه المطلع معناه».
(٢) هذه الرسالة موجودة في رسائل الصابي (ص ١٠) بدون هذه التحميدة التي نقدها المؤلف، وأول الرسالة كما في الرسائل: «أما بعد فإن لله قضايا نافذة وأقداراً ماضية فيهنّ النعم السوابغ والنقم الدوامغ».

العالمين، الملكِ الحقِّ المبين، الوحيد الفريد، العلي المجيد، الذي لا يوصف إلا بسلب الصفات، ولا ينعت إلا برفع النعوت، الأزلي بلا ابتداء، الأبدي بلا انتهاء، القديم لا منذ أمد محدود، الدائم لا إلى أجل معدود، الفاعل لا من مادة استمدَّها، ولا بآلة استعملها، الذي لا تُدْرِكه الأعين بِلِحَاظها، ولا تحدُّه الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها، ولا تضارعه الأجسام بأقطارها، ولا تجانسه الصور بأعراضها، ولا تجاريه أقدام النظر أو الأشكال، ولا تزاحمه مناكب القرناء والأمثال، بل هو الصَّمَد الذي لا كفء له، والفَذُّ الذي لا تَوْأم معه، والحي الذي لا تخرمه المنون، والقيوم الذي لا تشغله الشئون، والقدير الذي لا تَئُودُه المعضلات، والخبير الذي لا تُعْيِيه المُشْكِلات.

وهذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذي افتتح بها، ولكنها تصلح أن توضع في صدر مُصَنَّف من مصنفات أصول الدين، ككتاب الشامل للجويني، أو كتاب الاقتصاد، أو ما جرى مجراهما، وأما أن توضع في صدر كتاب فتحٍ فلا.

وهو وإن أساء في هذا الموضع فقد أحسن في مواضع أخر، وذاك أنه كتب كتاباً عن الخليفة الطائع رحمه الله تعالى إلى الأطراف عند عَوْدِه إلى كرسي ملكه، وزوال ما نزل به وبأبيه المطيع رحمه الله من فادحة الأتراك؛ فقال[١]: الحمد لله ناظم الشمل بعد شَتَاته، وواصل الحبل بعد بَتَاته، وجابر الْوَهْن إذا ثلم[٢]، وكاشف الخطب إذا أظلم، والقاضي للمسلمين بما يَضُمُّ نشرهم، ويَشُدُّ أَزْرَهُم، ويصلح ذاتَ بَيْنِهِمْ[٣]، ويحفظ الألفة عليهم، وإن شابت ذلك في الأحيان شَوَائب من الحدثان فلن يتجاوز[٤] بهم الحد الذي يُوقِظُ غافلَهم، ويُنَبِّهُ ذاهِلَهم، ثم إنهم عائدون إلى فضل[٥] ما أولاهم الله وعَوَّدهم، ووثَّق لهم ووَعَدَهم، من إيمان

(١) انظر رسائل الصابي (ص ١٦٠ بيروت).

(٢) في الرسائل «إذا انثلم».

(٣) سقطت هذه الجملة من الرسائل.

(٤) في ا، ب، ج «تتجاوز» والذي أثبتناه عن الرسائل.

(٥) في الرسائل «إلى أفضل ما أولاهم».

سِرْبِهِمْ(٦)، وإعْذَاب شِرْبهم، وإعزاز جانبهم، وإذلال مُجَانبهم، وإظهار دينهم على الدين كله ولو كره المشركون.

وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب، وإن كانت المعاني فيها مكررة كالذي أنكرته عليه وعلى غيره من الكُتَّاب، وقدمت القول فيه في باب السجع؛ فليؤخذ من هناك.

ومن المبادي التي قد أخْلَقَتْ وصارت مُزْدَرَاة أن يقال في أوائل التقليدات: إن أحق الخِدَم بأن ترعى خدْمةُ كذا وكذا، وإن أحق من قُلِّد الأعمال مَن اجتمع فيه كذا وكذا؛ فإن هذا ليس من المبادي المستحسنة، ومَن استعمله أوَّلاً فقد ضعفت فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادىء، والذي تبعه في ذلك إما مُقَلِّد ليس عنده قوة على أن يختار لنفسه، وإما جاهل لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والرديء، وأهلُ زماننا هذا من الكتاب قد قَصَرُوا مباديَ تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها، وإن أتوا بتحميدة من التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذي وضعت في صدره، وكذلك قد كان الكتاب يستعملون في التقليدات مَبدَأً واحداً لا يتجاوزونه إلى غيره، وهو «هذا ما عهد فلان إلى فلان» والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب الفتوح وما جرى مجراهما، وقد أنكرتُ ذلك على مستعمله في مفتتح تقليد أنشأته بولاية وال فقلت: كانت التقليدات تُفْتَتَح بكلام ليس بذي شأن، ولا يوضع في ميزان، ولا يجتنى من أفنان، وغاية ما يقال هذا ما عهد فلان إلى فلان، وتلك فاتحة لم تكن جديدة فتخلق بتطاول الأيام، ولا حسنة النظم فَيُضاهى بمثلها من ذوات النِّظَام، وهذا التقليد مفتتح بحمد الله الذي تكفَّل لحامده بالزيادة، وبدأ النعمة ثم قَرَنها من فضله بالإعادة، وهو الذي بلغ بنا [مِنْ] مآرِب الدنيا مُنْتَهَى الإرادة، وسَلَّم إلينا مَقَاده فذلل لنا بها كل مَقَادة، ووسَّد الأمر منا إلى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وسادة، ونرجو أن يَجْمَعَ لنا بين سعادة الأولى والأخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة، ثم نُصَلِّي على نبيه محمدٍ الذي مَيَّزه الله

---

(١) في الرسائل «من ائتمان» والذي هنا أحسن، وهذا إشارة إلى الحديث «من أصبح آمناً في سربه» والسرب: النفس.

على الأنبياء بشرف السيادة، وجعل انشقاق القمر له من آيات النبوة وانشقاق الإيوان من آيات الولادة، وعلى آله وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا في الإشادة، وبُسِطت عليهم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يَحُولُوا عن خُلق الزَّهادة، أما بعد كذا وكذا، ثم أنهيت التقليد إلى آخره.

ومن الْحَذَاقة في هذا الباب أن يجعل الدعاء في أول الكتاب من السلطانيات والإخوانيات وغيرهما مضمَّناً من المعنى ما بُنِيَ عليه ذلك الكتاب، وهذا شيء انفردت بابتداعه، وتراه كثيراً فيما أنشأته من المكاتبات؛ فإني توخَّيْتُه فيها وقصدته.

فمن ذلك ما كتبته في الهناء بفتح، وهو: هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامي الفلاني جَدّد الله له في كل يوم فتحاً، وبدل عرش كل ذي سلطان لديه صَرْحَاً، وجعل كلَّ موقف من مواقف جوده وبأسه يومَ فِطْرٍ ويومَ أضْحَى، وكتب له على لسان الإسلام ولسان الأيام ثَنَاء خالداً وَمَدْحاً، وأسكنه بعد العمر الطويل داراً لا يظمأ فيها ولا يَضْحَى، ثم أخذتُ بعد ذلك في إنشاء الكتاب المتضمن ما يقتضيه معاني ذلك الفتح.

ومن ذلك ما ذكرته في الهناء بمولود، وهو: جَدَّدَ الله مَسَرَّاتِ المجلس السامي الفلاني ووصل صَبُوحَ هنائه بغَبُوقه، وأمتعه بسليله المبشّر بطروقه، وأبقاه حتى يستضيء بنوره ويرمي عن فُوقِهِ، وسَرَّ به أبكار المعاني حتى تخلق أعطافها بخلُوقه، وجعله كزَرْع أخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ، ثم أخذتُ في إتمام الكتاب بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى.

فتأمل ما أوردته ههنا من هذين المثالين، وانْسُجْ على منوالهما فيما تقصده من المعاني التي تبني عليها كتبك؛ فإن ذلك من دقائق هذه الصناعة.

وأما فواتح الكتب التي أنشأتها فمنها مااخترعته اختراعاً ولم أسبق إليه، وهي عدة كثيرة، وقد أوردت ههنا بعضها.

فمن ذلك مفتتح كتاب إلى ديوان الخلافة، وهو: نشأت سحابة من سَمَاء الديوان العزيز النبوي جعل الله الخلود لدولته أوطاناً، والحدود لها أركاناً، ونصب

أيامها في أيام الدهر أحياناً، وصَوَّرها في وجهه عيناً وفي عينه إنساناً، ومَدَّ ظِلَّها على الناس عدلاً وإحساناً، وجمع الأمم على دين طاعتها وإن تفرَّقوا أدْيَاناً، وأتاها من معجزات سلطانه ما لم ينزل به لغيرها سلطاناً، فارتاح الخادمُ لالتقائها، وبسط يده لاستسقائها، وقال: رحمة مرسلة لا تخشى رعودها، وَلا تُخْلَف وعودها، ومن شأنها تَرْوِيضُ الصنائع التي تبقي آثارها، لا الحمائل التي تَذْوِي أزهارها، وقد يعبر عن الكتاب ونائله، بالسحاب ووابله؛ فإن صَدَر عن يَدٍ كَيَدِ الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع الصواب، وصدق حينئذ قول القائل: إن البحر عُنْصُر السحاب، لكن فَرْقٌ بين ما يجود بمائه، وما يجود بنعمائه، وبين ما يَسِم الأرض الماحلَةَ، وبين مَا يُسْمِي الأقدار الخاملة، وما زالت كتبُ الديوان العزيز تُضْرَبُ لها الأمثال، وتُصْرَفُ نحوها الآمال، وَيُرَى الحسد فيها حسداً وإن عُدَّ في غيرها من سيىء الأعمال. وهذا فصل من أول الكتاب.

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وأرسلته إليه من المَوْصِل إلى أرض الشمال من بلاد الروم، وهو: طلَعَ كوكبٌ من أفق المجلس السامي لا خَلَتْ سيادته من عدو وحاسد، ولا شينت بِتَوْأم يخرجها عن حكم الواحد، ولا عَدِمَتْ صحبة الجُدُود المتيقِّظة في الزمن الراقد، ولا أوحشت الدينا من ذره الخالد الذي هو عمر خالد، ولا زال مرفوعاً إلى المحل الذي يعلم به أن الدهر للناس ناقد، والكواكب تختلف مطالعها في الشمال والجنوب؛ فمنها ما يطلع دائماً في أحدهما وهو في الآخر دائم الغروب، وكتابُ المجلسِ كوكبٌ لم يُرَ بهذه الأرض مطلعه، وإن عُلم من السماء أين موضعه، ولما ظهر الآن للخادم سَبَّحَ له حامداً، وخرّ له ساجداً، وقال: قد عُبِدَتِ الكواكبُ من قبلي فلا عَجَبَ أن أكون لهذا الكوكب عابداً، وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مُغْرَى، وقال الناس: هذا ابنُ كَبْشَةِ الْكِتَابِ[1] لا آبْنُ أبي كَبْشَةِ الشِّعْرَى.

وهذا مطلع غريب، والسياقة التالية لمطلعه أغرب، ومن أغرب ما فيها قولي «وها أنا قد أصْبَحْتُ بالعكوف على عبادته مغرى، وقال الناس هذا ابن كبشة

(١) كذا في جميع الأصول، والصواب «هذا ابن أبي كبشة الكتاب».

الكتاب لا ابن أبي كبشة الشعري» والمراد بذلك أن ابن كبشة(١) كان رجلاً في الجاهلية يَعْبُدُ الشِّعْرَى فخالف بذلك دينَ قومه، ولما بعث النبي ﷺ قالت قريش: هذا قد خالف ديننا، وسموه «ابن أبي كبشة» أي أنه قد خالفنا كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعرى، فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابي هذا فجاء كما تراه مبتدعاً غريباً.

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان بالشام، وهو: طَلَعَتْ من الغرب شمسٌ فقيل: قد آذنت أشارط الساعة بالاقتراب، ولم يعلم أن تلك الأنوار إنما هي أنوار الكتاب، لم تألف الأبصار من قبله أن تطلع الشمس من المغرب، وليس ذلك إلا كتاب المجلس لا سَلَبَهُ الله مزية هذا الوصف الكريم، وأتاه من الفضل ما يقال معه وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم، وأحيا النفوس من كَلْمِهَا بروح كِلِمِهِ كما شفي غليلها من أقلامه بسقيا الكليم، ولما ورد عن الخادم صار ليله نهاراً، وأصبح الناس في الحديث به أطواراً، والمنصف منهم يقول: قد جرت الشمس إلى مُسْتَقَرِّهَا والشمس لا تجد قراراً.

وهذا الكتاب في الحسن والغرابة كالذي قبله.

ومن جملة الكتب المشار إليها مُفْتَتَحَ كتاب كتبته إلى بعض الإخوان، وهو: تأوَّبَ زَوْرٌ من جانب المجلس السامي أدنى الله داره، وجعل كلماتِهِ التامةَ جَارَه، وأشهد أفعال التقوى ليله وأفعال المكارم نهاره، ووهبه من أعوام العمر طواله ومن أعوام العيش قصاره، ولا أقدر السابقين إلى المعالي أن يُجْرُوا معه ولا أن يَشُقوا غُبَارَه، وليس ذلك الزَّوْرُ إلا سطوراً في قرطاس، ولا فرق بين الكتاب وبين مُرْسِلِهِ في مُلَاطفة الإيناس، والله لا يصغر ممشى هذا الزائر، ويُقر عيني برؤيته حتى لا أزال به قرير الناظر، ومع هذا فإني عاتب لتأخره وههنا مظنة العتاب، ومَنْ تأخر عنه كتابُ صديقِهِ فلا بدَّ أن يخطر له خاطر الارتياب، والضَّنِين بالمودَّة(٢) لا يرى إلا ظَنيناً، وقد قيل إنها وديعة وقليلاً ما تجد على الودائع أميناً.

(١) كذا، والصواب «أن أبا كبشة» على ما يأتي.

(٢) في ا، ب، ج «والظنين بالمودة».

وهذا فصل من أول الكتاب.

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان، وهو: سَنَحَتْ رَوْضَةٌ من جانب المجلس السامي جعل الله المعاليَ له رِدَاء، ونهاياتِ المساعي له ابتداء، وفَدَاه بمن يقصر عن درجته حتى تكون الأكارم له فداء، وهَدَى المحامدَ لأفعاله وأهدى البقاءَ لأيامه حتى يجتمع له الأمران هُدًى وإهداء، وأتاه من السيادة ما يجعل أعداءه أصادقَ ومن السعادة ما يجعل أصدقاءه أعداء، فاستنشق الخادم رُبَاها، وتلقى بالتحية مُحيًّاها، واستمتع بأزهارها التي أنبتها سقيا الأقلام لا سقي الغمام، وقال: هذا ربيع الأرواح لا ربيع الأجسام، ولو رام الإحاطة بوصفها لكانت الأقوال المطولة فيها مختصرة، ولكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يتمثل أن الجنة في شجرة، ومن أوصافها أنها جاءت رائدة ومن شأن الروض أن يُرْتَاد، وحلت محاسنها التي هي في غيرها من حظ البصر وفيها من حظ السمع والبصر والفؤاد، ولما سَرَّحَ فيها نظره وجد شوقه حمامة تغرد في أكنافها، وتُرَدِّد الشَّجَى لبعد أليفها إذا رددته الحمائم لقرب أُلَّافها، وهذا قول له عند إخوان الصفاء علامة، وإذا تمثل كتاب الحبيب روضة فهل يتمثل شوق مُحِبِّه إلا حمامة، وأيُّ فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الأطواق؟ لولا أنها تملي شجوها على صفحات القلوب وتلك تمليه على عَذَبَات الأوراق.

وهذا فصل من الكتاب، وهو غريب عجيب، وفيه معنيان مبتدعان، وأعجبهما وأغربهما قولي: «حتى يتمثل أن الجنة في شجرة» وهذا مستخرج من الحديث النبوي.

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان، وهو: تَضَوَّعَتْ نَفْحَةٌ من تلقاء المجلس السامي رعى الله عهده وسقاه، وصان وُدَّه ووفاه، ويسر لي إلقاء العصا بمُلْقَاه، فعطرت الطريق التي سايرتها، والريح التي جاورتها، وأتت فأفرشتها خدي، وضممت عليها ودي، وجعلتها درعاً لجيبي ولطيمة لردني وسخاباً لعقدي، وعلمت أنها ليست بنفحة طيب، ولكنها كتاب حبيب، فإن مَنَاشِقَ الأرواح غير مناشق الأجسام، ولا يستوي عَرْفُ الطِّيب وعَرْفُ الأقلام، ثم مددت

يدي إلى الكتاب بعد أن صافحت يد موصله، كما صافحت عَبْقَة مَنْدَلِه، وقلت: أهلاً بمن أدْنَى من الحبيب مزاراً، وأهدى لعيني قُرَّةً ولقلبي قَرَاراً.

وهذا في الغرابة كأخواته التي تقدمت.

ولم أستقص ما اخترعته من هذا الباب في مطالع الكتب.

وأما ما أتيت فيه بالحسن من المعاني ولكنه غير مخترع؛ فمن ذلك مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الملك الأفضل علي بن يوسف يتضمن تعزيةً وتهنئة: أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر، وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده، وهو: لا يَعْلَمُ القلمُ أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنية، لكنه جمعهما جميعاً فأتى بهما على حكم التثنية، وفي مثل هذا الخطب يظل القلم حائراً، وقد وَقَفَ موقفَ السخط والرضا فسخط أولاً ثم رضي آخراً، وهذا البيت الناصريّ يَتَدَاوَلُ درجاتِ الْعُلَى فما تمضي إلا وإليه ترجع، وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب إلا وآخر يطلع، والناس إن فُجِعوا بماجدٍ رَدَفَه من بعده ماجد، وإن قيل إن الماضي كان واحداً قيل بل الآتي هو الواحد.

وهذا فصل من أول الكتاب، ثم كتبت في هذا المعنى كتابين آخرين، وفي الذي أوردته من هذا الفصل مقنع.

ومن هذا الأسلوب ما كتبته إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه، وكانت الكتب قد انقطعت بيني وبينه زماناً، وهو: لقاءُ كُتُبِ الأحباب كلقاء الأحباب، وقد تأتي بعد يأسٍ منها فيشتبه لها دمع السرور بدمع الاكتئاب، ومن أحسنها كتاب المجلس السامي الفلاني جعل الله الليالي له صحباً والمعاني له عقباً، ورفع مجده فوق كل ماجد حتى تكون حسناتهم لدى حسناته ذنباً، ولا زال اسمه في الأفواه عَذْبَاً وذكره في الألسنة رَطْباً، ووده لكل إنسان إنساناً ولكل قلب قلباً.

ثم انتهيت إلى آخر الكتاب على هذا النَّسَق. وإنما ذكرت ههنا مبتدأه لأنه الغرض المقصود في هذا الموضع.

ومن ذلك ما كتبته إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه، وهو: البشرى تُعْطى

للكتاب كما تعطى لمرسله، وكل منهما يُوَفَّى حق قدره وينزل في منزله، وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامي الفلاني لا زال محله أنيساً، وذكره للفرقدين جليساً، وسعيه على المكارم حبيساً، ومجده جديد الملابس إذا كان المجد لَبِيساً.

وههنا ذكرت من هذا الكتاب[1] كما ذكرته من الذي قبله فإني لم أذكر إلا مبدأه الذي هو الغرض.

ومما ينتظم في هذا السلك ما كتبته في صدر كتاب يتضمن تعزية، وهو: لو لم يلبس قلمي ثوب الحداد لهجر مداده، ونضي عنه سواده، وبعد عن قرينته، وعاد إلى طينته، وحرم على نفسه أن يمتطي يداً، أو يجري إلى مَدَى، لكنه أَحَدَّ فندب، وبكى فسكب، وسطر هذا الكتاب من دموعه، وضمنه ما حملته أحناء ضلوعه، وإنما استعار ذلك من صاحبه الذي أعداه، وأبدى إليه من حزنه ما أبداه، وهو نائب عنه في تعزية سيدنا أَحْسَنَ الله صبره، ويسر أمره، وأرضى عنه دهره.. ثم أنهيت الكتاب إلى آخره.

ومن محاسن هذا الباب أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم، أو بخبر من الأخبار النبوية، أو ببيت من الشعر، ثم يبني الكتاب عليه.

فمن ذلك ما كتبته في ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح، وهو:

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مَفَاتِيحُهُ الْبِيضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ[2]

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم، وجعلنا السيف وسيلة إلى استنتاج الْمُلْك الْعَقِيم، وراية المجد لا تنصب إلا على النَّصَب، والراحة الكبرى لا تنال إلا على جسر من التعب[3]، وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة، وهي المملكة التي

---

(١) في ا، ب، ج «وههنا ذكرت في هذا الكتاب ـ الخ».

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي الطيب المتنبي يمدح فيها سيف الدولة، وأولها قوله:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

(٣) يشير بهذا إلى قول أبي تمام:

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

تمسي الآمال دونها صَرْعَى، وإذا قِيسَ إليها غيرها من الممالك كانت أصلاً وكان غيرها فرعاً. وهذا فصل من أول الكتاب.

ومن ذلك ما كتبته في مفتتح تقليد بالْحِسْبَة، وهو: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم، ولا يختصُّ به إلا ذوو الأوامر المطاعة وذوو العلوم، وقد جمع الله لنا هٰذين الوصفين كِلَيْهِمَا، وجعلنا من المستحلفين عْليهما، فلْنَبْدَأ أولاً بحمده الذي هو سبب للمزيد، ثم لنأخذ في القيام بأمره الذي هو على كل نفس منه رقيب عتيد، ولا رَيْبَ أن إصلاح العباد يسري إلى الأرض حتى تزكو بطونها وتنام عيونها، ويشترك في بركات السماء ساكنها ومسكونها، والأمر بذلك حمل إن لم تَتَوَزَّعْه الأكفُّ ثقل على الرقاب، وإذا انتشرت أطراف البلاد فإنها تفتقر إلى مساعدة من مستنيب ومستناب، وقد اخترنا لمدينة فلانة رجلاً لم نَأْلُ في اختياره جهداً، وقَدَّمْنَا فيه خِيَرَةَ الله التي إذا صَدَقَتْ نيتها صادفت رشداً، وهو أنت أيها الشيخ فلان، فَابْسُطْ يدك بقوة إلى أخذ هذا الكتاب، وكن كحسنة من حسناتنا التي يرجح بها ميزان الثواب، وحَقِّقْ نظرنا فيك فإنه من نور الله الذي ليس دونه حجاب. فتأمل كيف فعلت في هذه الآية التي بنيت التقليد عليها، وهو من محاسن المبادي والافتتاحات.

وكذلك فعلت في موضع آخر، وهو مفتتح كتاب كتبته إلى شخص كلفته السفارة إلى مخدومه في حاجة عرضت، وهو: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا القول تتبع آثاره، وتحمل عليه أنظاره، وأولى الناس بسيدنا من شاركه في لحمَةِ أَدبِهِ، وإن لم يشاركه في لُحْمَةِ نسبه؛ فإن المناقب أقارب والمآثر أواصر:

وَلَيْسَ يَعْرِفُ لِي فَضْلِي وَلَا أَدَبِي إِلَّا امْرُؤٌ كَانَ ذَا فَضْلٍ وَذَا أَدَبِ

ونتيجة هذه المقدمة بعث خلقه الكريم على عوارف أفضاله، واستهداء صنيعةِ جاهِهِ

التي هي أكرم من صنيعة ماله[١]، ولا تجارة أربح من هـذه التجارة، والسـاعي فيها شريك في الكسب بريء من الخسارة.

وأما الأخبار النبـوية فيسلك بهـا هذا المسلك: بـأن يـذكـر الخبـر في صـدر الكتاب، ثم يبني عليه.

ولنذكر منها ولو مثالاً واحداً، وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان توفي والده ونقل ما كان باسمه إليه، فقلت: قـال النبي ﷺ «أَنَا أَوْلَى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْكَلاً أَوْ ضِيَاعاً فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ» وهـذا خلق من الأخلاق النبوية لا مزيد على حسنه، وأساليب المكارم بأسرها موضوعة في ضمنه، ونحن نرجـو أن نمشي على أثره فنتنـزل منزلـة رديفه، أو أن نتشبـه به فنبلغ مبلغ مُدِّه أو نَصِيفه، وقد أرانا الله ذلك في قوم صحبونا فأسعفناهم بمَبَاغِي الإنعام، وأحمدناهم صحبة الليالي والأيام، وتكفَّلْنا أيتـامهم من بعدهم حتى وَدُّوا أن يكـونوا هم الأيتـام، وهذا فـلان ابن فلان رحمـه الله ممن كان لـه في خدمـة الـدولـة قـدمُ صِدْق، وأولية سَبْق، وحفظ كتاب المحافظة عليها فقيل له في تلاوته اقْرَأْ وَارْقَ؛ ثم أنهيت التوقيع إلى آخره،

فتأمل مُفْتَتَح هذا التوقيع فـإنه تضمن نَصَّ الخبـر من غير تغييـر، وقد ضمنتـه بعض خبـر آخر من الأخبـار النبويـة، وهو قـوله «اقـرأ وارق» قال النبي ﷺ : «يقـال لصاحب القرآن اقْرَأ وَارْقَ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْـزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».

وقد مثلت لك ههنا أمثالاً يقتـدى بـها، فاحْذُ حَذْوَها، وامض على نهجهـا. والله الموفق للصواب.

---

(١) أخذ هذا من قول أبي تمام:

وَإِذَا امْـرُؤٌ أَهْـدَى إِلَـيْـكَ صَـنِـيـعَـةً   مِـنْ جَـاهِـهِ فَـكَـأَنَّـهَـا مِـنْ مَالِـهِ

وهو بيت من قصيدة له يمدح فيها كاتب أبي دلف إسحاق بن أبي ربعي، وأولها قوله:

إِنَّ الأَمِـيـرَ بَـلاَكَ فِـي أَحْـوَالِـهِ   فَـرَآكَ أَهْـزَعَـهُ غَـدَاةَ نِـضَـالِـهِ

بلاك: اختبرك وجرّبك. والأهزع: السهم الذي خبأ للمنازلة الشديدة.

النوع الثالث والعشرون

في التخلص والاقتضاب

وهذا النوع أيضاً كالذي قبله في أنه أحد الأركان الخمسة التي تقدمت الإشارة إليها في الفصل التاسع من مقدمة الكتاب.

وينبغي لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جُلَّ همتك؛ فإنه مهمٌّ عظيم من مهمات البلاغة.

أما التخلص ـ وهو أن يأخذ مؤلِّفُ الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سبباً إليه ـ فيكون بعضه آخذاً برقابِ بعض؛ من غير أن يقطع كلامه، ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفْرِغَ إفراغاً، وذلك مما يدلّ على حذق الشاعر، وقوة تصرفه؛ من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه، ويكون متبعاً للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته، وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء؛ فلذلك يَشُقُّ التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر.

وأما الاقتضاب فإنه ضدُّ التخلص، وذاك: أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك، ولا يكون للثاني علاقة بالأول.

وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين، وأما المحدَثُون فإنهم تصرفوا في التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة.

فمن ذلك قول أبي تمام(١):

(١) هما بيتان مفردان يمدح فيهما عبد الله بن طاهر وكان قد خرج إليه.

يَقُولُ فِي قَوْمِسٍ صَحْبِي وَقَدْ أَخَذَتْ ... مِنَّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ الْقُودِ[١]
أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا ... فَقُلْتُ: كَلَّا! وَلٰكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ[٢]

وهذان البيتان من بديع ما يأتي في هذا الباب ونادره

وكذلك قوله[٣] أيضاً في وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الأوصاف؛ فقال:

خُلُقٌ أَطَلَّ مِنَ الرَّبِيعِ كَأَنَّهُ ... خُلُقُ الْإِمَامِ وَهَدْيُهُ الْمُتَنَشِّرُ[٤]
فِي الْأَرْضِ مِنْ عَدْلِ الْإِمَامِ وَجُودِهِ ... وَمِنَ النَّبَاتِ الْغَضِّ سُرْجٌ تُزْهِرُ[٥]
تُنْسِي الرِّيَاضَ وَمَا يُرَوِّضُ؛ جُودُهُ ... أَبَداً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُذْكَرُ[٦]

---

(١) قومس: صقع كبير بين خراسان والجبل، السرى: السير ليلاً، والمهرية: الإبل الكريمة، منسوب إلى مهرة، وقد قيل: مهرة أبو قبيلة تنسب إليها هذه الإبل، وقيل: مكان. والقود: جمع قوداء، وهي الطويلة العنق، ومعنى «أخذت منا» نالت من أجسامنا وأتعبتنا.

(٢) تبغي: تريد، وتؤم: تقصد، والجود: الكرم.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم، وأولها قوله:

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ ... وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

ومن هذه القصيدة في وصف الرياض قوله: (انظر الجزء الأول من هذا الكتاب).

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَى فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ
دُنْيَا مَعَاشٌ لِلْوَرَى حَتَّى إِذَا ... جُلِّيَ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرُ
أَضْحَتْ تَصُوغُ بُطُونُهَا لِظُهُورِهَا ... نَوْراً تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تُنَوِّرُ

(٤) في ا، ب، ج «وهدية المتيسر» والموجود في جميع نسخ الديوان «المتنشر» أي المنتشر الذائع في الناس، ولما في أصول الكتاب وجه وجيه.

(٥) سرج: جمع سراج؛ وأصله سرج بضمتين مثل كتاب وكتب فأسكن الراء تخفيفاً ولأنه احتاج إلى إقامة الوزن، وتزهر: تضيء.

(٦) في ا، ب، ج «على مر الزمان ويذكر» وما أثبتناه عن نسخ الديوان، وهو الصواب؛ فإن «جوده» مبتدأ، خبره قوله «يذكر» فلا معنى للواو ههنا.

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها.

وكذلك قوله في قصيدته الفائية التي أولها:

* أَمَّــا الــرُّسُــومُ فَـقَـدْ أذْكَـرْنَ مَــا سَلَفَــا[1] *

فقال فيها:

غَيْـدَاءُ جَـادَ وَلِيُّ الْـحُسْنِ سُنَّتَهَـا فَصَـاغَـهَـا بِـيَـدَيْـهِ رَوْضَـةً أُنُـفَـا
يُضْحِي الْعَـذُولُ عَلَى تَـأنِيبِـهِ كَلِفـاً بِعُـذْرِ مَنْ كَـانَ مَشْغُـوفـاً بِهَـا كَلِفَـا
وَدِّعْ فُـؤَادَكَ تَـوْدِيـعَ الْفِـرَاقِ فَـمَـا أرَاهُ مِنْ سَفَـرِ التَّـوْدِيـعِ مُنْصَـرِفَـا
تُجَـاهِـدُ الشَّـوْقَ طَـوْراً ثُمَّ تَجْـذِبُـهُ جِـهَـادُهُ لِلْقَـوَافِي فِي أبِـي دُلَـفَـا

وهذا أحسن من الذي قبله، وأدخل في باب الصنعة.

وكذلك جاء قوله[2]:

زَعَمَتْ هَـوَاكَ عَفَـا الْغَـدَاةَ كَمَـا عَفَتْ مِـنْـهَـا طُـلُولٌ بِـالِّـلوَى وَرُسُـومُ
لاَ وَالَّـذِي هُـوَ عَـالِـمٌ أنَّ الـنَّـوَى أجَـلٌ وَأنَّ أبَـا الْـحُسَيْـنِ كَـرِيـمُ[3]
مَـا حُلْتُ عَنْ سَنَنِ الْـوِدَادِ وَلاَ غَـدَتْ نَـفْسِي عَلَى إلْـفٍ سِـوَاكِ تَـحُـومُ[4]

وهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه.

ومن البديع في هذا الباب قول أبي نواس من جملة قصيدته المشهورة التي أولها:

(١) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وعجزه قوله:

* فَـلاَ تَـكُـفَّـنَّ عَـنْ شَـأنَـيْـكَ أوْ يَـكِـفَـا *

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة، وأولها قوله:

أسْـقَـى طُـلُولَـهُـمُ أجَشُّ هَـزِيـمُ وَغَـدَتْ عَـلَيْـهِـمْ نُـضْـرَةٌ وَنَـعِـيـمُ

(٣) في الديوان ومعاهد التنصيص «أن النوى صبر».

(٤) في الديوان «ما زلت عن سنن الوداد».

* أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ[1] *

فقال عند الخروج إلى ذكر الممدوح:

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنْ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَآسْتَعْجَلَتْهَا بَوَادِرٌ جَرَتْ فَجَرَى فِي جَرْيِهِنَّ عَبِيرُ:
ذَرِينِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهَا الْخَصِيبُ أَمِيرُ

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته الدالية التي أولها:

* عَوَاذِلُ ذَاتِ الخَالِ فِيَّ حَوَاسِدُ[2] *

وأُورِدُ نَفْسِي وَالْمُهَنَّدُ فِي يَدِي مَوَارِدَ لَا يُصْدِرْنَ مَنْ لَا يُجَالِدُ
وَلٰكِنْ إِذَا لَمْ يَحْمِلِ الْقَلْبُ كفه عَلَى حَالَةٍ لَمْ يَحْمِلِ الْكَفَّ سَاعِدُ
خَلِيلَيَّ إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَكَمْ مِنْهُمُ آلدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ
فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلٰكِنَّ سَيْفَ آلدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض؛ ألا ترى إلى الخروج إلى مدح الممدوح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحد؛ ثم إن أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة في بيت واحد، وهو من بدائعه المشهورة.

(١) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها الخصيب وكان والي مصر من قبل الرشيد، وعجزه قوله:

* وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكِ عَسِيرُ *

انظر الديوان (ص ٩٨)، ويروى «تقول التي من بينها خف محملي».

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وعجزه قوله:

* وَإِنَّ ضَجِيعَ الخَوْدِ مِنِّي لَمَاجِدُ *

وكـذلك قـوله أيضاً، وهـو من أحسن مـا أتى بـه من التخلصـات؛ وهـو في قصيدته التي أولها:

* سِـرْبٌ مَحَـاسِنُـهُ حُـرِمْتُ ذَوَاتِهَـا[1] *

فقال في أثنائها:

وَمَـطَالِبٍ فِيـهَـا الْـهَـلاكُ أَتَيْـتُـهَـا ... ثَبْتَ الْجَنَـانِ كَـأَنَّنِي لَـمْ آتِـهَـا
وَمَـقَـانِبٍ بِـمَـقَـانِبٍ غَـادَرْتُـهَـا ... أَقْـوَاتَ وَحْشٍ كُـنَّ مِـنْ أَقْـوَاتِـهَـا
أَقْبَلْتُهَـا غُـرَرَ الْجِيَـادِ كَـأَنَّمَـا ... أَيْـدِي بَنِي عِمْـرَانٍ في جَبَهَـاتِـهَـا
الـثَّـابِتِـينَ فُـرُوسَـةً كَـجُلُودِهَـا ... فِي ظَهْـرِهَـا وَالـطَّعْنِ فِي لَبَّـاتِهَـا
فَكَـأَنَّهَـا نُتِجَـتْ قِيَـامـاً تَـحْتَـهُـمْ ... وَكَـأَنَّـهُـمْ وُلِـدُوا عَـلَى صَـهَـوَاتِـهَـا
تِلْكَ النُّفُـوسُ الْغَـالِبَـاتُ عَلَى الْعُـلاَ ... وَالـمَجْـدُ يَـغْلِبُـهَـا عَلَى شَـهَـوَاتِهَـا
سُقِيَتْ مَنَـابِتُهَـا الَّتِي سَقَتِ الْـوَرَى ... بِـيَـدَيْ أَبِي أَيُّـوبَ خَـيْـرِ نَـبَـاتِـهَـا

فـانظر إلى هـذين التخلصين البديعين؛ فـالأول خرج بـه إلى مدح قـوم الممـدوح، والثاني خرج به إلى نفس الممدوح، وكلاهما قد أغرب فيه كل الإغراب.

وعلى هذا جاء قوله[2]:

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْـرُكْ مَصَـالاً لِفَـاتِـكٍ ... وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْـرُكْ مَقَـالاً لِعَـالِـمِ[3]

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران، وعجزه قوله:

* دَانِـي الـصِّـفَـاتِ بَـعِـيـدُ مَـوْصُـوفَـاتِـهَـا *

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان أبـو محمد قد كثرت مراسلاته إلى أبي الطيب من الرملة، فسار إليه، فلما دخل الرملة أكـرمه أبـو محمد فمدحه بهذه القصيدة، وهي أول ما قاله أبو الطيب فيه، ومطلعها قوله:

أَنَـا لاَئِـمِـي إِنْ كُـنْـتُ وَقْـتَ الـلَّـوَائِـمِ ... عَـلِمْتُ بِـمَـا بِـي بَـيْـنَ تِـلْكَ الـمَـعَـالِـمِ

(٣) في الـديوان «لم أتـرك مصالاً لصـائل» وتقـول: صال عليـه؛ إذا استطال عليـه، وصال عليـه أيضاً؛ إذا وثب عليه. والمصال: اسم مكان من الصولة.

وَإِلَّا فَخَانَتْنِي الْقَوَافِي وَعَاقَنِي عَنِ ٱبْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ ضُعْفُ الْعَزَائِمِ

والشعراء متفاوتون في هذا الباب، وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة في إيراد الألفاظ واختيار المعاني، كالبحتري؛ فإن مكانه من الشعر لا يجهل، وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضَوْؤُها بعيداً مكانُهَا، وكالقناة لَيِّناً مَسُّهَا خَشِناً سِنَانُهَا، وهو على الحقيقة قَيْنَةُ الشعراء في الإطراب، وعَنْقَاؤهم في الإغراب، ومع هذا فإنه لم يُوَفَّق في التخلص من الْغَزَل إلى المديح، بل اقتضبه اقتضاباً، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً إلا اليسير، كقوله في قافية الباء من قصيدة[١]:

وَكَفَانِي إِذَا الْحَوَادِثُ أَظْلَمْـ ـنَ شِهَاباً بِغُرَّةِ ابْنِ شِهَابِ

وكقوله في قافية الدال من قصيدة[٢]:

قَصَدَتْ لِنَجْرَانِ الْعِرَاقِ رِكَابُنَا يَطْلُبْنَ أَرْحَبَهَا مَحِلَّةَ مَاجِدِ[٣]
آلَيْتُ لَا تَلْقَيْنَ جَدّاً صَاعِداً فِي مَطْلَبٍ حَتَّى تُنَاخَ بِصَاعِدِ[٤]

وكقوله في قصيدته التي أولها:

* حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ[٥] *

---

(١) هي قصيدة له يمدح فيها أحمد بن إسماعيل بن شهاب، وأولها قوله:

مَا عَلَى الرَّكْبِ مِنْ وُقُوفِ الرِّكَابِ فِي مَغَانِي الصِّبَا وَرَسْمِ التَّصَابِي

(٢) هي قصيدة يمدح فيها صاعد بن مخلد، وأولها قوله:

قُلْ لِلْخَيَالِ إِذَا أَرَدْتَ فَعَاوِدِ تُدْنِي الْمَسَافَةَ مِنْ هَوًى مُتَبَاعِدِ

(٣) في ا، ب، ج، د «فظللن أزجيها محلة ماجد» وما أثبتناه عن ثلاث نسخ من الديوان، ولا يصح ما في أصول هذا الكتاب إلا مع تكلف وتمحل.

(٤) في الديوان «حتى ينخن بصاعد» وهو أنسب لما في صدر البيت، ولكن لما في أصول هذا الكتاب وجه في العربية.

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له يمنح فيها الفتح بن خاقان، وعجزه قوله:

* وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ *

وانظر نقد المؤلف لهذا المطلع في (الجزء الأول من هذا الكتاب).

فإنه تشوَّق فيها إلى العراق من الشام، ووصف العراق ومنازله ورياضه، فأحسن في ذلك كله، ثم خرج إلى مَدْح الفتح بن خاقان بسياقة آخذ بعضها برقاب بعض، فقال:

رِبَاعٍ مِنَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ لَمْ تَزَلْ غِنًى لِعَدِيمٍ أَوْ فَكَاكاً لِمُوثَقِ

ثم أخذ في مدحه بعد ذلك بضروب من المعاني.

وكذلك ورد قوله في قصيدته التي أولها[1]:

* مِيلُوا إلى الدَّارِ مِنْ ليلى نُحَيِّيهَا *

فإنه وصف البركة فأبدع في أوصافها، ثم خرج منها إلى مدح الخليفة المتوكل؛ فقال:

كَأَنَّهَا حِينَ لَجَّتْ فِي تَدَفُّقِهَا يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا

وأحسن ما وجدته له، وهو مما لطف فيه كل التلطيف، قوله في قصيدته التي يمدح بها ابن بسطام ومطلعها:

* نَصِيبُ عَيْنَيْكَ مِنَ سَحٍّ وَتَسْجَامِ *

فقال عند تخلصه إلى المديح:

هَلِ الشَّبَابُ مُلِمٌّ بِي فَرَاجِعَةٌ أَيَّامُهُ لِيَ فِي أَعْقَابِ أَيَّامِ
لَوْ أَنَّهُ بَابِل عمر يجاذبه إذاً تَطَلَّبْتُهُ عِنْدَ ابْنِ بِسْطَامِ

وهذا من الملائح في هذا الباب.

وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة إلى كثرة شعره.

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* نَعَمْ وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِهَا *

وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي: إن كتاب الله خالٍ من التخلص.

وهذا القول فاسد؛ لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام [إلى] آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه، وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك، كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ووعيد، ومن محكم إلى متشابه، ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل إلى ذم شيطان مَرِيد وجبَّار عَنيد، بلطائف دقيقة، ومعان آخذ بعضُها برقاب بعض.

فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ۝قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ۝قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ۝أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ۝قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ۝قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ۝أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ۝فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ۝الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ۝وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ۝وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ۝وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ۝وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ۝رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ۝وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ۝وَٱجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ۝وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ۝وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ۝يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ۝إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ۝وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ۝وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ۝وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ۝مِنْ دُونِ ٱللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ۝فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ۝وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ۝قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ۝تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ۝وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ۝فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ۝وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ۝فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا كلام يسكر العقول، ويسحر الألباب، وفيه كفاية لطالب البلاغة، فإنه متى أنعم فيه نظره وتدبر أثناءه ومَطَاوِيَ حكمته على أن في ذلك غنى عن تصفح الكتب

المؤلفة في هذا الفن، ألا ترى ما أحسن ما رتَّب إبراهيم عليه السلام كلامَهُ مع المشركين حين سألهم أولاً عمَّا يعبدون سُؤالَ مُقَرِّرٍ لا سؤال مستفهم، ثم أنْحَى على آلهتهم؛ فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكَسَرَه وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكره الإلٰه الذي لا تجب العبادة إلا له، ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا إليه، فَصَوَّرَ المسألة في نفسه دونهم، بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ على معنى إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادةً للعدو وهو الشيطان؛ فاجتنبتها، وآثرت عبادة مَنِ الخيرُ كله في يده، وأراهم بذلك أنها نصيحةٌ ينصح بها نفسه؛ لينظروا فيقولوا: ما نَصَحَنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله، وأبْعَثَ على الاستماع منه، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة، فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى؛ فأجرى عليه تلك الصفات العظام: من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لَدُن خَلَقه وأنشأه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته؛ ليعلم من ذلك أنَّ مَنْ هذه صفاتُهُ حقيق بالعبادة، واجب على الخلق الخضوع له، والاستكانة لعظمته؛ ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه، فدعا الله بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوَّابين؛ لأن الطالب من مولاه إذا قَدَّمَ قبل سؤاله وتضرعه الاعترافَ بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة، وأنجح لحصول الطِّلِبة، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة، ومجازاة الله تعالى من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار، فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته؛ ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالاً ثانياً عند معاينة الجزاء، وهو سؤال مُوبِّخ لهم مستهزىء بهم، وذكر ما يدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنى العودة؛ ليؤمنوا؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضُه برقاب بعض، مع احتوائه على ضروب من المعاني فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة، حتى كأنه أفرغ في قالب واحد، فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التَّعَرِّي عن صفات الإلٰهيَّة حيث لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلٰهية فعظَّم شأنه

وعدّد نعمه؛ ليعلم بذلك أن العبادة لا تصحّ إلا له، ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له؛ ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة في أثناء هذا الكلام.

وفي القرآن مواضع كثيرة من التخلصات، كالذي ورد في سورة الأعراف؛ فإنه ذكر فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية من آدم إلى نوح عليهما السلام، وكذلك إلى قصة موسى عليه السلام، حتى انتهى إلى آخرها الذي هو ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ. وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

هذا تخلص من التخلصات الحسان؛ فإن الله تعالى ذكر الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى عليه السلام؛ فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذَكَره بتخلّص انتظم به بعضُ الكلام ببعض؛ ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) فأجيب بقوله تعالى: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين﴾ من حالهم كذا وكذا، ومن صفتهم كيت وكيت، وهم الذين ﴿يتبعون الرسول النبيّ الأميّ﴾ ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام.

ويالله العجب!! كيف يزعم الغانمي أن القرآن خالٍ من التخلص؟ ألم يكفه

سورة يوسف عليه السلام فإنها قصة برأسها، وهي مُضَمَّنَةٌ شرحَ حاله مع إخوته من أول أمره إلى آخره، وفيها عدة تخلصات في الخروج من معنى إلى معنى، وكذلك إلى آخرها!

ولو أخذت في ذكر ما في القرآن الكريم من هذا النوع لأطلت، ومَنْ أنْعَمَ نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة.

وقد جاءني من التخلصات في الكلام المنثور أشياء كثيرة، وسأذكر ههنا نبذة يسيرة منها.

فمن ذلك ما أوردته في كتاب إلى بعض الإخوان أصِفُ فيه الربيع، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الأشواق، فقلت: وكما أنَّ هذه الأوصاف في شأنها بديعة، فكذلك شوقي في شأنه بديع، غير أنه لحرّه فصل مصيف وهذا فصل ربيع، فأنا أملي أحاديثه العجيبة على النوى، وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستفض حديث من قتله الهوى.

ومن هذا الأسلوب ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان أيضاً، وأرسلته إليه من بلاد الروم، وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الشوق، فقلت: ومما أشكوه من بَرْدِها أن الفرو لا يلبس إلا في شهر ناجر، وهو قائم مقام الظل الذي يتبرّد به من لفح الهواجر، ولفظ شدَّته لم أجد ما يحققه فضلاً عما يذهبه، فإن النار المعدَّة له تطلب من الدفء أيضاً ما أطلبه، لكن وجدت نار أشواقي أشدَّ حراً فاصطليت بجمرها التي لا تذكي بزناد ولا تَئُول إلى رماد، ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشدَّ من حَرِّ الفؤاد، غير أني كنت في ذلك كمن سد خلة بخلة، واستشفى من علة بعلة، وأقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَ[1] فما ظنك بمن يصطلي نار الأشواق، وقد قنع من أخيه بالأوراق فضن عليه بالأوراق.

---

(١) هذا عجز بيت لأبي الطيب المتنبي، وصدره قوله:

* قَدِ ٱسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ *

وهذا بيت من قصيدة له يمدح فيها أبا شجاع عضد الدولة، وأولها قوله:

فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا فَلَا مَلِكٌ إذاً إلا فَدَاكَا

ومما ينتظم في هذا العقد ما ذكرته في مفتتح كتاب يتضمن عناية ببعض المتظلمين، فاستطردت فيه المعنى إذ ذكر المكتوب إليه؛ وهو: هدايا المكارم أنفس من هدايا الأموال، وأبقى على تعاقب الأيام والليال، وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تورث حمداً وتكسب مجداً، وهي خير ثواباً وخَيْر مَرَدًّا، ولا يسير بها إلا سجية طبعت على الكرم، وخلقت من عُنْصُر الدِّيَم، كسجية مولانا أعلاه الله علوّاً تفخر به الأرض على السماء، وتحسده شمس النهار ونجوم الظلماء، ولا زالت أياديه مُخْجلة صَوْبَ الغمام، معدية على نُوَب الأيام. مغنية بشرف فضلها على شرف الأخوال والأعمام، وتلك الهديَّة هي تجريد الشفاعة في أمر فلان ومن إيمان المرء سعيه في حاجة أخيه، وإن لم يمسَّه بشيء من أسباب أواخيه؛ فإن المؤمنين إخوة وإن تباينت مناسبهم، وتفاوتت مراتبهم، ومن صفتهم أن يَسْعَى بذِمَّتهم أدناهم، وخيرهم من عناه من الأمر ما عناهم. ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب.

ومن ذلك ما كتبته من كتاب إلى صديق استحدثت مودته، وهو من أهل العراق، وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سارعَني، فكتبت إليه أستهديه رطباً؛ فقلت: هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذي تزف كلمه زفيف الأوراق، وتَسْجَع سَجْعَ ذوات الأطْوَاق، وتهتف وهي مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق، وأبْرَحُ الشوق ما كان عن فراق غير بعيد، ووُدٍّ استجدت حلته واللذة مقترنة بكل شيء جديد، وأرجو ألَّا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباساً، وأن يعاذ من نظرة الجن والإنس حتى لا يخشى جنة ولا بأساً، وقد قيل: إن للمودَّات طعماً كما أن لها وَسْمَا، وإن ذا اللب يصادق نفساً قبل أن يصادق جسماً، وإني لأجد لمودَّة سيدنا حلاوة يستلذ دوامها، ولا يمل استطعامها، وقد أذكرتني الآن بحلاوة الرطب الذي هو من أرضها، وغير عجيب لمناسبة الأشياء أن يذكِّر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالأسرار، وفَرْقٌ بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب في شرف الثمار؛ فلا ينظر سيدنا عَليَّ في هذا التمثيل، ولربما كان ذلك تعريضاً ينوب مناب التطفيل.

وهذا من التخلصات البديعة؛ فانظر أيها المتأمل كيف سُقْتُ الكلام إلى

استهداءِ الرطب، وجعلت بعضه آخذاً برقاب بعض، حتى كأنه أفرغ في قالب واحد؟ وكذلك فليكن التخلص من معنى إلى معنى.

وهذا القدر من الأمثلة كاف للمتعلم.

ومما أستظرف من هذا النوع في الشعر قول ابن الزمكرم الموصلي، وهو:

وَلَيْلٍ كَوَجْهِ الْبَرْقَعِيدِيِّ مُظْلِمٍ ... وَبَرْدِ أغَانِيهِ وَطُولِ قُرُونِهِ
سَرَيْتُ وَنَوْمِي فِيهِ نَوْمٌ مُشَرَّدٌ ... كَعَقْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدٍ وَدِينِهِ
عَلَى أوْلَقٍ فِيهِ التفَاتٌ كَأنهُ ... أَبُو جَابِرٍ فِي خَبْطِهِ وَجُنُونِهِ
إلَى أنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأنَّهُ ... سَنَا وَجْهِ قِرْوَاشٍ وَضَوْءُ جَبِينِهِ

وهذه الأبيات لها حكاية، وذاك أن هذا الممدوح، وهو شرف الدولة قرواش مَلك العرب، وكان صاحب الموصل؛ فاتفق أنه كان جالساً مع ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء، وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر، وكان البرقعيدي مغنياً، وسليمان بن فهد وزيراً، وأبو جابر حاجباً، فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه؛ فأنشد هذه الأبيات ارتجالاً، وهي غريبة في بابها: لم يسمع بمثلها، ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها، حتى رقي في معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة، فابتدأ البيت الأول يَهْجو البرقعيدي؛ فجاءه في ضمن مُرَاده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها، وهي الظلمة والبرد والطول، ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له، وكذلك البيت الثاني والثالث، ثم خرج إلى المديح بألطف وجه، وأدقّ صنعة، وهذا يسمى الاستطراد، وما سمعت في هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات.

ومما يجري على هذا الأسلوب ما ورد لابن الحجاج البغدادي، وهي أبيات لطيفة جداً[١]:

أَلَا يَا مَاءَ دِجْلَةَ لَسْتَ تَدْرِي ... بِأَنِّي حَاسِدٌ لَكَ طُولَ عُمْرِي

---

(١) هذه الأبيات في معاهد التنصيص (ص ٦٢٩ بولاق) بهذا الترتيب.

وَلَــوْ أَنِّي آسْتَـطَعْتُ سَكِـرْتُ سُكْــراً عَـلَيْـكَ فَلَمْ تَـكُـنْ يَـا مَـاءُ تَـجْـرِي
فَـقَـالَ الـمَـاءُ: مَـا هٰـذَا عَـجِـيـبٌ بِمَ اسْتَـوْجَبْتُـهُ يـا لَـيْتَ شِـعْـرِي[١]
فَـقُـلْتُ لَـهُ: لِأَنَّـكَ كُـلَّ يَـوْمٍ تَـمُـرُّ عَلَى أَبِي الْفَضْـلِ بْـنِ بِـشْـرِ
تَــرَاهُ وَلَا أَرَاهُ، وَذَاكَ شَـيْءٌ يَضِيقُ عَنِ احْتِمَـالِـكَ فِيـهِ صَبْـرِي

ومـا علمت معنى في هـذا المقصد ألطف ولا أرقّ ولا أعـذب ولا أحلى من هـذا اللفظ، ويكفي ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الأبيات.

ولا تـظن أن هذا شيء انفـرد به المحـدثون لمـا عندهم من الـرقة واللطافـة، وفَاتَ مَنْ تَقَدَّمهم لما عندهم من قَشَف العيش وَغِلَظِ الطبع، بل قد تقدم أولئك إلى هذا الأسلوب، وإن أقلوا منه وأكثر منه المحدثون، وأي حسن من محـاسن البلاغـة والفصاحة لم يسبقوا إليه؟ وكيف لا وَهُمْ أَهْلُه، ومنهم علم، وعنهم أخذ؟

فمن ذلك ما جاء للفرزدق، وهو[٢]:

وَرَكْبٍ كَـأَنَّ الـرِّيـحَ تَـطْلُبُ عِنْـدَهُمْ لَهَـا تِـرَةً مِنْ جَـذْبِهَـا بِـالْعَصَـائِبِ[٣]
سَـرَوْا يَخْبِـطُونَ اللَّيْـلَ وَهْيَ تَـلُفُّهُـمْ إِلَى شُعَبِ الْأَكْـوَارِ مِنْ كُـلِّ جَـانِبِ[٤]

---

(١) في معاهد التنصيص «فقال الماء قل لي كل هذا ـ الخ».

(٢) هـذه الأبيات الثـلاثة وردت كمـا هنا في معـاهد التنصيص (ص ٦٢٨ بـولاق) وقد وردت في الديوان ضمن ستة أبيات، ومما في الديوان زيادة على ما هنا بيت يقـع بين أول هذه الأبيـات وثانيها، وهو قوله:

يَـعَـضُّـونَ أَطْـرَافَ الْـعِصِـيِّ كَـأَنَّـهَـا تُـخَـرِّمُ بِـالأَطْـرَافِ شَـوْكَ الْـعَـقَـارِبِ

ثم بعد هذه الأبيات قوله:

إِلَـى نَـارِ ضَـرَّابِ الْـعَـرَاقِـيبِ لَـمْ يَـزَلْ لَـهُ مِنْ ذُبَـابَـيْ سَيْـفِـهِ خَـيْـرُ حَـالِـبِ
تَـدُرُّ بِـهِ الأَنْـمَـاءُ فِي لَـيْـلَةِ الـصَّـبَـا وَتَـنْـتَـفِـخُ اللَّـبَّـاتُ عِـنْـدَ الـتَّـرَائِـبِ

(٣) وقـع في ا، ب، ج «تطلب عنـدها لهـا قوة» وهـو تحريـف، وتصـويبه عن الـديـوان ومعـاهـد التنصيص.

(٤) في ا، ب، ج «سروا يخطبـون» وهو تحـريـف، وتصويبـه عن الديـوان، وفي الأغاني «سـروا يركبون الليل» وفي الديوان «على شعب الأكوار».

إذا آنَسُوا نَاراً يَقُولُونَ لَيْتَهَا وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ نَارُ غَالِبِ[١]

فانظر إلى هذا الاستطراد ما أفحله وأفخمه!!.

واعلم أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتي به قبيحاً، كما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي أولها:

* مُلِثَّ الْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوعَا[٢] *

فقال عند الخروج من الغزل إلى المديح:

غَدَا بِكِ كُلُّ خِلْوٍ مُسْتَهَاماً وَأَصْبَحَ كُلُّ مَسْتُورٍ خَلِيعَا
أُحِبُّكِ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيراً وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيعَا

وهذا تخلُّص كما تراه بارد، ليس عليه من مسحة الجمال شيء، وههنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص؛ فينبغي لسالك هذه الطريق أن ينظر إلى ما يَصُوغه؛ فإن واتاه التخلّص حسناً كما ينبغي وإلا فَلْيَدَعْه، ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا، كما فعل أبو الطيب، ولهذا نظائر وأشباه، وقد استعمل ذلك في موضع آخر في قصيدته التي أولها:

* أحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا[٣] *

---

(١) في الأغاني «إذا استوضحوا ناراً» وفي الديوان «إذا ما رأوا ناراً» وفي معاهد التنصيص كما هنا.

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها علي بن إبراهيم التنوخي، وعجزه قوله:

* وَإِلَّا فَاسْقِهَا السَّمَّ النَّقِيعَا *

والملث: الدائم المقيم، والقطر: المطر، والربوع: جمع ربع، وهو الدار مطلقاً، وقيل: خاص بما يسكنه القوم أيام الربيع، والنقيع: القاتل.

(٣) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي، وعجزه قوله:

* وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضُعْفِي وَمَا عَدَلَا *

فقال:

عَـلَّ الأمِيـرَ يَـرَى ذُلِّي فَيَشْفَـعَ لِي   إلَى الَّتِي تَـرَكَتْنِي فِي الهَـوَى مَثَـلاَ(١)

والإضـراب عن مثل هـذا التخلص خير من ذكـره، وما ألقـاه في هذه الهُـوَّة إلا أبـو نواس؛ فإنه قال(٢):

سَأشْكُو إلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ   هَـوَاكِ لَعَلَّ الْفَضْـلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَـا(٣)

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذريح، لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى بـه قيس، ولـذلك حكـاية، وهـو أنه لمـا هام بلُبْنَى في كـل وادٍ وجُنَّ بها رَقَّ لـه الناس ورحمـوه، فسعى له ابن أبي عَتِيق إلى أن طلقهـا من زوجهـا، وأعـادهـا إلى قيس، فزوجها إياه؛ فقال عند ذلك:

جَـزَى الـرَّحْمٰنُ أفْضَـلَ مَـا يُجَـازِي   عَـلَى الإِحْسَـانِ خَيْـراً مِـنْ صَـدِيـق
وَقَـدْ جَـرَّبْـتُ إخْـوَانِـي جَـمِـيـعـاً   فَـمَـا ألْـفَـيْـتُ كَـابْـنِ أبِـي عَـتِـيـقِ
سَعَى فِي جَمْـعِ شَمْلِي بَعْـدَ صَـدْعٍ   وَرَأْيٍ حِـرْتُ فِـيـهِ عَـنْ طَـرِيـقِـي
وَأطْـفَـى لَـوْعَـةً كَـانَـتْ بِـقَـلْـبِـي   أغَـصَّـتْـنِـي حَـرَارَتُـهَـا بِـرِيـقِـي

وبين هذا الكلام وبين كلام أبي نواس بَـوْنٌ بعيد؛ وقـد حكي عن ابن أبي عتيق أنه قال: يا حبيبي أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد إلا ظنني قَوَّاداً.

---

(١) قـال الواحـدي: أخذه من قـول أبي نواس (وذكـر البيت الذي ذكـره المؤلف) وقـول أبي نـواس أحسن من قول المتنبي؛ لأن الجمـع يمكن بأن يعـطيه مـا يتوصـل به إلى محبـوبتـه، والشفاعة تكون باللسان، وذلك نوع من القيادة» ا هـ.

(٢) هو من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن يحيى، وأولها قوله:

طَـرَحْـتُمْ مِـنَ التَّـرْحَـالِ ذِكْـراً فَـغَمَّـنَـا   فَلَوْ قَـدْ شَخَصْتُمْ صَبَّـحَ المَـوْتُ بَعْـضَنَـا

(٣) حـدثوا أن الفضـل لما سمـع هذا البيت قـال لأبي نواس: مـا زدت على أن تجعلني قواداً!؟ فقال له: أيها الأمير؛ إنه جمع تفضل، لا جمع تـوصل، قـال: صدقت، وأمـر له بخمسمـائة دينار، وكان يعطي الشعراء أكثر من ذلك.

وأما الاقتضاب فهو الذي أشرنا إليه في صدر هذا النوع، وهو: قَطْعُ الكلام واستئناف كلام آخر غيره؛ بلا علاقة تكون بينه وبينه.

فمن ذلك ما يقرب من التخلص، وهو فصل الخطاب، والذي أجْمَعَ عليه المحققون من علماء البيان أنه «أما بعد»؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فَصَل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله «أما بعد».

ومن الفصل الذي هو أحسن من الوصل لفظه «هذا» وهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ • إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ • وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ • وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ • هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ • جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ألا ترى إلى ما ذكر قبل ﴿هذا ذكر﴾ من ذكر من الأنبياء عليهم السلام، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر غيره، وهو ذكر الجنة وأهلها، فقال: ﴿هذا ذكر﴾ ثم قال: ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ ثم لما أتَمَّ ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ وذلك من فصل الخطاب الذي هو ألطف مَوْقعاً من التخلص.

وقد وردت لفظة «هذا» في الشعر إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور؛ فمن ذلك قول الشاعر المعروف بالخباز البلدي في قصيدة أولها:

* الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ *

إِنِّي لَيُعْجِبُنِي الزِّنَا فِي سُحْرَةٍ ... وَيَرُوقُ لِي بِالْجَاشِرِيَّةِ زِيرُه
وَأَكَادُ مِنْ فَرَحِ السُّرُورِ إِذَا بَدَا ... ضَوْءُ الصَّبَاحِ مِنَ السُّتُورِ أَطِيرُ
وَإِذَا رَأَيْتُ الْجَوَّ فِي فِضِّيَةٍ ... لِلْغَيْمِ فِي جَنَبَاتِهَا تَكْسِيرُ
مَنْقُوشَةٍ صَدْرَ الْبُزَاةِ كَأَنَّهُ ... فَيْرُوزَجٌ قَدْ زَانَهُ بَلُّورُ

نَـادَتْ بِيَ اللَّذَّاتُ وَيْحَـكَ فَـانْتَـهِـزْ ... فُـرَصَ الـمُـنَـى يَـاأَيُّـهَـا الـمَـغْـرُورُ
مِـلْ بِـي إِلَى جَـوْرِ الـسُّقَـاةِ فَـإِنَّنِي ... أَهْـوَى سُقَـاةَ الْكَـأْسِ حِينَ تَـجُـورُ
هٰـذَا، وَكَمْ لِي بِـالجنينـة سَـكْـرَةٌ ... أَنَـا مِنْ بَقَـايَـا شُـرْبِـهَـا مَخْـمُـورُ
بَـاكَـرْتُـهَـا وَغُـصُـونُـهَـا مَـغْـرُوزَةٌ ... وَالـمَـاءُ بَيْـنَ مُـرُوزِهَـا مَـذْعُـورُ
فِي سِـتَّـةٍ: أَنَـا، وَالنَّـدِيمُ، وَقَـيْنَـةٌ، ... وَالْكَـأْسُ، وَالمِـزْمَـارُ، وَالـطُّنْبُـورُ

هذه الأبيات حسنة، وخروجها من شِدْق هذا الرجل الخبَّاز عجيب، ولو جاءت في شعر أبي نواس لزانت ديوانه.

والاقتضاب الوارد في الشعر كَثِيرٌ لا يُحْصَى، والتخلص بالنسبة إليه قَطْرة من بحر؛ ولا يكاد يوجد التخلص في شعر الشاعر المجيد إلا قليلاً بالنسبة إلى المقتضب من شعره.

فمن الاقتضاب قولُ أبي نواس في قصيدته النونية التي أولها[1]:

* يَـا كَـثِيـرَ الـنَّـوْحِ فِـي آلـدِّمَـنِ *

وهذه القصيدة هي عَيْنُ شعرِهِ والملاحةُ لِلْعُيُونَ، وهي تَنْزِل منه منزلة الألف لا منزلة النون، إلا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح، بل اقتضبه اقتضاباً؛ فبينا هو يصف الخمر ويقول:

فَـاسْقِنِـي كَـأْساً عَلَى عَـذَلٍ ... كَـرِهَـتْ مَـسْـمَـوعَـهُ أُذُنِـي
مِـنْ كُـمَـيْـتِ الـلَّوْنِ صَـافِـيَـةٍ ... خَيْـرِ مَـا سَلْسَلْتَ فِي بَـدَنِـي
مَـا آسْـتَـقَـرَّتْ فِـي فُـؤَادِ فَـتًـى ... فَـدَرَى مَـا لَـوْعَـةُ الْـحَـزَنِ

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* لاَ عَلَيْهَا بَلْ عَلَى السَّكَنِ *

وهي قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد، وانظر معاهد التنصيص (ص ٦٣٨).

حتى قال:

تَضَحَكُ الدُّنْيَا إلَى مَلِكٍ قَامَ بِالآثَارِ وَالسُّنَنِ
سَنَّ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدُوا فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنِ

فأكثر مدائح أبي نواس مقتضبة هكذا، والتخلص غير ممكن في كل الأحوال، وهو من مستصعبات علم البيان.

ومن هذا الباب الذي نحن بصدد ذكره قول البحتري في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الأسَدَ وقَتْلَه إياه، وأولها:

* أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِي لِزَيْنبا(١) *

وهي من أمهات شعره، ومع ذلك لم يوفق فيها للتخلص من الغزل إلى المديح، فإنه بينما هو في تغزله وهو يقول:

عَهِدْتُكِ إنْ مَنَّيْتِ مَوْعِداً جَهَاماً وَإنْ أَبْرَقْتِ أَبْرَقْتِ خُلَّبَا
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّدُودَ الَّذِي مَضَى دَلَالٌ فَمَا إنْ كَانَ إلَّا تَجَنُّبَا
فَوَا أَسَفَا حَتَّامَ أَسْأَلُ مَانِعاً وَآمَنُ خَوَّافاً وَأُعْتِبُ مُذْنِبَا

حتى قال في أثر ذلك:

أَقُولُ لِرَكْبٍ مُعتفين تَدَرَّعُوا عَلَى عَجَلٍ قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبَا
رِدُوا نَائِلَ الفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ إنَّهُ أَعَمُّ نَدًى فِيكُمْ وَأَيْسَرُ مَطْلَبَا

فخرج إلى المديح بغير وصلة ولا سبب.

وكذلك قوله في قصيدته المشهورة بالجودة التي مدح بها الفتح بن خاقان

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* خَيَالٌ إذَا آبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبَا *

وانظر الديوان (ج ١ ص ٥٥ مصر).

أيضاً، وذكر نجاته عند انخساف الجسر به، وقد أغرب فيها كل الإغراب، وأحسن كل الإحسان، وأولها:

* مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ[1] *

فبينا هو في غزلها حتى قال:

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الْجَدَى إذَا بَقِيَ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ وَالْقَطْرُ

فخرج إلى المديح مقتضباً له، لا متعلقاً به، وأمثال هذا في شعره كثير.

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* جَوًى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِيءٌ وَلَا نَزْرُ *

وانظر الديوان (ج ١ ص ٢١٧ مصر).

النوع الرابع والعشرون

في التناسب بين المعاني

وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في المطابقة.

وهذا النوع يسمى البديع أيضاً، وهو في المعاني ضد التجنيس في الألفاظ؛ لأن التجنيس هو أن يتّحد اللفظ مع اختلاف المعنى، وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين.

وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده؛ كالسواد والبياض، والليل والنهار.

وخالفهم في ذلك قُدَامة بن جعفر الكاتب فقال: المطابقة إيراد لفظين متساويين في البناء والصيغة مختلفين في المعنى.

وهذا الذي ذكره هو التجنيس بعينه، غير أن الأسماء لا مُشَاحَّة فيها، إلا إذا كانت مشتقة.

ولننظر نحن في ذلك، وهو أن نكشف عن أصل المطابقة في وضع اللغة، وقد وجدنا الطِّباق في اللغة من طَابَقَ البعيرُ في سيره؛ إذا وضع رجله موضع يده، وهذا يؤيد ما ذكره قُدَامة؛ لأن اليدَ غيرُ الرجل، لا ضدها، والموضع الذي يقعان فيه واحد، وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذي يجمعهما واحد؛ فقُدَامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقاً، حيث كان الاسم مشتقاً مما سمي به، وذلك مناسب وواقع في موقعه، إلا أنه جعل للتجنيس اسماً آخر، وهو المطابقة، ولا بأس به، إلا إن كان مَثَّله بالضدين؛ كالسواد والبياض؛ فإنه يكون قد خالف الأصل الذي أصَّله بالمثال الذي مَثَّله.

وأما غيره من أرباب هذه الصناعة فإنهم سَمَّوْا هذا الضرب من الكلام مطابقاً لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه، هذا الظاهر لنا من هذا القول، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن.

ولنرجع إلى ذكر هذا القسم من التأليف وإيضاح حقيقته؛ فنقول:

الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة؛ لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين: إما أن يقابَلَ الشيء بضده، أو يقابل بما ليس بضده، وليس لنا وجه ثالث.

فأما الأول ـ وهو مقابلة الشيء بضده، كالسواد والبياض، وما جرى مجراهما ـ فإنه ينقسم قسمين: أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى، والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ.

أما المقابلة في اللفظ والمعنى فكقوله تعالى: **﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾**؛ فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير، وكذلك قوله تعالى: **﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**؛ وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب، وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ».

ومن الحسن المطبوع الذي ليس بمتكلف قول علي رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه: إن الحق ثقيلٌ مَرِيءٌ والباطل خفيف وَبيء، وأنت رجل إن صدقتُ سخطتَ، وإن كذبتُ رضيتَ؛ فقابل الحق بالباطل، والثقيلَ المريء بالخفيف الوبيء، والصدقَ بالكذب، والسخطَ بالرضا. وهذه خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار.

وكذلك ورد قوله رضي الله عنه لما قال الخوارج: لا حكم إلا لله تعالى: هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطل.

وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضي الله عنه وقد أحضره بين يديه ليقتله، فقال له: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، قال: بل أنت شقي بن كسير،

وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين، وفي كلامه هذا مطابقة حسنة؛ فإنه نقل الاسمين إلى ضدهما، فقال في سعيد: شقي، وفي جبير: كسير

وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات.

ومما وجدته في لغة الفرس أنه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره: حَرَّكَنَا بسكونه.

وأول كتاب الفصول لأبقراط في الطب قوله: العمر قصير، والصناعة طويلة. وهذا الكتاب على لغة اليونان.

ومن كلامي في هذا الباب ما كتبته في صدر مكتوب إلى بعض الإخوان، وهو: صَدَرَ هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر، وصبر مليم وجزع عاذر، وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر.

وكذلك كتبت إلى بعض الإخوان أيضاً، فقلت: صَدَرَ هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه، وطرف مستوحش لفراقه، فهذا مُرَوَّع بكآبة إظلامه، وهذا ممتنع ببهجة إشراقه، غير أن لقاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الأفكار، وتتناجى به من وراء الأستار، وذلك أخو الطَّيْف المُلِمّ في المنام، الذي يُمَوِّهُ بلقاء الأرواح على لقاء الأجسام.

ومن هذا النوع ما ذكرته في كتاب أصِفُ المسيرَ من دمشق إلى الموصل على طريق المناظر، فقلت من جملته: ثم نزلت أرضَ الخابور فغرَّبَت الأرواح وشَرَّقَتِ الجسوم، وحصل الإعدام من المسار والإنزال من الهموم، وطالبتني النفس بالعود والقدرة مُفْلِسة، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة.

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب إلى بعض الإخوان، وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الأدب، فقلت: وهم مسئولون ألّا ينسوني في نادي فضلهم الذي هو منبع الآمال، وملتقط اللآل، فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدي الأقلام المتسودة، وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة، والواغلُ إليه يَسْكَر من خمرته التي تُنبه العقول من إغفائها، ولا يشربها أحد غير أكفائها.

وهذه الفصول المذكورة لَا خَفَاءَ بما تضمنته من محاسن المقابلة.

ومما ورد من هذا النوع شعراً قولُ جرير(١):

وَأعْـوَرَ مِـنْ نَـبْـهَـانَ أمَّـا نَـهَـارُهُ ... فَـأعْـمَـى، وَأمَّـا لَـيْـلُهُ فَـبَـصِـيـرُ

وهكذا ورد قول الفرزدق(٢):

قَـبَّـحَ الْإِلٰـهُ بَـنِـي كُـلَيْـبٍ إِنَّـهُـمْ ... لَا يَـغْـدِرُونَ وَلَا يَـفُـونَ بِـجَـارِ(٣)

يَـسْتَيْقِـظُونَ إِلَى نَهِيقِ حِمَـارِهِـمْ ... وَتَـنَـامُ أعْـيُـنُـهُـمْ عَـنْ الْأَوْتَـارِ(٤)

فقابل بين الغدر والوفاء، وبين التيقظ والنوم، وفي البيت الأول مَعْنًى يُسْأل عنه.

وكذلك ورد قول بعضهم(٥):

---

(١) من كلمة له يجيب فيها أعور بني نبهان، وأولها قوله:

عَـفَـا ذُو حَـمَـامٍ بَـعْـدَنَـا وَحَـفِـيـرُ ... وَبِـالـسِّـرِّ مَبْـدًى مِـنْـهُـمْ وَحُـضُـورُ

وقبل البيت الذي أنشده المؤلف قوله:

وَجَـدْنَـا بَنِي نَـبْـهَـانَ أَذْنَـابَ طَـيِّـئٍ ... وَلِـلنَّـاسِ أَذْنَـابٌ تُـرَى وَصُـدُورُ

تَـرَى شَـرَطَ الـمِـعْـزَى مُـهُـورَ نِسَـائِـهِـمْ ... وَفِـي قَـزَمِ الْـمِـعْـزَى لَـهُـنَّ مُـهُـورُ

إذَا حَـلَّ مِـنْ نَـبْـهَـانَ أَذْنَـابُ ثَـلَّةٍ ... بِـأوْشَـالِ سَـلْـمَـى دِقَّـةٌ وَفُـجُـورُ

أَلَـسْـتَ لِـنَـبْـهَـانِـيَّـةٍ طَـالَ بَـظْرُهَـا ... وَبَـاعُ ٱبْنِـهَـا عِـنْـدَ الْـفَـخَـارِ قَـصِـيـرُ

كَـثِـيـرَةُ صِئْـبَـانِ الـنِّـطَاقِ كَـأنَّـهَـا ... إذَا رَشَـحَـتْ مِـنْـهَـا الـمَـغَـابِـنُ كِـيـرُ

(٢) من قصيدة له يهجو فيها جريراً، وأولها قوله:

يَـا بْـنَ الـمَـرَاغَـةِ إِنَّـمَـا جَـارَيْـتَـنِـي ... بِـمُـسَـبَّـقِـيـنَ لَـدَى الْـفَـعَـالِ قِـصَـارِ

وَالْـحَـابِـسِـيـنَ إِلَى الْـعَـشِـيِّ لِـيَـأخُـذُوا ... نُـزُحَ الـرَّكِـيِّ وَدِمْـنَـةَ الْآسَـارِ

(٣) في الديوان «ولا يفون لجار».

(٤) في الديوان والنقائض «يستيقظون إلى نهاق حمارهم».

(٥) نسب العباسي في معاهد التنصيص (ص ٢٧٧) هذا البيت لأبي الطيب المتنبي، ولم أجده في ديوانه، بل ليس للمتنبي كلمة على هذا الرويّ.

فَلاَ الْجُودُ يُفْنِي المَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ ... وَلاَ الْبُخْلُ يُبْقِي المَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ

وقد أكثر أبو تمام من هذا في شعره فأحسن في موضع وأساء في موضع؛ فمن إحسانه قوله(١):

مَا إنْ تَرَى الأَحْسَابَ بِيضاً وُضَّحاً ... إلاَّ بِحَيْثُ تَرَى المَنَايَا سُودَا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضاً:

شَرَفٌ عَلَى أُولَى الزَّمَانِ وَإنَّمَا ... خَلَقُ المُنَاسِبِ مَا يَكُونُ جَدِيدَا(٢)

وعلى هذا النهج ورد قوله(٣):

إذَا كَانَتِ النُّعْمَى سَلُوباً مِنَ آمْرِىءٍ ... غَدَتْ مِنْ خَلِيجَيْ كَفِّهِ وَهْيَ مُتْبِعُ(٤)
وَإنْ عَثَرَتْ بِيضُ اللَّيَالِي وَسُودُهَا ... بِوُحْدَتِهِ أَلْفَيْتَهَا وَهْيَ مُجْمِعُ(٥)
وَيَوْمٍ يَظَلُّ الْعِزُّ يُحْفَظُ وَسْطَهُ ... بِسُمْرِ الْعَوَالِي وَالنُّفُوسُ تُضَيَّعُ(٦)
مَصِيفٌ مِنَ الهَيْجَا وَمِنْ جَاحِمِ الْوَغَى ... وَلٰكِنَّهُ مِنْ وَابِلِ الدَّمِ مَرْبَعُ(٧)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني، وأولها قوله:

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا ... وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدَا

(٢) في ا، ب، ج «سوف على أولي الزمان» وضبط بتشديد الواو، وهو تصحيف، والتصويب عن ثلاث نسخ من الديوان.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد بن يوسف، وأولها قوله:

أَمَا إنَّهُ لَوْلاَ الخَلِيطُ المُوَدَّعُ ... وَرَبْعٌ خَلاَ مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعُ

(٤) السلوب: التي مات ولدها والمتبع: التي يتبعها ولدها، يريد أن غيره إذا كان لا يجود إلا مرة واحدة فجود الممدوح يتلو بعضه بعضاً، ووقع في ا، ب، ج «وهو متبع» والتصويب عن الديوان.

(٥) في الديوان «وإن عثرت سود الليالي وبيضها». والمجمع: التي اتفقت آراؤها فهو يذيق العذاب ويورد الحتوف، وهو ينيل المحتاجين ويرفد السائلين.

(٦) يريد أنه رب حرب طاحنة تسيل فيها النفوس على شفرات السيوف فتضيع ليبني عليها العز والعلا ويشيد عليها المجد وآساسه سمر العوالي.

(٧) في ا، ب، ج «مصيف من الهيجاء ومن حاجم الوغى» وهو تحريف من وجهين.

ومن هذا الأسلوب قوله أيضاً(١) :

تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ الْقُصْوَى إذَا أَخَذَتْ سِلَاحَهَا وَهُوَ الإرْقَالُ وَالرَّمَلُ
إذَا تَظَلَّمْتُ مِنْ أرْضٍ فَصَلْتُ بِهَا كَانَتْ هِيَ الْعِزَّ إلَّا أنَّهَا ذُلُلُ
المُرْضِيَاتُكَ مَا أرْغَمْتَ آنُفَهَا وَالْهَادِيَاتُكَ وَهْيَ الشُّرَّدُ الضُّلُلُ

وعلى هذا النحو ورد قوله(٢) :

وَنَاضِرَةُ الصَّبَاحِينَ آسْبَكَرَّتْ طِلَاعَ الْمِرْطِ وَالدِّرْعِ الْبَدِيِّ
تَشَكَّى الأيْنَ مِنْ نِصْفٍ سَرِيعٍ إذَا قَامَتْ وَمِنْ نِصْفٍ بَطِيِّ

وقد جاء لأبي نواس ذلك فقال :

أقِلْنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ وَبِالْإقْرَارِ عُذْتُ مِنَ الْجُحُودِ
أنَا اسْتَهْدَيْتُ عَفْوَكَ مِنْ قَرِيبٍ كَمَا اسْتَعْفَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعِيدِ

فقابل بين الأضداد : من الجحود والإقرار، والعفو والسخط، والقرب والبعد.

---

(١) من كلمة له يصف فيها شدة البرد بخراسان، وأولها قوله :

لَمْ يَبْقَ لِلصَّيْفِ لَا رَسْمٌ وَلَا طَلَلُ وَلَا قَشِيبٌ فَيُسْتَكْسَى وَلَا سَمَلُ

وهي في الديوان بتقديم البيت الثالث على أول هذه الأبيات، وهاكها برواية الديوان مع بيت سابق عليها يوضح المعنى والارتباط بينها :

فَمَا صِلَائِيَ إنْ كَانَ الصِّلَاءُ بِهَا جَمْرَ الْغَضَا الجَزْلَ إلَّا السَّيْرُ وَالإبِلُ
الْمُرْضِيَاتُكَ مَا أرْغَمْتَ آنُفَهَا وَالْهَادِيَاتُكَ وَهْيَ الرُّشْدُ وَالضَّلَلُ
تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ الْقُصْوَى إذَا أَخَذَتْ سِلَاحَهَا وَهِيَ الإرْقَالُ وَالرَّمَلُ
إذَا تَظَلَّمْتُ مِنْ أرْضٍ فَصَلْتُ بِهَا كَانَتْ هِيَ الْعِزَّ إلَّا أنَّهَا ذُلُلُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب، وأولها قوله :

ألَا وَيْلَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ وَبَالِي الرَّبْعِ مِنْ إحْدَى بَلِيِّ
وَمَا لِلدَّارِ إلَّا كُلُّ سَمْحٍ بِأدْمُعِهِ وَأَضْلُعِهِ سَخِيِّ

وعلى نحو من ذلك ورد قول علي بن جَبَلة في أبي دُلَف العجلي، وهو:

أيْمُ الـمَـهِـيـرِ وَنِـكَـاحُ الأيِّـمِ يَـوْمَـاكَ يَـوْمُ أبْـؤُسٍ وَأنْـعُـمِ
* وجمـع مَجْـدٍ وَنَـدًى مُـقَسَّـمِ *

وكذلك قوله أيضاً:

هُـوَ الأمَـلُ المَبْسُـوطُ والأجَـلُ الَّـذِي يُمِـرُّ عَلَى أيَّـامِـهِ الـدَّهْـرُ أوْ يَـحْلُو
وَلَا تُـحْسِـنُ الأيَّـامُ تَـفْـعَـلُ فِـعْـلَهُ وَإن كَـانَ فِي تَصْرِيفِهَـا النَّقْضُ وَالْفِعْـلُ
فَـعِشْ وَاحِـداً أمَّـا الشَّـرَاءُ فَـمُـسْـلَمٌ مُبَاحٌ وَأمَّـا الْجَـارُ فَهْـوَ حِمًى بَسْـلُ(١)

ومما جاء من هذا القسم قول البحتري(٢):

أحْسَنَ آللهُ فِي ثَـوَابِـكَ عَنْ ثَـغْـــــــرٍ مُـضَـاعٍ أحْسَنْت فِيـهِ الْبَـلَاءَ
كَـانَ مُسْتَضْعَفـاً فَعَـزَّ وَمَحْـرُو مـاً فَـأجْـدَى وَمُـظْلِمـاً فَـأضَـاءَ

ومن أحسن ما ورد له في هذا الباب قوله(٣):

أشْكُـو إلَيْـكَ أنَـامِـلاً مَـا تَنْطَوِي بُخْـلاً وَإمْـلَاقـاً تقصفُهَـا الْيَـدُ(٤)

---

(١) بسل ـ بفتح الباء وسكون السين ـ معناه حرام.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف، وأولها قوله:

يَـا أخَـا الأزْدِ مَـا حَـفِـظْتَ الإخَـاءَ لِـمُـحِـبٍّ وَلَا رَعَـيْـتَ الْـوَفَـاءَ
عَـذَلاً يَـتْـرُكُ الـحَـنِـيـنَ أنِـيـنـاً فِـي هَـوًى يَـتْـرُكُ آلـدُّمُـوعَ دِمَـاءَ
لَا تَـلُمْـنِـي عَـلَى الـبُـكَـاءِ فَـإنِّـي نِضْـوُ شَجْـوٍ مـا لُمْـتُ فِيـهِ الْبُكَـاءَ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب ابن أخت أبي الوزير، وأولها قوله:

يَـا يَـوْمُ عَـرِّجْ، بَـلْ وَرَاءَكَ يَـا غَـدُ قَـدْ أجْـمَـعُـوا بَيْـنـاً وَأنْـتَ الـمَـوْعِـدُ

(٤) في الديوان «يبساً وأخلاقاً تقصفها اليد»؛ وبين هذا البيت والذي بعده عدة أبيات، وهي قوله:

وَأنَـا لَـبِـيـدٌ عِـنْـدَ آخِـرِ دَمْـعَـةٍ يَـصِـفُ الـصَّـبَـابَـةَ وَالـمَـكَـارِمَ أرْبَـدُ=

أَرْضِيهِمُ قَوْلاً وَلاَ يَرْضَونَنِي ... فِعْلاً وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ لا تقصد
فَأَذُمُّ مِنْهُمْ مَا يُذَمُّ وَرُبَّمَا ... سَامَحْتُهُمْ فَحَمِدْتُ مَا لاَ يُحْمَدُ

وعلى هذا النهج ورد قوله(١):

وَتَوقُّعِي مِنْكَ الْإِسَاءَةَ جَاهِداً ... وَالْعَدْلُ أنْ أَتَوَقَّعَ الْإِحْسَانَا
وَكَمَا يَسُرُّكَ لِينُ مَسِّي رَاضِياً ... فَكَذَاكَ فَاخْشَ خُشُونَتِي غَضْبَانَا

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه استعمل هذا النوع قليلاً في شعره؛ فمن ذلك قوله(٢):

ثِقَالٌ إذَا لاَقَوْا خِفَافٌ إذَا دُعُوا ... كَثِيرٌ إذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إذَا عُدُّوا

وكذلك قوله(٣):

إلَى رَبِّ مَالٍ كُلَّمَا شَتَّ شَمْلُهُ ... تَجَمَّعَ فِي تَشْتِيتِهِ لِلْعُلاَ شَمْلُ

= النَّاسُ حَوْلَكَ رَوْضَةٌ مَا تُرْتَقَى ... رَيَّا النَّبَاتِ وَمَنْهَلٌ ما يُورَدُ
جَدَةٌ وَلاَ جُودٌ وَطَالِبُ بُغْيَةٍ ... فِي الْبَاخِلِينَ وَبُغْيَةٌ لاَ تُوجَدُ
تَرَكُوا الْعُلاَ وَهُمُ يَرَوْنَ مَكَانَهَا ... وَدَعَا اللُّجَيْنُ قُلُوبَهُمْ وَالْعَسْجَدُ
وَتَمَاحَكُوا فِي الْبُخْلِ حَتَّى خِلْتُهُ ... دِيناً يُدَانُ بِهِ الإلَهُ وَيُعْبَدُ

(١) من قصيدة له يعاتب فيها أبا العباس بن بسطام، وأولها قوله:

أَمَّا الْعُدَاةُ فَقَدْ أَرَوْكَ نُفُوسَهُمْ ... فَاقْصِدْ بِسُوءِ ظُنُونِكَ الْإِخْوَانَا

وانظر الديوان (ص ٢٧٩ ج ٢ مصر).

(٢) هذا ثالث بيت من قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي، والذي قبله قوله:

أَقَلُّ فَعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ ... وَذَا الْجِدُّ فِيهِ نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ جَدُّ
سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ ... كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها شجاع بن محمد الطائي المنبجي، وأولها قوله:

عَزِيزُ أَسًى مَنْ دَاؤُهُ الْحَدَقُ النُّجْلُ ... عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ الْمُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إلَيَّ فَمَنْظَرِي ... نَذِيرٌ إلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْهَوَى سَهْلُ

ومما استعذبته من قوله في هذا الباب[١] :

كَـأَنَّ سُـهَـادَ اللَّيْـلِ يَـعْشَـقُ مُقْلَتِـي فَبَيْنَهُمَـا فِي كُـلِّ هَـجْـرٍ لَنَـا وَصْـلُ

ومما جاء من هذا الباب :

لَـمَّـا اعْتَنَقْنَـا لِلْوَدَاعِ وَأَعْـرَبَـتْ عَـبَـرَاتُنَـا عَنَّـا بِـدَفْـعٍ نَـاطِقِ
فَـرَّقْنَ بَيْـنَ مَعَـاجِـرٍ وَمَـحَـاجِـرٍ وَجَـمَعْـنَ بَيْـنَ بَنَفْسَـجٍ وَشَقَـائِقِ

وهذا تحته معنى يسأل عنه غير المقابلة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة؛ لأن من العادة أن يشبه العارض بالبنفسج.

وهذا قول غير سائغ؛ لأن العارض إنما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره، فإذا طَرَّ وظهرت خضرته في ابتداء سن الشباب شُبِّـه بالبنفسج؛ لأنه يكون بين الأخضر والأسود، وليس في الشعر ما يدل على أن المودّع كان شاباً قد طَرَّ عارضه؛ والذي يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فَمَزَّقَتْ خِمَارَها ولطمت خدها؛ فجمعت بين أثر اللطم، وهو شبيه بالبنفسج، وبين لون الخد، وهو شبيه الشقائق، وفَرَّقَت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق وَلَهاً وموجدة على الوداع؛ هذا هو معنى البيت، لا ما ذهب إليه هذا الرجل.

وأما المقابلة في المعنى دون اللفظ في الأضداد فمما جاء منه قول المُقَنَّع الْكِنْدِيّ من شعراء الحماسة[٢].

---

(١) هذا البيت من القصيدة التي منها البيت السابق؛ وقبله قوله:

كَـأَنَّ رَقِيـبـاً مِـنْـكِ سَـدَّ مَسَـامِـعِي عَنِ الْعَـذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَـدْخُلُهَـا الْعَـذْلُ

وبعده البيت الذي أنشده المؤلف، وبعده قوله:

أُحِـبُّ الَّتِي فِي الْبَـدْرِ مِنْـهَـا مَشَـابِـهٌ وَأَشْكُـو إِلَى مَـنْ لاَ يُصَـابُ لَـهُ شَكْـلُ

(٢) المقنع الكندي ـ بصيغة اسم المفعول ـ اسمه محمد بن عميرة، وأصل المقنع: الذي يغطي رأسه، والذي يلبس السلاح مقنع أيضاً، وذكروا أن محمد بن عميرة هذا كان جميلاً وضيء الوجه، فكان يستر وجهه لجماله، ولهذا سمي المقنع؛ والبيت من كلمة له اختارها أبو تمام =

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَإنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

فقوله «تتابع لي غنى» بمعنى قوله «كثر مالي» فهو إذاً مقابلة من جهة المعنى؛ لا من جهة اللفظ؛ لأن حقيقة الأضداد اللفظية إنما هي في المفردات من الألفاظ، نحو: قام وقعد، وحَلَّ وَعَقَد، وقل وكثر؛ فإن القيام ضد القعود، والْحَلّ ضد الْعَقْد، والقليل ضد الكثير؛ فإذا ترك المفرد من الألفاظ وتوصل إلى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى، لا من جهة اللفظ؛ كقول هذا الشاعر «تَتَابَعَ لِي غِنًى» في معنى كثر مالي، وهذه مقابلة معنوية، لا لفظية، فاعرف ذلك.

وأما مقابلة الشيء بما ليس بضده فهي ضربان: أحدهما ألَّا يكون مثلاً، والآخر أن يكون مثلاً.

فالضرب الأول يتفرع إلى فرعين:

الأول: ما كان بين المقابلِ والمقابَلِ نَوْعُ مناسبة وتقارب، كقول قُرَيْط بن أنَيْفٍ(١):

= في الحماسة (انظر شرح التبريزي: ٣ ـ ١٧١) وأولها قوله:

يُعَاتِبُنِي فِي الدَّيْنِ قَوْمِي وَإنَّمَا ... دُيُونِيَ فِي أشْيَاءَ تَكْسِبُهُمْ حَمْدَا

أسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أخَلُّوا وَضَيَّعُوا ... ثُغُورَ حُقُوقٍ مَا أطَاقُوا لَهَا سَدَّا

وَفِي جَفْنَةٍ مَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهَا ... مُكَلَّلَةٍ لَحْماً مُدَفَّقَةٍ ثُرْدَا

وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُهُ ... حِجَاباً لِبَيْتِي ثُمَّ أخْدَمْتُهُ عَبْدَا

وَإنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا

فَإنْ أكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا

وَإنْ زَجَرُوا طَيْراً بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْراً تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا

وَلَا أحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

وبعد ذلك البيت الذي ذكره المؤلف، وبعده قوله:

وَإنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً ... وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

(١) البيت من كلمة اختارها أبو تمام في مستهل الحماسة، وأولها قوله:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَاناً

فقابل الظلم بالمغفرة، وليس ضداً لها، وإنما هو ضد العدل، إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حَسُنَت المقابلة بينها وبين الظلم.

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ فإن الرحمة ليست ضداً للشدة، وإنما ضد الشدة اللين، إلا أنه لما كانت الرحمة من مُسَبَّبات اللين حَسُنَت المقابلة بينها وبين الشدة.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ فإن المصيبة سيئة؛ لأن كل مصيبة سيئة، وليس كل سيئة مصيبة؛ فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص.

الفرع الثاني: ما كان بين المقابِلِ والمقابَلِ به بُعْدٌ، وذاك مما لا يحسن استعماله، كقول أم النُّحَيْفِ[١]، وهو سعد بن قرط[٢]، وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها، فقالت من أبيات تَذُمُّها فيها[٣]:

تَرَبَّصْ بِهَا الْأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا ... سَتَرْمِي بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ
فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلٰهُهُ ... بِمَذْمُومَةِ الْأَخْلَاقِ وَاسِعَةِ الْحِرِ

---

(١) في ا، ب،ج «أم المحنف» والتصويب عن شرح الحماسة للتبريزي (٤ ـ ٣٥٢) قال: «يقال: نَحِفَ الرجل يَنْحَفُ، وَنَحُفَ يَنْحُفُ، نَحَافَةً، وهو نَحِيفٌ؛ فيجوز أن يكون النُّحَيْفُ تحقير ترخيم النَّحِيف» اهـ.

(٢) في ا، ب، ج «وهو سعد بن قرظ» بالظاء المعجمة، والتصويب عن التبريزي في الموضع المذكور.

(٣) الأبيات رواها أبو تمام في أخريات ديوان الحماسة، وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قولها:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَخْلَفْتَ ظَنِّي وَسُؤْتَنِي ... فَحُزْتَ بِعِصْيَانِي النَّدَامَةَ فَاصْبِرِ
وَلَا تَكُ مِطْلَاقاً مَلُولاً؛ فَسَامِحِ الْـ ... ـقَرِينَةَ وَافْعَلْ فِعْلَ حُرٍّ مُشَهَّرِ
فَقَدْ حُزْتَ بِالْوَرْهَاءِ أَخْبَثَ خِبْثَةٍ ... فَدَعْ عَنْكَ مَا قَدْ قُلْتَ يَا سَعْدُ وَاحْذَرِ

فقولها «بمذمومة الأخلاق واسعة الحر» من المقابلة البعيدة، بل الأولى أن كانت قالت «بضيقة الأخلاق واسعة الحر» حتى تصح المقابلة.

وهذا مما يدل على أن العربيَّ غَيْرُ مُهْتَدٍ إلى استعمال ذلك بصنعته، وإنما يجيء له منه ما يجيء بطبعه، لا بتكلفه، وإذا أخطأ فإنه لا يعلم الخطأ، ولا يشعر به، والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن، وحصلت المقابلة، وإنما يعذر من يعذر في ترك المقابلة في مثل هذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه.

وأما الْمُحْدَثُونَ من الشعراء فإنهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه، لا جَرَمَ أنهم أشدُّ مَلاَمَة من العرب.

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي(١):

لِمَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا إذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ(٢)

فإن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض، لا بين المحب والمجرم، وليست متوسطة أيضاً حتى يقرب الحال فيها، وإنما هي بعيدة؛ فإنه ليس كل من أجْرَم إليك كان مُبْغِضاً لك.

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها كافوراً الإخشيدي، وأولها قوله:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتَ غَيْرُ مُذَمَّمِ ... وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتَ خَيْرُ مُيَمَّمِ

(٢) رواية الديوان التي شرح عليها العكبري:

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

والخطاب والغيبة جائزان لا على جهة الالتفات فحسب؛ بل لأن فيما قبل البيت خطاباً وغيبة فهو بأحد الوجهين يطابق أحد السابقين، وما قبله هو قوله:

قَدِ اخْتَرْتُكَ الأمْلاَكَ فَاخْتَرْ لَهُمْ بِنَا ... حَدِيثاً، وَقَدْ حَكَّمْتُ رَأيَكَ فَاحْكُمِ

فَأحْسَنُ وَجْهٍ في الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ ... وَأيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمُ كَفُّ مُنْعِمِ

وَأشْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ أشْرَفَ هِمَّةً ... وَأكْبَرَ إقْدَاماً عَلَى كُلِّ مُعْظِمِ

ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى «المواخاة بين المعاني، والمواخاة بين المباني» وكان ينبغي أن نعقد له باباً مفرداً لكنا لما رأيناه ينظر إلى التقابل من وجه وصلناه به.

أما المواخاة بين المعاني فهو: أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي؛ مثاله أن تذكر وصفاً من الأوصاف، وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قَدْحاً في الصناعة، وإن كان جائزاً.

فمن ذلك قول الكميت[١]:

أمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ رَافِعَةٌ وَإنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ[٢]

فإن الدَّلَّ يذكره مع الْغَنَج وما أشبهه، والشَّنَب يذكر مع اللَّعَس وما أشبهه، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيراً، وهو مَظِنَّة الغلط؛ لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحِذْقٍ بحيث توضع المعاني مع أخواتها، لا مع الأجنبي منها.

وقرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج[٣] أنه اجْتَمَع نُصَيْبٌ والكُمَيْت وذو الرُّمَّة، فأنشد الكميت «أم هل ظعائن ـ البيت» فَقَعَدَ نصيبٌ واحدة؛ فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ قال: خطأك؛ فإنك تباعدت في القول، أين الدَّلُّ من الشَّنَبِ؟ ألاَّ قُلْتَ كما قال ذو الرمة:

(١) البيت من قصيدة للكميت بن زيد الأسدي، ومطلعها قوله:

هَلْ أنْتَ عَنْ طَلَبِ الإِيقَاعِ مُنْقَلِبُ أمْ هَلْ يُحَسِّنُ مِنْ ذِي الشَّيْبَةِ اللَّعِبُ

وهي قصيدة يعارض فيها قصيدة ذي الرمة التي أولها:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الماءُ يَنْسَكِبُ كَأنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ

(٢) روي هذا البيت بروايات مختلفة، فوقع في ا، ب، ج «بالعلياء رافعة» ووقع في رواية لثعلب «بالعلياء نافعة» ووقع في رواية لإسحاق الموصلي «بالخلصاء رابعة» ووقع في رواية لمحمد بن يزيد:

وَقَدْ رَأيْنَا بِهَا حُوراً مُنَعَّمَةً بِيضاً تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ

انظر الموشح ص ١٩١.

(٣) انظر هذه القصة بروايات متعددة في الموشح للمرزباني (١٩١ ـ ١٩٨).

لَـمْيَـاءُ فـي شَفَـتَيْـهَـا حُـوَّةٌ لَعَسٌ وَفِي اللِّثَـاثِ وَفِي أَنْيَـابِهَـا شَنَبُ

ورأيت أبا نواس يقع في ذلك كثيراً؛ كقوله في وصف الديك[1]:

لَـهُ اعْـتِـدَالٌ وانْـتِـصَـابُ قَـدٍّ وَجِـلْدُهُ يُـشْـبِـهُ وَشْـيَ الْـبُـرْدِ
كَـأَنَّـهَـا الْهُـدّابُ فِـي الْـفِـرِنْـدِ مُحْـدَوْدِبُ الـظَّهْـرِ كَـرِيمُ الْجَـدِّ

فإنه ذكر الظهر وقَرَنَه بذكر الجد، وهذا لا يناسب هذا؛ لأن الظهر من جملة الْخَلْق، والجَدّ من النسب، وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه أيْضاً.

وكذلك أخطأ أبو نواس في قوله:

وَقَـدْ حَـلَفْـتُ يَـمِـيـنـاً مَـبْـرُورَةً لَا تُـكَـذَّبْ
بِـرَبِّ زَمْـزَمَ وَالْـحَـوْ ضِ وَالـصَّـفَـا وَالْـمُـحَـصَّـبْ

فإن ذكر الحَوْض مع زمزم والصَّفَا والمحصَّب غَيْرُ مناسب، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان، وما جرى مجراهما، وأما زَمْزَم والصَّفَا والمحصَّب فيذكر معها الرُّكْنُ وَالحَطِيم، وما جرى مجراهما.

(١) الأبيات من أرجوزة له يصف فيها الديك، وليس ترتيبها في الديوان كترتيبها فيما ذكر المؤلف؛ ونحن نذكر لك من هذه الأرجوزة ما يجمع الأبيات التي رواها المؤلف، لهذا، ولأن في رواية الديوان بعض اختلاف يحسن أن نقفك عليه؛ قال:

أَنْـعَـتُ دِيـكـاً مِـنْ دُيُـوكِ الْـهِـنْـدِ أَحْسَنَ مِنْ طَاوُوسِ قَصْرِ الْمَهْدِي
أَشْـجَـعَ مِـنْ عَـادِي عَـرِيـنِ الأَسْـدِ تَـرَى الـدَّجَـاجَ حَـوْلَـهُ كَـالْـجُـنْـدِ
يُـقْـعِـيـنَ مِـنْـهُ خِـيـفَـةً لِـلسَّـفْـدِ لَـهُ سُـقَـاعٌ كَـدَوِيِّ الـرَّعْـدِ
مِـنْـقَـارُهُ كَـالْـمِـعْـوَلِ الْـمُـحَـدِّ يَـقْـهَـرُ مَـا نَـاقَـرَهُ بِـالـنَّـقْـدِ
عَـيْـنَـاهُ مِـنْـهُ فـي الْـقَـفَـا وَالْـخَـدِّ ذُو هَـامَـةٍ وَعُـنُـقٍ كَـالْـوَرْدِ
وَجِـلْدَةٍ تُـشْـبِـهُ وَشْـيَ الْـبُـرْدِ ظَـاهِـرُهَـا زَفٌّ شَـدِيـدُ الْـوَقْـدِ
كَـأَنَّـهُ الْـهُـدَّابُ فِـي الْـفِـرِنْـدِ مُـضَـمَّـرُ الْـخَـلْقِ عَـمِـيـمُ الْـقَـدِّ
لَـهُ اعْـتِـدَالٌ وَانْـتِـصَـابُ قَـدٍّ مُـحْـدَوْدِبُ الـظَّهْـرِ كَـرِيـمُ الْـجَـدِّ

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضاً:

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِي قَارِ ... مَنْزِلُ خَمَّارَةٍ وَخَمَّارِ[١].
وَشَمُّ رَيْحَانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ ... أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوَارِ

فالبيت الثاني لا مقارنة بين صدره وعجزه، وأين شَمُّ الريحان من الأينق بالأكوار؟ وكان ينبغي له أن يقول: شمُّ الريحان أحسن من شم الشِّيح والْقَيْصُوم، وركوب الفَتَيات الرُّود أحْسَنُ من ركوب الأينق بالأكوار، وكلُّ هذا لا يتفطن لوضعه في مواضعه في كل الأوقات، وقد كان يغلب عليَّ السهوُ في بعض الأحوال حتى أسلك هذه الطريق في وضع المعاني مع غير أنسابها وأقاربها، ثم إني كنت أتأمل ما صنعته بعد حين فأصلح ما سهوت عنه.

وأما المواخاة بين المباني فإنه يتعلق بمباني الألفاظ.

فمن ذلك قول أبي تمام في وصف الرماح[٢]:

مُثَقَّفَاتٌ سَلَبْنَ الْعُرْبَ سُمْرَتَهَا ... وَالرُّومَ زُرْقَتَهَا وَالْعَاشِقَ الْقَضَفَا[٣]

---

(١) في الديوان (ص ٢٨٨ مصر):

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِي قَارِ ... مَنْزِلُ خَمَّارَةٍ بِالْأَنْبَارِ
وَشَمُّ رَيْحَانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ ... أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوَارِ
وَعِشْرَةُ لِلْقِيَانِ فِي دَعَةٍ ... مَعَ رَشَإٍ عَاقِدٍ لِزُنَّارِ
أَلَذُّ مِنْ مَهْمَهٍ أَكُدُّ بِهِ ... وَمِنْ سَرَابٍ أُجُوبُ غَرَّارِ
وَنَقْرُ عُودٍ إِذَا تُرَجِّعُهُ ... بَنَانُ رُودِ الشَّبَابِ مِعْطَارِ
أَحْقَنُ عِنْدِي مِنْ أُمِّ نَاجِيَةٍ ... وَأُمِّ عَمْرٍو وَأُمِّ عَمَّارِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف العجلي، وأولها قوله:

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَا سَلَفَا ... فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

(٣) مثقفات: مقومات معدلات، وتقول: ثقفت الرمح تثقيفاً؛ إذا قومته وعدلته بالثقاف، بزنة كتاب، والقضف ـ بفتح القاف والضاد جميعاً ـ النحافة؛ يريد أن هذه الرماح معدلات مقومات؛ وأنها زرقاء السنان صافية الجوهر كلون الروم، وأنها سمراء كلون العرب، وأنها نحيفة كالعاشق.

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الأفراد، غير أن فيه نظراً، وهو قوله العُرْب والروم ثم قال العاشق، ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن؛ إذ كانت الأوصاف تجري على [سَنَن] واحد، وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ثم قال القضفا، وكان ينبغي أن يقول: قضفها أو دقتها.

وعلى هذا ورد قول مُسْلِمِ بن الْوَلِيد:

نَفضت بِكَ الْأَحْلَاسُ نَفْضَ إِقَامَةٍ وَٱسْتَرْجَعَتْ نُزَّاعَهَا الْأَمْصَارُ
فَٱذْهَبْ كَما ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْنِي عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ

والأحسن أن يقال: السَّهْلُ والْوَعْرُ؛ أو السهول والأوعار؛ ليكون البناء اللفظي واحداً: أي أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الإفراد، ولا يكون أحدهما مجموعاً والآخر مفرداً.

وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر(١):

صَفْرَاءُ مَجَّدَهَا مَرَازِبُهَا جَلَّتْ عَنِ النُّظَرَاءِ وَالْمِثْلِ(٢)

فجمع وأفرد في معنى واحد، وهو أنه قال «النظراء» مجموعاً ثم قال «المثل» مفرداً، وكان الأحسن أن يقول: النظير والمثل، أو النظراء والأمثال.

وعلى ذلك ورد قوله أيضاً، والإنكار يتوجَّه فيه أكثر من الأول، وهو(٣):

---

(١) من كلمة له أولها قوله:
كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ وَمُحَسِّنَ الضحكَاتِ وَالْهَزْلِ
(٢) قبل هذا البيت قوله:
وَالرَّاحُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رَزَأَتْ بُلَغُ الْمَعَاشِ وَقَلَّلَتْ فَضْلِي
وبعده قوله:
ذُخِرَتْ لِآدَمَ قَبْلَ خِلْقَتِهِ فَتَقَدَّمَتْهُ بِخُطْوَةِ الْقَبْلِ
(٣) البيتان من خمسة أبيات له في الزهد، ورواية الديوان (ص ١٩٨) فيهما تخالف رواية المؤلف بعض المخالفة، وهاك الأبيات كلها برواية الديوان:

أَلَا يَـا ابْنَ الَّـذِينَ فَنُـوا فَمَـاتُـوا ... أَمَـا وَاللهِ مَـا مَـاتُـوا لِـتَـبْـقَـى
وَمَـالَـكَ فَـاْعْـلَمَنْ فِيـهَـا مُـقَـامُ ... إِذَا اسْـتَـكْـمَـلْتَ آجَـالاً وَرِزْقَـا

ومـوضع الإِنكـار ههنا أنـه قال «آجـالاً ورزقاً» وكـان ينبغي أن يقول: أرزاقـاً، أو أن يقول: أَجَلاً ورِزْقَا، وقد زاده إنكاراً أنه جمع الأجل فقال «آجالاً» والإِنسـان ليس له إلا أجل واحد، ولو قال أجـلاً وأرزاقاً لمـا عيب؛ لأن الأجل واحـد والأرزاق كثيرة؛ لِاخْتِلَافِ ضروبها وأجناسها.

وإذا أنصفنا في هذا الموضع وجدنا الناثر مُطَالباً به دونَ الناظم؛ لمكان إمكانه من التصرف.

وقد كنت أرى هذا الضـرب من الكلام واجبـاً في الاستعمال، وأنـه لا يحسن المَحِيـدُ عنه، حتى مـر بي في القرآن الكـريم ما يخـالفه، كقـوله تعـالى في سـورة النحل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِـلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَـائِلِ﴾ ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحدٍ لجمع اليمين كما جمع الشمال أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين، وكذلك ورد قـوله تعـالى: ﴿أُولَئِكَ الَّـذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ﴾ فجمع القلوب والأبصـار وأفرد السمع، وكذلك ورد قوله تعـالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَـاءُوهَا شَهِـدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ فـذكـر السمـع بلفظ الإِفـراد وذكـر الأبصـار والجلود بلفظ الجمع؛ وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا، ولو كان هذا معتبراً في الاستعمـال لورد في كلام الله تعالى الذي هو أفصح من كـل كلام، والأخـذ في مقام الفصاحة

= أَخِـي، مَـا بَـالُ قَلْبِـكَ لَـيْسَ يَـنْـقَـى ... كَـأَنَّـكَ لَا تَـظُنُّ الـمَـوْتَ حَـقَّـا
أَلَا يَـابْـنَ آلَّـذِيـنَ فَـنُـوا وَبَـادُوا ... أَمَـا وَآللهِ مَـا بَـادُوا لِـتَـبْـقَـى
وَمَـالَـكَ فَـاْعْـلَمَـنَّ بِـهَـا مُـقَـامٌ ... إِذَا آسْـتَـكْـمَـلْتَ آجَـالاً وَرِزْقَـا
وَمَـالَـكَ غَـيْـرَ مَـا قَـدَّمْـتَ زَادٌ ... إِذَا جُـعِـلَتْ إِلَـى الـلَّهَـوَاتِ تَـرْقَـى
وَمَـا أَحَـدٌ بِـزَادِكَ مِـنْـكَ أَحْـظَى ... وَمَـا أَحَـدٌ بِـزَادِكَ مِـنْـكَ أَشْـقَـى

والبلاغة إنما يكون منه، والمعوَّل عليه، وما ينبغي أن يقاس على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وربما قيل: إن هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وإفراد، وظن أنها من هذا الباب، وليس كذلك: لأنها مشتملة على خطاب موسى وهرون عليهما السلام أولاً في اتخاذ المساجد لقومهما، ثم ثَنّى الخطاب لهما ولقومهما جميعاً، ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين؛ لأنه صاحب الرسالة.

الضرب الثاني: في مقابلة الشيء مثله، وهو يتفرع إلى فرعين: أحدهما: مقابلة المفرد بالمفرد، والآخر مقابلة الجملة بالجملة.

الفرع الأول: كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ وقد روعي هذا الموضع في القرآن الكريم كثيراً؛ فإذا ورد في صدر آية من الآيات ما يحتاج إلى جوانب كان جوابه مماثلاً، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وهذا هو الأحسن، وإلا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه كان ذلك جائزاً، لكن الأحسن هو ما ورد في كتاب الله تعالى، وعليه مدار الاستعمال.

وهذا الحكم يجري في النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية.

فأما إن كان ذلك غير جواب؛ فإنه لا يلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية، ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هي في معناها، وإن لم تكن مساوية لها في اللفظ، وهذا يقع في الألفاظ المترادفة؛ ولذا يستعمل ذلك في الموضع الذي ترد فيه الكلمة غير جواب.

فما جاء منه قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ولو كان لا تورد الكلمة إلا مثلاً لقيل وهو أعلم بما تعملون، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ فقال ﴿لا تخف﴾ بعد قوله

﴿ففزع﴾ ولما كان هذا في معنى هذا قوبل أحدهما بالآخر، ولم يقابل اللفظ بنفسه.

وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ فذكر الاستهزاء الذي هو في معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض واللعب، ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال: أفي الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون.

فإن قيل: إنك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته، ونرى قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ ولم يقل جزاء سيئة سيئة مثلها.

الجواب عن ذلك أني أقول: أردت أن تنقض عليَّ ما ذكرته فلم تنقضه، ولكنك شَيَّدته، والذي ذكرته هو دليل لي لا لك، ألا ترى أنه لا فرق بين قوله تعالى ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ وبين قوله جزاء سيئة سيئة مثلها؛ إذ المعنى واحد لا يختلف، ولو جاء عوضاً عن السيئة لفظة أخرى في معناها كالأذى والسوء أو ما جرى مجراهما لصح لك ما ذهبت إليه.

وقد ذهب بعض المتصدرين في علم البيان أنه إذا ذكرت اللفظة في أول كلام يحتاج إلى تمام، وإن لم يكن جواباً كالذي تقدم؛ فينبغي أن تُعاد بعينها في آخره، ومتى عدل عن ذلك كان معيباً، ثم مثل ذلك بقول أبي تمام وقَوْل أبي الطيب المتنبي، فقال: إن أبا تمام أخطأ في قوله[1]:

بَسَطَ الرَّجَاءَ لَنَا بِرَغْمِ نَوَائِب ... كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصَارِعُ الآمَالِ[2]

---

(١) البيت من كلمة له يمدح فيها الحسن بن رجاء، وأولها قوله:

يَكْفِي وَغَاكَ فَإِنَّنِي لَكَ قَالِ ... لَيْسَتْ هَوَادِي عَزْمَتِي بِتَوَالِ

ومثل هذا البيت قول أبي تمام أيضاً:

ثَكِلَتْ رَجَاءَ أَخِيكَ فُرْقَتُكَ الَّتِي ... قَدْ أَمْسَكَتْ بِمُخَنَّقِ الآمَالِ

(٢) في الديوان (ص ٢٤٦ بيروت): «أحيا الرجاء لنا برغم نوائب».

فحيث ذكر الرجاء في صدر البيت فكان ينبغي أن يعيد ذكره أيضاً في عجزه، أو كان ذكر الآمال في صدر البيت وعجزه، وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبي في قوله[1]:

إِنِّــي لَأَعْـلَمُ وَالـلَّبِيــبُ خَبِـيــرُ   أَنَّ الـحَيَـاةَ وَإِنْ حَـرَصْـتَ غُـرُورُ

فإنه قال «إني لأعلم واللبيب خبير» وكان ينبغي أن يقول: إني لأعلم واللبيب عليم؛ ليكون ذلك تقابلاً صحيحاً.

وهذا الذي ذكره هذا الرجل ليس بشيء، بل المعتمد عليه في هذا البـاب أنه إذا كانت اللفظة في معنى أختهـا جاز استعمـالها في المقـابلة بينهما، والـدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم، وكفى به دليلاً.

وهذه الرموز التي هي أسرار الكلام لا يتفطَّن لاستعمالها إلا أحد رجلين: إما فقيه في علم البيان قـد مارسـه، وإما مشقـوق اللسان في الفصـاحة قـد خلق عارفـاً بلطائفهـا مستغنياً عن مـطالعة صحـائفها، وهـذا لا يكون إلا عَـرَبيَّ الفطرة يقـول ما يقوله طبعاً، على أنه لا يسدد في جميع أقواله، ما لم تكن معرفته الفطرية ممزوجـة بمعرفته العرفية.

الفـرع الثـاني في مقـابلة الجملة بـالجملة: اعلم أنـه إذا كـانت الجملة من الكلام مستقبلة قوبلت بمستقبلة، وإن كانت ماضيـة قوبلت بمـاضية، وربمـا قوبلت الماضية با لمستقبلة، والمستقبلة بالماضية؛ إذا كانت إحداهما في معنى الأخرى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي**﴾ فـإن هذا تقـابل من جهـة المعنى، ولو كـان التقابـل من جهة اللفظ لقال: وإن اهتديت فإنما أهتدي لها، وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى

(١) هذا مطلع قصيدة له يرثي فيها محمد بن إسحاق التنوخي، وبعده قوله:

وَرَأَيْـتُ كُـلًّا مَـا يُـعَـلِّلُ نَـفْـسَـهُ   بِـتَـعِـلَّةٍ، وَإِلَـى الْـفَـنَـاءِ يَـصِـيـرُ
أَمُـجَـاوِرَ الـدِّيـمَـاسِ رَهْـنَ قَـرَارَةٍ   فِـيـهَـا الـضِّـيَـاءُ بِـوَجْـهِـهِ وَالـنُّـورُ
مَـا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْـلَ دَفْنِـكَ فِي الثَّرَى   أَنَّ الْـكَـوَاكِـبَ فِـي الـتُّـرَابِ تَـغُـورُ

هو أن النفس كل ما عليها فهو بها؛ أعني أن كل ما هو وَبَال عليها وَضَارٌّ لها فهو بسببها ومنها: لأنها الأمارة بالسوء، وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها، وهذا حكم عام لكل مُكَلَّف، وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع عُلُوّ محله وسداد طريقته كان غيره أولى به.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ فإنه لم يراع التقابل في قوله ليسكنوا فيه ومبصراً؛ لأن القياس يقتضي أن يكون والنهار لتبصروا فيه، وإنما هو مراعى من جهة المعنى، لا من جهة اللفظ، وهذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى قوله مبصراً لتبصروا فيه طرقَ التقلّب في الحاجات.

واعلم أن في تقابل المعاني باباً عجيبَ الأمر، يحتاج إلى فضل تأمل، وزيادة نظر، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور، وبالأعجاز من الأبيات الشعرية.

فما جاء من ذلك قوله تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ• أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ألا ترى كيف فصل الآية الأخرى بيعلمون والآية التي قبلها بيشعرون، وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدّي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دُنْيَوِيّ مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور، وفهو كالمحسوس عندهم، فلذلك قال فيه ﴿لا يشعرون﴾ وأيضاً فإنه لما ذكر السفه في الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقاً فقال ﴿لا يعلمون﴾.

وآيات القرآن جميعها فصلت هكذا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وكقوله: ﴿لَهُ مَا فِي

السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فإنه إنما فصلت الآية الأولى بلطيف خبير لأن ذلك في موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وغيره، وأما الآية الثانية فإنما فصلت بغني حميد لأنه قال: ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ له لا لحاجة، بل هو غني عنها، جوّاد بها؛ لأنه ليس كل غَنِيٍّ نافعاً بغناه إلا إذا كان جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده الْمُنْعَمُ عليه، واستحق عليه الحمد، فذكر الحميد ليدل على أنه الغنيُّ النافع بغناه خلقه، وأما الآية الثالثة(١) فإنها فصلت برءوف رحيم؛ لأنه لما عدَّد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض لهم وإجراء الفلك في البحر بهم وتسييرهم في ذلك الهول العظيم وخلقه السماء فوقهم وإمساكه إياهن الوقوع حَسُنَ أن يفصل ذلك قوله ﴿رءوف رحيم﴾ أي: أنّ هذا الفِعْلَ فِعْلُ رؤوف بكم رحيم لكم.

واعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قَلَّمَا توجد هذه الملاءمة والمناسبة في كلام ناظم أو ناثر.

ومن الآيات ما يشكل فاصلته فيحتاج إلى فكرة وتأمل، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فإنَّه قد وردت الفاصلة في غير هذا الموضع بتواب رحيم، ويظن الظان أن هذا كذا، ويقول: إن التوبة مع الرحمة، لا مع الحكمة؛ وليس كما يظن، بل الفاصلة بتَوَّاب حكيم أولى من تَوَّاب رحيم؛ لأن الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التي أمر بها، وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده، وذلك حكمة منه،

(١) في ج «وأما الآية الثانية» وهو تحريف، وصوابه عن ا، ب، د.

ففصلت الآية الواردة في آخر الآيات بتواب حكيم، فجمع فيها بين التوبة المرجوّة من صاحب المعصية وبين الحكمة في سَتْرِها على تلك الصورة.

وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر منه نفعاً، ولا أعظم فائدة.

ومما جاء من هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

وقد أُوخذ على ذلك، وقيل: لو جعل آخر البيت الأول آخراً للبيت الثاني وآخر البيت الثاني آخر للبيت الأول لكان أولى.

ولذلك حكاية، وهي أنه لما استنشده سيف الدولة يوماً قصيدته التي أولها:

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ(١) *

فلما بلغ إلى هذين البيتين قال: قد انتقدتُهُمَا عليك كما انْتُقِدَ على امرىء القيس قوله(٢):

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرىء القيس، وكان ينبغي لك أن تقول:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة التي منها البيتان السابقان، وعجزه قوله:

* وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ المَكَارِمُ *

(٢) هذا البيتان من قصيدته التي أولها قوله:

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

فقال المتنبي: إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البَزَّاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف تفاصيله، وإنما قَرَنَ امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد؛ وقَرَنَ السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وكذلك لما ذكرتُ الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره، ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوساً وعينه باكية قلت «وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ» لأجمع بين الأضداد.

القسم الثاني: في صحة التقسيم وفساده.

ولسنا نريد بذلك ههنا ما تقتضيه القسمة العقلية، كما يذهب إليه المتكلمون؛ فإن ذلك يقتضي أشياء مستحيلة، كقولهم: الجواهر لا تخلو: إما أن تكون مجتمعة، أو مفترقة، أو لا مجتمعة ولا مفترقة، أو مجتمعة ومفترقة معاً، أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة؛ ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل؛ لاستيفاء الأقسام جميعها وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده.

وإنما نريد بالتقسيم ههنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذكرت قام كلُّ قسم منها بنفسه، ولم يشارك غيره، فتارة يكون التقسيم بلفظة «إما» وتارة بلفظة بين كقولنا: بين كذا وكذا، وتارة منهم، كقولنا: منهم كذا، ومنهم كذا، وتارة بأن يذكر العدد المراد أولاً بالذكر، ثم يقسم؛ كقولنا: فانشعب القوم شعباً أربعة؛ فشعبة ذهبت يميناً، وشعبة ذهبت شمالاً، وشعبة وقفت بمكانها، وشعبة رجعت إلى ورائها.

فمما جاء من هذا القسم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهذه قسمة صحيحة؛ فإنه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة: فإما عاصٍ ظالم لنفسه، وإما مُطِيع مبادر إلى الخيرات، وإما مقتصِد بينهما.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً. فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾

وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التي قبلها؛ فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون، والسابقون هم السابقون بالخيرات.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ فإن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع، وليس لنا قسم ثالث.

فإن قيل: إن استيفاء الأقسام ليس شرطاً، وترك بعض الأقسام لا يَقْدَح في الكلام، وقد ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصِحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار.

فالجواب عن ذلك أني أقول: هذا لا ينقض على ما ذكرته؛ فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم الإجمال فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ﴾ فإنه حيث قال ﴿فمنهم﴾ لزم استيفاء الأقسام الثلاثة، ولو اقتصر على قسمين منها لم يَجُزْ، وأما هذه الآية التي هي ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ فإنه إنما خَصَّ أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فَوْزَ لهم، ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضاً ما لأصحاب الجنة، وكذلك كل ما يجري هذا المجرى؛ فإنه إنما ينظر فيه إلى المستبهم وغير المستبهم، فاعرفه.

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول بعض الأعراب، ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات، وهو قولهم: النِّعَمُ ثلاثة: نعمة في حال كونها، ونعمة تُرْجَى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه، وحَقَّق ظنك فيما ترتجيه، وتَفَضَّلَ عليك بما لم تحتسبه.

وهذا القول فاسد؛ فإن في أقسام النعم التي قسمها نقصاً لا بد منه، وزيادة لا حاجة إليها، فأما النقص فإغفال النعمة الماضية، وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة: ونعمة تأتي غير محتسبة؛ لأن النعمة التي تأتي غير محتسبة داخلة في قسم النعمة المستقبلة، وذاك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين: أحدهما يُرْجَى

حصوله، والآخر لا يحتسب، فقوله: ونعمة تأتي غير محتسبة؛ يُوهِمُ أن هذا القسم غير المستقبل، وهو داخل فيه، وعلى هذا فكان ينبغي له أن يقول النعم ثلاث: نعمة ماضية، ونعمة في حال كونها، ونعمة تأتي مستقبلة؛ فأحْسَنَ الله آثار النعمة الماضية، وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها، ووفَّر حظك من النعمة التي تستقبلها؛ ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مَفصِلَ الصواب؟

وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى في قوله(١):

جُمِعَتْ لَنَا فِرَقُ الأمَانِي مِنْكُمُ ... بأبَرَّ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ وَأوْصَلِ (٢)
فَصَنِيعَةٌ فِي يَوْمِهَا وَصَنِيعَةٌ ... قَدْ أحْوَلَتْ وَصَنِيعَةٌ لَمْ تُحْوِلِ
كالْمُزْنِ مِنْ مَاءِ الرَّبَابِ فَمُقْبِلٍ ... مُتَنَظَّرٍ وَمُخَيِّمٍ مُتَهَلِّلِ (٣)

ووقف أعرابي على مجلس الحسن البصري رضي الله عنه فقال: رحم الله عبداً أعطى من سَعَة، أو آسى من كَفاف، أو آثر من قِلَّة، فقال الحسن البصري: ما ترك لأحد عذراً.

وقد عاب أبو هلال العسكري على جَمِيل قوله(٤):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الوليد أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

بَوَّأتُ رَحْلِي في المَرَادِ المُبْقِلِ ... وَرَتَعْتُ في أثَرِ الْغَمَامِ المُسْبِلِ

(٢) في ا، ب، ج «جمعت لها فوق» وهو تصحيف صوابه عن الديوان.

(٣) في ا، ب، ج «كالمزن من ماضي الرباب» وفي الديوان «كالمزن من ماء السحاب»، وما أثبتناه عن د، وفي جميع النسخ «ومقبل متنظر» بالواو وما أثبتناه عن الديوان.

(٤) من كلمة له أولها قوله:

أبُثَيْنُ إنَّكِ قَدْ مَلَكْتِ فَأسْجِحِي ... وَخُذِي بِحَظِّكِ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
فَلَرُبَّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصْلَهَا ... بِالْجِدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
فَأجَبْتُهَا بِالرِّفْقِ بَعْدَ تَسَتُّرٍ ... حُبِّي بُثَيْنَةَ عَنْ وِصَالِكِ شَاغِلِي

وبعد هذا البيت الذي أنشده المؤلف.

لَـوْ كَـانَ فِـي قَلْبِـي كَـقَـدْرِ قُـلاَمَـةٍ حُبّـاً وَصَلْتُـكِ أَوْ أَتَتْـكِ رَسَـائِلِي[١]

فقال أبو هلال[٢] : إن إتيان الرسائل داخل في جملة الْوَصْل. وليس الأمـر كما وقـع لـه؛ فإن جميـلاً إنما أراد بقـوله وصلتـك أي أتيتك زائـراً وقاصـداً أو كنت راسلتك مراسلة، وبالوصل لا يخرج عن هذين الوصفين: إما زيارة، وإما رسالة.

ومن أعجب مـا وجدتـه في هذا البـاب ما ذكـره أبـو العـلاء محمـد بن غـانم المعروف بالغانمي، وهو قول العباس بن الأحنف[٣] :

وِصَـالُـكُمْ هَـجْـرٌ وَحُـبُّـكُـمْ قِـلاً وَعَـطْفُكُمْ صَـدٌّ وَسِلْمُكُمْ حَـرْبُ[٤]

ثم قال الغانمي: هذا والله أصحُّ من تقسيمات إقليدس، ويالله العجب! أين التقسيم من هـذا البيت؟ هـذا والله في وادٍ والتقسيم في وادٍ، ألا تـرى أنـه لم يـذكـر شيئـاً تحصره القسمة، وإنما ذم أحبابه في سوء صنيعهم بـه، فذكـر بعض أحوالـه معهم، ولو قال أيضاً:

وَلِـينُـكُـمْ عُـنْـفٌ وَقُـرْبُـكُـمْ نَـوًى وَإِعْـطَاؤُكُمْ مَنْعٌ وَصِـدْقُكُمْ كِذْبُ

لكان هذا جائزاً، وكذلك لـو زاد بيتاً آخـر لجاز، ولـو أنه تقسيم لمـا احتمل زيـادة، والأولى أن يضاف هذا البيت الذي ذكره الغانمي إلى باب المقـابلة؛ فإنـه أولى بـه؛ لأنه قابل الوصل بالهجر، والعطف بالصد، والسلم بالحرب.

ومن فساد التقسيم قول البحتري في قصيدته التي مطلعها:

---

(١) في الديوان «كقدر قلامة فضلاً».

(٢) انظر كتاب «الصناعتين» لأبي هلال (ص ٢٧٠ الآستانة).

(٣) من كلمة له أولها قوله:

أَلَا لَـيْتَ ذَاتَ الـخَـالِ تَلْقَـى مِنَ الـهَـوَى عُـشَيْـرَ ٱلَّـذِي أَلْـقَـى فَـيَلْتَئِمَ الـشَّعْـبُ

(٤) في الديوان (ص ١٣ الجوائب): «وصالكم صرم».

* ذَاكَ وَادِي الْأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلاَ[(١)] *

فقال:

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيناً   أَوْ مُعِيناً أَوْ عَاذِراً أَوْ عَذُولاَ

فإن المشوق يكون حزيناً، والمسعد يكون معيناً، وكذلك يكون المسعد عاذراً، وكثيراً ما يقع البحتري في مثل ذلك.

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي، وهو[(٢)]:

فَافْخَرْ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلاَثَةٌ   مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلُ[(٣)]

فإن المستعظم يكون حاسداً، والحاسد يكون مستعظماً.

ومن شرط التقسيم ألّا تتداخل أقسامه بعضها في بعض.

ومن هذا الأسلوب ما ورد في أبيات الحماسة، وهو[(٤)]:

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن علي بن عيسى القمي، وعجزه قوله:

* مُقْصِراً مِنْ صَبَابَةٍ أَوْ مُطِيلاَ *

والبيت الذي ذكره المؤلف ونقده هو التالي لهذا المطلع (الديوان: ٢ ـ ٢١٠).

(٢) هذا البيت من قصيدة له يمدح فيها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي، وأولها قوله:

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ   أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

(٣) كذا في أصول الكتاب؛ وفي الديوان «يا افخر فإن الناس ـ إلخ» وقال أبو البقاء في شرحه: «يريد يا هذا افخر، فحذف المنادي، كقراءة علي بن حمزة (أَلَا يَا آسْجُدُوا للهِ آلَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ) ويجوز أن يكون جعله تنبيهاً بمنزلة ألا، كقول ذي الرمة:

أَلَا يَا آسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى   وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

ومثله في الشعر كثير» اهـ.

(٤) البيتان من شعر الحماسة، اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما لمعين، ونسبهما التبريزي لعبد الله بن همام السلولي، وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبي سفيان، ثم جمع زايد بينهما، فقال عبد الله للواشي ذينك البيتين.

وَكُنْتَ امْـرَأً إِمَّـا ائْتَمَنْتُـكَ خَـالِيـاً فَخُنْتَ وَإِمَّـا قُلْتَ قَـوْلاً بِـلاَ عِلْمِ[١]
فَـأَنْتَ مِنَ الأَمْـرِ الَّـذِي قَـدْ أَتَيْتَـهُ بِمَنْـزِلَـةٍ بَيْـنَ الْخِيَـانَـةِ وَالْإِثْـمِ

فإن الخيانة من الإثم، وهذا تقسيم فاسد.

ومما جاء من ذلك نثراً قول بعضهم في ذكر منهزمين: فمن جريح متضرج بدمائه، وهارب لا يلتفت إلى ورائه؛ فإن الجريح قد يكون هارباً، والهارب قد يكون جريحاً، ولو قال: فمن بين قتيل ومأسور وناج؛ لصح له التقسيم، أو لو قال: فمن بين قتيل ومأسور؛ لصح له التقسيم أيضاً؛ لعدم الناجي بينهما.

وقد أحسن البحتري في هذا المعنى حيث قال:

غَـادَرَتْهُمْ أَيْـدِي الـمَنِيَّـةِ صُبْحـاً بِـالْـقَـنَـا بَـيْـنَ رُكَّـعٍ وَسُـجُـودِ
فَـهُـمُ فِـرْقَـتَـانِ بَـيْـنَ قَـتِـيـلٍ قُـنِصَـتْ نَـفْسُـهُ بِـحَـدِّ الـحَـدِيـدِ
أَوْ أَسِيـرٍ غَـدَا لَـهُ السِّجْـنُ لَـحْـداً فَـهْـوَ حَيٌّ فـي حَـالَـةِ الـمَـلْحُـودِ
فِـرْقَـةٌ لِلسُّيُـوفِ يَـنْـفُـذُ فِـيهَـا الْـحُـكْـمُ قَـصْـداً وَفِـرْقَـةٌ لِـلْقُـيُـودِ

ومن فساد التقسيم قول أبي تمام[٢]:

وَمَـوْقِفٌ بَيْـنَ حُكْـمِ الـذُّلِّ مُنْقَـطِع صَـالِيهِ أَوْ بِحِبَـالِ الـمَوْتِ مُتَّصِـلُ[٣]

فإنه جعل صالي هذا الموقف إما ذليلاً عنه أو هالكاً فيه، وههنا قسم ثالث، وهو ألا يكون ذليلاً ولا هالكاً، بل يكون مُقْدِماً فيه ناجياً.

وفي هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه؛ فإن أبا تمام قصد الغلو في وصف

(١) الذي في الحماسة وشرحه «وأنت امرؤ إما أئتمنتك ـ إلخ» انظر شرح التبريزي على الحماسة (٣ ـ ١٤٢).

(٢) من قصيدة له يمدح المعتصم بالله، وأولها قوله:

فَحْـوَاكَ عَـيْـنٌ عَـلَى نَـجْـوَاكَ يَـا مَـذِلُ حَـتَّـامَ لاَ يَـتَـقَـضَّـى قَـوْلُـكَ الـخَـطِلُ

(٣) في الديوان (ص ٢٢٨): «ومشهد بين حكم الذل».

هذا الموقف، فقال: إن الناس فيه أحد رجلين: إما ذليل عن مورده، وإما هالك فيه: أي أنه لا ينجو منه أحد يَرِدُه، وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه.

القسم الثالث: في ترتيب التفسير، وما يصح من ذلك وما يفسد.

اعلم أن صحة الترتيب في ذلك أنْ يُذْكر في الكلام معانٍ مختلفة، فإذا عيد إليها بالذكر لتفسر قدم المقدم وأخر المؤخر، وهو الأحسن، إلا أنه قد ورد في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يُرَاع فيه تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر؛ كقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**﴾ ولو قدم تفسير المقدم في هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل: إن يشأ يسقط عليهم كسفاً من السماء أو يخسف بهم الأرض.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ**﴾ فقدم المؤخر وأخر المقدم.

والقسمان قد وردا جميعاً في القرآن الكريم:

فمما روعي فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخر قوله تعالى: ﴿**وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ**

مُبْصِراً وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل، وهو السكون، على سبب النهار، وهو التعيش.

ومن ذلك ما كتبته في كتاب تعزية، وهو فصل منه، قلت: ولقد أوحَشَت منه المعالي كما أوحشت المنازل، وآتتِ المكارمُ كما آمت الحَلائل، وعَمَّتْ لَوْعَة خطبه فما تشتكي ثكلى إلا إلى ثاكل، وما أقول فيمن عَدِمَت الأرضُ منه حَيَاها، والمحامد مَحْيَاها، فلو نطق الجماد بلسان، أو تصور المعنى لعيان؛ لأعْرَبَتْ تلك من ظمأ صعيدها، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها.

ومن ذلك ما كتبته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان؛ فقلت: وما زالت أيادي سيدنا متنوعة في زيادة جودها وكتابها، فهذه مُتَطَوِّلة بترقية وردها وهذه آخذة بسنة أغبابها، وأحسن ما في الأولى أنها تأتي متحلية بفواضل الإكثار، وفي الثانية أنها تأتي متحلية بفضائل الاختصار؛ فاختصار هذه في فوائد أقلامها، كتطويل تلك في عوائد إنعامها، وقد أصبحت خواطري مستغرقة بإنشاء القول المبتكر، في شكر الفضل المطول وجواب البيان المختصر، وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يستقلّ بأداء حقوق تنقل على الرقاب، ومقابلة بلاغات تثقل على الألباب.

ومما جاء من ذلك شعراً قول إبراهيم بن العباس(١):

لَنَا إِبِلٌ كُومٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَا ... وَيَفْتَرُّ عَنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا

فَمِنْ دُونِهَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُنَا ... وَمِنْ دُونِنَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُهَا(٢)

حِمًى وَقِرًى فَالْمَوْتُ دُونَ مَرَاحِهَا ... وَأَيْسَرُ خَطْبٍ يَوْمَ حُقَّ فَنَاؤُهَا(٣)

وهذه الأبيات من نادر ما يجيء في هذا الباب معنى وترتيب تفسير.

---

(١) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين، والأبيات الثلاثة في ديوانه (ص ١٥٣) في الافتخار.

(٢) في الديوان «ومن دونها أن يستذم دماؤها» وما هنا أروع.

(٣) في ا، ب، ج «دون مرامها» وهو تصحيف، وصوابه عن الديوان.

ومما جاء منه أيضاً قول أبي تمام(١).

وَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ ... تمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مَائِلِ(٢)

فَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ ... وَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلِ

وكذلك قوله أيضاً:

وَكَانَ لَهُمْ غَيْثاً وَعِلْماً فَمُعْدِمٌ ... فَيَسْأَلُهُ أَوْ بَاحِثٌ فَيُسَائِلُهُ

وهذا من بديع ما يأتي في هذا الباب.

ومما ورد منه قول علي بن جَبَلة:

فَتًى وَقَفَ الْأَيَّامَ بِالسُّخْطِ وَالرِّضَا ... عَلَى بَذْلِ عُرْفٍ أَوْ عَلَى حَدِّ مُنْصُلِ

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نواس(٣):

يَرْجُو وَيَخْشَى حَالَتَيْكَ الْوَرَى ... كَأَنَّكَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين، وهو القاضي الأرجَاني(٤):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم، ويذكر الأفشين، وأولها قوله:

غَدَا الْمُلْكُ مَعْمُورَ الحَرَا وَالمَنَازِلِ ... مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ المَنَاهِلِ

الحرا: الجهة والناحية؛ والوحف: الريان؛ والمناهل: جمع منهل، وهو الحوض.

(٢) المرهف: السيف، والأخدعان: عرقان في المحجتين: وظبة السيف: حده.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع، وأولها قوله:

هَلْ مِنْكَ لِلْمَكْتُومِ إِظْهَارُ ... أَمْ مِنْكَ تَغْبِيبٌ وَإِنْكَارُ

انظر الديوان (ص ٩١ مصر).

(٤) من قصيدة له يمدح فيها الفقيه جمال الدين بن الحسن بن سليمان مدرس النظامية ببغداد، وأولها قوله:

يَا مُعْرِضاً قَدْ آنَ أَنْ تَتَلَفَّتَا ... تَعْذِيبُ قَلْبِي الْمُسْتَهَامِ إِلَى مَتَى

انظر الديوان (ص ٦٧ بيروت).

يَـوْمُ الـمُتَيَّمِ فِيـكَ حَـوْلُ كَـامِـلِ   يَـتَعَـاقَـبُ الْـفَـضْـلاَنِ فِـيـهِ إذَا أَتَـى
مَـا بَيْنَ حَرِّ جَـوًى وَمَـاءِ مَـدَامِـعٍ   إنْ حَنَّ صَـافَ وَإنْ بَكَى وَجْـداً شَتَـا

ومما أخذ على الفرزدق في هذا الباب قوله[1]:

لَقَـدْ جِئْتَ قَـوْمـاً لَـوْ لَجَـأْتَ إلَيْهِمُ   طَـرِيـدَ دَمٍ أَوْ حَـامِـلاً ثِقْـلَ مَغْـرَمِ[2]
لأَلْفَيْـتَ مِنْـهُمْ مُـعْـطِيـاً أَوْ مُـطَاعِنـاً   وَرَاءَكَ شَـزْراً بِـالْـوَشِيجِ الْمُقَـوَّمِ[3]

لأنـه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب، وذاك أنه أتي بتفسير مـا هـو أول في البيت الأول ثانياً في البيت الثاني، والأولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتباً؛ ففسـر ما هو أول في البيت الأول بما هو ثانٍ في البيت الثاني.

واعلم أن الناظم لا ينكر عليه مثل هذا ما ينكر على الناثر؛ لأن الناظم يضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى.

وأما فساد التفسير فإنـه أقبح من فسـاد ترتيبـه، وذاك أن يؤتى بكلام ثم يفسـر تفسيراً لا يناسبه، وهو عيب لا تسامح فيه بحال، وذلك كقول بعضهم[4]:

فَيَـا أَيُّهَـا الْحَيْـرَانُ فِي ظُلْمَـةِ الـدُّجَى   وَمَنْ خَـافَ أَنْ يَلْقَـاهُ بَغْيٌ مِنَ الْعِـدَى

---

(١) البيتان من شواهد سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (٢٥٤) وهما من قصيدة للفرزدق يقولهـا في مقتل هبيرة بن ضمضم القعقاع بن عوف بن القعقاع بن معد بن زرارة، وأولها قوله:

وَقَـائِـلَةٍ وَالـدَّمْـعُ يَـحْـدُرُ كُـحْـلَهَـا   لَبِئْسَ المَـدَى أَجْـرَى إلَيْـهِ ٱبْنُ ضَمْضَـمِ

(٢) كذا في جميع أصول الكتاب وفي سر الفصاحة، والذي في الـديوان «لقـد خنت قومـاً ـ إلخ» وهو أنسب بما قبله، وهو قوله:

فَلَوْ كُنْـتَ صُلْبَ الْعُـودِ أَوْ ذَا حَفِيـظَةٍ   لَـوَرَّيْـتَ عَـنْ مَـوْلاَكَ فِي لَـيْـلٍ مُـظْلِمِ
لَـجُـرْتَ بِـهَـادٍ أَوْ لَـقُـلْتَ لِـمُـدْلِـجٍ   مِنَ الْقَـوْمِ لَـمَّـا يَقْضِ نَـعْسَتَـهُ نَـمِ
وَكُـنْـتَ كَـذِئْـبِ السُّـوءِ لَـمَّـا رَأَى دَمـاً   بِصَـاحِبِـهِ يَـوْمـاً أَحَـالَ عَـلَى ٱلـدَّمِ

(٣) كـذا في أصول هـذا الكتاب، وفي سـر الفصاحـة أيضـاً (٢٥٥) وفي الـديـوان «لألفيت فيهم مطعماً ومطاعنا».

(٤) البيتان من شواهد سر الفصاحة (٢٥٥)، وفيه «في ظلم الدجى».

تَعَالَ إلَيْهِ تَلْقَ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ضِيَاءً وَمِنْ كَفَّيْهِ بَحْراً مِنَ النَّدَى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بإزاء بغي العدا ما يناسبه من النصرة والإعانة، أو ما جرى مجراهما؛ ليكون ذلك تفسيراً له، كما جعل بإزاء الظلمة الضياء وفسرها به، فأما أن جعل بإزاء ما يتخوف منه بحراً من الندى فإن ذلك غير لائق.

النوع الخامس والعشرون

في الاقتصاد والتفريط والإفراط

اعلم أن هذه المعاني الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد في كل شيء: من علم، وصناعة، وخلق؛ ولا بد لنا من ذكر حقيقتها في أصل اللغة حتى يتبين نقلها إلى هذا النوع من الكلام.

فأما الاقتصاد في الشيء فهو من الْقَصْد الذي هو الوقوف على الوسط الذي لا يميل إلى أحد الطرفين، قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فظلم النفس والسبق بالخيرات طَرَفان، والاقتصاد وسط بينهما، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ فالإسراف والإقتار طرفان، والْقَوَام وسط بينهما، وقال الشاعر[1]:

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ ... إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أهملنا ولا ضيعنا.

وأما الإفراط فهو: الإسراف وتَجَاوُز الحد، يقال: أفرط في الشيء؛ إذا أسرف وتجاوز الحد.

---

(١) هذا البيت لسالم بن وابصة، وهو من شعر الحماسة، وانظر شرح التبريزي (٢٠ ـ ٢٣٦)، وقد روى ابن منظور في لسان العرب (خ ل ق) هذا البيت على وجه آخر ونسبه لسالم بن وابصة أيضاً، وهو:

يَا أَيُّهَا الْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ

والتفريط والإفراط هما الطرفان البعيدان، والاقتصادُ هو الوسط المعتدل؛ وقد نُقِلَتْ هٰذه المعاني الثلاثة إلى هذا النوع من علم البيان.

أما الاقتصاد فهو: أن يكون المعنى المضمر في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته.

أما التفريط والإفراط فهما ضدان: أحدهما: أن يكون المعنى المضمر في العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه، والآخر: أن يكون المعنى فوق منزلته.

والتفريطُ في إيراد المعاني الْخَطَابية قبيحٌ لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه، والإفراط يجوز استعماله؛ فمنه الحسن، ومنه دون ذلك.

فمما جاء من التفريط قول الأعشى(١):

وَمَا مُزْبِدٌ مِنْ خَلِيجِ الْفُرَا ... تِ جَوْنٌ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمْ(٢)
بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ ... إذا مَا سَمَاؤُهُمُ لَمْ تُغِمْ(١)

---

(١) البيتان من قصيدة للأعشى ميمون بن قيس، وأولها قوله:

أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمّ ... أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمْ
أَمِ الصَّبْرُ أَحْجَى فَإِنَّ امْرَأً ... سَيَنْفَعُهُ عِلْمُهُ إِنْ عَلِمْ

انظر ديوانه (ص ٢٨ طبع بيانة).

(٢) المزبد: الموج، وأراد به ماءه، والجون: الأسود، وإذا وصف الماء بالسواد عني أنه كثير، والغوارب: جمع غارب، وغارب كل شيء: أعلاه. والبيتان غير متصلين في الديوان، وبينهما قوله:

يَكُبُّ الْخَلِيَّةَ ذَاتَ الْقِلَا ... عِ قَدْ كَادَ جُؤْجُؤُهَا يَنْحَطِمْ
تَكَأْكَأَ مَلَّاحُهَا وَسْطَهَا ... مِنَ الْخَوْفِ كَوْثَلَهَا يَلْتَزِمْ

الخلية: السفينة الكبيرة، والقلاع: الشراع، وجؤجؤها: صدرها، وينحطم: يتكسر، وتكأكأ: تمايل، أو تأخر، وانتصب «وسطها» على الظرفية، وانتصب «كوثلها» لأنه مفعول مقدم ليلتزم.

(٣) هذه رواية أبي عبيدة في هذا البيت وفسر الماعون بالعطية، ورواه ثعلب:

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا عِنْدَهُ ... إِذَا مَا سَمَاؤُهُمُ لَمْ تُغِمْ

فإنه مدح ملكاً بالجود بِمَاعُونِهِ، والماعُون: كل ما يُسْتَعار من قَدوم أو قَصْعَة أو قِدْر، أو ما أشبه ذلك، وليس للملوك في بذله مدح، ولا لأوساط الناس أيضاً، وفي مدح السوقة به قولان، ومدح الملوك به عيب وذم فاحش، وهذا من أقبح التفريط.

ومما يجري هذا المَجْرَى قول الفرزدق(١):

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لَا نَرِدْ ... عَلَى حَاضِرٍ إِلَّا نُشَلُّ وَنُقْذَفُ(٢)

كِلَانَا بِهِ عَرٌّ يُخَافُ قِرَافُهُ ... عَلَى النَّاس مَطْلِيُّ المَسَاعِرِ أَخْشَفُ(٣)

---

(١) هذان البيتان من قصيدة له أولها قوله:

عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْزِفُ ... وَأَنْكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ

يريد انصرفت نفسك عما كنت فيه من باطلك، وحدراء: امرأته.

(٢) رواية الديوان والنقائض «فياليتنا كنا بعيرين لا نرد على منهل» وذكر شارح النقائض أنه يروي «لا نرى على حاضر» والمنهل: الماء في الآبار، والحاضر: أصله القوم عند الماء، وأراد منه ههنا الماء، ونشل: نطرد، ونقذف: نرمي بالحجارة.

(٣) العر ـ بفتح العين ـ الجرب، والعر ـ بضم العين ـ قرح ليس بالجرب، وقوله «يخاف قرافه» يعني يتقي لئلا يعديها بجربه؛ ووقع في ا، ب، ج «مجاف قرافه» وهو تحريف. والمساعر: أصول الفخذين والإبطين، ووقع في ا، ب، ج «المشاعر» وأخشف: يابس الجلد من الجرب، وبعد البيتين قوله:

بِأَرْضٍ خَلَاءٍ وَحْدَنَا، وَثِيَابُنَا ... مِنَ الرَّيْطِ وَالدِّيبَاجِ دِرْعٍ وَمِلْحَفُ

وَلَا زَادَ إِلَّا فَضْلَتَانِ سُلَافَةٌ ... وَأَبْيَضُ مِنْ مَاءِ الْغَمَامَةِ قَرْقَفُ

وَأَشْلَاءُ لَحْمٍ مِنْ حُبَارَى يَصِيدُهَا ... إِذَا نَحْنُ شِئْنَا صَاحِبٌ مُتَأَلِّفُ

لَنَا مَا تَمَنَّيْنَا مِنَ الْعَيْشِ مَا دَعَا ... هَدِيلًا حَمَامَاتٌ بِنَعْمَانَ هُتَّفُ

وقد تبع كثير عزة الفرزدق في هذه الأمنية حيث يقول:

وَدِدْتُ وَبَيْتِ ٱللهِ أَنَّكِ بَكْرَةٌ ... وَأَنِّي هِجَانٌ مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ

كِلَانَا بِهِ عَرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ ... عَلَى حُسْنِهَا جَرْبَاءُ تُعْدِي وَأَجْرَبُ

نَكُونُ لِذِي مَالٍ كَثِيرٍ مُغَفَّلٍ ... فَلَا هُوَ يَرْعَانَا وَلَا نَحْنُ نُطْلَبُ

إِذَا مَا وَرَدْنَا مَنْهَلًا صَاحَ أَهْلُهُ ... عَلَيْنَا فَلَا نَنْفَكُّ نُرْمَى وَنُضْرَبُ=

هذا رجل ذَهَب عقله حين نـظم هذين البيتين؛ فـإن مُراده منهمـا التغزل بمحبـوبه، وقد قصَر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبـه كبعيرين أجْـرَبَيْن: لا يَقْرَبُهمـا أحد، ولا يَقْرُبان أحـداً، إلا طردهمـا، وهذا من الأمـانيّ السخيفة، ولـه في غير هـذه الأمنية مَنْدُوحات كثيرة، وما أشبه هذا بقول القائل:

يَـا رَبِّ إن قَـدَّرْتَـهُ لِـمُـقَـبِّـلٍ غَـيْـرِي فَلِلأَقْـدَاحِ أَوْ لِـلْأَكْـؤُسِ
وَإذَا حَـكَـمْـتَ لَـنَـا بِعَـيْـنِ مُـرَاقِـبٍ فِي الـدَّهْرِ فَلْتَـكُ مِنْ عُيُـونِ النَّـرْجِسِ

فانظركم بين هاتين الامنيتين.

ومما أخذ على أبي نواس في قصيدته الميمية الموصوفة التي مدح بهـا الأمين محمد بن الرشيد، وهو قوله[١]:

أَصْبَحْتَ يَـابْنَ زُبَـيْـدَةَ ٱبْنَـةِ جَـعْفَـرٍ أَمَـلاً لِعَقْـدِ حِبَـالِـهِ ٱسْتِحْكَـامُ[٢]

فإن ذكر أمّ الخليفة في مثل هذا الموضع قبيح.

وكذلك قوله في موضع آخر[٣].

وَلَـيْسَ كَـجَـدَّتَـيْـهِ أمٍّ مُـوسَـى إذَا نُـسِبَـتْ وَلَا كَـالْـخَـيْـزُرَانِ[٤]

= ويروى أن عزة حين سمعت ذلك قالت: لقـد أردت بنا الشقـاء: أما وجـدت أمنية أوطـأ من هذه؟!. وأقبح من هذين ومن كل أمنية قول الآخر:

سَـلَّامَ؛ لَـيْـتَ لِـسَـانـاً تَـنْـطِقِـيـنَ بِـهِ قَبْـلَ ٱلَّـذِي نَـالَـهُ مِنْ صَـوْتِـهِ قُـطِعَـا

(١) هو من قصيدة له أولها قوله:

يَـا دَارُ، مَـا فَـعَـلَـتْ بِـكِ الأَيَّـامُ؟ ضَـامَـتْـكِ وَالْأَيَّـامُ لَـيْـسَ تُـضَـامُ

(٢) بعد هذا البيت قوله:

فَـسَـلِمَـتَ لِـلأَمْـرِ ٱلَّـذِي تُـرْجَى لَـهُ وَتَـقَـاعَـسَـتْ عَـنْ يَـوْمِـكَ الْأَيَّـامُ

(٣) هو من كلمة له أولها قوله:

رَضِـيـنَـا بِـالْأَمِـيـنِ عَـنِ الـزَّمَـانِ فَـأَضْـحَى الـمُلْكُ مَـعْمُـورَ الـمَكَـانِ
تَـمَـنَّـيْـنَـا عَـلَى الْأَيَّـامِ شَـيْـئـاً فَـقَـدْ بَـلَّغْـنَـنَـا تِـلْكَ الْأَمَـانِـي

(٤) موسى: هو موسى الهادي أمير المؤمنين ابن المهدي، والخيزران: زوج المهدي، وأم هرون الرشيد.

وهذا لغو من الحديث لا فائدة فيه؛ فإن شرف الأنساب إنما هو إلى الرجال، لا إلى النساء، وياليت شعري أما سمع أبو نواس قَوْلَ قُتَيْلة بنت النضر في النبي ﷺ (١):

أَمُحَمَّدُ؛ وَلأَنْتَ نَجْلُ كَرِيمَةٍ مِنْ قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فحلُ مُعْرِقُ
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا مَنَّ الْفَتَى وَهُوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ

فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم، وأبرزت هذا الكلام في هذا اللباس الأنيق.

وكذلك فليكن المادح إذا مدح، وأبو نواس ـ مع لطافة طبعه، وذكائه، وما كان يوصف به من الفطنة ـ قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره.

وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هرون عليهما السلام: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ فإن الفرق بين الموضعين ظاهر؛ لأن المنكر على أبي نُوَاس إنما هو التلفظ باسم الأم، وهي زُبَيْدَة، وكذلك اسم الجدة، وهي الْخَيْزُرَان، وليس كذلك ما ورد في الآية.

فإن قيل: قد ورد في القرآن الكريم ما يسوّغ لأبي نواس مقالته، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ فناداه باسم أمه.

قلت: الجواب عن ذلك من وجهين: أحدهما أن عيسى عليه السلام لم يكن له أب، فنودي باسم أمه ضرورةً؛ إذ لو كان له أب لنودي باسم أبيه؛ الوجه الآخر:

(١) من كلمة رواها ابن إسحاق في السيرة؛ انظر سيرة ابن هشام: (٢ ـ ٤٢٠) ورواها أبو تمام في باب المراثي من ديوان الحماسة؛ وانظر شرح التبريزي (٣ ـ ١٧) وأول هذه الكلمة قولها:

يَا رَاكِباً إِنَّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ
بَلِّغْ بِهِ مَيْتاً؛ فَإِنَّ تَحِيَّةً مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا الرَّكَائِبُ تَخْفِقُ
مِنِّي إِلَيْهِ وَعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَتْ لِمَائِحِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ

وكان النبي ﷺ قتل النضر بن كنانة بعد غزاة بدر، ويروى أنه لما سمع كلمتها هذه قال: «لو سمعنا كلامها قبل قتله لتركناه لها».

أن هـذا النداء إنمـا هو من الأعلى إلى الأدنى؛ إذ الله سبحـانه وتعـالى هو الـربُّ، وعيسى عليـه السلام عبـده، وهذا لا يكـون تفريـطاً؛ لأنه لم يعبـر عنه بمـا هو دون منزلته.

على أن أبا نواس لم يـوقعه في هـذه العثرة إلا مـا سمعه عن جـرير في مـدح عمر بن عبد العزيز، كقوله[١]:

وَتَبْنِي المَجْـدَ يَـا عُمَـرَ ابْـنَ لَيْلَى ... وَتَكْفِي المُمْحِـلَ السَّنَـةَ الْجَمَـادَا[٢]

وكذلك قال فيه كثير عزة أيضاً[٣].

وليس المعيب من هذا بخافٍ؛ فإن العرب قـد كان يعيـر بعضها بعضـاً بنسبته إلى أمـه دون أبيه، ألا تـرى أن عمر بن الخـطاب رضي الله عنه كـان يقال لـه: ابن حَنْتَمَة، وإنما كان يقول ذلـك من يَغُضُّ منه، وأمـا قول النبي ﷺ للزبيـر بن صفية: «بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ» فإن صفية كانت عمة النبي ﷺ، وإنمـا نسبه إليهـا رَفْعاً لقـدره في قرب نسبـه منه، وأنـه ابن عمته، وليس هـذا كالأول في الغض من عمـر رضي الله عنه في نسبه إلى أمه.

---

(١) من قصيدة له أولها قوله:

أَبَتْ عَيْـنَـاكَ بِـالْحَسَنِ الـرُّقَـادَا ... وَأَنْـكَـرْتَ الأَصَـادِقَ وَالْـبِـلاَدَا

(٢) قبل هذا البيت قوله:

هَـنِـيئـاً لِـلْمَـدِيـنَـةِ إِذْ أَهَـلَّتْ ... بِـأَهْـلِ الـمُـلْكِ أَبْـدَأَ ثُـمَّ عَـادَا

يَـعُـودُ الْـحِـلْمُ مِـنْـكَ عَـلَى قُـرَيْشٍ ... وَتَـفْـرُجُ عَـنْـهُـمُ الْـكُـرَبَ الـشِّـدَادَا

وَقَـدْ لَـيَّـنْـتَ وَحْـشَـهُـمُ بِـرِفْـقٍ ... وَتُـعْـيِـي الـنَّـاسَ وَحْـشُـكَ أَنْ تُـصَـادَا

وابن ليلى: هو عبد العزيز بن مروان أبو عمر بن عبد العزيز.

(٣) في جميـع النسخ بـدون ذكـر شعـر كثيـر عـزة، وكثيـر يـذكـر «ابن ليلى» كثيـراً في مـديحـه لعبد العزيز بن مروان؛ فمن ذلك قوله:

فَبُـورِكَ مَـا أَعْـطَى ابْـنُ لَـيْـلَى بِـنِـيَّـةٍ ... وَصَـامِـتُ مَـا أَعْـطَى ابْنُ لَيْلَى وَنَـاطِـقُـهْ

وقد عاب بعض من يتهم نفسه بالمعرفة قول أبي نواس في قصيدته السينية التي أولها:

* نَبِّهْ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسْ[1] *

فقال من جملتها:

وَرِثَ الْخِلَافَةَ خَامِساً ... وَبِخَيْرِ سَادِسِهِمْ سَدَس

قال: وفي ذكر السادس نظر، ويا عجبا له! مع معرفته بالشعر كيف ذهب عليه هذا الموضع؟ أما قرأ سورة الكهف، يريد قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذا ليس بشيء؛ لأنه قد ورد في القرآن الكريم ما ينقضه، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

ومما عبته على البحتري قوله في مدح الفتح بن خاقان في قصيدته المشهورة عند لقائه الأسد التي مطلعها:

* أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِي لِزَيْنَبَا[2] *

فقال:

شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَنْبَرِي ... لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ الْبِيضِ مِقْضَبَا[3]
فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا ... عِرَاكاً إِذَا الْهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا[4]

---

(١) لم أقف على هذه القصيدة في شعر أبي نواس.

(٢) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* خَيَالٌ إِذَا آبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبَا *

(٣) وقع في ا، ب، ج «حين تبتري» وهو تحريف، وصوابه عن الديوان.

(٤) بعد هذا البيت قوله:

هِزَبْرٌ مَشَى يَبْغِي هِزَبْراً وَأَغْلَبُ ... مِنَ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبَا=

قوله «إذا الهيابة النكس» تفريط في المدح، بل كان الأولى أن يقول: إذا البطل كذب، وإلا فأيُّ مدح في إقدام المُقْدِم في الموضع الذي يَفِرُّ منه الجبان؟ وألَّا [قال] كما قال أبو تمام(١):

فَتًى كُلَّما آرْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَفَرّاً غَدَاةَ المَأْزِقِ آرْتَادَ مَصْرَعَا(٢)

وعلى أسلوب البحتري ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة(٣):

وَإِنِّي لَقَوَّالٌ لِعَافِيَّ مَرْحَباً وَلِلطَّالِبِ المَعْرُوفِ إِنَّكَ وَاجِدُهْ
وَإِنِّي لِمِمَّنْ أَبْسُطُ الْكَفَّ بِالنَّدَى إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ الْبَخِيلِ وَسَاعِدُهْ(٤)

وهذا مَعِيبٌ من جهة أنه لا فَضْلَ في بسط يده عند قَبْضِ يد البخيل، وإنما الفضيلة في بسطها عند قَبْض الكرام أيديهم.

= أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ رَآكَ لَهَا أَمْضَى جَنَاناً وَأَشْغَبَا
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبا

(١) من قصيدة له يرثي فيها أبا نصر محمد بن حميد الطائي، وأولها قوله:

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا وَأَصْبَحَ مَغْنَى الجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

(٢) بعد هذا البيت قوله:

إِذَا سَاءَ يَوْمٌ فِي الْكَرِيهَةِ مَنْظَراً تَصَلَّاهُ عِلْماً أَنْ سَيَحْسُنُ مَسْمَعَا
فَإِنْ تَرْمِ عَنْ عُمْرٍ تَدَانَى بِهِ المَدَى فَخَانَكَ حَتَّى لَمْ تَجِدْ فِيهِ مَنْزَعا
فَمَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفَ لَاقَى ضَرِيبَةً فَقَطَّعَهَا ثُمَّ انْثَنَى فَتَقَطَّعَا

(٣) البيتان لإياس بن الأرتّ، وهما من شعر الحماسة الذي اختاره أبو تمام، وانظر شرح التبريزي (٤ ـ ٢١٨).

(٤) ذكر التبريزي أنه يروى «وإني لمما أبسط الكف» ورواية أبي تمام «وإني لممن يبسط الكف بالندى» والشنج ـ بفتح الشين والنون ـ تقبض اليد وغيرها يبساً، وقد شنج يشنج، مثل فرح يفرح. وبعد هذين البيتين قوله:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي أُمَامَةُ أَنَّهَا ثَنَى مِنْ خَيَالٍ مَا أَزَالُ أُعَاوِدُهْ
فَشَقَّتْ عَلَى رَكْبِي وَعَنَّتْ رَكَائِبِي ورِدَّتْ عَلَيَّ اللَّيْلَ قَرْناً أُكَابِدُهْ

ومن هذا الباب قول أبي تمام[١]:

يَـقِظٌ وَهْـوَ أَكْثَـرُ النَّـاسِ إِغْضَـا ءً عَلَى نَائِـلٍ لَـهُ مَسْـرُوقِ[٢]

فإنه أراد أن يمدح فذمّ.

ومما هو أقبح من ذلك قوله أيضاً[٣]:

تُـثَفَّى الحَـرْبُ مِنْـهُ حِينَ تَغْلِي مَـرَاجِلُهَـا بِشَيْـطَانٍ رَجِيـمِ[٤]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد، وأولها قوله:

مَـا عَـهِـدْنَـا كَـذَا بُـكَـاءَ الْمَـشُـوقِ كَـيْـفَ وَٱلـدَّمْـعُ آيَـةُ الْـمَـعْـشُـوقِ
فَـأَقِـلَّا الـتَّـعْـنِـيـفَ إِنَّ غَـرَامـاً أَنْ يَـكُـونَ الـرَّفِـيـقُ غَـيْـرَ رَفِـيـقِ
وَٱسْـتَـمِـيـحَـا الْـجُـفُـونَ دُرَّةَ دَمْـعٍ فِـي دُمُـوعِ الْـفِـرَاقِ غَـيْـرَ لَـصِـيـقِ

وانظر الديوان (ص ٢١٥ بيروت).

(٢) قبل هذا البيت قوله:

لَا يَـجُـوزُ الْأُمُـورَ صَـفْـحـاً وَلَا يُـرْ قِـلُ إِلَّا عَـلَـى سَـوَاءِ الـطَّرِيـقِ
فَـتَـنَـاهَـوْا؛ إِنَّ الْـخَـلِيـقَ مِـنَ الْـقَـوْ مِ بِـذَاكَ الْـفَـعَـالِ غَـيْـرُ خَـلِيـقِ
مَـلَـكَـتْ مَـالَـهُ الْـمَـعَـالِـي فَـمَـا تَلْقَـاهُ إِلَّا فَرِيـسَـةً لِـلْـحُـقُـوقِ

ثم البيت الذي ذكره المؤلف، وبعده قوله:

أَنَـا وَلْـهَـانُ فِـي وِدَادِكَ مَـا عِـشْـ ـتُ وَنَـشْـوَانُ فِـيـكَ غَـيْـرُ مُـفِـيـقِ
رَاحَـتِي فِـي الـثَّـنَـاءِ مَـا بَـقِـيَـتْ لِـي فَـضْـلَـةٌ مِـنْ لِـسَـانِـيَ الْـمَـفْـتُـوقِ
فَـاغْـنَ بِـالنِّـعْـمَـةِ الَّـتِي هِـيَ كَـالْـحَـوْ رَاءِ لَا فَـارِكٍ وَلَا بِـعَـلُـوقِ
بَـعْـلُـهَـا يَـأْمَـنُ الـنُّـشُـوزَ عَـلَـيْـهَـا وَهْـيَ فِـي مَـأْمَـنٍ مِـنَ الـتَّـطْـلِـيـقِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها بعض بني عبد الكريم الطائيين، وأولها قوله:

أَرَامَـةُ؛ كُـنْـتِ مَـأْلَـفَ كُـلِّ رِيـمِ لَـوِ ٱسْـتَـمْـتَـعْـتِ بِـالْأُنُـسِ الْـمُـقِـيـمِ

(٤) تثفي: تجعل لها أثافي، وهي حجارة تنصب ليوضع عليها القدر، والمراجل: جمع مرجل، بزنة منبر، وهي القدر، ووقع في ا، ب، ج «ينقى الحرب» وهو تحريف، وقبل هذا البيت قوله: =

وقد استعمل هذا في شعره حتى أفحش، كقوله[١]:

أَنْـتَ دَلْـوٌ وَذُو السَّـمَـاحِ أَبُـو مُـو ... سَـى قَـلِيـبٌ وَأَنْـتَ دَلْـوُ الْـقَـلِيـبِ

ومراده من ذلك أنه جعله سبباً لعطاء المشار إليه كما أن الدلو سبب في آمْتِيَـاح الماء من القليب، ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب إلى حدٍّ يدنـدن أبو تمـام حولـه هذه الدَّنْدَنة، ويلقيه في هذا المثال السخيف، على أنه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة في شعره، بل أوردها في مواضع أخرى منه؛ فمن ذلك قوله[٢]:

مَـا زَالَ يَهْـذِي بِـالْمَكَـارِمِ وَالْعُـلاَ ... حَـتَّـى ظَـنَـنَّـا أَنَّـهُ مَـحْـمُـومُ[٣]

فإنه أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بـالمكارم والعـلا، فقال «مـا زال يهذي» وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت.

وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين:

= سَـفِـيـهُ الـرُّمْـحِ جَـاهِـلُهُ، إذَا مَـا ... بَـدَا فَـضْـلُ الـسَّـفِـيـهِ عَـلَى الْـحَـلِيـمِ

إذَا مَـا قِـيـلَ: أُرْعِـفَـتِ الْـعَـوَالِـي؛ ... فَـلَيْسَ الْمُـرْعَـفَـاتُ سِـوَى الْـكُـلُـومِ

إذَا مَـا الـضَّـرْبُ حَشَّ الـحَـرْبَ أَبْـدَى ... أَغَـرَّ الـرَّأْيِ فـي الـخَـطْـبِ الْـبَـهِـيـمِ

(١) البيت في الصناعتين (ص ٢٨٠ الآستانة) منسوباً له، وبعده قوله:

أَيُّـهَـا آلـدَّلْـوُ لاَ عَـدِمْـتُـكَ دَلْـواً ... مِـنْ جِـيَـادِ آلـدِّلاَءِ صُـلْـبَ الـصَّـلِيـبِ

ومن هذا المعنى أيضاً قول أبي تمام من قصيدة له يرثي فيها إسحاق بن أبي ربعي.

إِذَا تَـيَـمَّـمْـنَـاهُ فِـي مَـطْلَبٍ ... كَـانَ قَـلِيـبـاً وَرِشَـاءَ الْـقَـلِيـب

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن شبابة بن الهيثم، وأولها قوله:

أَسْـقَـى طُـلُولَـهُـمُ أَجَشُّ هَـزِيـمُ ... وَغَـدَتْ عَـلَيْـهِـمْ نُـضْـرَةٌ وَنَـعِـيـمُ

(٣) قبل هذا البيت قوله:

للهِ كَـفُّ مُـحَـمَّـدٍ وَوِلاَدُهَـا ... بِـالْـبَـذْلِ إذْ بَـعْـضُ الأَكُـفِّ عَـقِـيـمُ

مُـتَـفَـجِّـرٌ نَـادَمْـتُـهُ فَـكَـأَنَّـنِـي ... لِـلدَّلْـوِ أَوْ لِـلْمُـرْزَمَـيْـنِ نَـدِيـمُ

غَـيْـثٌ حَـوَى كَـرَمَ الـطَّبَائِـعِ دَهْـرَهُ ... وَالْـغَـيْـثُ يَـكْـرُمُ مَـرَّةً وَيَـلُومُ

وَيَلْحَقُهُ عِنْدَ المَكَارِمِ هِزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ المَجْهُودُ مِنْ أُمِّ مَلْدَمِ

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله، وإن كان المعنى المقصود به حسناً، وكم ممن يتأول معنى كريماً فأساء في التعبير عنه حتى صار مذموماً، كهذا وأمثاله.

ومن أحسن ما قيل في مثل هذا الموضع قول ابن الرومي:

ذَهَبَ الَّذِينَ تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَزَّ الْكُمَاةِ عَوَالِيَ المُرَّانِ
كَانُوا إذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمُ فَالْأَرْيَحِيَّةُ مِنْهُمُ بِمَكَانِ

ومن شاء أن يمدح فليمدح هكذا، وإلا فليسكت.

ووجدت أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي قد عاب على حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا(١)

---

(١) بعد هذا البيت قوله:

مَتَى مَا تَزُرْنَا مِنَ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ وَغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا
أَبَى فِعْلُنَا المَعْرُوفَ أَنْ نَنْطِقَ الخَنَى وَقَائِلُنَا بِالْعُرْفِ إلَّا تَكَلُّمَا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا

وقد روى أبو عبيدة قال: قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: قدم الفرزدق المدينة في إمرة أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: فإني والفرزدق وكثير عزة لجلوس في المسجد نتناشد الأشعار إذ طلع علينا غلام شخت آدم في ثوبين ممصرين، ثم قصد نحونا حتى انتهى إلينا، فلم يسلم، وقال: أيكم الفرزدق؟ قال إبراهيم بن محمد: فقلت له مخافة أن يكون من قريش: أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها؟! قال: لو كان كذلك لم أقل له هذا، فقال له الفرزدق: من أنت يا غلام؟ لا أمّ لك! قال: رجل من الأنصار، ثم من بني النجار، ثم أنا ابن أبي بكر بن حزم، بلغني أنك تقول: إنك أشعر العرب، قال: وتزعمه مضر! وقد قال حسان بن ثابت شعراً، فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك فيه سنة؛ فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب، وإلا فأنت كذاب منتحل؛ ثم أنشده الأبيات الأربعة التي ذكرناها.
وقد حكي قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر (ص ١٨) ما ورد على البيت الأول منها من النقد، وردّه، فارجع إليه هناك.

وقال: إنه جمع الجفنات والأسياف جمع قلة، وهو في مقام فخر، وهذا مما يحطُّ من المعنى ويَضَع منه، وقد ذهب إلى هذا غيره أيضاً، وليس بشيء؛ لأن الغرض إنما هو الجمع؛ فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أفترى نعم الله أكانت قليلة على إبراهيم صلوات الله عليه، وكذلك ورد قوله عز وجل في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ.فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ.وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فقال: ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ فجمع النفس جمع قلة، وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة، بل كانوا مئين ألوفاً، وهذا أيضاً مما يبطل قول الصولي وغيره في مثل هذا الموضع؛ وكذلك ورد قوله عز وجل: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ والنفوس المتوفاة والنائمة لا ينتهي إلى كثرتها كثرة؛ لأنها نفوس كل مَنْ في العالَم.

واعلم أن للمدح ألفاظاً تخصُّه، وللذم ألفاظاً تخصُّه، وقد تعمَّق قوم في ذلك حتى قالوا: من الأدب ألّا تخاطب الملوكَ ومَنْ يقاربهم بكاف الخطاب، وهذا غلط بارد؛ فإن الله الذي هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف في أول كتابه العزيز فقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد ورد أمثال هذا في مواضع من القرآن غير محصورة، إلا أني قد راجعت نظري في ذلك، فرأيت الناس بزمانهم أشبه منهم بأيامهم، والعوائد لا حكم لها، ولا شك أن العادة أوجبت للناس مثل هذا التعمق في ترك الخطاب بالكاف، لكني تأملت أدَبَ الشعراء والكتّاب في هذا الموضع فوجدتُ الخطاب لا يُعَاب في الشعر ويعاب في الكتابة إذا كان المخاطب دون المخاطب درجة، وأما إن كان فوقه فلا عَيْبَ في خطابه إياه بالكاف؛ لأنه ليس من التفريط في شيء.

فمن خطاب الكاف قول النابغة(١):

وَإِنَّــكَ كَـاللَّيْــلِ ٱلَّـذِي هُــوَ مُـدْرِكِي   وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَـأَى عَنْـكَ وَاسِـعُ(٢)

وكذلك قوله أيضاً(٣):

حَـلَفْتُ فَـلَمْ أَتْـرُكْ لِنَفْسِـكَ رِيبَـةً   وَلَـيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِـلْمَـرْءِ مَـذْهَـبُ(٤)

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضاً؛ فقال أبو نواس(٥):

إِلَيْـكَ أَبَـا المَنْصُـورِ عَـذَّبْتُ نَـاقَتِي   زِيَـارَةَ خِـلٍّ وَٱمْـتِحَـانَ كَـرِيـمِ(٦)
لِأَعْلَمَ مَـا تَـأْتِي وَإِنْ كُنْتُ عَـالِمـاً   بِـأَنَّـكَ مَـهْمَـا نَـأْتِ غَـيْـرُ مَلُومِ(٧)

---

(١) من قصيدة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر، ويتنصل مما وشي به إليه؛ وأولها قوله:

عَـفَـا ذُو حُـسًـى مِنْ فَرْتَـنَى فَـٱلْـفَـوَارِعُ   فَـشَـطَّا أَرِيـكٍ فَـالـتِّـلَاعُ ٱلـدَّوَافِـعُ

(٢) صواب الإنشاد «فإنك كالليل»، وقبل هذا البيت قوله:

فَـإِنْ كُنْتُ لَا ذُو الـضِّغْنِ عَنِّي مُكَـذِبٌ   وَلَا حَـلِفِـي عَـلَى الْـبَـرَاءَةِ نَـافِـعُ
وَلَا أَنَـا مَـأْمُـونٌ بِـشَـيْءٍ أَقُـولُـهُ   وَأَنْـتَ بِـأَمْـرٍ لا مَـحَـالَـةَ وَاقِـعُ

(٣) هو من كلمة أخرى يعتذر فيها إلى النعمان، وهي من عيون شعره، وأولها قوله:

أَتَـانِي أَبَيْـتَ ٱللَّعْـنَ أَنَّـكَ لُمْـتَنِـي   وَتِـلْكَ الَّتِـي أَهْتَـمُّ مِنْـهَـا وَأَنْصَـبُ
فَـبِـتُّ كَـأَنَّ الْـعَـائِـدَاتِ فَـرَشْـنَ لِـي   هَـرَاسـاً بِـهِ يُعْلَى فِـرَاشِي وَيُـقْـشَـبُ

(٤) هذا البيت هو الثالث من الكلمة، وقبله البيتان السابقان، وبعده قوله:

لَئِنْ كُنْـتَ قَـدْ بُلِّغْـتَ عَنِّـي وِشَـايَـةً   لَـمُـبْـلِغُـكَ الْـوَاشِـي أَغَشُّ وَأَكْـذَبُ
وَلٰـكِـنَّـنِي كُـنْـتُ ٱمْـرَأً لِـيَ جَـانِـبٌ   مِـنَ الْأَرْضِ فِـيـهِ مُـسْتَـرَادٌ وَمَـذْهَـبُ
مُـلُوكٌ وَإِخْـوَانٌ إِذَا مَـا أَتَـيْـتُـهُـمْ   أُحَـكَّـمُ فِـي أَمْـوَالِـهِـمْ وَأُقَـرَّبُ
كَـفِـعْـلِكَ فِي قَـوْمٍ أَرَاكَ ٱصْـطَفَـيْـتَـهُـمْ   فَـلَمْ تَـرَهُمْ فِي مَـدْحِـهِـمْ لَـكَ أَذْنَـبُـوا

(٥) من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن الربيع، وأولها قوله:

لِـمَـنْ دِمَـنٌ تَـزْدَادُ حُـسْـنَ رُسُـومِ   عَـلَى طُـولِ مَـا أَقْـوَتْ وَطِـيـبِ نَـسِـيمِ

(٦) كذا في ا، ب، ج؛ وفي الديوان «عدّيت ناقتي»، وفيه «زيادة ود وامتحان كريم».

(٧) في ا، ب، ج «لأعلم ما يأتي»، وفي نسخة من الديوان «بأنك مهما قلت غير مليم».

وكذلك ورد قول السلامي:

إِلَيْكَ طَوَى عُرْضَ الْبَسِيطَةِ جَاعِلٌ ... قُصَارَى الْمَطَايَا أَنْ يَلُوحَ لَهَا الْقَصْرُ[1]

وَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلْكٍ هُوَ الْوَرَى ... وَدَارٍ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمٍ هُوَ الدَّهْرُ

وعليه ورد قول البحتري[2]:

وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ طَالِباً فَبَسَطْتَ مِنْ ... أَمَلِي وَأَطْلَبَ جُودَ كَفِّكَ مَطْلَبِي[3]

وجُلُّ خطاب الشعراء للممدوحين إنما هو بالكاف، وذلك محظور على الكتاب؛ فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف، وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب، لا مخاطبة الحاضر، على أن هذا الباب بجملته يوكل النظر فيه إلى فَطانة الخطيب والشاعر، وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة.

ومن ألطف ما وجدته أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر بأن تقول: افعل كذا وكذا، وتخرجه مخرج الاستفهام، وهذا الأسلوب حَسَنٌ جداً، وعليه مسحة من جمال، بل عليه الجمال كله.

فما جاء منه قول البحتري في قصيدة أولها:

* بِوُدِّيَ لَوْ يَهْوَى الْعَذُولُ وَيَعْشَقُ[4] *

---

(١) في ا، ب، ج «قصار المطايا» وقصارى المطايا هو الصواب، والمراد به أن ذلك غاية أمرها ونهاية ما تسير له.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق، وأولها قوله:

رَحَلُوا فَأَيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ ... أَسَفاً؟ وَأَيُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ؟

(٣) في الديوان (ص ٣٠ ج ١ مصر): «إني أتيتك» وبعد البيت قوله:

وَغَدَوْتَ خَيْرَ حِيَاطَةٍ مِنِّي عَلَى ... نَفْسِي وَأَرْأَفَ بِي هُنَالِكَ مِنْ أَبِي

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها المعتز بالله ويستوهبه خاتماً، وعجزه قوله:

* فَيَعْلَمُ أَسْبَابَ الْهَوَى كَيْفَ تَعْلَقُ *

فقال منها:

فَهَــلْ أَنْتَ يَـا ابْنَ الـرَّاشِـدِينَ مُخَتِّمِي بِيَــاقُــوتَــةٍ تبـهـى عَـلَيَّ وَتُـشْـرِقُ[1]

وهـذا من الأدب الحسن في خطاب الخليفـة؛ فإنـه لم يخـاطبـه بـأن قـال: خَتِّمْني بيـاقوتـة، على سبيل الأمـر، بل خـاطبه على سبيـل الاستفهام، وقـد أعجبني هـذا المذهب، وحسن عندي.

وقد حذا حذو البحتري شاعر من شعراء عصرنا فقال في مدح الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد من قصيدة له على قافيـة الدال؛ فقـال من أبيات يصف بها قصدَهُ:

أَمَقْبُـولَـةٌ يَــا ابْنَ الْخَــلَائِفِ مِنْ فَمِي لَــدَيْـكَ بِــوَصْفِي غَــادَةُ الشِّعْــرِ رُؤْدَهْ

فقوله «أمقبولة» من الأدب الحسن الذي نسج فيه على منوال البحتري.

وهذا باب مفـرد، وهو بـاب الاستفهام في الخـطاب، وإذا كان الشـاعر فـطناً عالماً بما يضعه من الألفـاظ والمعاني تَصَـرَّف في هذا البـاب بضروب التصـرفات، واستخرج من ذات نفسه شيئاً لم يسبقه إليه أحد.

واعلم أن من المعـاني ما يعبـر عنه بـألفاظ متعـددة ويكـون المعنى المنـدرج تحتها واحداً؛ فمن تلك الألفاظ ما يليق استعمـاله بـالمدح ومنهـا ما يليق استعمـاله

---

(١) بعد هذا البيت قوله:

يَغَـارُ آحْمِـرَارُ الْـوَرْدِ مِنْ حُسْنِ صِبْغِهَـا وَيَـحْكِـيـهِ جَـادِيُّ الـرَّحِيـقِ الـمُعَـتَّقُ
إِذَا بَـرَزَتْ وَالـشَّـمْسُ قُـلْتَ تَـجَـارَتَـا إِلَـى أَمَـدٍ أَوْ كَـادَتِ الـشَّـمْسُ تُـسْـبَـقُ
إِذَا الْتَهَبَتْ فِي اللَّحْظِ ضَـاهَى ضِيَـاؤُهَـا جَـبِينَـكَ عِـنْـدَ الـجُـودِ إِذْ يَـتَـأَلَّـقُ
أُسَـرْبَـلُ مِنْهَـا ثَـوْبَ فَـخْـرٍ مُـعَـجَّـلٍ وَيَـبْقَـى بِهَـا ذِكْـرٌ عَـلَى آلـدَّهْـرِ مُـخْـلَقُ
عَـلَامَـةُ جُـودٍ مِنْـكَ عِـنْـدِي مُـبِينَـةٌ وَشَـاهِـدُ عَـدْلٍ لِي بِنُـعْـمَـاكَ يَـصْـدُقُ
وَمِـثْـلُكَ أَعْـطَاهَـا وَأَضْـعَـافَ مِـثْـلِهَـا وَلَا غَـرْوَ لِـلْـبَـحْـرِ آنْـبَـرَى يَـتَـدَفَّـقُ

بالذم، ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه سواء في الاستعمال، وإنما يرجع في ذلك إلى الْعُرْف دون الأصل.

ولنضرب له مثالاً فنقول: هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له: وَحَقِّ دِمَاغك؛ قياساً على وَحَقِّ رأسك؟ وهذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس.

فإذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس وَالْهَامَةَ والكاهل، وما جرى هذا المجرى، فإذا أراد أن يهجو ذكر الدِّمَاغ والْقَفَا والْقَذَال، وما جرى هذا المجرى، وإن كانت معاني الجميع متقاربة، ومن أجل ذلك حسنت الكناية في الموضع الذي يقبح فيه التصريح.

ومن أحسن ما بلغني من أدب النفس في الخطاب أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل قَبَاثَ بن أشْيَمَ، فقال له: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد، فانظر إلى أدب هذا العربي الذي من شأنه وشأن أمثاله جفاء الأخلاق والبعد عن فطانة الآداب.

وأما الإفراط فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة، وحمده آخرون، والمذهب عندي استعماله؛ فإن أحسن الشعر أكذبه، بل أصدقه أكذبه، لكنه تتفاوت درجاته؛ فمنه المستحسن الذي عليه مدار الاستعمال، ولا يطلق على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه مهما ذكر به من المعاملات في صفاته فإنه دون ما يستحقه.

ومما ورد من ذلك في الشعر قول عنترة[١]:

وَأَنَا المَنِيَّةُ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... وَالطَّعْنُ مِنِّي سَابِقُ الآجَالِ[٢]

---

(١) من قصيدة له يقولها وقد أغار على بني ضبة، وأولها قوله:

عَفَتِ الدِّيَارَ وَبَاقِيَ الأَطْلَالِ ... رِيحُ الصَّبَا وَتَقَلُّبُ الْأَحْوَالِ

وَعَفَا مَغَانِيَهَا فَأَخْلَقَ رَسْمَهَا ... تَرْدَادُ وَكْفِ الْعَارِضِ الهَطَّالِ

(٢) رواية الديوان «وأنا المنية حين تشتجر القنا» وبعد البيت قوله:

وَلَرُبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ... وَلَبَانُهُ كَنَوَاضِحِ الْجِرْيَالِ =

وقد يروى بالياء، وكلا المعنيين حسن، إلا أن الياء أكثر غلواً.

ومما جاء على نحو من ذلك قول بشار(١):

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا(٢)

ومنه ما يستهجن، كقول النابغة الذبياني(٣):

إِذَا ارْتَعَشَتْ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ(٤)

وهذا يصف طول قامتها، لكنه من الأوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان.

وكذلك ورد قول أبي نواس(٥):

= تَنْتَابُهُ طُلْسُ السِّبَاعِ مُغَادِراً فِي قَفْرَةٍ مُتَمَزِّقَ الْأَوْصَالِ
وَلَرُبَّ خَيْلٍ قَدْ وَزَعْتُ رَعِيلَهَا بِأَقَبَّ لَا ضَغِنٍ وَلَا مِجْفَالِ
وَمُسَرْبَلٍ حَلَقَ الْحَدِيدِ مُدَجَّجٍ كَاللَّيْثِ بَيْنَ عَرِينَةِ الْأَشْبَالِ

(١) هذا أول بيتين رواهما الخالديان في «المختارين شعر بشار» (ص ١٦٣) وثانيهما قوله:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا تَزَالُ جِيَادُنَا تُسَاوِرُ مَلْكاً أَوْ تُنَاهِبُ مَغْنَمَا

(٢) في «المختار من شعر بشار»: «أو مطرت دما».

(٣) البيت رابع خمسة أبيات له، وهاكها كلها برواية الديوان:

عَلِقْتَ بِذِكْرِ الْمَالِكِيَّةِ بَعْدَمَا عَلَاكَ مَشِيبٌ فِي قَذَالٍ وَمَفْرِقِ
إذا غَضِبَتْ لَمْ يَشْعُرِ الْحَيُّ أَنَّهَا غَضُوبٌ وَإِنْ نَالَتْ رِضاً لَمْ تُزَقْزِقِ
عَلَى أَنَّ حِجْلَيْهَا وَإِنْ هُنَّ أُوسِعَا يَمُوتَانِ مِنْ مِلْءٍ وَقِلَّةِ مَنْطِقِ
إِذَا ارْتَعَشَتْ هَابَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ
وَإِنْ ضَحِكَتْ لِلْعُصْمِ ظَلَّتْ رَوَانِياً إِلَيْهَا وَإِنْ تَبْسِمْ إِلَى الْمُزْنِ يُبْرِقِ

(٤) ارتعشت: تقرطت، يريد لبست القرط.

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد، وأولها قوله:

خَلُقَ الشَّبَابُ وَشِرَّتي لَمْ تَخْلُقِ وَرَمَيْتُ فِي غَرَضِ الزَّمَانِ بِأَفْوُقِ

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ(١)

وهذا أشد إفراطاً من قول النابغة. ويروى أن العتابي لقي أبا نواس فقال له: أما استحييت آللهَ حيث تقول، وأنشده البيت، فقال له: وأنت ما راقبت الله حيث قلت:

مَا زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ مُطْرَحاً ... يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي

فَلَمْ تَزَلْ دَائِباً تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي ... حَتَّى آخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ أَجَلِي

قال له العتابي: قد علم الله وعلمتَ أن هذا ليس مثل قولك، ولكنك قد أعددت لكل ناصح جواباً، وقد أراد(١) أبو نواس هذا المعنى في قالب آخر، فقال(٣):

كَدَّتْ مُنَادَمَةُ آلدِّمَاءِ سُيُوفَهُ ... فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الأَجْفَانُ(٤)

حَتَّى آلَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً ... لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ(٥)

وما يجيء في هذا الباب ما يجري هذا المجرى.

وقد استعمل أبو الطيب المتنبي هذا القسم في شعره كثيراً، فأحسن في مواضع منه؛ فمن ذلك قوله(٦):

---

(١) البيت في معاهد التنصيص (ص ٣٤٥ بولاق) وفي نقد الشعر لقدامة (ص ١٨).

(٢) كذا، والأحسن «قد أورد».

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد، وأولها قوله:

حَيِّ الدِّيَارَ إِذِ الزَّمَانُ زَمَانُ ... وَإِذِ الشَّبَابُ لَنَا حرى وَمَعَانُ

انظر الديوان (ص ٥٨ مصر).

(٤) كذا في ا، ب، ج، د؛ وفي الديوان «ألفت منادمة الدماء سيوفه».

(٥) بعد البيتين قوله:

حَذَرَ امْرِئٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعِدَى ... كَالدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ

(٦) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وأولها قوله:

طِوَالُ قَناً تُطَاعِنُهَا قِصَارُ ... وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

عَجَاجاً تَعْثُرُ الْعِقْبَانُ فِيهِ كَأَنَّ الْجَوَّ وَعْثٌ أَوْ خَبَارُ[١]

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر؛ فقال[٢]:

عقَدَتْ سَنَابِكُهَا عِثْيَراً لَوْ تَبْتَغِي عَنَقاً عَلَيْهِ لأَمْكَنَا[٣]

وهذا أكثر مغالاة من الأول.

ومن ذلك قوله أيضاً[٤]:

كَأَنَّمَا تَتَلَقَّاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَافِ مَا يَسَعُ[٥]

---

(١) قبل هذا البيت قوله:

تُثِيرُ عَلَى سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرّاً تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلَا الشِّعَارُ

تثير: تهيج، والمسبطر: العجاج الممتد الساطع، والشعار: العلامة التي يتعارفون بها، و«عجاجا» بدل من «مسبطراً»؛ والعقبان: جمع عقاب، وهو من جوارح الطير، والوعث: السهل الكثير الرمل، والخبار: الأرض اللينة.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار، وأولها قوله:

الحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا

(٣) قبل هذا البيت قوله:

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ وَالْجِيَادُ عَوَابِسٌ يَخْبُبْنَ بِالْحَلَقِ الْمُضَاعَفِ وَالْقَنَا

الجياد: الخيل، واحدها جواد، ويخببن: يسرعن، والحلق: جمع حلقة، وهي حلقة الحديد التي في الدرع، والمضاعف: الكثير. والسنابك: جمع سنبك، وهو طرف مقدم الحافر، والعثير: الغبار، والعنق: ضرب من السير شديد.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وأولها قوله:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

(٥) قبل هذا البيت قوله:

ذَمَّ الدُّمُسْتُقُ عَيْنَيْهِ وَقَدْ طَلَعَتْ سُودُ الْغَمَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَزَعُ
فِيهَا الْكُمَاةُ الَّتِي مَفْطُومُهَا رَجُلٌ عَلَى الْجِيَادِ الَّتِي حَوْلِيُّهَا جَذَعُ
يُذْرِي اللُّقَانُ غُبَاراً فِي مَنَاخِرِهَا وَفِي حَنَاجِرِهَا مِنْ آلِسٍ جُرَعُ

الدمستق: صاحب جيش الروم، والقزع: قطع الغمام، والكماة، جمع كمي، وهو الشجاع المستتر في سلاحه، والحولي: الذي أتى عليه حول واحد، والجذع: الذي أتى عليه حولان، ويذري: يثير، واللقان: موضع ببلاد الروم، وآلس: نهر هناك.

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم[١]:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا[٢]

لكن أبو الطيب أكثر غلواً في هذا المعنى، وقيس بن الخطيم[١] أحسن؛ لأنه قريب من الممكن؛ فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء، وأما أن يجعل المطعون مسلكاً يسلك كما قال أبو الطيب؛ فإن ذلك مستحيل، ولا يقال فيه بعيد.

وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين، والأمثلة به كثيرة لا تحصى؛ إذ كل ما خرج عن الطرفين من الإفراط والتفريط فهو اقتصاد، ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلاً، ثم يستثنى فيه بلَوْ أو بكَادَ وما جرى مجراهما؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ وكذلك قوله عزَّ وجل: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾؛ وقد ورد هذا في القرآن الكريم كثيراً، ومما ورد منه شعراً قول الفرزدق[٣]:

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

---

(١) في ا، ب، ج «قيس بن الحطيم» بالحاء مهملة، وصوابه بالخاء المعجمة، وانظر اشتقاق اسمه في شرح التبريزي على الحماسة (١ ـ ١٧٧)، والبيت الذي أنشده المؤلف من كلمة له أنشدها أبو تمام في باب الحماسة من ديوان الحماسة وأولها قوله:

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ ... لَهَا نَفَذٌ لَوْلاَ الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا

(٢) وقع في ا، ب، ج «لمكت بها كفي فأنهزت فتقها» وهو تحريف في موضعين والتصويب عن ديوان الحماسة بشرح التبريزي (١ ـ ١٧٨) وعن شرح العكبري على ديوان المتنبي (٢ ـ ٢٢٧ طبع الحلبي) والأصل في هذا المعنى قول النابغة الذبياني:

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَاحِبِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها زين العابدين، وأولها قوله:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

وكذلك ورد قول البحتري[١]:

لَـوْ أَنَّ مُشْـتَـاقـاً تَـكَـلَّفَ فَـوْقَ مَـا ... فِـي وُسْعِـهِ لَـسَعَـى إِلَيْـكَ الْـمِـنْبَـرُ

وهذا هو المذهب المتوسط.

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ويهنئه بعيد الفطر، وأولها قوله:

أُخْـفِي هَـوًى لَـكَ فـي الضُّـلوعِ وَأُظْهِـرُ ... وَأُلَامُ فـي كَـمَـدٍ عَـلَيْـكَ وَأُعْـذَرُ

النوع السادس والعشرون

في الاشتقاق

اعلم أن جماعة علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس، وليس الأمر كذلك، بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام، وذاك أن التجنيس في أصل الوضع من قولهم: جَانَسَ الشيءُ الشيءَ؛ إذا ماثله وشابهه، ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الألفاظ ما يتماثل ويتشابه في صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس، وكذلك لما وجدنا من المعاني ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضاً؛ فالتجنيس إذن ينقسم قسمين: أحدهما تجنيس في اللفظ، والآخر تجنيس في المعنى؛ فأما الذي يتعلق باللفظ فإنه لم ينقل عن بابه ولا غير اسمه، وقد تقدم ذكره في باب الصناعة اللفظية، وأما الذي يتعلق بالمعنى فإنه نقل عن بابه في التجنيس، وسمي الاشتقاق: أي أحد المعنيين مشتق من الآخر.

وهو على ضربين: صغير، وكبير.

فالصغير: أن تأخذ أصلاً من الأصول فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، كترتيب س ل م؛ فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه؛ نحو سَلِمَ وسَالِم وسَلْمَان وَسَلْمَى، والسَّليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلاً بالسلامة.

والأصل في ذلك أن يضع واضع اللغة اسماً أولاً لمسمى أول، ثم يجد مسمى آخر أو مسميات شبيهة بالمسمى الأول فيضع لها اسماً كالاسم الأول، كقوله ضَرير اسم للأعمى، والضر: ضد النفع، والضَّرَّاء: الشدة من الأمر، والضر ـ بالضم ـ: الهزال وسوء الحال، والضرر: الضيق، والضَّرَّة: إحدى الزوجتين؛ فإن هذه المسميات كلها تدلّ على الأذى والشر، وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء، إلا أنا الآن لا نعلم ما هو الأول منها حتى نحكم على الثاني أنه مشتق منه،

لكن نعلم في السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة؛ لأنه ضدها؛ قيل: من أجل التفاؤل بالسلامة، وعلى هذا جاء غيره من الأصول، كقولنا: هَشَمَكَ هاشِم، وَحارَبَكَ مُحَارِب، وَسَالَمَكَ سالِم، وَأصابَ الأرضَ صَيِّبٌ، فهذه الألفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد؛ أما هاشم فإنه لم يسم بهذا الاسم إلا لأنه هَشَم الثريد في عام مَحْلٍ فسمي بذلك، وأما مُحَارب فإنه اسم فاعل من حَارَبَ فهو مُحَارب، وأما سالم فمن السلامة، وهو اسم فاعل من سلم، وأما الصَّيِّب فهو المطر الذي يشتد صَوْبه: أي وَقْعُه على الأرض، ولا يقاس على ذلك قول النبي ﷺ «أَسْلَمُ سَالَمَهَا ٱللهُ، وَغِفَار غَفَرَ ٱللهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ ٱللهَ» فإن أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل، ولم تسمّ أسلم من المسالمة، ولا غفار من المغفرة، ولا عصية من تصغير عصا، وهذا هو التجنيس، وليس بالاشتقاق، والنظر في مثل ذلك يحتاج إلى فكرة وتدبر كي لا يختلط التجنيس بالاشتقاق.

ومما جاء من ذلك شعراً قول البحتري:

* أَمَحِلَّتَيْ سَلْمَى بِكَاظِمَةَ آسْلَمَا[1] *

وكذلك قول الآخر[2]:

وَمَـا زَالَ مَعْقُـولاً عِقَـالٌ عَنِ النَّـدَى وَمَـا زَالَ مَحْبُوسـاً عَنِ الْخَيْرِ حـابِسُ[3]

وربما ظن أن هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس؛ حيث قيل فيه: معقول وعقال، ومحبوس وحابس، وليس الأمر كذلك، وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيراً على من لم يُتْقِن معرفته.

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها أحمد وإبراهيم ابني المدبر؛ وعجزه قوله:

* وَتَعَلَّمَا أَنَّ الْهَوَى مَا هِجْتُما *

انظر الديوان (٢ ـ ١٣٩ مصر).

(٢) هو جرير بن عطية من كلمة له يهجو فيها الفرزدق، وأولها قوله:

وَمَـا ذَاتُ أَرْوَاقٍ تَـصَـدَّى لِـجُـؤْذَرٍ بِـحَـيْـثُ تَـلَاقَـى عَـازِبٌ فَـالْأَوَاعِسُ

(٣) البيت في الصناعتين (ص ٢٥٦) وجعله أبو هلال من التجنيس؛

وقد تقدم القول أن حقيقة التجنيس هي: اتفاق اللفظ واختلاف المعنى، وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللَّفْظُ فيهما واحد والمعنى أيضاً واحد، فهذا مشتق من هذا: أي قد شق منه.

وكذلك ورد قول عنترة(١):

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ أَنَّ قَوْمِي لَهُمْ حَدٌّ إِذَا لُبِسَ الْحَدِيدُ(٢)

فإن حَدّاً وحديداً لفظهما واحد ومعناهما واحد.

وأما الاشتقاق الكبير فهو: أن تأخذ أصلاً من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحداً يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها وإن تباعد شيء من ذلك عنها رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليها.

ولنضرب لذلك مثالاً؛ فنقول: إن لفظة «ق م ر» من الثلاثي لها ست تراكيب، وهي: ق ر م، ق م ر، رق م، ر م ق، م ق ر، م ر ق؛ فهذه التراكيب الست يجمعها معنى واحد، وهو القوة والشدة، فالْقَرَم: شدة شهوة اللحم، وَقَمَرَ الرجُلُ؛ إذا غلب من يقامره، والرَّقم: الداهية، وهي الشدة التي تلحق الإنسان من دهره، وعيش مُرَمَّق: أي ضيق، وذلك نوع من الشدة أيضاً، والْمَقِرُ: شبه الصبر، يقال: أمقر الشيء، إذا أمَرَّ، وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة، ومَرَق السهم؛ إذا نفذ من الرمية. وذلك لشدة مَضَائه وقوّته.

واعلم أنه إذا سقط من تراكيب الكلمة شيء فجائز ذلك في الاشتقاق؛ لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة، بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها أدت إلى معنى واحد يجمعها؛ فمثال ما سقط من تركيب الثلاثي لفظة «و س ق» فإن لها خمس تراكيب، وهي: و س ق،

(١) كذلك وقع في جميع أصول الكتاب، وهذا خطأ؛ فالبيت ليس لعنترة، وإنما هو لمحان بن ربيعة الطائي، وهو من شعر الحماسة (انظر التبريزي: ١ ـ ٢٧٩) وقد نسب على الصواب في الصناعتين لأبي هلال العسكري (ص ٢٥٦).

(٢) في رواية الحماسة «لَهُمْ جَدٌّ» وذكر التبريزي أنه يروى «لهم حد».

وق س، س وق، ق س و، ق وس، وسقط من جملة التراكيب قسم واحد، وهو س ق و، وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة أيضاً؛ فالوسق من قولهم: استوسق الأمر: أي اجتمع وقوي، والْوَقْسُ: ابتداء الْجَرَب[1]. وفي ذلك شدة على من يصيبه وبلاء، والسَّوْق: متابعة السير، وفي هذا عناء وشدة على السائق والمسوق، والْقَسْوَة: شدة القلب وغلظه، والْقَوْسُ معروفة، وفيها نوع من الشدة والقوة؛ لنزعها السهم وإخراجه إلى ذلك المرمى المتباعد.

واعلم أنا لا نَدَّعي أن هذا يطرد في جميع اللغة، بل قد جاء شيء منها كذلك، وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها؛ لأن الكلمة الواحدة تَتَقَلَّب على ضروب من التقاليب، وهي مع ذلك دَالَّة على معنى واحد، وهذا من أعجب الأسرار التي توجد في لغة العرب وأغربها، فاعرفه.

إلا أن الاستعمال في النظم والنثر إنما يقع في الاشتقاق الصغير دون الكبير، وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تكثر الألفاظ الواردة عليه، والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد في اللغة إلا قليلاً، وأيضاً فإن الحسن اللفظي الذي هو الفصاحة إنما يقع في الاشتقاق الصغير، ولا يقع في الاشتقاق الكبير، ألا ترى إلى هذين الأصلين الواردين ههنا، وهما «ق ر م» و«وس ق» إذا نظرنا إلى تراكيبهما وأردنا أن نسبكهما في الاستعمال لم يأت منهما مثل ما يأتي في الاشتقاق الصغير حُسْناً ورَوْنَقاً؛ لأن ذاك لفظه لفظ تجنيس، ومعناه معنى اشتقاق، والاشتقاق الكبير ليس كذلك.

(١) في ا، ب، ج «الحرب» بالحاء المهملة؛ وهو تحريف ولا يلتئم مع ما بعده.

النوع السابع والعشرون

في التضمين

وهذا النوع فيه نظر بين حَسَنٍ يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم، وهو عندهم معدود من عيوب الشعر، ولكل من هذين القسمين مقام.

فأما الحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة فهو: أن يضمن الآيات والأخبار النبوية، وذلك يرد على وجهين: أحدهما: تضمين كلي، والآخر تضمين جزئي.

فأما التضمين الكلي فهو: أن تذكر الآية والخبر بجملتهما، وأما التضمين الجزئي فهو: أن تدرج بعض الآية والخبر في ضمن كلام؛ فيكون جزأ منه كالذي أوردته في حل الآيات والأخبار في الفصل العاشر من مقدمة الكتاب، وقد قيل: إنه لا يجوز درج آيات القرآن الكريم في غضون الكلام من غير تبيين، كي لا يشتبه، وهذا القول لا أقول به؛ فإن القرآن الكريم أَبْيَنُ من أن يحتاج إلى بيان، وكيف يخفى وهو المعجز الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله، فإن كانت المفاوضة في التفرقة بينه وبين غيره من الكلام إذا أدرج فيه مع جاهل لا يعرف الفرق فذاك لا كلام معه، وإن كان الكلام مع عالم بذلك فذاك لا يخفي عنه القرآن الكريم من غيره.

ومذهبي في هذا هو ما تقدم ذكره في الفصل العاشر من مقدمة الكتاب، وهو أحسن الوجهين عندي، وذاك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها، بل يؤخذ جزء منها ويجعل أوّلاً لكلام أو آخراً، هذا إذا لم يقصد به التضمين؛ فأما إذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجاً، وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة، ولا رأى ما رأيته.

وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الإسناد، وذلك يقع في بيتين من الشعر، أو فصلين من الكلام المنثور، على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثاني؛ فلا يقوم الأول بنفسه، ولا يتم معناه إلا بالثاني، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر، وهو عندي غير مَعِيب؛ لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلَّق البيت الأول على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيباً؛ إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالأخرى؛ لأن الشعر هو: كل لفظ موزون مُقَفًّى دلَّ على معنى، والكلام المسجوع هو: كل لفظ مقفى دل على معنى؛ فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير.

والفقر المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد وردت في القرآن الكريم في مواضع منه؛ فمن ذلك قوله عز وجل في سورة الصافات: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾ فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض؛ فلا تُفْهَم كل واحدة منهن إلا بالتي تليها، وهذا كالأبيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض، ولو كان عيباً لما ورد في كتاب الله عز وجل.

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة الصافات أيضاً: ﴿**فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ**﴾ فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى.

وهكذا ورد قوله عز وجل في سورة الشعراء: ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾ فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة، ألا ترى أن الأولى والثانية في معرض استفهام يفتقر إلى جواب، والجواب هو في الثالثة.

ومما ورد من ذلك شعراً قول بعضهم:

وَمِنَ الْبَلْوَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي النَّاسِ كُنْهُ
أَنَّ مَنْ يَعْرِفُ شَيْئاً يَدَّعِي أَكْثَرَ مِنْهُ

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولا تَمَّ معناه إلا بالبيت الثاني :

وقد استعملته العرب كثيراً، وورد في شعر فحول شعرائهم؛ فمن ذلك قول آمرىء القيس[١] :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ :
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وكذلك ورد قول الفرزدق[٢] :

وَمَا أَحَدٌ مِنَ الْأَقْوَامِ عَدُّوا عُرُوقَ الْأَكْرَمِينَ إِلَى التُّرَابِ[٣]
بِمُحْتَفِظِينَ إِنْ فَضَّلْتُمُونَا عَلَيْهِمْ فِي الْقَدِيمِ وَلَا غِضَابِ[٤]

---

(١) البيتان من معلقة امرىء القيس التي مطلعها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسُقْطِ اللِّوَى بَيْنَ آلدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقبل البيتين قوله :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي

وانظر (ج ١ ص ٣٨٤) من هذا الكتاب.

(٢) روى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني هذين البيتين، وروى معهما بيتاً ثالثاً، وهو قوله :

وَلَوْ رَفَعَ السَّحَابُ إِلَيْهِ قَوْماً عَلَوْنَا فِي السَّمَاءِ إِلَى السَّحَابِ

وقال قبل رواية هذه الأبيات بإسناده عن أبي عبيدة : «اجتمع الفرزدق وجرير وكثير وابن الرقاع عند سليمان بن عبد الملك، فقال : أنشدونا من فخركم شيئاً حسناً فبدرهم الفرزدق، فقال» وأنشد هذه الأبيات (ج ١٩ ص ٣٣ بولاق).

(٣) في ا، ب، ج «عروف الأكرمين» وهو تحريف، وصوابه عن الأغاني؛ وفي الأغاني «وما أحد من العلماء عدت».

(٤) في الأغاني «بمختلفين».

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة(١):

لَعَمْـرِي لَـرَهْطُ المَـرْءِ خَيْـرُ بَقِيَّـةً(٢) عَلَيْـهِ وَإنْ عَـالَـوْا بِـهِ كُـلَّ مَـرْكَبِ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإن كَانَ ذَا غِنًى جَـزِيـلٍ وَلَمْ يُخْبِـرْكَ مِثْـلُ مُجَـرِّبِ

الضرب الثاني من التضمين: وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاماً آخر لغيره؛ قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاماً، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت، أو أقلَّ منه، كما قال جحظة:

قُـمْ فـاسْقِـنِيهَـا يَـا غُـلَامُ وَغَـنِّـنِي ذَهَبَ ٱلَّـذِينَ يُعَـاشُ في أَكْنَـافِهِمْ(٣)

ألا ترى أنه لو لم يقل في هذا البيت «ذهب الذين يعاش في أكنافهم» لكان المعنى تاماً لا يحتاج ألى شيء آخر، فإن قوله «قم فاسقنيها يا غلام وغنني» فيه كفاية؛ إذ لا حاجة له إلى تعيين الغناء؛ لأن في ذلك زيادة على المعنى المفهوم، لا على الغرض المقصود.

وقد ورد هذا في عدة مواضع من شعر أبي نواس في الخمريات، كقوله في مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب(٤):

فَقُلْتُ هَـلْ لَكَ في الصَّهْبَـاءِ تَـأْخُـذُهَـا مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِـرٍ فـالْعَيْشُ مُقْتَبِـلُ(٥)

---

(١) روى البيتين أبو تمام في باب الحماسة، وروى معهما ثالثاً، وهو قوله:

إذَا كُنْتَ فِـي قَـوْمٍ وَلَـمْ تَـكُ مِـنْهُـمُ فَكُـلْ مَـا عُلِفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّـبِ

وانظر شرح التبريزي (١ ـ ٣٣٥).

(٢) في ا، ب، ج «خير تقية» وصوابه عن الحماسة.

(٣) الشطر الثاني للبيد بن ربيعة صدر بيت، وهو:

ذَهَـبَ ٱلَّـذِيـنَ يُـعَـاشُ فـي أَكْـنَـافِـهِـمْ وَبَـقِـيـتُ في خَـلْفٍ كَـجِـلْدِ الْأَجْـرَبِ

(٤) من كلمة له أولها قوله:

وَمُـعْـتَـدٍ بِـالَّـذِي تَـحْـوِي أَنَـامِـلُهُ مِنْ كَـأْسٍ مُنْتَخَبٍ لَمْ يَثْنِـهِ المَـلَلُ

(٥) في الديوان «من كف ذات هن».

حِيرِيَّـةٌ كَشُعَـاعِ الشَّمْسِ صَـافِيَـةٌ تَـطِيرُ بِـالْكَـأْسِ مِنْ لأْلاَئِهَا شُعَـلُ[١]
فَقَـالَ هَـاتِ وَغَنِّينَـا عَـلَى طَـرَبٍ وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْبَ مُـرْتَحِـلُ[٢]

وكذلك قوله أيضاً[٣]:

وَظَبْيٍ خَلُوبِ اللَّفْظِ حُلْوٍ كَـلاَمُـهُ مُـقَـبَّـلُهُ سَـهْـلٌ وَجَـانِـبُـهُ وَعْـرُ
نَحَلْتُ لَـهُ مِـنْهَـا فَـخَـرَّ لِـوَجْهِـهِ وَأَمْكَنَ مِـنْـهُ مَـا يُحِيطُ بِـهِ الْأُزُرُ[٤]
فَقُمْتُ إِلَيْـهِ وَالْـكَـرَى كُحْـلُ عَيْنِـهِ فَـقَبَّلْتُـهُ وَالـصَّبُّ لَـيْسَ لَـهُ صَبْـرُ
إِلَـى أَنْ تَجَـلَّى نَـوْمُـهُ عَنْ جُـفُـونِـهِ وَقَـالَ كَسبتَ آلـذَّنْبَ قُلْتُ لِيَ الْعُـذْرُ

---

(١) في ا، ب، ج «حبرية» وتصويبه عن الديوان (٣١٨) والحيرية: المنسوبة إلى الحيرة، وهي مدينة بالعراق.

(٢) في الديوان «فقلت هات وأسمعنا» وهو أحسن مما هنا؛ والشطر الثاني من البيت صدر مطلع لامية الأعشى، وهو قوله:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَـحِـلُ وَهَـلْ تُـطِيـقُ وَدَاعـاً أَيُّـهَـا الـرَّجُـلُ

وقد ضمن أبو نواس هذا الشطر نفسه في كلمة أخرى، وهي قوله:

بَـادِرْ صَبُـوحَـكَ وَأَنْعَـمْ أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ وَآعْصِ آلَّـذِينَ بِجَهْـلٍ فِي الهَـوَى عَذَلُـوا
وَآخْلَعْ عِـذَارَكَ وَآضحكْ كُـلَّ ذِي طَرَبٍ وَاعْـدِلْ بِنَفْسِـكَ فِيهِمْ أَيْنَمـا عَـدَلُـوا
نَـالَ الشُّـرُورَ وَخَفْضَ الْعَيْشِ فِي دَعَـةٍ وَفَـازَ بِـالـطَّيِّبَـاتِ الـمَـاجِـنُ الـهَـزِلُ
سَقْيـاً لِـمَجْـلِسِ فِتْـيَـانٍ أُنَـادِمُـهُـمْ مَـا فِـي أَدِيـمِـهِـمُ وَهْـيٌ وَلاَ خَـلَلُ
هٰـذَا لِـذَاكَ كَـمـا هٰـذَا وَذَاكَ لِـذَا فَـالشَّمْـلُ مُنْتَـظِمٌ وَالْحَبْـلُ مُتَّصِـلُ
أَكْـرِمْ بِـهِـمْ وَبِـنَـغْـمٍ مِـنْ مُـغَـنِّـيَـةٍ فَفِي الْغِنَـاءِ بِنَغْـمٍ يُضْـرَبُ الـمَـثَـلُ
هَيْفَـاءُ تُسْمِعُنَـا وَالْـعُـودُ يُـطْرِبُنَـا وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إِنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَـحِـلُ

(٣) من كلمة له أولها قوله:

غَـدَوْتُ وَمَـا يَـشْجُـو فُـؤَادِي خَـوَادِشٌ وَمَـا وَطَـرِي إِلاَّ الْـغَـوَايَـةُ وَالْـخَـمْـرُ
مُـعَـتَّـقَـةٌ حَـمْـرَاءُ وَقْـدَتُـهَـا جَـمْـرُ وَنَكْـهَـتُـهَـا مِـسْـكٌ وَطَلْعَـتُـهَـا تِـبْـرُ

انظر الديوان (ص ٢٨٠ مصر).

(٤) في الديوان «رهفت له منها» وفيه «ما تحيط به الأزر».

فَـأَعْـرَضَ مُـزْوَرّاً كَـأَنَّ بِـوَجْـهِـهِ تَـفَـقُّـؤَ رُمَّـانٍ وَقَـدْ بَـرَدَ الـصَّـدْرُ
فَـمَـا زِلْتُ أَرْقِـيـهِ وَأَلْـثِـمُ خَـدَّهُ إِلَى أَنْ تَـغَـنَّـى رَاضِـيـاً وَبِـهِ سُـكْـرُ
أَلَا يَـا آسْلَمِي يَـا دَارَمَـيَّ عَلَى الْـبِلَى وَلَا زَالَ مُنْهَـلّاً بِجَـرْعَـائِكِ الْقَـطْرُ(١)

وقد استعمل هـذا الضرب كثيـراً الخطيبُ عبد الرحمن بن نُبَـاتَة رحمـه الله؛ فمن ذلـك قولـه في بعض خطبـه، وهو: فيـأيُّهَا الْغَفَلة المـطرقـون، أمـا أنتم بهـذا الحديث مُصَدِّقون، فما لكم منه لا تشفقون، فَـوَرَبِّ السماء والأرض إنـه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون.

وكذلك قوله في ذكر يوم القيامة، وهو: فيومئذٍ تغدو الخـلائق على الله بهما، فيحاسبهم على ما أحاط به علماً، وينفذ في كل عامـل بعمله حكماً، وَعَنَتِ الْـوُجُوهُ لِلْحَيِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً.

ألا ترى إلى براعة هذا التضمين الذي كأنه قد رصع في هذا الموضع رصعاً.

وعلى نحو من ذلك جاء قوله في ذكر يوم القيامة، وهو: هُنَـاك يقع الحسـاب على ما أحصاه الله كتاباً، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سَـرَابًا، يـوم يقوم الـروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا.

وممـا ينتظم بهـذا السلك قولـه في خطبـة أخـرى، وهـو: أَسْكَتَهُمُ الله الـذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم وسيجدهم كما أخلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم، يوم يُعِيـدُ الله العالمين خلقـاً جديـداً، ويجعل الـظالمين لنار جهنم وقـوداً، يوم تكـونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً، يوم تجد كـل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

ومن هذا الباب قوله أيضاً: هنالك يرفع الحجاب، ويوضع الكتـاب، ويجمع من وجب له الثواب، ومن حق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيـه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

وأمثال هذه التضمينات في خطبه كثيرة، وهي من محـاسن ما يجيء في هـذا النوع.

(١) هذا البيت مطلع قصيدة لذي الرمة غيلان بن عقبة وفي ا، ب، ج «ألا فاسلمي».

النوع الثامن والعشرون

في الإرصاد

وحقيقته: أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له: أي أعدها في نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته.

وذلك من محمود الصنعة؛ فإن خير الكلام ما دَلَّ بعضه على بعض، وفي الافتخار بذلك يقول ابن نباتة السعدي:

خُذْهَا إذَا أنْشِدَتْ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ ... صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا
يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ ... وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانُ يُطْرِيهَا

فمن هذا الباب قول النابغة(١):

فِدَاءٌ لِامْرِيءٍ سَارَتْ إِلَيْهِ ... بِعِذْرَةِ رَبِّهَا عَمِّي وَخَالِي
وَلَوْ كَفِّي الْيَمِينُ بَغَتْكَ خَوْنًا ... لَأَفْرَدْتُ الْيَمِينَ عَنِ الشِّمَالِ(٢)

ألا ترى أنه يعلم إذا عرفت القافية في البيت الأول أن في البيت الثاني ذكر الشمال.

وكذلك جاء قول البحتري(٣):

---

(١) البيتان من كلمة للنابغة الذبياني يمدح فيها النعمان بن المنذر، وليسا بمتصلين وأولها:

أَمِنْ ظَلَّامَةَ الدِّمَنُ الْبَوَالِي ... بِمُرْفَضِّ الْحَبِيِّ إِلَى وُعَالِ

(٢) في ا، ب، ج «نفتك خوفاً» وتصويبه عن الديوان.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل، وأولها قوله:

أَلَا هَلْ أَتَاهَا بِالْمَغِيبِ سَلَامِي ... وَهَلْ خَبَرَتْ وَجْدِي بِهَا وَغَرَامِي

أحلَّتْ دَمِي مِنْ غَيـرِ جُـرْمٍ وَحَـرَّمَتْ بِـلَا سَبَبٍ يَـوْمَ الـلِّقَـاءِ كَـلَامِـي[1]
فَـلَيْسَ الَّـذِي حَـلَّلْتِـهِ بِـمُـحَـلَّلٍ لَـيْسَ الَّـذِي حَـرَّمْـتِـهِ بِـحَـرَامِ

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثاني أن عجزه هو ما قاله البحتري.

وقد جاء الإرصاد في الكلام المنثور كما جاء في الشعر؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإذا وقف السامع على قوله تعالى ﴿لقضي بينهم فيما فيه﴾ عرف أن بعده ﴿يختلفون﴾ لما تقدم من الدلالة عليه.

ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

على نحو منه جاء قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ فإذا وقع السامع على قوله عز وجل ﴿وإنَّ أوْهَنَ البيوت﴾ يعلم أن بعده بيت العنكبوت.

ورأيت أبا هلال العسكري[2] قد سمى هذا النوع التَّوْشيحَ؛ وليس كذلك، بل

---

(١) هذا البيت ليس متصلاً بما بعده في القصيدة، بل بينهما بيتان، وهما قوله:

فِـدَاؤُكِ مَـا أَبْـقَـيْـتِ مِـنِّـي فَـإِنَّـهُ حُـشَـاشَـةُ جِسْمٍ فِي نُـحُـولِ عِـظَامِـي
صِلِي مُغْـرَمـاً قَـدْ وَاتَـرَ الشَّـوْقُ دَمْعَـهُ سِجَـامـاً عَلَى الْـخَـدَّيْنِ بَعْـدَ سِجَـامِ

ومن لطيف ما جاء من هذا النوع قول البحتري أيضاً:

أَبْـكِـيـكُـمَـا دَمْـعـاً، وَلَـوْ أَنِّـي عَـلَى قَـدْرِ الْجَـوَى أَبْكِي بَكَـيْـتُـكُـمَـا دَمَـا

ومن جيده قول الآخر:

وَلَـوْ أَنَّنِي أُعْـطِيتُ مِـنْ دَهْـرِي الـمُـنَى وَمَـا كُـلُّ مَنْ يُعْـطَى الـمُـنَى بِـمُـسَـدَّدِ
لَـقُـلْتُ لِأَيَّـامٍ مَـضَـيْـنَ أَلَا ارْجِـعِـي وَقُـلْتُ لِأَيَّـامٍ أَتَـيْـنَ أَلَا أَبْـعِـدِي

(٢) انظر كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص ٣٠٢ الآستانة).

تسميته بالإرصاد أولى، وذلك حيث ناسب الاسم مُسَمَّاهُ، ولاَقَ به، وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان، وسيأتي ذكره بعد هذا النوع، إن شاء الله تعالى.

واعلم أنه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان، حتى إنَّ أحدهم يَضَع لنوع واحد منه اسمين، اعتقاداً منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان، وليس الأمر كذلك، بل هما نوع واحد.

فممن غلط في ذلك الغانمي؛ فإنه ذكر باباً من أبواب علم البيان وسَمَّاه التَّبليغ وقال: هو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه، فيبلغ بذلك الغاية القُصْوَى في الجودة؛ كقول امرىء القيس[1]:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ[2]

فإنه أتى بالتشبيه تاماً قبل القافية، ثم لما جاء بها بلغ الأَمَدَ الأقصى في المبالغة.

ثم إن الغانمي ذكر بعد هذا الباب باباً آخر، وسماه الإشباع، فقال: هو أن يأتي الشاعر بالبيت مُعَلق القافية على آخر أجزائه، ولا يكاد يفعل ذلك إلَّا حُذَّاق الشعراء، وذاك أن الشاعر إذا كان بارعاً جَلَبَ بقدرته وذكائِه وفطنته إلى البيت وقد

---

(١) لامرىء القيس قصيدة على هذا الروي أولها:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ لِنَقْضِيَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

ومن الرواة من يروي البيت الذي أنشده المؤلف في هذه القصيدة، ومنهم من يرويه في قصيدة لعلقمة بن عبدة التميمي، المعروف بعلقمة الفحل؛ وهي قصيدة على روي كلمة امرىء القيس، ويتحدث الرواة أن الشاعرين أنشدا قصيدتيهما معاً، وأول كلمة علقمة قوله:

ذَهَبْتِ مِنَ الْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقّاً كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

وقد روى أبو هلال العسكري هذا البيت منسوباً لامرىء القيس (الصناعتين: ٣٠١) ورواه ابن رشيق في العمدة (٢ ـ ٥٥) منسوباً له أيضاً.

(٢) الجزع ـ بفتح الجيم وسكون الزاي ـ خرز يمانٍ فيه سواد وبياض، وتشبه به الأعين.

تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لأعاريضه ووزنه فجعلها نعتاً للمذكور، كقول ذي الرُّمَّة[١] :

قِفِ الْعِيسَ في أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُوماً كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ[٢]

هذا كلام الغانمي بعينه.

والبابان المذكوران سواء، لا فرق بينهما بحال؛ والدليل على ذلك أن بيت امريء القيس يتمُّ معناه قبل أن يؤتى بقافيته، وكذلك بيت ذي الرمة، ألا ترى أن امرأ القيس لما قال:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ . . . . . .

أتى بالتشبيه قبل القافية، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة، وهي قوله «لَمْ يُثَقَّب»، وهكذا ذو الرمة، فإنه لما قال:

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُوماً كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ . . . . . .

أتى بالتشبيه أيضاً قبل أن يأتي بالقافية، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة وهي قوله «المسلسل».

واعلم أن أبا هلال العسكري قد سمي هذين القسمين بعينهما الإيغال؛ وقال[٣] : هو أن يَسْتَوْفِيَ الشاعرُ معنَى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي

---

(١) هذا البيت مطلع قصيدة له يذكر فيها قومه ويهجو عشيرة امرىء القيس، وبعده:

أَظُنُّ الَّذِي يُجْدِي عَلَيْكَ سُؤَالُهَا دُمُوعاً كَتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ

(٢) البيت في الصناعتين (٣٠١) مع ما بعده، وفي العمدة (٢ ـ ٥٤)، وفي العمدة «كتبديد الجمان» ولها وجه وجيه.

(٣) انظر «الصناعتين» لأبي هلال (ص ٣٠١) ومثل ما ذكره المؤلف عن أبي هلال قد ذكره ابن رشيق في العمدة (٢ ـ ٥٤ وما بعدها)، ومثلًا له أيضاً بقول الأعشى ميمون بن قيس:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوعِلُ =

بالمقطع فيزيد فيه معنى آخر، وأصل الإيغال من أَوْغَلَ في الأمرِ؛ إذا أبعد الذهاب فيه، ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذي الرمة:

* قِفِ الْعِيسَ في أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ * البيت.

وهذا أقرب أمراً من الغانمي؛ لأنه ذكره في باب واحد، وسماه باسم واحد، ولم يذكره في باب آخر كما فعل الغانمي، وليس الأخذ على الغانمي في ذلك مناقشة على الأسماء، وإنما المناقشة على أن ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه، ويكون أحد الأبواب التي ذكرها داخلاً في الآخر فيذهب عليه ويخفي عنه، وهو أشهر من فَلَق الصَّبَاح.

وههنا ما هو أغرب من ذاك؛ وذلك أنه قد سلك قوم في منثور الكلام ومنظومه طُرُقاً خارجة عن موضوع علم البيان، وهي بِنَجْوَةٍ عنه؛ لأنها في وَادٍ وعلم البيان في واد.

فممن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات؛ فإنه ذكر تلك الرسالة التي هي

= ويقول امرىء القيس:

إِذَا مَا جَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ ... تَقُولُ هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ

ويقول زهير بن أبي سلمى:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

ومثل له ابن رشيق بقول الخنساء:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

ويقول الطرماح يصف فرساً بسعة منخره:

لَا يَكْتُمُ الرَّبْوَ إِلَّا رَيْثَ يُخْرِجُهُ ... مِنْ مَنْخِرٍ كَوِجَارِ الثَّعْلَبِ الْخَرِبِ

ويقول مسلم بن الوليد ـ وكان الرشيد يعجب به:

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ شَارِبٍ ... تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ

ويقول بشار بن برد:

وَغَيْرَانَ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ كَأَنَّهُ ... أُسَامَةُ ذُو الشِّبْلَيْنِ حِينَ يَجُوعُ

كلمة معجمة وكلمة مهملة، والرسالة التي حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم، ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول للبيت الذي يليه، وكل هذا ـ وإن تضمن مشقةً من الصناعة ـ فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة؛ لأن الفصاحة هي ظهور الألفاظ مع حسنها، على ما أشرت إليه في مقدمة كتابي هذا، وكذلك البلاغة فإنها الانتهاءُ في محاسن الألفاظ والمعاني؛ من قولنا: بلغت المكان؛ إذا انتهيت إليه، وهذا الكلام المَصُوغ بما أتى به الحريري في رسالته وأورده ذلك الشاعِر في شعره لا يتضمن فصاحةً ولا بلاغة، وإنما يأتي ومعانيه غَثّة باردة، وسبب ذلك أنها تُسْتَكْرَهُ استكراهاً، وتوضع في غير مواضعها، وكذلك ألفاظه؛ فإنها تجيء مُكْرَهَة أيضاً غير ملائمة لأخواتها، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة في الألفاظ والمعاني، فإذا خرج عنه شيء من هذه الأوضاع المشار إليها لا يكون معدوداً منه، ولا داخلاً في بابه، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن في ألفاظه ومعانيه لورد في كتاب الله عز وجل الذي هو مَعْدِن الفصاحة والبلاغة، أو ورد في كلام العرب الفصحاء، ولم نره في شيء من أشعارهم ولا خطبهم.

ولقد رأيت رجلاً أديباً من أهل المغرب، وقد تغلغل في شيء عجيب، وذاك أنه شجر شجرة ونظمها شعراً، وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الأساليب اتباعاً لشعب تلك الشجرة وأغصانها؛ فتارة تقرأ كذا، وتارة تقرأ كذا، وتارة يكون جزء منه ههنا، وتارة ههنا، وتارة يقرأ مقلوباً، وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى يفهم إلا أنه ضرب من الهذيان، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشَّعْبَذة والمعالجة والمصارعة، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة.

ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي قد ذكر باباً من الأبواب في كتابه؛ فقال(١): ينبغي ألّا تستعمل في الكلام المنظوم والمنثور ألفاظَ المتكلمين والنحويين والمهندسين، ومعانيهم، ولا الألفاظ التي تختصُّ بها بعضُ المِهَن والعلوم؛ لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل

(١) انظر «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي (ص ١٥٩).

ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة، ثم مثل ذلك بقول أبي تمام(١) :

مَـوَدَّةٌ ذَهَـبٌ أثْـمَـارُهَـا شَـبَـهُ وَهِـمَّـةٌ جَـوْهَـرٌ مَعْـرُوفُهَـا عَـرَضُ (٢)

وبقوله أيضاً(٣) :

خَـرْقَـاءُ يَلْعَبُ بِـالعُقُـولِ حَبَـابُهَـا كَـتَـلَعُّبِ الأَفْـعَـالِ بِـالأَسْـمَـاءِ (٤)

(١) من كلمة له يعاتب فيها عياش بن لهيعة، وأولها قوله :

ذُلُّ السُّؤالِ شَجًى فِي الحَلْقِ مُعْتَـرِضُ مِـنْ دُونِـهِ شَـرَقٌ مِـنْ تَـحْـتِـهِ جَـرَضُ
مَـا مَـاءُ كَـفِّـكَ إن جَـادَتْ وَإِنْ بَـخِـلَتْ مِـنْ مَـاءِ وَجْـهِـي إِذَا أَفْـنَـيْـتُـهُ عِـوَضُ

انظر الديوان (ص ٤٠٠ بيروت).

(٢) قبل هذا البيت قوله :

مَـنْ أَشْتَكِي؟ وَإِلَـى مَنْ أَعْـتَـزِي؟ وَنَـدَى مَنْ أَجْتَـدِي؟ كُـلُّ أَمْـرِي فِـيـكَ مُنْـتَقِضُ

قال الخفاجي بعد رواية بيت أبي تمام هذا : «لأن الجوهر والعرض من ألفاظ أهل الكلام الخاصة بهم» اهـ، وعندهم أن الجوهر كل ما قام بنفسه كالقلم والكتاب، والعرض عندهم كل ما قام بغيره كاللون والطعم.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت، وأولها قوله :

قَـدْكَ اتَّئِـبْ أَرْبَـيْـتَ فِـي الْـغُـلَوَاءِ كَـمْ تَـعْـذِلُـونَ وَأَنْـتُـمُ سُـجَـرَائِـي

انظر الديوان (ص ٢ بيروت).

(٤) قبل هذا البيت قوله :

غَـنَّـى الـرَّبِـيـعُ بِـرَوْضِـهِ فَـكَـأَنَّـمَـا أَهْـدَى إِلَـيْـهِ الْـوَشْـيَ مِـنْ صَـنْـعَـاءِ
صَـبَّـحْـتُـهُ بِـمُـدَامَـةٍ صَـبَّـحْـتُـهَـا بِـسُـلاَفَـةِ الـخُـلَطَاءِ وَالـنُّـدَمَـاءِ
بِـمُـدَامَـةٍ تَـغْـدُو الـمُـنَى لِـكُـؤوسِـهَـا خَـوَلاً عَـلَـى الـسَّـرَّاءِ وَالـضَّـرَّاءِ
رَاحٍ إِذَا مَـا الـرَّاحُ كُـنَّ مَـطِـيَّـهَـا كَـانَـتْ مَـطَـايَـا الـشَّـوْقِ فِي الأَحْـشَـاءِ
عِـنَـبِـيَّـةٍ ذَهَـبِـيَّـةٍ سَـبَـكَـتْ لَـهَـا ذَهَـبَ الـمَـعَـانِـي صَـاغَـةُ الـشُّـعَـرَاءِ
صَـعُـبَـتْ وَرَاضَ الـمَـزْجُ سَـيِّـئَ خُـلْـقِـهَـا فَـتَـعَـلَّـمَـتْ مِـنْ حُـسْـنِ خُـلْـقِ الـمَـاءِ

ومثل البيتين اللذين مثل بهما المؤلف تبعا لابن سنان الخفاجي قول أبي الطيب المتنبي :

إِذَا كَـانَ مَـا تَـنْـوِيهِ فِـعْـلاً مُـضَـارِعـاً مَـضَى قَـبْـلَ أَنْ تُـلْقَى عَـلَـيْـهِ الـجَـوَازِمُ =

وهذا الذي أنكره ابن سنان هو عين المعروف في هذه الصناعة:

إنَّ الَّــذِي تَــكْـرَهُــونَ مِــنْــهُ هُــوَ الَّــذِي يَشْتَهِيــه قَلبِي

وسأبين فساد ما ذهب إليه، فأقول: أما قوله «إنه يجب على الإنسان إذا خاض في علم أو تكلم في صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة» فهذا مسلم إليه، ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمَدَّة من كل علم وكل صناعة؛ لأنها موضوعة على الخوض في كل معنى، وهذا لا ضابط له يضبطه، ولا حاصر يحصره، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور في صَوْغ معنًى من المعاني وأدَّاه ذلك الى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي أو غير ذلك فليس له أن يتركه وَيَحِيدَ عنه؛ لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذي قصده، ألا ترى إلى قول أبي تمام في الاعتذار[١]:

فَـإنْ يَـكُ جُـرْمٌ عَنَّ أَوْ تَـكُ هَفْـوَةٌ عَلَى خَـطَإ مِنِّي فَعُـذْرِي عَلَى عَمْـدِ[٢]

= وَكَيْفَ تُـرَجِّي الـرُّومُ وَالـرُّوسُ هَـدْمَهَـا وَذَا الـطَّعْـنُ آسَـاسٌ لَـهَـا وَدَعَـائِـمُ

وقول أبي العلاء المعري:

تَـلاقٍ تَـفَـرَّى عَـنْ فِـرَاقٍ تَـذُمُّـهُ مَـآقٍ، وَتَكْسِيرُ الصَّحَـائحِ فِي الجَمْـعِ

ويحكي أن عز الدولة بختيار بن معز الدولة قال يوماً، وفي مجلسه جماعة من ندمائه وكتابه: لينشد كل واحد منكم أغزل ما يعرفه من الشعر، فأنشد كل واحد ما حضره، فلما انتهى القول إلى أبي الخطاب المفضل بن ثابت الصابي، وكان أبوه طبيباً، أنشده قول أبي العتاهية:

قَـالَ لِـي أَحْـمَـدُ وَلَـمْ يَـدْرِ مـا بِـي: أَتُـحِـبُّ الْـغَـدَاةَ عُـتْـبَـةَ حَـقًّـا؟

فَـتَـنَـفَّـسْـتُ ثُـمَّ قُـلْـتُ: نـعـم حُـبـ ـبًـا جَـرَى فِي الْعُـرُوقِ عِـرْقـاً فَعِـرْقـا

فقال له بختيار: لا تخرج بنا يا أبا الخطاب عن صناعة الطب التي ما ترثها عن كلالة.

(١) من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقي، ويعتذر إليه، وهو آخرها بيتاً؛ وأولها قوله:

شَهِـدْتُ لَقَـدْ أَقْـوَتْ مَغَـانِيكُمْ بَـعْـدِي وَمَـحَّتْ كمـا مَـحَّتْ وَشَـائِـعُ مِنْ بُـرْدِ

وَأَنْـجَـدْتُـمْ مِـنْ بَـعْـدِ إِتْـهَـامِ دَارِكُـمْ فَيَـا دَمْـعُ أَنْجِـدْنِي عَلَى سَـاكِنِي نَـجْـدِ

(٢) في نسختين من الديوان «فإن يك جرم عز».

فإن هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار عن الذنب، وكان ينبغي له ـ على ما ذكره ابن سنان ـ أن يترك ذلك ولا يستعمله، حيث فيه لفظتا «الخطأ» و«العمد» اللتان هما من أخصّ ألفاظ الفقهاء.

وكذلك قول أبي الطيب المتنبي(١):

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ الإِلٰهُ نُفُوسَهُمْ وَالأَعْصُرَا(٢)
نُسِقُوا لَنَا نَسْقَ الْحِسَابِ مُقَدَّماً وَأَتَى فَذٰلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

وهذا من المعاني البديعة، وما كان ينبغي لأبي الطيب أن يأتي في مثل هذا الموضع بلفظة «فذلك» التي هي من ألفاظ الحساب، بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذي لا يتم إلا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب إليه، وهذا محض الخطأ وعين الغلط.

وأما ما أنكره على أبي تمام في قوله:

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أَثْمَارُهَا شَبَهٌ وَهِمَّةٌ جَوْهَرٌ مَعْرُوفُهَا عَرَضُ

فإن هذا البيت ليس منكراً لما استعمل فيه من لفظتي الجوهر والعرض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين، بل لأنه في نفسه ركيك؛ لتضمنه لفظة «الشبه» فإنها لفظة عامية ركيكة، وهي التي أسخفت بالبيت بجملته، ورب قليل أفسد كثيراً، وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما، ولا ركاكة عليهما.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل محمد بن العميد، وأولها قوله:

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

(٢) قبل هذا البيت قوله:

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهَا شَاهَدْتُ رَسْطَالِيسَ وَالإِسْكَنْدَرَا
وَمَلِلْتُ نَحْرَ عِشَارِهَا فَأَضَافَنِي مَنْ يَنْحَرُ الْبِدَرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرَى
وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا

وأما البيت الآخر، وهو:

خَـرْقَـاءُ يَلْعَبُ بِـالْعُقُـولِ حَبَـابُهَـا   كَـتَـلَعُّـبِ الأفْـعَـالِ بِـالأَسْـمَـاءِ

فليس بمنكر، وهل يشك في أن التشبيه الذي تضمنه واقع في موقعه؟ ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال إلى حال، وكذلك تفعل الخمرُ بالعقول في تنقلّ حالاتها، فما الذي أنكره ابن سنان من ذلك؟

وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الأسلوب ما لا يدافع في حسنه، وهو قوله:

عَـوَامِـلُ رزقٍ أعْـرَبَتْ لُغَـةَ الـرَّدَى   فـجِسْـمٌ لَـهُ خَفْضٌ وَرَأسٌ لَـهُ نَـصْبُ

فإنه لما حصل له المشابهة في الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره منِ الخفض والنصب، وعلى ما ذكره ابن سنان فإن ذلك غير جائز، وهو من مستحسنات المعاني، هذا من أعجب الأشياء!!.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم:

وَفَـتًـى مِـنْ آزِنٍ   فَـاقَ أهْـلَ الْبَصْـرَهْ
أمُّـهُ مَـعْـرِفَـةٌ   وَأَبُـوهُ نَـكِـرَهْ

وهل يشك في حسن هذا المعنى ولطافته؟.

وكذلك ورد من هذا النوع في شعر بعض العراقيين يهجو طبيباً فقال:

قَـالَ حِـمَـارُ الـطَّبِيـبِ تُـومَـا   لَـوْ أنْصَفُـونِي لَكُنْتُ أرْكَبْ[1]
لِأنَّـنِـي جَـاهِـلٌ بَـسِـيطٌ   وَرَاكِـبِـي جَـهْـلُهُ مُـرَكَّـبْ

وهذا من المعنى الذي أغرب في الملاحة، وجمع بين خفة السخرية ووقار

(١) يروى هذان البيتان في كثير من كتب الأدب على هذا الوجه، ووقع في بعضها «قال حمار الحكيم توما» وفي بعضها «قال حمار الحكيم يوما».

الفصاحة. وقد تقدم القول في صدر كتابي هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلّق بكل علم وكل صناعة، ويخوض في كل فن من الفنون؛ لأنه مُكَلَّف بأن يخوض في كل معنى من المعاني؛ فاضمم يدك على ما ذكرته ونَصَصْتُ عليه، واترك ما سواه؛ فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده.

وهذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضي كان حسناً، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً، كما جاء في كلام أبي العلاء بن سليمان المعرِّيِّ، وهو قوله في رسالة كتبها إلى بعض إخوانه: حَرَس الله سعادته ما أدغمت التاء في الظاء، وتلك سعادة بغير انتهاء؛ وهذا من الغث البارد، لكن قد جاءه في الشعر ما هو حسن فائق، كقوله[1]:

فَدُونَكُمُ خَفْضَ الحَيَاةِ فَإِنَّنَا ... نَصَبْنَا المَطَايَا فِي الْفَلَاةِ عَلَى الْقَطْعِ

والخفض والنصب من الإعراب النحوي، والخفض: رفاهة العيش، والقطع: من منصوبات النحو، والقطع: قطع الشيء، يقال: قطعته؛ إذا بترته.

(١) من قصيدة له يودّع فيها بغداد؛ وأولها قوله:

نَبِيٌّ مِنَ الْغِرْبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعِ ... يُخَبِّرُنَا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى الصَّدْعِ

انظر ديوان سقط الزند (ص ١١٠ مصر عام ١٩٠١ م).

النوع التاسع والعشرون

في التوشيح

وهو: أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين؛ فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعراً مستقيماً من بحر على عروض، وأذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر على عروض، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح، وكذلك يجري الأمر في الفقرتين من الكلام المنثور؛ فإن كل فقرة منهما تصاغ من سجعتين.

وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلاً، وليس من الحسن في شيء، واستعماله في الشعر أحسن منه في الكلام المنثور؛ فمن ذلك قول بعضهم[(١)]:

---

(١) لأبي بكر أحمد بن الحسين الأرجاني قصيدة طويلة يمدح فيها قاضي قضاة فارس طاهر بن محمد، وقد زاد على ذلك أن الشطر الأول من كل بيت مبني على قافيتين كما أن الشطر الثاني كذلك، فيمكن أن يقرأ البيت الواحد على ثلاثة أوجه، ونحن نذكر لك من هذه القصيدة عدة أبيات، ونبين لك الوجوه التي يمكن أن تقرأ عليها، قال:

صَبٌّ مُقِيمٌ سَائِرٌ فُؤَادُهُ طَوْعُ الهَوَى مَعَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ
غَائِبُ قَلْبٍ حَاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى في عَهْدِهِمْ وَالمَعْهَدِ
لَهُ جَوًى مُخَامِرٌ يَعْتَادُهُ إِذَا آشْتَكَى طَيْفَ الْكَرَى في الْعُوَّدِ

فهذه الأبيات على هذا الوجه من بحر الكامل من العروض الأولى، ويصح أن تقرأ هكذا:

صَبٌّ مُقِيمٌ سَائِرٌ فُؤَادُهُ طَوْعُ الهَوَى
غَائِبُ قَلْبٍ حَاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى
لَهُ جَوًى مُخَامِرٌ يَعْتَادُهُ إِذَا آشْتَكَى

فتكون من مجزوء الكامل، وتقرأ أيضاً على وجه آخر هكذا:

صَبٌّ مُقِيمٌ سَائِرٌ مَعَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ
غَائِبُ قَلْبٍ حَاضِرٌ فِي عَهْدِهِمْ وَالمَعْهَدِ =

آسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الحَوَادِثِ مَا رَسَا رُكْنَا ثَبِيرِ، أَوْ هِضَابُ حِرَاءِ
وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّناً مِنْهُ عَلَى رَغْمِ آلدُّهُورِ، وَفُزْ بِطُولِ بَقَاءِ

وهذا من الجيد الذي يأتي في هذا النوع، إلا أن أثر التكلف عليه باد ظاهر، وإذا نظر إلى هذين البيتين، وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر، وذاك أن يقال:

اسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الْحَوَا دِثِ مَارَسَا رُكْنَا ثَبِيرِ
وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّناً مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الدُّهُورِ

وقد استعمل ذلك الحرير في مقاماته، نحو قوله:

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى، وَقَرَارَةُ الأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدَا، بُعْداً لَهَا مِنْ دَارِ
وَإِذَا أَظَلَّ سَحَابُهَا لَمْ يُنْتَفَعْ مِنْهُ صَدَى، لِجَهَامِهِ الْغَرَّارِ

واعلم أن هذا النوع لا يستعمل إلا متكلفاً عند تعاطي التمكن من صناعة النظم، وحسنُهُ مَنُوطٌ بما فيه من الصناعة، لا بما فيه من البراعة؛ ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيد من أوله إلى آخره يتضمن غزلاً ومديحاً على ما جرت به عادة القصائد أليس أنه كان يجيء بارداً غثًّا لا يسلم منه على محكّ النظر عشره؟ والعشر كثير، وما كان على هذه الصورة من الكلام فإنما يستعمل أحياناً على الطبع، لا على التكلف، وهو وأمثاله لا يحسن إلا إذا كان يسيراً، كالرقم في الثوب أو الشِّيَة في الجلد.

= لَهُ جَوًى مُخَامِرٌ طَيْفَ الْكَرَى فِي الْعُوَّدِ
فتكون من مجزوء الكامل أيضاً. وهذا أشد تكلفاً مما ذكره المؤلف، وانظر ديوان الأرجاني (ص ٢١٣ بيروت).

النوع الثلاثون

في السرقات الشعرية

ولربما اعترض معترض في هذا الموضوع فقال: قد تقدم نثر الشعر في أول الكتاب، وهو أخذ الناثر من الناظم، ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم، فلم يكن إلى ذكر السرقات الشعرية إذَنْ حاجةٌ. ولو أنعم هذا المعترض نظره لظهر له الفرق،وعلم أن نثر الشعر لم يتعرض فيه إلى وجوه المأخذ وكيفية التوصل إلى مداخل السرقات؛ وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلاً.

واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أينَ تضع يدك في أخذ المعاني؛ إذ لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الأول، لكن لا ينبغي لك أن تعجل في سبك اللفظ على المعنى المسروق فَتُنَادِيَ على نفسك بالسرقة، فكثيراً ما رأينا من عجل في ذلك فعثر، وتعاطى فيه البديهة فَعَقَرَ، والأصْلُ المعتمد عليه في هذا الباب التورية والاختفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سِفَادِ الغراب، وأظرف من عنقاء مغرب في الإغراب.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول: إن لأحد من المتأخرين مَعْنًى مبتدعاً؛ فإن قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية، وإنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طُرِق مراراً.

وهذا القول وإن دخل في حيز الإمكان إلا أنه لا يلتفت إليه؛ لأن الشعر من الأمور المتناقلة، والذي نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يَعِنُّ لها من الحاجات، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد آمريء القيس، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً فناقصاً؛ فَقَصَّد القصائد، وهو أول من قَصَّد، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قَصَّد القصائد لكان في ذلك كفاية، وأي فضيلة أكبر من هذه الفضيلة؟ ثم تتابع المقصِّدون، واختير من

القصائد تلك السبع التي علقت على البيت، وانفتح للشعراء هذا الباب في التقصيد، وكثرت المعاني المقولة بسببه، ولم يزل الأمر ينمي ويزيد ويؤتي بالمعاني الغريبة، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها ألى الدولة الْحَمْدَانية؛ فعظم الشعر، وكثرت أساليبه، وتشعبت طرقه، وكان ختامُهُ على الثلاثة المتأخرين، وهم: أبو تمام حبيب بن أوس، وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري، وأبو الطيب المتنبي؛ فإذا قيل: إن المعاني المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع؛ عُورض ذلك بما ذكرته.

والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة، ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له؟ إلا أن من المعاني ما يتساوى الشعراء فيه، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر؛ لأن الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول، كقولهم في الغزل:

عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَا عَفَتْ آثَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ

وكقولهم: إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه؛ وإن الواشي لو علم بمرار الطيف لساءه، وكقولهم في المديح: إن عطاءه كالبحر، وكالسحاب، وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد، وإنه يجود ابتداء من غير مسألة، وأشباه ذلك وكقولهم في المراثي: إن هذا الرزء أول حادث، وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب، وإن الذاهب لم يكن واحداً وإنما كان قبيلة، وإن بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب، وأشباه ذلك. وكذلك يجري الأمر في غير ما أشرت إليه من معانٍ ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة، وتستوي في إيرادها، ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأول، وإنما يطلق اسم السرقة في معنى مخصوص، كقول أبي تمام:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام، وكان لابتداعه سبب، والحكاية فيه مشهورة، وهي أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها:

* مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاس[١] *

انتهى إلى قوله:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقال الحكيم الكندي: وأي فخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذراً عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه، فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقاً له.

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي في عضد الدولة وولديه[٢]:

وَأَنْتَ الشَّمْسُ تَبْهَرُ كُلَّ عَيْنٍ فَكَيْفَ وَقَدْ بَدَتْ مَعَهَا اثْنَتَانِ
فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلاَ يَتَحَاسَدَانِ
وَلاَ مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الأَعَادِي وَلاَ وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلاَنِ
وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَيْ حُرُوفُ أُنَيْسِيَانِ

وهذا معنى لأبي الطيب، وهو الذي ابتدعه: أي أن زيادة أولاد عدوّك كزيادة التصغير؛ فإنها زيادة نقص.

وما ينبغي أن يقال إن ابن الرومي ابتدع هذا المعنى الذي هو[٣]:

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة التي منها الأبيات المذكورة، وعجزه:

* نَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ *

(٢) ولدا عضد الدولة: هما أبو الفوارس وأبو دلف، وأول هذه القصيدة قوله:

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً في المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

(٣) قبل هذا البيت قوله:

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا يُمْنَى الرِّجَالُ بِهِ مُسْتَضْعَفَاتٌ لَهُ مِنْهُنَّ أَقْرَانُ =

تَشْكُو المُحِبَّ وَتُلْفَى الدَّهْرَ شَاكِيَةً كَالْقَوْسِ تُصْمِي الرَّمَايَا وَهْيَ مِرْنَانُ(١)

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مُبْتَدَع لابن الرومي، وليس كذلك، ولكنه مأخوذ من المثل المضروب، وهو قولهم: يَلْدَغُ ويَصِي، ويضرب ذلك لمن يبتديء بالأذى ثم يشكو، وإنما ابن الرومي قد ابتدع معاني أخر غير ما ذكرته، وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعاني المبتدعة، بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره.

والذي عندي في السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول في معنى من المعاني، ولو لفظة واحدة؛ فإن ذلك من أدلّ الدليل على سرقته.

واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا، وكنت ألفت فيه كتاباً، وقسمته ثلاثة أقسام: نَسْخاً، وَسَلْخاً، ومَسْخاً.

أما النسخ فهو: أخذ اللفظ والمعنى برمته، من غير زيادة عليه، مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب.

أما السلخ فهو: أخذ بعض المعنى، مأخوذاً ذلك من سَلْخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ.

وأما المسخ فهو: إحالة المعنى إلى ما دونه، مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قِرَدَة.

وههنا قسمان آخرن أخللت بذكرهما في الكتاب الذي ألفته؛ فأحدهما: أخذ المعنى مع الزيادة عليه، والآخر عكس المعنى إلى ضده؛ وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ.

= مُنَاضِلَاتٍ بِنَبْلٍ لَا تَقُومُ لَهُ كَتَائِبُ التُّرْكِ يُزْجِيهِنَّ خَاقَانُ
يَا رُبَّ حُسَّانَةٍ مِنْهُنَّ قَدْ فَعَلَتْ سُوءاً وَقَدْ تَفْعَلُ الْأَسْوَاءَ حُسَّانُ

(١) في ا، ب، ج «يشكي المحب ويلقى الدهر شاكيه» وهو تحريف من عدة أوجه، وقد عرفت الأبيات السابقة على هذا البيت.

وكل قسم من هذه الأقسام يتنوَّع ويتفرَّع، وتخرج به القسمة إلى مسالك دقيقة، وقد استأنفت ما فاتني من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

ومن المعلوم أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد،فَمَنْ رَامَ الأخذ بنواصيها، والاشتمال على قواصيها، بأن يتصفح الأشعار تصفحاً، ويقتنع بتأملها ناظراً؛ فإنه لا يظفر منها إلا بالحواشي والأطراف؛

وكنت سافرت إلى الشام في سنة سبع وثمانين وخمسمائة، ودخلت مدينة دمشق؛ فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيد له أولها[١]:

* خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاناً لِقَلْبِهِ *

ويزعمون أنه من المعاني الغريبة، وهو:

أَغَارُ إذَا آنَسْتُ فِي الْحَيِّ أَنَّةً   حِذَاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِحُبِّهِ

فقلت لهم: هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله[٢]:

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ *

وبعد المطلع قوله:

وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمِ فَإِنَّهُ   إذَا هَبَّ كَانَ الْوَجْدُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ

خَلِيلَيَّ لَوْ أَحْبَبْتُمَا لَعَلِمْتُمَا   مَحلَّ الهَوَى مِنْ مُغْرَمِ الْقَلْبِ صَبِّهِ

تَذَكَّرْ فَذُو الذِّكْرَى يَشُوقُ وَذُو الهَوَى   يَتُوقُ، وَمَنْ يَعْلَقْ بِهِ الحُبُّ يُصْبِهِ

(٢) من قصيدة له أولها قوله:

الْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ   وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ المَشُوقِ فَدَيْتُهُ مِمَّا بِهِ لأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ(١)

وقول أبي الطيب أدق معنى، وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً، ثم إني وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي.

وسافرت الى الديار المصرية في سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يعجبون ببيت من الشعر يَعْزُونَهُ إلى شاعر من أهل اليمن يقال له عِمَارة، وكان حديث عهد بزماننا هذا في آخر الدولة العلوية بمصر، وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن، وهو(٢):

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمِ

فقلت لهم: هذا البيت مأخوذ من شعر أبي تمام في قوله مادحاً لبعض الخلفاء في حجة حجها، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة:

يَا مَنْ رَأَى حَرَماً يَسْرِي إِلَى حَرَمِ طُوبَى لِمُسْتَلِمٍ يَأْتِي وَمُلْتَزِمِ

ثم قلت في نفسي: يالله العجب! ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين دَرَسَت أشعارهم، ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره، بل هما كما يقال: أشهر من الشمس والقمر، وشعرهما دائِر في أيدي الناس، بخلاف غيرهما، فكيف خفي على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعِمَارة المأخوذان من شعرهما؟

---

(١) قبل هذا البيت قوله:

لَا تَعْذِلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ
إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ
وَالْعِشْقِ كَالْمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره الصالح؛ وقبل البيت من أولها قوله:

الْحَمْدُ لِلْعِيسِ بَعْدَ الْعَزْمِ وَالْهِمَمِ حَمْداً يَقُومُ بِمَا أَوْلَتْ مِنَ النِّعَمِ
لَا أَجْحَدُ الحقَّ عِنْدِي لِلرِّكَابِ يَدٌ تَمَنَّتِ اللُّجْمُ فِيهَا رُتْبَةَ الْخُطُمِ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ الْعِزِّ مِنْ نَظَرِي حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ الْعَصْرِ مِنْ أَمَمِ
وَرُمْنَ مِنْ كَعْبَةِ الْبَطْحَاءِ وَالْحَرَمِ وَفْداً إِلَى كَعْبَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ

وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدمُ الحفظ للأشعار، والاقتناعُ بالنظر في دواوينهما، ولَمَّا نصبت نفسي للخَوْض في علم البيان ورُمْت أن أكون معدوداً من علمائه علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما في الكتب الى الصدور والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى الْقِمَطْرُ   مَا الْعِلْمُ إلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع، وانفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تُحْصَ أسماء قائله، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده، وتتشعب مقاصده، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم؛ إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف، في اللفظ الجزل واللطيف، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل، وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي، وهؤلاء الثلاثة هم لَاتُ الشعر وعُزَّاه وَمَنَاته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حَوَت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

أما أبو تمام فإنه رَبُّ معان، وَصَيْقَل ألباب وأذهان، وقد شهد له بكل معنى مبتكر، لم يمش فيه على أثر؛ فهو غير مدافع عن مقام الإغراب، الذي برز فيه على الأضراب، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تَنْقيب وتَنْقير؛ فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام، وكان قوله في البلاغة ما قالت حَذام؛ فَخُذْ مني في ذلك قول حكيم، وتَعَلَّم ففوق كل ذي علم عليم.

وأما أبو عبادة البحتري فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى، وأراد أن يَشْعُر فَغَنَّى، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق، فبينا يكون في شظف نجد إذ تشبث بريف العراق، وسئل أبو الطيب المتنبي عنه، وعن أبي تمام، وعن نفسه؛ فقال: أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري، وَلَعَمْرِي إنه أنصف في

حكمه، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه؛ فإن أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء، فأدرك بذلك بعد المرام، مع قربه إلى الأفهام، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية.

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه، لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال، واختصَّ بالإبداع في وصف مواقف القتال، وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً، ولا منه متلثماً، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى تظن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا، فطريقه في ذلك تضلُّ بسالكه، وتقوم بعذر تاركه، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة آبن حَمْدَان فيصف لسانُهُ، ما أدّى إليه عِيانه، ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط، فإما مُفْرِط في وصفِهِ وإما مُفَرِّط، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عُذْره، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء، ولقد صدق في قوله من أبياتٍ يمدح بها سيف الدولة[١]:

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إن الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَداً خُتِمُوا
وَلَا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ ... قَدْ أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

ولما تأملت شعره بعين المَعْدَلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غَوَى، وجدته أقساماً خمسة؛ خُمُس في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره، وخمس من متوسط الشعر، وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها وعدمها خير من

(١) من قصيدة له أولها:

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ ... مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إقْدَامِكَ الْقَسَمُ
وَفِي الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ ... مَا دَلَّ أَنَّكَ فِي الْمِيعَادِ مُتَّهَمُ

وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها، فإنها هي التي ألبسته لباس الملام، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوام.

ولسائل ههنا أن يسأل ويقول: لم عدلت إلى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم؟

فأقول: إني لم أعدل إليهم اتفاقاً، وإنما عدلت إليهم نظراً واجتهاداً، وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت شعره على المحل إلا وعرضته على نظري، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبي عبادة، ولا أنقش ديباجة، ولا أبهج سبكاً، فاخترت حينئذ دواوينهم، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقي على خاطري من غيرها.

وقد أوردت في هذا الموضع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيري، ونبهت على غوامض منها.

وكنت قدمت القول أني قسمتها ألى خمسة أقسام؛ منها الثلاثة الأول، وهي: النسخ، والسلخ، والمسخ، ومنها القسمان الآخران، وها أنا أبين ما تنقسم إليه هذه الأقسام من تشعبها وتفريعها؛ فأقول:

فأما النسخ فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعاً، أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ؛ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب، وعلى ذلك فإنه ضربان:

الأول: يسمى وقوع الحافر على الحافر، كقول امريء القيس[١]:

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَحَمَّلِ

وكقول طَرَفة[٢]:

---

(١) من معلقته التي أولها قوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ ٱلدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٢) من معلقته التي أولها قوله:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وُقُـوفـاً بِهَـا صَحْبِي عَلَيَّ مَـطِيَّهُـمْ　　يَـقُـولُـونَ لاَ تَـهْـلِكْ أَسًـى وَتَـجَلَّدِ

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا في شعرهما، فمنه ما وردا فيه مَوْرد امـرىء القيس وطَرَفة في تخالفهما في لفظة واحدة، كقول الفرزدق:

أَتَعْـدِلُ أحْسَـابـاً لِئَـامـاً حُمَـاتُهَـا　　بِـأحْسَـابِنَـا إِنِّـي إِلَـى اللهِ رَاجِـعُ

وكقول جرير:

أَتَعْـدِلُ أَحْسَابـاً كِـرَامـاً حُمَـاتُهَـا　　بِـأَحْسَـابِكُـمْ إنِّي إِلَـى آللهِ رَاجِـعُ

ومنه ما تساويا فيه لفظاً بلفظ، كقول الفرزدق:

وَغُـرٍّ قَـدْ نَـسَـقْـتُ مُـشَـهَّـرَاتٍ　　طَـوَالِـعَ لاَ تُـطِيقُ لهَـا جَـوَابَـا[1]

بِـكُـلِّ ثَـنِـيَّـةٍ وَ بِـكُـلِّ ثَـغْـرٍ　　غَـرَائِـبُـهُـنَّ تَـنْـتَـسِـبُ انْـتِـسَـابَـا

بَـلَغْنَ الـشَّمْسَ حِينَ تَكُـونُ شَـرْقـاً　　وَمَسْقِطَ رَأْسِهَـا مِـنْ حَـيْـثُ غَـابَـا

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد.

وقـد حكي أن امرأة من عقيـل يقال لهـا «ليلى» كان يتحـدث إليها الشبـاب، فدخل الفرزدق إليها، وجعـل يحادثهـا، وأقبل فَتًى من قـومها كـانت تألفـه، فدخـل إليهـا، فـأقبلت عليـه وتـركت الفـرزدق، فغـاظـه ذلـك، فقـال للفـتى: أَتُـصَارعني؟ فقال: ذاك إليـك، فقام إليـه، فلم يلبث أن آخـذ الفـرزدق فصـرعـه، وجلس على صـدره، فضـرط، فـوثب الفتى عنه، وقـال: يا أبـا فراس، هـذا مقـام العائذ بك والله ما أردت ما جرى، فقال: ويحك! والله ما بي أنك صـرعتني، ولكن كأني بابن الأتان ـ يعني جريراً ـ وقد بلغه خبري فقال يهجوني:

جَلَسْتَ إلَى لَيْلَى لِتَحْـظَى بِقُـرْبِـهَـا　　فَـخَـانَـكَ دُبْـرٌ لاَ يَـزَالُ يَـخُـونُ

---

(١) كذا في النقائض والـديوان، وهـو الصواب، وفي ا، ب، ج «وغـرقد وسقت مشمـرات» وهو تحريف، وأراد بالغر القصائد التي يقولها في هجاء جرير.

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءهُ كَمَا شَدَّ جُرْبَانَ الدِّلَاصِ قُيُونُ

قال: فوالله ما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر، فقال فيه هذين البيتين، وهذا من أغرب ما يكون في مثل هذا الموضع وأعجبه.

ويقال: إن الفرزدق وجريراً كانا ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد. وهذا عندي مستبعد؛ فإن ظاهر الأمر يدلّ على خلافه، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى.

وإلا فإذا رأينا شاعراً متقدم الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه، وهَبْ أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة، المتداولة؛ فكيف تتفق الألسنة أيضاً في صَوْغها الألفاظ؟.

ومما كنت أستحسنه من شعر أبي نواس قوله من قصيدته التي أولها:

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فإنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ *

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمُ إلَّا بِمَا شَاءُوا

وهذا من عالي الشعر، ثم وقفت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على هذا البيت في أصوات معبد، وهو:

لَهْفِي عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمان لَهُمْ فَمَا أَصَابَهُمُ إلّا بِمَا شَاءُوا

وما أعلم كيف هذا.

الضرب الثاني من النسخ: وهو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ، كقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء:

أَجَادَ طُوَيْسٌ وَالسُّرَيْجِيُّ بَعْدَهُ وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلَّا لِمَعْبَدِ

ثم قال أبو تمام:

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمُغَنِّينَ جَمَّةٌ وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ

وهذه قصيدة أولها:

* غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ *[1]

فقال:

وَقَـائِعُ أصْـلُ النَّصْرِ فِيهَـا وَفَرْعُـهُ إذا عُـدِّدَ الإحْسَـانُ أوْ لَـمْ يُـعـدَّدِ
فَمهْمَـا تَكُنْ مِنْ وَقْعَـةٍ بَعْـدُ لاَ تَـكُنْ سِـوَى حَسَـنٍ مِـمَّـا فَعَـلْتَ مُـرَدَّدِ
مَـحَـاسنُ أصنـاف المـغنين جـمـة البيت.

وأما السلخ: فإنه ينقسم إلى اثني عشر ضرباً، وهـذا تقسيم أوجبته القسمـة، وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شيء خارج عنه.

فالأول: أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه، ولا يكـون هو إيـاه، وهذا من أدقّ السرقات مذهباً، وأحسنها صورة، ولا يأتي إلا قليلاً.

فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة:

لَـقَـدْ زَادَنِي حُبًّـا لِـنَفْسِيَ أَنَّـنِـي بَغِيضٌ إلَى كُـلِّ ٱمْـرِيءٍ غَيْـرِ طَـائِـلِ

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره إلا أنه شبيه به، فقال:

وَإذَا أَتَـتْـكَ مَـذَمَّـتِـي مِنْ نَـاقِصٍ فَـهِيَ الـشَّـهَـادَةُ لِي بِـأَنِّـيَ فـاضِـلُ

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذاك المعنى عَسِر غامض، وهو غير متبين إلا لمن أعرق في ممارسة الأشعار، وغاص في استخراج المعـاني، وبيانـه أن الأول يقول: إن بُغْضَ الـذي هو غيـر طائـل إياي ممـا زاد نفسي حبـاً إلى: أي جَمَّلهـا في عيني وحسنها عندي كونُ الذي هو غير طائل مبغضي والمتنبي يقول: إن ذمَّ الناقص إياي شاهد بفضلي؛ فذم الناقص إياه كبغض الذي هو غير طائل ذلك الرجل، وشهادة ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده.

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* وَعَادَ قَتَاداً عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدِ *

ومن هذا الضرب ما هو أظهر مما ذكرته وأبين، كقول أبي تمام:

رَعَتْـهُ الْفَيَافِي بَعْـدَ مَا كَـانَ حِقْبَـةً رَعَـاهَـا وَمَـاءُ الـرَّوْضِ يَنْهَـلُّ سَـاكِبُـهْ

أخذ البحتري هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه، كقوله في قصيدة يفخر فيها بقومه:

شَيْخَـانِ قَـدْ ثَقُـلَ السِّـلَاحُ عَلَيْـهِـمَا وَعَـدَاهُـمَـا رَأْيُ السَّمِيـعِ الْمُبْصِـرِ
رَكِبَـا الْقَنَـا مِنْ بَعْـدِ مَـا حَمَـلَا الْقَنَـا فِي عَسْكَـرٍ مُتَحَـامِـلٍ فِي عَسْكَـرِ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض ثم سار فيها فرعته: أي أهزلته، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها، والبحتري نقل هذا إلى وصف الرجل بعلو السن والهرم؛ فقال: إنه كان يحمل الرمح في القتال ثم صار يركب عليه: أي يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وكذلك ورد قول الرجلين أيضاً؛ فقال أبو تمام:

لَا أَظْلِمُ النَّـأْيَ قَـدْ كَـانَـتْ خَلَائِقُـهَا مِنْ قَبْلِ وَشْكِ النَّوَى عِنْدِي نَـوًى قُذُفَـا

أخذه البحتري فقال:

أُعَـاتِـبُكِ، مَـا كَانَ الشَّبَـابُ مُقَـرِّبِي إِلَيْـكِ فَـأَلْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُـوَ مُبْعِـدِي

وهذا أوضح من الذي تقدمه، وأكثر بياناً.

الضرب الثاني من السلخ: أن يؤخذ المعنى مجرداً من اللفظ، وذلك مما يصعب جداً، ولا يكاد يأتي إلا قليلاً.

فمنه قول عُرْوَة بن الوَرْد من شعراء الحماسة:

وَمَـنْ يَـكُ مِـثْلِي ذَا عِيَـالٍ وَمُـقْـتِراً مِنَ المَـالِ يَـطْرَحْ نَفْسَـهُ كُـلَّ مَطْرَحِ
لِـيَـبْـلُغَ عُـذْراً أَوْ يَـنَـالَ رَغِـيـبَـةً وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُـذْرَهَـا مِثْـلُ مُـنْـجِـحِ

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال:

فَتَى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

فعُرْوَةُ بن الورد جعل اجتهاده في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو قائماً مقام الانتصار، وكلا المعنيين واحد، غير أن اللفظ مختلف.

وهذا الضرب في سرقات المعاني من أشكلها، وأدقها، وأغربها، وأبعدها مذهباً، ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض.

وقد يجيء منه ما هو ظاهر لا يبلغ في الدقة مبلغ هذه الأبيات المشار أليها؛ كقول ابن المقفع في باب الرثاء من كتاب الحماسة:

فَقَدْ جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ؛ أَنَّنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزع

وجاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال:

وَقَدْ عَزَّى رَبِيعَةَ أَنَّ يَوْماً عَلَيْهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

وهذا من البديع النادر.

وههنا ما هو أشد ظهوراً من هذين البيتين في هذا الضرب من السرقات الشعرية؛ وذلك يأتي في الألفاظ المترادفة التي يقوم بعضها مقام بعض، وذاك الاعتداد به لمكان وضوحه، لكن قد يجيء منه ما هو صفة من صفات الترادف لا الاسم نفسه، فيكون حسناً، كقول جرير:

وَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ أَرَبٍ لِحَاهُمْ سَوَاءٌ ذُو الْعِمَامَةِ وَالْخِمَار

أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى فقال:

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

الضرب الثالث من السلخ: وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ، وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق.

فمن ذلك قول البحتري في غلام.

فَوقَ ضَعفِ الصَّغِيرِ إنْ وُكِلَ الأَمْـرُ إلَـيْـهِ وَدُونَ كَـيْـدِ الْـكِـبَـارِ

سبقه أبو نواس فقال:

لَمْ يَخْفَ مِنْ كِبَرٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ وَلَا أَزْرَى مِنَ الصِّغَرِ

وكذلك قوله أيضاً:

كُـلُّ عِيدٍ لَـهُ انْقِضَاءٌ؛ وَكَفِّي كُـلَّ يَـوْمٍ مِـنْ جُـودِهِ فِـي عِـيـدِ

أخذه من علي بن جَبَلة [في قوله]:

لِلْعِيدِ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ مُنْتَظَرٌ وَالنّاس في كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ في عِيدِ

وكذلك قوله:

جَـادَ حَتَّى أَفْنَى السُّؤَالَ؛ فَلَمَّا بَـادَ مِـنَّـا الـسُّـؤَالُ جَـادَ ابْـتِـدَاءَ

أخذه من علي بن جَبَلَةَ [في قوله]:

أَعْطَيْتَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ لَـكَ سَائِلاً وَبَدَأتَ إذْ قَطَعَ الْعُفَاة سُؤَالَهَا

وقد افتضح البحتري في هذه المآخذ غاية الافتضاح، هذا على بسطة باعه في الشعر وغناه عن مثلها، وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء ولم يستنكفوا من سلوكها؛ فممن فعل ذلك أبو تمام؛ فإنه قال:

قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ فَخِيلَ مِنَ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمَا

سبقه عبد السلام بن رَغْبَان المعروف بديك الجن فقال:

وَإذَا شِئْتَ أَنْ تَرَى المَوْتَ في صَو رَةِ لَيْثٍ فِـي لِبْدَتَـيْ رِئْبَالِ
فَالْقَهُ غَيْرَ أَنَّما لِبْدَتَاهُ أَبْيَضٌ صَارِمٌ وَأَسْمَرُ عَالِ
تَلْقَ لَيْثاً قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ فَيُرَى ضَاحِكاً لِعَبْسِ الصِّيَالِ

وكذلك قال أبو تمام:

فَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً بِشِعْرِي ... وَلٰكِنِّي مَدَحْتُ بِكَ المَدِيحَا

أخذه من حسان بن ثابت في مدحه للنبي ﷺ حيث قال:

مَا إنْ مَدَحْتُ مُحَمَّداً بِمَقَالَتِي ... لٰكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدِ

ولا شك أن أبا بكر رضي الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضي الله عنه؛ فقال له عمر: استخلف غيري، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما حَبَوْنَاكَ بِهَا وإنما حبوناها بك.

وهكذا فعل ابن الرومي؛ فمما جاء له قوله:

جَرَحَتْهُ الْعُيُونُ فَاقْتَصَّ مِنْهَا ... بِجَوًى في الْقُلُوبِ دَامِي النُّدُوبِ

سبقه أبو تمام فقال:

أَدْمَيْتُ بِاللَّحَظَاتِ وَجْنَتَهُ ... فَاقْتَصَّ نَاظِرُهُ مِنَ الْقَلْبِ

وكذلك قول ابن الرومي:

وَكَّلْتُ مَجْدَكَ في اقْتِضَائِكَ حَاجَتِي ... وَكَفَى بِهِ مُتَقَاضِياً وَوَكِيلَا

سبقه أبو تمام فقال:

وَإذَا المَجْدُ كَانَ عَوْنِي عَلَى المَرْ ... ءِ تَقَاضَيْتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضِي

وكذلك قال ابن الرومي:

وَمَا لِي عَزَاءٌ عَنْ شَبَابِي عَلِمْتُهُ ... سِوَى أَنَّنِي مِنْ بَعْدِهِ لَا أُخَلَّدُ

سبقه منصور النمري فقال:

قَدْ كِدْتُ أَقْضِي عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ أَساً
لَوْلَا تَعَزِّيَّ أَنَّ الْعَيْشَ مُنْقَطِعُ

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبي؛ فمما جاء منه قوله:

فَدَى نَفْسَهُ بِضَمَانِ النُّضَارِ وَأَعْطَى صُدُورَ الْقَنَا الذَّابِلِ

أخذه من قول الفرزدق:

كَانَ الْفِدَاءَ لَهُ صُدُورُ رِمَاحِنَا وَالْخَيْلُ إِذْ رَهَجُ الْغُبَارِ مُثَارُ

وكذلك قوله أيضاً:

أَيْنَ أَزْمَعْتَ أَيُّهَذَا الْهُمَامُ نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَا وَأَنْتَ الْغَمَامُ

أخذه من بشار حيث قال:

كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيبُ عَنْهُمْ نَبَاتُ الأَرْضِ أَخْطَأَهُ الْقِطَارُ

وكذلك قوله:

فَلَا زَالَتْ دِيَارُكَ مُشْرِقَاتٍ وَلَا دَانَيْتِ يَا شَمْسُ الْغُرُوبَا
لِأُصْبِحَ آمِناً فِيكَ الرَّزَايَا كَمَا أَنَا آمِنٌ فِيكَ الْعُيُوبَا

أخذه من ابن الرومي حيث قال:

أَسَالِمُ قَدْ سَلِمْتَ مِنَ الْعُيُوبِ أَلَا فَاسْلَمْ كَذَاكَ مِنَ الْخُطُوبِ

والذي عندي في الضرب المشار إليه أنه لا بدّ من مخالفة المتأخر المتقدم: إما بأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر، أو يوجز في لفظه، أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته.

ومن هذا الضرب ما يستعمل على وجه يزداد قبحه، وتكثر البشاعة به، وهو: أن يأخذ الشاعرين معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية؛ فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافية، ومثاله في ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها في مثل ما سرقها منه، والأولى به أن كان نظم تلك الجوهرة في عقد، أو صاغها في سوار أو خلخال؛ ليكون أكْتَمَ لأمرها.

وممن فعل ذلك من الشعراء فافتضح أبو الطيب المتنبي حيث قال في قصيدته التي أولها:

* غَيْـرِي بِـأَكْثَـرِ هٰـذَا النَّـاسِ يَنْخَـدِعُ *

لَمْ يُسْلِمِ الْكَـرُّ في الأَعْقَابِ مُهْجَتَـهُ إِنْ كَـانَ أَسْلَمَهَـا الأَصْحَـابُ وَالشِّيَـعُ

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبي تمام في وزنها وقافيتها أولها:

* أَيُّ الْـقُلُوبِ عَـلَيْكُـمْ لَـيْسَ يَـنْصَـدِعُ *

وهذا المعنى الذي أورده أبو الطيب مأخوذ من بيت منها، وهو:

مَـا غَـابَ عَنْكُمْ مِنَ الإِقْـدَامِ أَكْـرَمُـهُ في الـرَّوْعِ إِذْ غَـابَتِ الأَنْصَـارُ وَالشِّيَـع

وليس في السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة؛ فإنه لم يكتف الشاعر فيها بأن يسرق المعنى حتى ينادي على نفسه أنه قد سرقه.

الضرب الرابع من السلخ: وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة.

فمن ذلك قول أبي نواس:

قَـالُـوا عَشِقْتَ صَغِيـرَةً فَـأَجَبْتُهُمْ أَشْهَى الْمَـطِيِّ إِلَيَّ مَـا لَمْ يُـرْكَبِ
كَـمْ بَيْـنَ حَبَّـةِ لُـؤْلُـؤٍ مَـثْـقُـوبَـةٍ لُـبِسَـتْ وَحَبَّـةِ لُـؤْلُـؤٍ لَـمْ تُـثْـقَـبِ

فقال مسلم بن الوليد في عكس ذلك:

إِنَّ الْـمَـطِيَّـةَ لاَ يَـلَذُّ رُكُـوبُـهَـا حَتَّى تُـذَلَّـلَ بِـالـزِّمَـامِ وَتُـرْكَبَـا
وَٱلْـحَـبُّ لَـيْسَ بِنَـافِـعٍ أَرْبَـابَـهُ حَتَّى يُفَصَّـلَ في النِّـظَامِ وَيُثْقَبَـا

ومن هذا الباب قول ابن جعفر:

وَلَـمَّـا بَـدَا لِـي أَنَّـهَـا لاَ تُـرِيـدُنِـي وَأَنَّ هَـوَاهَـا لَـيْسَ عَنِّي بِـمُـنْـجَـلِي
تَـمَنَّيْتُ أَنْ تَـهْـوَى سِـوَايَ لَـعَـلَّهَـا تَـذُوقُ صَبَابَـاتِ الْـهَـوَى فَتَـرِقَّ لِي

وقال غيره:

وَلَقَدْ سَرَّنِي صُدُودُكِ عَنِّي ... في طِلَابِيكَ وَامْتِنَاعُكِ مِنِّي
حَذَراً أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي ... وَإِذَا مَا خَلَوْتِ كُنْتِ التَّمَنِّي

أما ابن جعفر فإنه تداعب وألقى عن منكبه رداء الغيرة، وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتغالى به غاية الغلو.

وكذلك ورد قول أبي الشيص:

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً ... شَغَفاً بِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

أخذ أبو الطيب المتنبي هذا المعنى وعكسه فقال:

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ... إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

وهذا من السرقات الخفية جداً، ولأن يسمى ابتداعاً أولى من أن يسمى سرقة.

وقد توخيته في شيء من شعري فجاء حسناً؛ فمن ذلك قولي:

لَوْلَا الْكِرَامُ وَمَا سَنُّوهُ مِنْ كَرَمٍ ... لَمْ يَدْرِ قَائِلُ شِعْرٍ كَيفَ يَمْتَدِحُ

أخذته من قول أبي تمام:

لَوْلَا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرَى ... بُنَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

الضرب الخامس من السلخ: وهو أن يؤخذ بعض المعنى؛

فمن ذلك قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان:

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِامْرِيءٍ إنْ حَبَوْتَهُ ... بِبَذْلٍ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ
وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لِامْرِيءٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

أخذه أبو تمام فقال:

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفْراً وَهْيَ إنْ شُهِرَتْ ... كَانَتْ فَخَاراً لِمَنْ يَعْفُوهُ مُؤْتَنَفَا

مَـا زِلْـتُ مُنْتَـظِراً أُعْجُـوبَـةً زَمَـنـاً ... حَتَّى رَأَيْـتُ سُؤَالاً يـجتَـنِي شَـرَفَـا(١)

فأمية بن أبي الصلت أتى بمعنيين اثنين: أحدهما أن عطاءك زين، والآخر أن عطاء غيرك شين، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لا غير

ومن هذا الضرب قول علي بن جبلة:

وآثـل مـا لـم يَـحْـوِهِ مُـتَـقَـدِّمٌ ... وَإِنْ نَـالَ مِنْـهُ آخـر فَهْـوَ تِـابِـعُ

فقال أبو الطيب المتنبي:

تَـرَفَّـعَ عَنْ عَـوْنِ المَكَـارِمِ قَـدْرُهُ ... فَمَـا يَفْعَـلُ الْفَـعْـلاَتِ إلَّا عَـذَارِيَـا

فعليّ بن جبلة اشتمل ما قاله على معنيين أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدمه، وإن نال منه الآخر شيئاً فإنما هو مقتد به، وتابع له، وأما أبو الطيب المتنبي فإنه لم يأت إلا بالمعنى الواحد، وهو أنه يفعل ما لا يفعله غيره، غير أنه أبرزه في صورة حسنة.

ومن ذلك قول أبي تمام:

كَـلِفُ بِـرَبِّ الـمَـجْـدِ يَعْـلَمُ أَنَّـهُ ... لَـمْ يُبْـتَـدَأْ عُـرْفٌ إذَا لَـمْ يُـتْـمَـمِ(٢)

فقال البحتري:

وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْـدَى الْـفَـعَـالَ أَعَـادَهُ ... وَإِنْ صَـنَـعَ الْمَـعْـرُوفَ زَادَ وَتـمَّـمَـا

فأبو تمام قال: إن الممدوح يرب صنيعه: أي يستديمه، ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه، والبحتري قال: إنه يستديم صنيعه لا غير، وذلك بعض ما ذكره أبو تمام.

(١) في الديوان «ما زلت منتظراً أعجوبة عننا» والعنن: الظاهرة.

(٢) في الديوان «كلفا برب الحمد».

وكذلك قال البحتري:

ادْفَـعْ بـأَمْـثَـالِ أَبِـي غَـالِـبٍ عَـادِيَـةَ الْعُـدْمِ أَوِ اسْتَـعْفِـفِ

أخذه ممن تقدمه حيث قال:

انْتُـجِ الْفَضْـلَ أَوْ تَخَـلّ عَـنِ الـدُّنْيـا فَـهَـاتَـانِ غَـايَـةُ الْـهِـمَـمِ

فالبحتري أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه.

وكذلك ورد قول ابن الرومي:

نَـزَلْتُمْ عَلَى هَـامِ الْمَعَـالِي إِذَا ارْتَقَى إِلَـيْهَـا أُنَـاسٌ غَيْـرُكُمْ بِـالسَّـلَالِـمِ

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال:

فَـوْقَ السَّمَـاءِ وَفَـوْقَ مَـا طَلَبُـوا فَـإِذَا أَرَادُوا غـايَـةً نَـزَلُـوا

وهذا بعض المعنى الذي تضمنه قول ابن الرومي؛ لأنه قال: إنكم نزلتم على هام المعالي، وإن غيركم يرقى إليها رقياً، وأما المتنبي فإنه قال: إنكم إذا أردتم غاية نزلتم، وأما قوله «فوق السماء» فإنه يغني عنه قول ابن الرومي «نزلتم عَلَى هام المعالي»؛ إذ المعالي فوق كل شيء؛ لأنها مختصة بالعلوّ مطلقاً.

الضرب السادس من السلخ: وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر.

فمما جاءَ منه قول الأخنس بن شهاب(١):

إِذَا قَصُـرَتْ أَسْيَـافُنَـا كَـانَ وَصْلُهـا خُـطَانَـا إِلَى أَعْـدَائِنَـا فَـنُضَـارِبُ

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه، وهو قوله:

إِنْ قَصَّـرَ الرُّمْـحُ لَمْ يَمْشِ الْخُـطَا عَـدَداً أَوْ عَـرَّدَ السَّيْفُ لَمْ يَـهْمُـمْ بِتَـعْـرِيـدِ

وكذلك ورد قول جرير في وصف أبيات من شعره:

(١) هو من الحماسة وانظر شرح التبريزي (٢ ـ ٢٤٨).

غَـرَائِـبُ آلاَفٌ إذَا حَـانَ وِرْدُهَـا   أخَـذْنَ طَـرِيقـاً لِلْقَصَـائِـدِ مُعْـلَمَـا

أخذه أبو تمام فزاد عليه؛ إذ قال في وصف قصيد له وقرن ذلك بالممدوح:

غَـرَائِـبُ لاَقَتْ فِـي فَنَـائِـكَ أُنْسَهَـا   مِنَ المَجْـدِ فَهْـيَ الآنَ غَيْـرُ غَـرَائِـبِ

وكذلك ورد قول ولد مسلمة بن عبد الملك:

أَذُلَّ الْـحَـيَـاةِ وَكُـرْهَ الـمَـمَـاتِ   وَكُـلاًّ أَرَاهُ طَـعَـامـاً وَبِـيـلاَ
فَـإنْ لَـمْ يَكُـنْ غَـيْـرُ إحْـدَاهُـمَـا   فَسَيْـراً إلَى المَـوْتِ سَيْـراً جَمِيـلاَ

أخذه أبو تمام فقال:

مَثَّـلَ المَـوْتَ بَيْنَ عَـيْنَيْـهِ وَآلـ ـذُّلَّ وَكُـلاًّ رَآهُ خَـطْبـاً عَـظِيمـاً
ثُمَّ سَـارَتْ بِـهِ آلْحَمِيَّـةُ قُـدْمـاً   فَـأَمَـاتَ الْعِـدَا وَمـاتَ كَـرِيمَـا

فزاد عليه بقوله:

* فَـأَمَـاتَ الْعِـدَا وَمَـاتَ كَـرِيمَـا *

ويروى أنه نظر عبد الله بن علي رضي الله عنه عند قتال المروانية الى فَتًى عليه أبهة الشرف، وهو يبلي في القتال بلاء حسناً، فناداه: يا فتى، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد، فقال: إلاَّ أَكُنْهُ فلست بدونه، قال: فلك الأمان ولو كنت من كنت، فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين.

وكذلك ورد قول أبي تمام:

يَـصُـدُّ عَنِ الـدُّنْيَـا إذَا عَـنَّ سُـودَدٌ   وَلَـوْ بَـرَزَتْ فِي زِيِّ عَـذْرَاءَ نَـاهِـدِ

أخذه من قول المعذل بن غيلان:

وَلَسْتُ بِنَـظَّارٍ إلَـى جَـانِـبِ الْـعُـلاَ   إذَا كَـانَتِ الْعَلْيَـاءُ في جَـانِبِ الْفَقْـرِ

إلا أنه زاده زيادة حسنة بقوله:

* وَلَـوْ بَـرَزَتْ فـي زِيِّ عَـذْرَاءَ نَـاهِـدِ *

ومما يجري هذا المجرى قول البحتري:

خَـلِّ عَنَّـا فَـإِنَّمَـا أَنْـتَ فِينَـا ... وَاوُ عَمْرٍو أَوْ كَـالحَـدِيثِ المُعَـادِ

أخذه من قول أبي نواس:

قُلْ لِمَنْ يَـدَّعِي سُلَيْماً سَفَـاهـاً ... لَسْتَ مِنْهَـا وَلَا قُـلَامَـةَ ظُـفْـرِ
إِنَّـمَـا أَنْـتَ مُـلْصَـقٌ مِـثْـلَ وَاوٍ ... أُلْحِقَتْ فِي الْهِجَـاءِ ظُلْماً بِعَمْـرِو

إلا أن البحتري زاد على أبي نواس في قوله «أو كالحديث المعاد».

هكذا ورد قول البحتري أيضاً:

رَكِبُـوا الْفُـرَاتَ إِلَـى الْفُـرَاتِ وَأَمَّـلُوا ... جَـذْلَانَ يُبْـدِعُ فِي السَّمَـاحِ وَيُغْـرِبُ

أخذه من مسلم بن الوليد في قوله:

رَكِبْتُ إِلَـيْـهِ الْبَـحْـرَ فِي مُؤْخِـرَاتِـهِ ... فَـأَوْفَتْ بِنَـا مِـنْ بَعْـدِ بَحْـرٍ إِلَى بَحْـرِ

إلا أن البحتري زاد عليه بقوله:

* جذلان يبدع في السماح ويغرب *

وكذلك ورد قول أبي نواس:

وَلَـيْسَ لله بِـمُـسْـتَـنْـكَـرٍ ... أَنْ يَجْمَـعَ الْعَـالَمَ فِي وَاحِـدِ(١)

وهـذا البيت قد لهـج به النـاس لهجاً كثيـراً، ومنهم من ظنـه مبتـدعـاً لأبي نـواس، ويحكى عن أبي تمـام أنه دخـل على ابن أبي داود، فقال لـه: أحسبك عـاتباً يـا أبا

(١) كذا في أصول الكتاب وفي الديوان (ص ٨٧)؛ ويروى:

* لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ *

تمام، فقال: إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعاً، قال: من أين هذه يا أبا تمام؟ قال: من قول الحاذق أبي نواس، وأنشده البيت، وهذه الحكاية عندي موضوعة؛ لأن أبا تمام كان عارفاً بالشعر، حتى إنه قال: لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال، وما كان يخفى عنه أن هذا المعنى ليس لأبي نواس، وإنما هو مأخوذ من قول جرير:

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

إلا أنّ أبا نواس زاده زيادة حسنة، وذاك أن جريراً جعل الناس كلهم بني تميم، وأبا نواس جعل العالم كله في واحد، وذلك أبلغ.

ومما ينتظم في هذا السلك قول الفرزدق:

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِي ... وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمُ أَمَامِي
مَتَى تَأْتِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحي ... مِنَ الأَنْسَاعِ وَالدَّبَرِ الدَّوَامِي

أخذه أبو نواس فصار أملك به، وأحسن فيه غاية الإحسان، فقال:

وَإِذَا المَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً ... فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

فالفرزدق قال: «تستريحي من الأنساع والدبر الدوامي» وليست استراحتها بمانعة من معاودة إتعابها مرة أخرى: وأما أبو نواس فإنه حَرَّم ظهورهن على الرجال: أي أنها تُعْفَى من السفر إعفاء مستمرًّا، ولا شك أن أبا نواس لم يتنبه لهذه الزيادة إلا من فعل العرب في السَّائبة وَالْبَحِيرة.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول المتنبي:

وَمَلْمُومَةٍ زَرَدٌ ثَوْبُهَا ... وَلٰكِنَّهُ بِالْقَنَا مُخْمَلُ

أخذه من أبي نواس في قوله:

أَمَامَ خَمِيسٍ أُرْجُوَانٍ كَأَنَّهُ ... قَمِيصٌ مَحُوكٌ مِنْ قَناً وَجِيَادِ

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبي نواس بهذا المعنى.

وكذلك قال أبو الطيب المتنبي :

وَإِنْ جـادَ قَـبْـلَكَ قَـوْمٌ مَضَـوْا فَـإِنَّـكَ فـي الْـكَـرَمِ الأَوَّلْ

فأخذته أنا وزدت عليه ؛ فقلت :

أَنْتَ في الجُـودِ أَوَّلٌ وَقَضَى آللّــــهُ بِـأَلَّا يُـرَى لَـكَ آلـدَّهْـرَ ثَـانِ

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

الضرب السابع من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى

وهذا هو المحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة ؛ فمن ذلك قول أبي تمام :

جَـذْلَانُ مِنْ ظَفَـرٍ حَـرَّانُ إنْ رَجَـعَتْ مَـخْضُـوبَـةً مِـنْكُـمُ أظْـفَـارُهُ بِـدَمِ

أخذه البحتري ؛ فقال :

إِذَا احْتَـرَبَتْ يَـوْمـاً فَفَـاضَتْ دِمَـاؤُهَـا تَـذَكَّـرَتِ الْقُـرْبَى فَفَـاضَتْ دُمُـوعُهَـا

ومن هذا الأسلوب قولهما أيضاً ؛ فقال أبو تمام :

إِنَّ الْكِـرَامَ كَـثِـيـرٌ فِـي الْـبِـلَادِ وَإِنْ قَـلُّوا كَـمَا غَـيْـرُهُـمْ قَـلُّوا وَإِنْ كَثُـرُوا

وقال البحتري :

قَـلَّ الْكِـرَامُ فَصَـارَ يَـكْثُـرُ مَـدُّهُـمْ وَلَقَـدْ يَقِـلُّ الشَّيْءُ حَتَّى يَـكْثُـرَا[1]

(١) في ا، ب، ج «حتى يكثر» والصواب النصب، والبيت من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن كنداج، وأولها قوله :

لِلهِ عَـهْـدُ سُـوَيْـقَـةٍ مَـا أَنْـضَـرَا إِذْ جَـاوَرَ الْـبَـادُونَ فِـيـهِ الـحُـضَّـرَا

وفي الديوان «قل الكرام فصار يكثر فذهم» ويحتمله ما في ا .

وعلى هذا النحو ورد قول أبي نواس:

يَــدُلُّ عَلَى مَــا فِي الضَّمِيــرِ مِنَ الْفَتَى تَقَلُّبُ عَيْنَيْــهِ إلَى شَخْصِ مَنْ يَهْــوَى

أخذه أبو الطيب المتنبي؛ فقال:

وَإذَا خَــامَــرَ الْــهَــوَى قَــلْبَ صَــبٍّ فَــعَــلَيْــهِ لِــكُــلِّ عَــيْــنٍ دَلِــيــلُ

ومما ينتظم في هذا السلك قول أبي الطيب المتنبي:

إذَا مَــا ازْدَدْتُ مِــنْ بَــعْــدِ التَّــنَــاهِــي فَقَــدْ وَقَــعَ انْتِقَــاصِي فِــي ازْدِيَــادِ(١)

أخذه ابن نُبَاتَةَ السعديّ؛ فقال:

إذا كَــانَ نُقْصَــانُ الْفَتَى مِنْ تَــمَــامِــهِ فَكُــلُّ صَحِــيــحٍ في الأَنَــامِ عَــلِيــلُ

وكذلك ورد قول أبي العلاء بن سليمان في مرثية:

وَمَــا كلفــة الْبَــدْرِ المُنِيــرِ قَــدِيمَــةٌ وَلٰــكِنَّــهَــا فِي وَجْــهِــهِ أَثَــرُ اللَّطْــمِ(٢)

أخذه الشاعر المعروف بالقيسراني، فقال:

وَأَهْــوَى الَّتِي أَهْوَى لَهَــا الْبَــدْرُ سَــاجِــداً أَلَــسْــتَ تَــرَى فــي وَجْــهِ أَثَــرَ الــتُّــرْبِ

وكذلك قول ابن الرومي:

إذَا شنئت عَيْنُ آمْــرِيءٍ شَيْبَ نَــفْسِــهِ فَــعَــيْــنُ سِــوَاهُ بِــالــشَّــنَــاءَةِ أَجْــدَرُ

أخذه من تأخر زمانه عنه؛ فقال:

إِذَا كَــانَ شَيْبِي بَغِــيضــاً إِلَــيَّ فَكَيْــفَ يَكُــونُ إِلَــيْهَــا حَــبِيــبَــا

(١) في الديوان «متى ما ازددت».
(٢) في سقط الزند «أثر اللدم».

ومما ينخرط في هذا السلك قول بعضهم:

مُخَصَّرَةُ الأَوْسَاطِ زَانَتْ عُقُودَهَا ... بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عُقُودُهَا

أخذه أبو تمام؛ فقال:

كَأَنَّ عَلَيْهَا كُلّ عِقْدِ مَلاَحَةً ... وَحُسْناً وَإِنْ أَضْحَتْ وَأَمْسَتْ بِلاَ عِقْدِ

ثم أخذه البحتري؛ فقال:

إذا أَطْفَأَ الْيَاقُوتَ إشْرَاقُ وَجْهِهَا ... فَإِنَّ عَنَاءً ما توخت عقودها

أمثال هذا كثيرة، وفيما أوردناه مَقْنَعٌ.

الضرب الثامن من السلخ: وهو أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكاً موجزاً.

وذلك من أحسن السرقات؛ لما فيه من الدلالة على بَسْطَة الناظم في القول، وسعة باعه في البلاغة؛ فمن ذلك قول بشار:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ... وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه سلم الخاسر، وكان تلميذه، فقال:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا ... وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

فبين البيتين لفظتان في التأليف:

ومن هذا الأسلوب قول أبي تمام:

بَرَّزْتَ في طَلَبِ المَعَالِي وَاحِداً ... فِيهَا تَسِيرُ مُغَوِّراً وَمُنَجِّدَا

عَجَبٌ بِأَنَّكَ سَالِمٌ في وَحْشَةٍ ... في غَايَةٍ مَا زِلْتَ فِيهَا مُفْرَدَا[1]

---

(١) في الديوان «عجب لأنك سالم» بالرفع؛ وهو جائز عربية، وهو مبتدأ خبره محذوف، أو خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ غير محتاج إلى خبر لدلالته على معنى الفعل والفاعل؛ ألا تراه في معنى أعجب، وهمزة الاستفهام مقدرة بعده؛ فكأنه قال: أعجب من فعالك لأنك سالم تفعل ذلك. وكذا في ا، ب. وفي ج «عجباً».

أخذه ابن الرومي ؛ فقال :

غَــرَّبَتْــهُ الخَــلاَئِقُ الــزُّهْــرُ في النَّــا س وَمَــا أَوْحَــشَتْــهُ بِــالــتَّغْــرِيــبِ

وكذلك ورد قول أبي نواس :

وَكَّــلْتُ بِــآلــدَّهْــرِ غَــيْــرَ غَــافِــلَةٍ مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَـأْسُو كُـلَّ مَـا جَـرَحَـا

أخذه ابن الرومي ؛ فقال :

الــدَّهْــرُ يُفْسِــدُ مَـا اسْتَــطَاعَ وَأَحْمَــدُ يَــتَــتَــبَّــعُ الإِفْــسَــادَ بِــالإِصْــلاَحِ

وعلى هذا ورد قول ابن الرومي :

كَــأَنِّيَ أَسْتَــدْنِي بِــكَ ابْــنَ حَــنِيَــةٍ إِذَا النَّــزْعُ أَدْنَــاهُ مِنَ الــصَّــدْرِ أَبْعَــدَا

أخذه بعض شعراء الشام، وهو ابن قسيم الحموي، فقال :

فَهْــوَ كَــالسَّــهْمِ كُــلَّمَــا زِدْتَــهُ مِنْــــكَ دُنُــوًّا بِــالــنَّــزْعِ زَادَكَ بُــعْــدَا

ولقيت جماعة من الأدباء بالشام، ووجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذي ابتدع هذا المعنى، وليس كذلك، وإنما هو لابن الرومي.

ومما يجري هذا المجرى قول أبي العتاهية :

وَإِنِّــي لَــمَــعْذُورٌ عَــلَى فَــرْطِ حُــبِّــهَــا لِأَنَّ لَــهَــا وَجْهــاً يَــدُلُّ عَــلَى عُــذْرِي

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

لَــهُ وَجْــهٌ إذَا أَبْــصَــرْ تَــهُ نَــاجَــاكَ عَنْ عُــذْرِي

فأوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز.

ومما يجري على هذا النهج قول أبي تمام :

كَــانَتْ مُسَــاءَلَــةُ الــرُّكْبَــانِ تُخْبِــرُنِي عَنْ أَحْمَــدَ بْن سَعِيــدٍ أَطْيَبَ الْخَبَــرِ

حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلاَ وَٱللهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي

أخذه أبو الطيب المتنبي فأوجز؛ حيث قال:

وَأَسْتَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ ... فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ

وكذلك قولهما في موضع آخر؛ فقال أبو تمام:

كَمْ صَارِماً عَضْباً أَنَافَ عَلَى قَفاً ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ الْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ النُّهَى مِنْ مَفْرَقٍ وَقَذَالِ

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن؛ حيث قال:

يُسَابِقُ الْقَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ ... فَمَا يُصِيبُهُمْ مَوْتٌ وَلاَ هَرَمُ

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء؛

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تَعَجَّلْتَهُ ... وَأَخَّرْتَ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ

فَصِرْتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنِيُّ ... وَمَا كُنْتَ تَعْدُو ٱلَّذِي تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب المتنبي؛ فقال:

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب التاسع من السلخ: وهو أن يكون المعنى عاماً فيجعل خاصاً، أو خاصاً فيجعل عاماً.

وهو من السرقات التي يُسَامَحُ صاحبها؛ فمن ذلك قول الأخطل[1]:

---

(١) المشهور أن هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي، وقبله قوله:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ ٱلدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

ٱبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَٱنْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا ٱنْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

لا تَنْـهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَـأْتِيَ مِـثْلَهُ عَـارٌ عَـلَيْـكَ إذا فَـعَلْتَ عَـظِيـمُ

أخذه أبو تمام؛ فقال:

أأَلُومُ مَـنْ بَخِـلَتْ يَـدَاهُ وَأغْـتَـدِي لِلْبُخْـلِ تِـرْبـاً؟ سَـاءَ ذَاكَ صَنِيعَـا

وهذا من العام الذي جعل خاصاً؛ ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقاً، وجاء بالخلق منكراً فجعله شائعاً في بابه؛ وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق.

وأما جعل الخاص عاماً فكقول أبي تمام:

وَلَـوْ حَـارَدَتْ شُـولٌ عَـذَرْتُ لِقَـاحَهَا وَلَكِنْ مُنِعْتُ الـدَّرَّ والضَّـرْعُ حَـافِـلُ

أخذه أبو الطيب المتنبي فجعله عاماً إذ يقول:

وَمَـا يُؤْلِمُ الْحِـرْمَـانُ مِنْ كَفِّ حَـارِمٍ كمـا يُؤْلِمُ الْحِـرْمَـانُ مِـنْ كَفِّ رَازِقِ

الضرب العاشر من السلخ: وهو زيادة البيان مع المساواة في المعنى؛ وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه، فمما جاء منه قول أبي تمام:

هُـوَ الصُّنْـعُ إنْ يَعْجَـلْ فَنَفْـعٌ وَإنْ يَـرِثْ فَلَلَّرَيْثُ فِـي بَعْضِ الـمَـوَاطِنِ أَنْـفَـعُ

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له، وذلك قوله:

وَمِـنَ الْـخَيْـرِ بُطْءُ سَيْـبِـكَ عَـنِّـي أَسْـرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيـرِ الْجَهَـامُ

وهـذا من المبتدع، لا من المسروق، ومـا أحسن مـا أتى بهـذا المعنى في المثـال المناسب له!.

وكذلك قولهما في موضع آخر؛ فقال أبو تمام[1]:

---

(١) انظر (ص ٣٧٧ من هذا الجزء).

قَـدْ قَلَّصَتْ شَـفَتَـاهُ مِـنْ حَفِيـظَتِـهِ فَخِيـلَ مِنْ شِـدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِـمَـا

أخذه أبو الطيب المتنبي ؛ فقال:

وَجَاهِـلٍ مَـدَّهُ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَـتَّـى أَتَـتْـهُ يَـدٌ فَـرَّاسَـةٌ وَفَـمُ
إذَا رَأَيْـتَ نُـيُـوبَ الَّـلَيْـثِ بَـارِزَةً فَـلَا تَـظُنَّـنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُـبْـتَـسِـمُ

ومما ينخرط في هذا السلك قول أبي تمام:

وَكَـذَاكَ لَمْ تُفْـرِطْ كَـآبَـةُ عَـاطِـلٍ حَتَّى يُـجَـاوِرَهَـا الـزَّمَـانُ بِـحَـالِ

أخذه أبو عبادة البحتري ؛ فقال:

وَقَـدْ زَادَهَـا إفْـرَاطَ حُسْنٍ جِـوَارُهَـا لِأَخْـلَاقِ أصْفَـار مِنَ الـمَجْـدِ خيب
وَحُـسْـنُ دَرارِيِّ الْـكَـوَاكِبِ أَنْ تُـرَى طَـوَالِـعَ في دَاجٍ مِنَ اللَّيْـلِ غَيْـهَبِ

فإنه أتى بالمعنى مضروباً له هذا المثال الذي أوضحه وزاده حسناً.

الضرب الحادي عشر من السلخ: وهو آتِّحاد الطريق واختلاف المقصد، ومثاله أن يسلك الشاعران طريقاً واحدة، فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر.

فمما جاء من ذلك قول أبي تمام في مرثية بولدين صغيرين:

مَـجْـدٌ تَـأَوَّبَ طَـارِقـاً حَـتَّـى إذَا قُلْنَـا أَقَـامَ الـدَّهْـرَ أَصْبَـحَ رَاحِـلَا
نَـجْـمَـانِ شَـاءَ ٱللهُ ألَّا يَـطْلُعَـا إلَّا آرْتِـدَادَ الـطَّرْفِ حَتَّى يَـأْفُـلَا
إِنَّ الْفَـجِيعَةَ بِـالـرِّيَاضِ نَـوَاضِـراً لَأجَـلُّ مِنْهَـا بِـالـرِّيَـاضِ ذَوَابِـلَا
لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّـوَاهِـدِ فِيهِمَـا لَـوْ أُخِّـرَتْ حَتَّى تَكُـونَ شَمَـائِـلَا
إِنَّ الْـهِـلَالَ إِذَا رَأَيْـتَ نُـمُـوَّهُ أَيْقَنْتَ أنْ سَيَكُـونُ بَـدْراً كَـامِـلَا
قُـلْ لِـلأمِيـرِ وَإنْ لَقِيتَ مـوقـرا مِنْـهُ يَـرِيبُ الْحَـادِثَـاتِ حُـلَاحِـلَا
إِنْ تُـرْزَ فِي طَـرَفَيْ نَـهَـارٍ وَاحِـدٍ رُزْأَيْنِ هَـاجَـا لَـوْعَـةً وَبَـلَابِـلَا

فَالثقل لَيْسَ مُضَاعَفاً لِمَطِيَّةٍ ... إلَّا إذَا مَا كَانَ وَهْماً بَازِلاَ
لاَ غَرْوَ إنْ فَنَنَانِ مِنْ عِيدَانِهِ ... لَقِيَا حِمَاماً لِلْبَرِيَّةِ آكِلاَ(١)
إنَّ الأَشَاءَ إذَا أَصَابَ مُشَذِّبٌ ... مِنْهُ آتْمَهَلَّ ذُراً وَأَثَّ أَسَافِلاَ
شَمَخَتْ خِلاَلُكَ أَنْ يُوَاسِيَكَ امْرُؤٌ ... أوْ أنْ تُذَكَّرَ نَاسِياً أوْ غَافِلاَ
إلَّا مَوَاعِظُ قَادَهَا لَكَ سَمْحَةٌ ... إسْجَاحُ لُبِّكَ سَامِعاً أوْ قَائِلاَ
هَلْ تَكلَفُ الأيْدِي بِهَزِّ مُهَنَّدٍ ... إلَّا إذَا كَانَ الْحُسَامَ الْقَاصِلاَ

وقال أبو الطيب في مَرثية بطفل صغير:

فَإن تَكُ فِي قَبْرٍ فَإنَّكَ فِي الْحَشَا ... وَإنْ تَكُ طِفْلاً فَالأسَى لَيْسَ بِالطِّفْلِ
وَمِثْلُكَ لاَ يُبْكَى عَلَى قَدْرِ سِنِّهِ ... وَلٰكِنْ عَلَى قَدْرِ الْفِرَاسَةِ وَالأَصْلِ
أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ آلَّذِي مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ
بِمَوْلُودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ ... وَلٰكِنَّ فِي أعْطَافِهِ مَنْطِقَ الْفَصْلِ
تُسَلِّيهِمُ عَلْيَاؤُهُمْ عَنْ مُصَابِهِمْ ... وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثَّنَاءِ عَنِ الشُّغْلِ
عَزَاءَكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمُقْتَدَى بِهِ ... فَإنَّكَ نَصْلٌ وَالشَّدَائِدُ لِلنَّصْلِ
تَخُونُ الْمَنَايَا عَهْدَهُ فِي سَلِيلِهِ ... وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ وَالرَّجْلِ
بِنَفْسِي وَلِيدٌ عَادَ مِنْ بَعْدِ حَمْلِهِ ... إلَى بَطْنِ أُمٍّ لاَ تُطَرِّقُ بِالْحَمْلِ
بَدَا وَلَهُ وَعْدُ السَّحَابَةِ بِالرِّوَى ... وَصَدَّ وَفِينَا غُلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ
وَقَدْ مَدَّتِ الْخَيْلُ الْعِتَاقُ عُيُونَهَا ... إلَى وَقْتِ تَبْدِيلِ الرِّكَابِ مِنَ النَّعْلِ
وَرِيعَ لَهُ جَيْشُ الْعَدُوِّ وَمَا مَشَى ... وَجَاشَتْ لَهُ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ وَمَا تَغْلِي

فتأمل أيها الناظم إلى ما صنع هذان الشاعران في هذا المقصد الواحد، وكيف هام كل واحد منهما في وَادٍ منه، مع اتفاقهما في بعض معانيه؟.

---

(١) في الديوان «لا غرو إن فننان من عيدانة» والعيدانة ـ بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة ـ: النخلة الطويلة.

وسأبين لك ما اتفقا فيه، وما اختلفا، وأذكر الفاضل من المفضول، فأقول:

أما الذي اتفقا فيه فإن أبا تمام قال:

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّـوَاهِـدِ فِيهِمَـا ... لَـوْ أُخِّـرَتْ حَتَّى تَكُـونَ شَمَـائِـلا

وأما أبو الطيب فإنه قال:

بِمَـوْلُـودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَـانِ كَغَيْـرِهِ ... وَلٰكِنَّ في أَعْـطَافِـهِ مَنْـطِقَ الْـفَضْـلِ

فأتى بالمعنى الذي أتى به أبو تمام، وزاد عليه بالصناعة اللفظية، وهي المطابقة في قوله «صمت اللسان» و«منطق الفصل».

وقال أبو تمام:

نَجْـمَـانِ شَـاءَ اللهُ أَلَّا يَـطْلُعَـا ... إلَّا ارْتِـدَادَ الـطَّرْفِ حَتَّى يَـأْفُـلا

وقال أبو الطيب:

بَـدَا وَلَـهُ وَعْـدُ السَّحَـابَـةِ بِـالـرِّوَى ... وَصَـدَّ وَفِـينَـا غُـلَّةُ الْـبَلَدِ الْـمَـحْـلِ

فوافقه في المعنى، وزاد عليه بقوله:

* وَصَـدَّ فِـينَـا غُـلَّةُ الْـبَلَدِ الْـمَـحْـلِ *

لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته.

وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبي تمام أيضاً، وذاك أن معناه أمْتَنُ من معناه، ومَبْناه أحكم من مبناه، وربما أكْبَرَ هذا القولَ جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه، لا مع فضيلة القول وتقدمه، وأبو تمام وإن كان أشْعَرَ عندي من أبي الطيب فإن أبا الطيب أشهر منه في هذا الموضع؛ وبيان ذلك أنه قد تَقَدَّم القولُ على ما اتفقا فيه من المعنى، وأما الذي اختلفا فيه فإن أبا الطيب قال:

عَـزَاءَكَ سَيْفَ الـدَّوْلَـةِ الْمُقْتَـدَى بِـهِ ... فَـإِنَّـكَ نَصْـلٌ وَالشَّـدَائِـدُ لِلنَّصْـلِ

وهذا البيت بمفرده خير من بيتي أبي تمام اللذين هما:

إنْ تُـرْزَ في طَـرَفَيْ نَـهَـارٍ وَاحِـدٍ رُزْأَيْنِ هَـاجَـا لَـوْعَـةً وَبَـلاَبِـلاَ
فـالثقـل ليس مُضَـاعَفـاً لِمَـطِيَّـةٍ إلاَّ إذَا مَـا كَـانَ وَهْـمـاً بَـازِلاَ

فإن قول أبي الطيب «والشدائد للنصل» أكرم لفظاً ومعنى من قول أبي تمام:

إن الثقل إنما يضاعف من المطايا، وقوله أيضاً:

تَخُـونُ الْمَنَـايَـا عَهْـدَهُ في سَلِيلِهِ وَتَنْصُـرُهُ بَيْنَ الْفَـوَارِسِ وَالـرَّجْـلِ

وهذا أشرف من بيتي أبي تمام اللذين هما:

لاَ غَـرْوَ إنْ فَـنَنَـانِ مِـنْ عِـيـدَانِـهِ لَـقِيَـا حِـمَـامـاً لِـلْبَـرِيَّـةِ آكِـلاَ
إنَّ الأَشَـاءَ إذَا أَصَـابَ مُـشَـذِّبٌ مِـنْـهُ اتْـمَـهَـلَّ ذُراً وأَثَّ أَسَـافِـلاَ

وكذلك قال أبو الطيب:

أَلَسْتَ مِنَ الْقَـوْمِ آلَّـذِي مِنْ رِمَـاحِهِمْ نَـدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَـةُ الْبُخْـلِ
تُـسَلِّيهِمُ عَـلْيَـاؤُهُمْ عَـنْ مُـصَـابِـهِـمْ وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثَّنَـاءِ عَنِ الشغْـلِ

وهذان البيتان خير من بيتي أبي تمام اللذان هما:

شَمَخَتْ خِـلاَلُـكَ أَنْ يُـوَاسِيَـكَ آمْـرُؤٌ أَوْ أَنْ تُـذَكَّـرَ نَـاسِـيـاً أَو غَـافِـلاً
إلاَّ مَـواعظٌ قَـادَهَـا لَـكَ سَـمْـحَـةً إسْجَـاحُ لُبِّـكَ سَـامِعـاً أَو قَـائِـلاَ

وآعلم أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطباً من التفضيل بين المعنيين المختلفين.

وقد ذهب قوم إلى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين، واحتجوا على ذلك بأن قالوا: المفاضلة بين الكلامين لا تكون إلا باشتراكهما في المعنى؛ فإن اعتبار التأليف في نظم الألفاظ لا يكون إلا باعتبار المعاني المندرجة تحتها؛ فما لم يكن بين الكلامين اشتراك في المعنى حتى يُعْلَم مَواقع النظم في قوة ذلك المعنى

أو ضَعْفه واتِّسَاق ذلك اللفظ أو اضطرابه، وإلاَّ فكُلُّ كـلام له تـأليف يخصه بحسب المعنى المنـدرج تحته، وهـذا مثل قـولنا: العسـل أحلى من الخل؛ فـإنـه ليس في الخل حلاوة حتى تقاس حلاوة العسل عليها.

وهذا القول فـاسد؛ فـإنه لـو كان مـا ذهب إليه هؤلاء من منـع المفاضلة حقـاً لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه، وهذا محال، وإنمـا خفي عليهم ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الأصل الذي تقع المفاضلة فيه، سواء اتفقت المعاني أو اختلفت، ومن ههنا وقع لهم الغلط.

وسأبين ذلك فأقول: من المعلوم أن الكلام لا يختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة، فثبت بهـذا أن النظر إنمـا هو في هـذين الوصفين اللذين همـا الأصـل في المفـاضلة بين الألفـاظ والمعـاني على اتفاقهما واختلافهما؛ فمتى وجدا في أحد الكلامين دون الآخر أو كانا أخص بـه من الآخر حكم له بالفضل.

وقرأت في كتاب الأغـاني لأبي الفرج في تفضيـل الشعر أشيـاء تتضمن خَبْطاً كثيراً، وهو مروي عن علماء العربية، لكن عَذَرْتُهُمْ في ذلك؛ فإن معرفـة الفصاحـة والبلاغة شيء خلاف معرفة النحو والإعراب.

فمما وقفت عليه أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال: لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً. وهذا تفضيل بالأعصار، لا بالأشعار، وفيه مـا فيـه، ولـو [لا] أن أبـا عمـرو عنـدي بـالمكـان العلى لبسـطت لسـاني في هـذا الموضع.

وسئل جرير عن نفسه وعن الفرزدق والأخطل، فقـال: أما الفـرزدق ففي يده نَبْعَة منَ الشعر وهو قابض عليها، وأما الأخطل فأشدّنا اجتراء وأرمانًا للقرائض، وأما أنا فمدينة الشعر. وهذا القول في التفضيل قول إقناعيّ لا يحصل منه على تحقيق، لكنه أقرب حالاً مما روي عن أبي عمرو بن العلاء.

وسئل الأخطل عن أشعر الناس، فقال: الذي إذا مدح رفع، وإذا هجا وضع، فقيل: فمن ذاك؟ قال: الأعشى، قيل: ثم مَنْ؟ قال: طرفـة. وهـذا قول فيـه بعض

التحقيق؛ إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس؛ لأن المعاني الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها.

وسئل الشريف الرضي عن أبي تمام وعن البحتري وعن أبي الطيب، فقال: أما أبو تمام فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف جؤذر، وأما المتنبي فقاتل عسكر، وهذا كلام حسن واقع في موقعه؛ فإنه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل.

ويروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره، فقيل له: ولم ذاك؟ فقال: لأني نظمت اثني عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد، فيكون لي حينئذ اثنا عشر ألف بيت؛ وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له؛ لأن باقلاً الذي يضرب به المثل في العي لو نظم قصيداً لما خلا من بيت واحد جيد، ومن الذي ينظم قصيداً واحداً من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد؟! لكن كان الأولى ببشار أن قال: لي اثنتا عشرة ألف قصيدة ليس واحدة منهن إلا وجيدها أكثر من رديئها، وليس في واحدة منهم ما يسقط؛ فإنه لو قال ذلك وكان محقاً لاستحق التقدم على الشعراء، ومع هذا فقد وصل إليَّ ما في أيدي الناس من شعره مُقَصَّداً ومُقطَّعاً فما وجدته بتلك الغاية التي ادعاها، لكن وجدت جيده قليلاً بالنسبة إلى رديئة، وتندر له الأبيات اليسيرة.

وبلغني عن الأصمعي وأبي عبيد وغيرهما أنهم قالوا: هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة، وهم عندي معذورون؛ لأنهم ما وقفوا على معاني أبي تمام، ولا على معاني أبي الطيب، ولا وقفوا على ديباجة أبي عبادة البحتري، وهذا الموضع لا يُسْتَفْتى فيه علماء العربية، وإنما يستفتى فيه كاتب بليغ، أو شاعر مفلق؛ فإنّ أهل كل علم أعلم به، وكما لا يسأل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لا يسأل الحاسب عن مسألة فقهية، وكما لا يسأل أيضاً النحوي عن مسألة طبية فكذلك لا يسأل الطبيب عن مسألة نحوية، ولا يعلم كل علم إلا صاحبه الذي قلب ظهره لبطنه وبطنه لظهره.

على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة، ما من أحد إلَّا ويُحِبُّ أن يتكلم فيه، حتى إني رأيت أجلاف العامة ممن لم يخطَّ بيده

ورأيت أغتام الأجناس ممن لا ينطق بالكلمة صحيحة، كلهم يخوض في فن الكتابة والشعر، ويأتون فيه بكل مضحكة، وهم يظنون أنهم عالمون به، ولا لوم عليهم فإنه بلغني عن ابن الأعرابي وكان من مشاهير العلماء ـ أنه عرض عليه أرجوزة أبي تمام اللامية التي مطلعها:

* وَعَاذِلٍ عَذَلْتُهُ؟ في عَذْلِهِ *

وقيل له: هذه لفلان، من شعراء العرب، فاستحسنها غاية الاستحسان، وقال: هذا هو الديباج الخسرواني، ثم استكتبها، فلما أنهاها قيل له: هذه لأبي تمام؛ فقال: من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة، ثم ألقى الورقة من يده، وقال: يا غلام، خَرّق، فإذا كان ابن الأعرابي مع علمه وفضله لا يدري أيُّ طرفيه أطول في هذا الفن ولا يعلم أين يضع يده فيه ويبلغ به الجهل إلى أن يقف مع التقليد الشنيع الذي هذا غايته فما الذي يقول غيره؟! وما الذي يتكلم فيه سواه؟! والمذهب عندي في تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر العرب أولاً وآخراً، ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت اليه، ولا ينبغي أن يوقف مع شعر امريء القيس وزهير والنابغة والأعشى؛ فإن كلا من أولئك أجاد في معنى اختص به، حتى قيل في وصفهم: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا شرب؛ وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا في كل ما أتوا من المعاني المختلفة، وأشعر منهم عندي الثلاثةُ المتأخرون، وهم: أبو تمام، وأبو عبادة البحتري، وأبو الطيب المتنبي؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مُدَانٍ في طبقة الشعراء، أما أبو تمام وأبو الطيب فَرَبَّا المعاني، وأمّا أبو عبادة فربّ الألفاظ في ديباجتها وسبكها.

وبلغني أن أبا عبادة البحتري سأل ولده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر، فقال: جرير أشعر، قال: وبم ذلك؟ قال: لأن حَوْكَه شبيهٌ بحوكك، قال: ثكلتك أمك! أو في الحكم عصبية؟ قال: يا أبت، فمن أشعر؟ قال: الفرزدق، قال: وبم ذاك؟ قال: لأن أهاجي جرير كلها تدور على أربعة أشياء: هي القين، والزنا، وضرب الرومي بالسيف، والنفي من المسجد، ولا يهجو الفرزدقَ بسوى

ذلك، وأما الفرزدق فإنه يهجو جريراً بأنحاء مختلفة ففي كل قصيد يرميه بسهام غير السهام التي يرميه بها في القصيد الآخر؛ وأنا أستكذب راوي هذه الحكاية، ولا أصدقه؛ فإن البحتري عندي ألبُّ من ذلك، وهو عارف بأسرار الكلام، خبير بأوساطه وأطرافه، وجيده ورديئه، وكيف يذعي على جرير أنه لم يَهْجُ الفرزدق إلا بتلك المعاني الأربعة التي ذكرها وهو القائل:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي ... وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ (١)

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثةفي بيت واحد.

ولقد تأملت كتاب النقائض فوجدت جريراً رَبَّ تغزل ومديح وهجاء وافتخار، وقد كسا كل معنى من هذه المعاني ألفاظاً لائقة به ويكفيه من ذلك قوله:

وَعَاوٍ عَوَى مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ رَمَيْتُهُ ... بِقَافِيَةٍ أَنْفَاذُهَا تَقْطُرُ الدَّمَا (٢)

وَإِنِّي لَقَوَّالٌ لِكُلِّ غَرِيبَةٍ ... وَرُودٍ إِذَا السَّارِي بِلَيْلٍ تَرَنَّمَا

خَرُوجٍ بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ كَأَنَّهَا ... شَبَا هُنْدُوَانِيٍّ إِذَا هُزَّ صَمَّمَا (٣)

غَرَائِبُ آلَافٌ إِذَا حَانَ وِرْدُهَا ... أَخَذْنَ طَرِيقاً لِلْقَصَائِدِ مُعْلَمَا

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها الشعراء.

وسأذكر من هجاء الفرزدق ما ليس فيه شيء من تلك المعاني الأربعة التي أشار البحتري إليها؛ فمن ذلك قوله:

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْفَرَزْدَقَ حَيَّةٌ ... وَمَا قَتَلَ الْحَيَّاتِ مِنْ أَحَدٍ قَبْلِي

---

(١) في ا، ب، ج «لما وضعت على الفرزدق منسمي» وهو تصحيف، وتحقيقه عن النقائض.

(٢) في النقائض والديوان «بقارعة أنفاذها تقطر الدما» ويروى «أقطارها تقطر الدما» وفي ا، ب، ج «بقافية أنفادها يقطر الدما».

(٣) في ا، ب، ج «جروح بأفواه الرواة» وفيها «إذا هز صمصما» وما أثبتناه عن النقائض والديوان، وفيهما «قرى هندواني» والقرى: الظهر.

أَلَـمْ تَـرَ أَنِّـي لاَ أُنَـبِّـلُ رَمْـيَـتِـي ... فَمَنْ أَرْمِ لاَ تُخْـطِيءُ مَقَـاتِلَهُ نَبْلِي (١)
رَأَيْتُـكَ لاَ تَحْـمِي عِـقَـالاً وَلَـمْ تَـرُدْ ... قِتَـالاً فَمَـا لاَقَيْتَ شَـرٌّ مِنَ الْقَتْـلِ (٢)

وقوله:

أَبْلِغْ هَـدِيَّتِيَ الْفَـرَزْدَقَ إِنَّـهَـا ... عِبْءٌ تُـزَادُ عَلَى حَسِيـرٍ مُثْقَـلِ (٣)
إِنِّي آنْصَبَبْتُ مِنَ السَّمَـاءِ عَـلَيْكُمُ ... حَتَّى اخْتَطَفْتُكَ يَـافَرَزْدَقُ مِنْ عَلِ

وقوله:

زَعَـمَ الْفَـرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُـلُ مِـرْبَعـاً ... أَبْشِـرْ بِـطُولِ سَلاَمَـةٍ يَـا مِـرْبَـعُ
وَرَأَيْـتُ نَـبْـلَكَ يَـا فَـرَزْدَقُ قَـصَّـرَتْ ... وَرَأَيْـتُ قَـوْسَـكَ لَيْسَ فِـيهَـا مَـنْـزَعُ
إِنَّ الْـفَـرَزْدَقَ قَـدْ تَـبَـيَّـنَ لُـؤْمُـهُ ... حَيْـثُ الْتَقَـتْ خُشَشَـاؤُهُ وَالأَخْـدَعُ

وقوله:

أَحَـارِثُ، خُـذْ مَنْ شِئْتَ مِنَّـا وَمِنْهُمُ ... وَدَعْنَـا نَقِسْ مَجْـداً تُعَـدُّ فَضَـائِلُهْ (٤)
لَبِسْـتُ سِـلاَحِي وَالْفَـرَزْدَقُ لُـعْبَـةٌ ... عَـلَيْـهِ وِشَـاحَـا كُـرَّجٍ وَجَـلاَجِـلُهْ
فَـلَسْـتَ بِـذِي عِـزٍّ وَلاَ ذِي أُرُومَـةٍ ... وَمَـا تُعْطَ مِنْ ضَيْمٍ فَـإِنَّـكَ قَـابِلُهْ

وقوله:

لاَ يَخْفَـيَنَّ عَـلَيْـكَ أَنَّ مُجَـاشِـعـاً ... لَـوْ يُنْفَـخُـونَ مِنَ الْخُؤْرَةِ طَـارُوا
قَـدْ يُؤْسَرُونَ فَـلاَ يُفَـكُّ أَسِيـرُهُمْ ... وَيُـقَـتَّـلُونَ فَـتَـسْـلَمُ الآثَـارُ

---

(١) في النقائض والديوان:

* أَلَمْ تَرَ أَنِّي لاَ تَبلُّ رَمِيَّتِي *

(٢) في ا، ب، ج «فما لاقيت شراً من القتل» وهو تحريف، و «شر» خبر «ما».
(٣) في ا، ب، ج «على حصير مثقل».
(٤) في النقائض والديوان «تعد فواضله».

وقوله:

بَنِي مَالِكٍ؛ إنَّ الْفَرَزْدَقَ لَمْ يَزَلْ ... يُلَقَّى المَخَازِي مِنْ لَدُنْ أَنْ تَيَفَّعَا(١)
مَدَدْتُ لَهُ الْغَايَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهُ ... قَعُودَ الْقَوَافِي ذَا عُلُوبٍ مُوَقَّعَا(٢)

وقوله:

أَلَا إنَّمَا كَانَ الْفَرَزْدَقُ ثَعْلَباً ... ضَغَا وَهْوَ فِي أَشْدَاقِ لَيْثٍ ضُبَارِمِ(٣)

وقوله:

مَهْلًا فَرَزْدَقُ إنَّ قَوْمَكَ فِيهِمُ ... خَوَرُ الْقُلُوبِ وَخِفَّةُ الأَحْلَامِ(٤)
الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمَى بِجَمِيعِهِمْ ... وَالنَّازِلُونَ بِشَرِّ دَارِ مُقَامِ

وقوله:

إذَا سَفَرَتْ يَوْماً نِسَاءُ مُجَاشِعٍ ... بَدَتْ سَوْأَةٌ مِمَّا تُجِنُّ الْبَرَاقِعُ
مَبَاشِيمُ عَنْ غِبِّ الهَرِيسِ كَأَنَّمَا ... تُصَوِّتُ فِي أَعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعُ
رَأَتْ مَلَلًا مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ قَصَّرَتْ ... عَنِ الْعُلْوِ لَا يَأْبَى عَنِ الْعُلْوِ بَارِعُ
أَتَعْدِلُ أَحْسَاباً كِرَاماً حُمَاتُهَا ... بِأَحْسَابِكُمْ إنِّي إلى اللهِ رَاجِعُ
إذَا قِيلَ أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ قَبِيلَةً ... وَأَعْظَمُ عَاراً قِيلَ تِلْكَ مُجَاشِعُ

---

(١) في ا، ب، ج «من لدن أن ينقعا» وهو تحريف. وفي النقائض والديوان «سلوّ المخازي».
(٢) في النقائض والديوان:

* رَمَيْتُ ابْنَ ذِي الكِيرَيْنِ حَتَّى تَرَكْتُهُ *

(٣) في ا، ب، ج «ضفا وهي» وما أثبتناه عن النقائض والديوان.
(٤) في النقائض:

* أَبَنِي أُدَيْرَةَ إنَّ فِيكُمْ فَاعْلَمُوا *

والبيتان ليسا مما هجا به جرير الفرزدق، بل هما في هجاء غسان بن ذهل السليطي.

وقوله:

عَلِقَ الأُخَيْطِلُ في حِبَالِيَ بَعْدَ مَا ... عَثَرَ الْفَرَزْدَقُ؛ لا لَعاً لِلْعَاثِرِ!
لَقِيَ الْفَرَزْدَقُ مَا لَقِيتَ وَقَبْلَهُ ... طَاحَ التَّعِيسُ بِغَيْرِ عِرْضٍ وَافِرِ
وَإِذَا رَجَوْا أَنْ يَنْقُضُوا لِيَ مِرَّةً ... مَرَسَتْ قُوَايَ عَلَيْهِمُ وَمَرَائِرِي

ولجرير مواضع كثيرة في هجاء الفرزدق غير هذه؛ ولولا خوف الإطالة لاستقصيتها جميعها، ولو سلمت إلى البحتري ما زعم من أن جريراً ليس له في هجاءالفرزدق إلا تلك المعاني الأربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقرّ لجرير بالفضيلة، وذاك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذي إذا أخذ معنى واحدتَصَرَّف فيه بوجوه التصرفات، وأخرجه في ضروب الأساليب، وكذلك فعل جرير؛ فإنه أبرز من هجاء الفرزدقَ بالْقَيْن كلَّ غريبة، وتصرف فيه تصرّفاً مختلف الأنحاء؛ فمن ذلك قوله:

أَلْهَى أَبَاكَ عَنِ المَكَارِمِ وَالْعُلا ... لَيُّ الْكَتَائِفِ وَارْتِفَاعُ الْمِرْجَلِ

قوله:

وُجِدَ الْكَتِيفُ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ ... وَالْكَلْبَتَانِ جُمِعْنَ وَالْمِنْشَارُ(١)
يَبْكِي صَدَاهُ إِذَا تَصَدَّعَ مِرْجَلٌ ... أَوْ إِنْ تَفَلَّقَ بُرْمَةٌ أَعْشَارُ
قَالَ الْفَرَزْدَقُ رَقِّعِي أَكْيَارَنَا ... قَالَتْ وَكَيْفَ تُرَقَّعُ الأَكْيَارُ

وقوله:

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُدُّوا ... أَبَانَ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ(٢)

(١) قوله «الكتيف» هو كذلك في الديوان؛ وفي ا، ب، ج «الكنيف» وقوله «والمنشار» هو كذلك في ا، ب، ج؛ وفي الديوان والنقائض «والمنشار».

(٢) وقع هذا البيت في أصول الكتاب هكذا:

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ جَدُّوا ... بِأَنَّ الْمُفْرِقَاتِ مِنَ الْغِرَابِ

وهو تحريف شنيع في عدة مواضع.

فَـأَوْرَثَـكَ الْـعَـلَاةَ وَأَوْرَثُـونِـي رِبَـاطَ الْخَيْـلِ أَفْنِيَـةَ الْقِبَـابِ
وَسَيْفُ أَبِي الْفَـرَزْدَقِ فَـاعْلَمُـوهُ قَـدُومٌ غَـيْـرُ ثَـابِتَـةِ النِّصَـابِ

فانظر أيها الواقف على كتابي هذا إلى هذه الأساليب التي تَصَرَّف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالْقَيْن؛ فقال أولاً: إن أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون، ثم قال ثانياً: إنه يبكي عليه ويندبه بعد الموت المِرْجَلُ والبرمة الأعشار التي يُصْلحها، ثم قال ثالثاً: إن أباك أورثك آلة القيون، وأورثني أبي رباط الخيل؛ وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الأساليب الذي ذكرتها، ولا حاجة إلى التطويل بذلك ههنا، وهذا القدر فيه كفاية.

وحيث انتهى بنا القول إلى ههنا فلنرجع إلى النوع الذي نحن بصدد ذكره، وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد؛ فمما جاء منه قول النابغة:

إِذَا مَـا غَـزَا بِـالْجَيْشِ حَلَّقَ فَـوْقَـهُ عَصَـائِبُ طَيْـرٍ تَهْتَـدِي بِعَصَـائِبِ
جَـوَانِـحُ قَدْ أَيْقَـنَّ أَنَّ قَـبِـيـلَهُ إِذَا مَا الْـتَقَـى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَـالِـبِ

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديماً وحديثاً، وأوردوه بضروب من العبارات؛ فقال أبو نواس:

تَتَمَـنَّى الـطَّيْـرُ غَـزْوَتَـهُ ثِقَـةً بِـاَلَّلحْمِ مِنْ جُـزُرِهْ

وقال مسلم بن الوليد:

قَـدْ عَـوَّدَ الـطَّيْـرَ عَـادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَـا فَـهُنَّ يَـتْبَـعْـنَـهُ فِـي كُـلِّ مُـرْتَـحَـلِ

وقال أبو تمام:

وَقَـدْ ظُلِّلَتْ أَعْنَـاقُ أَعْـلَامِـهِ ضُحًـى بِعِقْبَـانِ طَيْـرٍ فِي الـدِّمَـاءِ نَـوَاهِـلِ
أَقَـامَتْ مَـعَ الـرَّايَـاتِ حَتَّى كَـأَنَّهَـا مِـنَ الْجَـيْشِ إِلَّا أَنَّهَـا لَـمْ تُـقَـاتِـلِ

وقـد ذكر في هـذا المعنى غير هؤلاء، إلا أنهم جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم

فيه، إلا من جهة حسن السبك،أو من جهة الإيجاز في اللفظ، ولم أر أحداً أغرب في هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد، فقال:

أَشْرَبْتَ أرْوَاحَ الْعِدَا وَقُلُوبَهَا خَوفاً فَأَنْفُسُهَا إلَيْكَ تَطِيرُ
لَوْ حَاكَمَتْكَ فَطَالَبَتْكَ بِذَحْلِهَا شَهِدَتْ عَلَيْكَ ثَعَالِبٌ وَنُسُورُ

فهذا من المليح البديع الذي فضل به مسلم غيره في هذا المعنى؛ وكذلك فعل أبو الطيب المتنبي؛ فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذه الطريق التي سلكها من تقدَّمه(١)، إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذي قصدوه، فأغرب وأبدع، وحاز الإحسان بجملته، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره، فمما جاء من قوله:

يُفَدِّي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْراً سِلاَحَهُ نُسُورُ المَلاَ أَحْدَاثُهَا وَالْقَشَاعِمُ
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

ثم أورد هذا المعنى في موضع آخر من شعره؛ فقال:

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ تَرْجُفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهُ

وهذا معنى قد حوى طرفي الإغراب والإعجاب؛ وقال في موضع آخر:

وَذِي لَجَبٍ لاَ ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلاَ الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إذَا ضَوْؤُهَا لاَقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وهذا من إعجاز أبي الطيب المشهور، ولو لم يكن له من الإحسان في شعره إلا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم.

ومما ينتظم بهذا النوع ما توارد عليه أبو عبادة البحتري وأبو الطيب المتنبي في وصف الأسد، وقصيدتاهما مشهورتان؛ فأول إحداهما:

(١) في ا، ب، ج «هذه الطريق الذي سلكها من تقدمه».

* أَجِــدَّكَ مَـا يَنْفَــكُّ يَسْـرِي لِـزَيْنَبَــا[١] *

وأول الأخرى:

* في الخَــدِّ إنْ عَــزَمَ الخَلِيطُ رَحِيــلاَ[٢] *

أمـا البحتري فـإنه ألم بـطرف مما ذكـر بشر بن عـوانة في أبيـاته الـرائية التي أولها:

أَفَــاطِـمُ لَــوْ شَهِــدْتِ بِبَــطْنِ خَبْـتٍ ... وَقَــدْ لاَقَـى الْـهِــزَبْــرُ أَخَــاكِ بِـشْــرَا

وهـذه الأبيات من النمط العـالي الذي لم يـأت أحد بمثلهـا، وكل الشعـراء لم تسْمُ قـرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمـذكـور فيهـا، ولـولا خـوف الإطـالـة لأوردتهـا بجملتها، لكن الغرض إنما هو المفـاضلة بين البحتري وأبي الـطيب فيما أورداه من المعاني في هذا المقصد المشار إليه.

فمما جاء للبحتري من قصيدته:

وَمَــا تَـنْـقِـمُ الـحُــسَّــادُ إلاَّ أَصَــالَــةً ... لَــدَيْـكَ وَعَــزْمـاً أَرْيَحِيًّــا مُـهَــذَّبَــا[٣]

وَقَـدْ جَـرَّبُـوا بِـالأَمْسِ مِنْــكَ عَـزِيمَــةً ... فَضَلْتَ بِهَا السَّيْفَ الْحسَامَ الْمُجَـرَّبَا[٤]

غَــدَاةَ لَـقِيتَ اللَّيْـثَ وَاللَّيْـثُ مُـخْــدِرٌ ... يُــحَــدِّدُ نَــابــاً لِـلِّقَــاءِ وَمِــخْـلَبَــا

إِذَا شَــاءَ غَــادَى عَــانَــةً أَوْ عَــدَا عَلَى ... عَـقَــائِــلِ سِــرْبٍ أَوْ تَقَـنَّصَ رَبْــرَبَــا

شَهِــدْتُ لَقَــدْ أَنْصَفْتَــهُ حِين تَنْبَــرِي ... لَــهُ مُصْلِتاً عَضْبــاً مِنَ الْبِيضِ مِقْضَبَا

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة البحتري، وعجزه قوله:

* خَــيَــالٌ إذَا آبَ الــظَّلاَمُ تَــأَوَّبَــا *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة المتنبي، وعجزه قوله:

* مَــطَرٌ تَــزِيــدُهُ بِــهِ الــخُــدُودُ مُــحُــولاَ *

(٣) في الديوان «وما نقم الحساد» وفيه «وفعلاً أريحياً مهذبا».

(٤) في ا، ب، ج «فصلت بها» بالصاد المهملة، وهو تحريف.

فَلَمْ أَرَ ضِرغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا ... عِرَاكاً إذا الْهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبا
هِزَبْراً مَشَى يَبْغِي هِزَبْراً وَأَغْلَباً ... مِنَ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبَا
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ ... رَآكَ لَهَا أَمْضَى جَنَاناً وَأَشْغَبَا
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً ... وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا
فَلَمْ يُثْنِهِ أَنْ كَرَّ نحْوَكَ مُقْبِلاً ... وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنَكِّبَا
حَمَلْتَ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَا عَزْمُكَ انْثَنَى ... وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدُّهُ نَبَا

ومما جاء لأبي الطيب المتنبي في قصيدته:

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ ... لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
وَرْدٌ إذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةَ شَارِباً ... وَرَدَ الْفُرَاتَ زَئِيرُهُ وَالنِّيلَا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَابِسٌ ... فِي غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلَا
مَا قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنَّتَا ... تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
فِي وُحْدَةِ الرُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ ... لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
يَطَأُ الْبَرَى مُتَرَفِّقاً مِنْ تِيهِهِ ... فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلَا
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ ... حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلَا
قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَا فَكَأَنَّمَا ... رَكِبَ الْكَمِيُّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا
أَلْقَى فَرِيسَتَهُ وَزَمْجَرَ دُونَهَا ... وَقَرُبْتَ قُرْباً خَالَهُ تَطْفِيلَا
فَتَشَابَهَ الْقُرْبَانِ فِي إِقْدَامِهِ ... وَتَخَالَفَا فِي بَذْلِكَ الْمَأْكُولَا
أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا ... مَتْناً أَزَلَّ وَسَاعِداً مَفْتُولَا
مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ ... حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّولَا
وَكَأَنَّمَا غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَادَّنَى ... لَا يُبْصِرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا
أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكٌ ... فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلَا
وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ ... مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلَا

خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلاَ
سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ فَمَضَى يُهَرْوِلُ أَمْسِ مِنْكَ مَهُولاَ
وَأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ وَكَقَتْلِهِ أَلَّا يَمُوتَ قَتِيلاَ
تَلَفُ الَّذِي اتَّخَذَ الجَرَاءَةَ خُلَّةً وَعَظَ الَّذِي اتَّخَذَ الْفِرَارَ خَلِيلاَ

وسأحكم بين هاتين القصيدتين، والذي يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره، وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عدداً، وأَسَدُّ مقصِدًا، ألا ترى أن البحتري قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح: في تشبيهه بالأسد مرة، وتفضيله عليه أخرى، ولم يأت بشيء سوى ذلك، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد، وهو قوله:

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولا

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد؛ فوصف صورته وهيئته، ووصف أحواله في انفراده في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله، ووصف خلق نجله مع شجاعته، وشبه الممدوح به في الشجاعة، وفضّله عليه بالسخاء، ثم إنه عَطفَ بعد ذلك على ذكر الأنَفَة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح، وأخرج ذلك في أحسن مَخْرَج، وأبرزه في أشرف معنى، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه، والبحتري وإن كان أفضل من المتنبي في صَوْغ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه في الغَوْصِ على المعاني، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره في أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد مَلَكَ رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها، ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها، ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر؛ لأنه قصر عنه تقصيراً كثيراً، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها، فجاء فيما أورد مبرزاً.

واعلم أن من أبين البيان في المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصِدٍ من المقاصد يشتمل على عدة معان؛ كتوارد البحتري والمتنبي

ههنا على وصف الأسد، وهذا أبين في المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا في بيت من الشعر وفي بيتين ويصوغه الآخر في مثل ذلك؛ فإن بعد الْمَدَى يظهر ما في السوابق من الجواهر، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر.

فإذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتهما في مراثي النساء التي مفتتح إحداهما:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ ... كِنَايَةً عَنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ[1]

وهي لأبي الطيب، ومفتتح الأخرى:

غُرُوبُ دَمْعٍ مِنَ الأَجْفَانِ يَنْهَمِلُ ... وَحُرْقَةٌ بغَلِيلِ الْحُزْنِ تَشْتَعِلُ

وهي للبحتري؛ فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به من معاني قصيدته، والبحتري أتى بما أكثره غث بارد، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل.

ومن الواجب أنه إذا سلك الناظم أو الناثر مسلكاً في غرض من الأغراض ألَّا يخرجَ عنه، كالذي سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة، فإن من حذاقة الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحكِّ إلا أبو الطيب وحده، وأما غيره من مفلقي الشعراء قديماً وحديثاً فإنهم قصروا عنه.

وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها:

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي ... وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلاَ قِتَالِ

وكفى بهما شاهداً على ما ذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به، والفتيا عندي بينه وبين البحتري أن أبا الطيب أَنْفَذُ في المضيق، وأعرف باستخراج المعنى الدقيق، وأما البحتري فإنه أعرف بصَوْغ الألفاظ، وحَوْك ديباجتها، وقد قدمت أن الحكم بين

---

(١) الذي في الديوان:

* كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ *

الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه؛ لأنهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما، ويظهران ظهوراً يعلم ببديهة النظر ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم، وأما اختلافهما في المعنى فإنه يحتاج في الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه، ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض، بل لا يتفطن له إلا الفذّ الواحد من الناس، ولي في هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم بين المعنيين المختلفين، وتكلمت عليه كلاماً طويلاً عريضاً، وأقمت الدليل على ما نَصَصْت عليه، وما منعني من إيرادها في كتابي هذا إلا أنها سنحت لي بعد تصنيفه وشياعه في أيدي الناس، وتناقل النسخ به.

وعلى هذا الأسلوب توارد البحتري والشريف الرضي على ذكر الذئب في قصيدة للبحتري دالية أولها:

* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا وَفَاءٌ وَلَا عَهْدُ *

ومقطوعة للشريف الرضي أولها:

وَعَارِي الشَّوَى وَالْمَنْكِبَيْنِ مِنَ الطَّوَى ... أتيحَ لَهُ بِاللَّيْلِ عَارِي الأَشَاجِعِ

وقد أجاد البحتري في وصف حاله مع الذئب، والشريف أجاد في وصف الذئب نفسه.

وأما المسخ فهو: قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة.

والقسمة تقتضي أن يقرن إليه صده، وهو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة.

فالأول كقول أبي تمام:

فَتًى لَايَرَى أَنَّ الْفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ ... وَلكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلُ

وقول أبي الطيب المتنبي:

يَرَى أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ ... بِأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبِ

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوّه الصورة؛ ومثاله في ذلك كمن أودع الوشي شملًا، وأعطى الورد جُعَلًا، وهذا من أرذل السرقات، وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان:

نَحْنُ نُعَزِّيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ
نَقُولُ بِالْعَقْلِ وَأَنْتَ ٱلَّذِي نَأْوِي إِلَيْهِ وَبِهِ نَعْقِلُ
إِذَا عَفَا عَنْكَ وَأَوْدَى بِنَا ٱلدَّهْرُ فَذَاكَ المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله، فقال:

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرَّزِيَّةِ فَضْلاً فَكُنِ الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجَلَّا
أَنتَ يَا فَوْقَ أَنْ تُعَزَّى عَنِ الأَحْـ ـبَابِ فَوْقَ ٱلَّذِي يُعَزِّيكَ عَقْلَا
وَبِأَلْفَاظِكَ ٱهْتَدَى فَإِذَا عَزَّ اكَ قَالَ ٱلَّذِي لَهُ قُلْتَ قَبْلَا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدراً، وهو المخصوص بالمسخ.

وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة فهذا لا يسمى سرقة، بل يسمى إصلاحاً وتهذيباً.

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي:

لَوْ كَانَ مَا تُعْطِيهِمُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُعْطِيهِمُ لَمْ يَعْرِفُوا التَّأْمِيلَا

وقول ابن نباتة السعدي:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئاً أُؤَمِّلُهُ تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ ٱلدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ

وعلى هذا النحو ورد قول أبي نواس في أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها:

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرْ كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالإِبَرْ

ثم جاء المتنبي فقال:

فَكَــأَنَّهَــا نُتِجَتْ قِيَــامــاً تَحْتَهُمْ وَكَــأَنَّهُمْ وُلِـدُوا عَلى صَهَــوَاتِها

وبين القولين كما بين السماء والأرض؛ فإنه يقال: ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة، وكذلك يقال ههنا أيضاً؛ فإن بقدر ما في قول أبي نواس من النزول والضعف، فكذلك في قول أبي الطيب من العلو والقوة.

وربما ظن بعض الجهال أن قول الشماخ:

إذا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

وقول أبي نواس:

وَإذا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

من هذا القبيل الذي هو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة، وليس كذلك؛ فإن قلب الصورةِ القبيحة إلى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين إحداهما قبيحة والأخرى حسنة؛ فالحسن والقبح إنما يرجع إلى التعبير، لا إلى المعنى نفسه، وقول أبي نواس هو عكس قول الشماخ، وقد تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات؛ ألا ترى الى قول أبي الطيب المتنبي وقول الشريف الرضي؛ فقال أبو الطيب:

إنِّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلاتِهَا

وقول الشريف الرضي:

أَحِنُّ إلَي مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى وَأَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ

فالمعنى واحد، والعبارة مختلفة في الحسن والقبح.

وهذه السرقات ـ وهي ستة عشر نوعاً ـ لا يكاد يخرج عنها شيء، وإذا أنصف الناظر في الذي أتيت به ههنا علم أني قد ذكرت ما لم يذكره غيري، وأنا أسأل الله التوفيق لأن أكون لفضله شكوراً، وألا أكون مختالاً فخوراً.

وإذ فرغت من تصنيف هذا الكتاب، وحررت القول في تفصيل أقسام

الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما، فينبغي أن أختمه بذكر فضليهما؛ فأقول:

اعلم أن هذا الفن هو أشرف الفضائل، وأعلاها درجة، ولولا ذلك لما فخر به رسول الله ﷺ في عدة مواقف، فقال تارة: «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ»، وقال تارة: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ في قَوْمِهِ بُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَيِّبَةً وَطَهُوراً، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»؛ وما سمع بأن رسول الله ﷺ افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل إنه أفقه الناس، ولا أعلم الناس بالحساب، ولا بالطب، ولا بغير ذلك، كما قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد».

وأيضاً فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الإعجاز بها دون غيرها؛ فإن كتاب الله تعالى نزل عليها، ولم ينزل بمعجز من مسائل الفقه، ولا من مسائل الحساب، ولا من مسائل الطب، ولا غير ذلك من العلوم.

ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت في الدرجة العالية، والمنثور منها أشرف من المنظوم؛ لأسباب: من جملتها أن الإعجاز لم يتصل بالمنظوم، وإنما اتصل بالمنثور؛ الآخر: أن أسباب النظم أكثر، ولهذا نجد المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الكتاب، بل لا نسبة لهؤلاء إلى هؤلاء، ولو شئت أن تحصي أرباب الكتابة من أول الدولة الإسلامية إلى الآن لما وجدت منهم ممن يستحق اسم الكاتب عشرةً، وإذا أحصيت الشعراء في تلك المدة وجدتهم عدداً كثيراً، حتى لقد كان يجتمع منهم في العصر الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر مفلق، وهذا لا نجده في الكتاب، بل ربما ندر الفرد الواحد في الزمن الطويل، وليس ذلك إلا لوعورة المسلك من النثر، وبعد مناله، والكاتب هو أحد دِعامتي الدولة؛ فإن كل دولة لا تقوم إلا على دِعا متين من السيف والقلم؛ وربما لا يفتقر الملك في ملكه إلى السيف إلا مَرَّةً أو مرتين، وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام، وكثيراً ما يستغني به عن السيف، وإذا سُئل عن الملوك الذين غَبَرت أيامهم لا يوجد منهم من

حسن اسمه من بعده، إلا من حظي بكاتب خطب عنه، وفَخَّمَ أمر دولته، وجعل ذكرها خالداً يتناقلة الناس، رغبة في فصل خطابه، واستحساناً لبداعة كلامه، فيكون ذكرها في خفارة ما دوّنه قلمه، ورقمته أساطيره، وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدوّ الدولة أن يروي أخبار مناقبها في حفله، ويصبح ولسانه حامداً لمساعيها وبقلبه ما به من غله، ولقد أحسن أبو تمام في هذا المعنى حيث قال:

سَأجْهَدُ حَتَّى أُبْلِغَ الشِّعْرَ شَأْوَهُ ... وإنْ كَانَ طَوْعاً لِي وَلَسْتُ بِجَاهِدِ
فَإنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّيَ صَاغِراً ... عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدِ

وهذا الذي ذكرته حق وصدق، لا ينكره إلا جاهل به، وأنا أسأل الله الزيادة من فضله، وإن لم أكن أهلاً له فإنه هو من أهله.

ووقفت على كلام لأبي إسحق الصابي في الفرق بين الكتابة والشعر، وهو جواب لسائل سأله؛ فقال: إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن الترسُّل هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أول وهلة ما تضمنته ألفاظه، وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه.

ثم قال بعد ذلك: ولسائل أن يسأل فيقول: من أية جهة صار الأحسن في معنى الشعر الغموض، وفي معاني الترسُّل الوضوح؛ فالجواب) أن الشعر بُني على حدود مقررة، وأوزان مقدرة، وفصلت أبياته؛ فكان كل بيت منها قائماً بذاته، وغير محتاج إلى غيره، إلا ما جاء على وجه التضمين، وهو عيب، فلما كان النَّفَسُ لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه، وكلاهما قليل؛ احتيج إلى أن يكون الفصل في المعنى، فاعتمد أن يلطف ويدق، والترسُّل مبنيٌّ على مخالفة هذه الطريق؛ إذ كان كلاماً واحداً لا يتجزأ ولا يتفصل إلا فصولاً طوالاً، وهو مَوْضُوعُ وَضْعَ ما يهذهذ أو يمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية، وذوي أفهام ذكية وأفهام غبية؛ فإذا كان متسلسلاً ساغ فيها وقرب، فجميع ما يستحب في الأول يكره في الثاني، حتى إن التضمين عيب في الشعر، وهو فضيلة في الترسل.

ثم قال بعد ذلك: والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء إنما أغراضهم

التي يرمون إليها وَصْفُ الديار والآثار، والحنين إلى الأهواء والأوطار، والتشبيب بالنساء، والطلب والاجتداء، والمديح والهجاء، وأما المترسلون فإنما يترسَّلون في أمر سَدَاد ثغر، وإصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو مجادلة لمسألة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية برزية، أو ما شاكل ذلك.

هذا ما انتهى إليه كلام أبي إسحٰق في الفرق بين الترسل والشعر.

ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذَلَاقة اللسان، وبلاغة البيان، كيف يصدر عنه مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذي هو في باب ونَصى النظر في باب؟ اللهم غَفْراً، وسأذكر ما عندي في ذلك، لا إرادةً للطعن عليه، بل تحقيقاً لمحل النزاع، فأقول:

أما قوله «إن الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه» فإن هذه دَعْوَى لا مستند لها، بل الأحسن في الأمرين معاً إنما هو الوضوح والبيان، على أن إطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لا يدل على الغرض الصحيح، بل صواب القول في هذا أن يقال: كل كلام من منثور ومنظوم فينبغي أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة؛لأنها إن لم تكن مفهومة فلا تكون فصيحة، لكن إذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال في فهم معانيها؛ فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة، ومنه ما لا يفهمه إلا الخاصة، وتتفاوت درجات فهمه، ويكفي من ذلك كتابُ الله تعالى، وتتفاوت درجات فهمه، ويكفي من ذلك كتابُ الله تعالى؛ فإنه أفصح الكلام، وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام، ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم إلى معانيه، ومنه يغمض فيعز فهمه،والألفاظ المفردة ينبغي أن تكون مفهومة، سواء كان الكلام نظماً أو نثراً، وإذا تركبت فلا يلزم فيها ذلك، وقد تقدم في كتابي هذا أدلة كثيرة على هذا؛ فتؤخذ من مواضعها.

وأما الجواب الذي أجاب به في الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك بجواب، وهَبْ أن الشعر كان كل بيت منه قائماً بذاته، فلم كان مع ذلك غامضاً؟ وهب أن الكلام المنثور كان واحداً لا يتجزأ، فلم كان مع ذلك

واضحاً؟ ثم لو سلمت إليه هذا، فماذا يقول في الكلام المسجوع الذي كل فقرة منه بمنزلة بيت من شعر؟

وأما قوله في الفرق بين الشاعر والكاتب «إن الشاعر من شأنه وصف الديار والآثار والحنين إلى الأهواء والأوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء، وإن الكاتب من شأنه الإفاضة في سَدَادِ ثغر أو إصلاح فساد أو تحريض على حياد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لمسألة أو دعاء إلى ألفة أو نهي عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية» فإن هذا تحكم محض لا يستند ألى شبهة، فضلاً عن بينة، وأي فرق بين الشاعر والكاتب في هذا المقام؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار، ويَحِنُّ إلى الأهواء، فكذلك يكتب الكاتب في الاشتياق إلى الأوطان، ومنازل الأحباب والإخوان، ويحنُّ إلى الأهواء والأوطار؛ ولهذا كانت الكتب الإخوانيات بمنزلة الغَزَل والنسيب من الشعر وكما يكتب الكاتب في إصلاح فساد، أو سداد ثغر، أو دعاء إلى ألفه، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة، أو تعزية؛ فكذلك الشاعر؛ فإن شذ عن الصابي قصائِد الشعراء في أمثال هذه المعاني فكيف خفي عنه قصيدة أبي تمام في استعطاف مالك بن طَوْق على قومه التي مطلعها:

* لَو أَنَّ دَهْراً رَدَّ رَجْعَ جَوَابي(١) *

أم كيف أَخَلَّ بالنظر في ديوان أبي الطيب المتنبي، وهما في زمن واحد، فما تأمَّل قصيدته في الإصلاح بين كافور الإخشيدي وبين مولاه الذي مطلعها:

* حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادِي(٢) *

وكذلك لا شك أنه لم يقف على قصيدة أبي عبادة البحتري في غزو البحر التي مطلعها:

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* أَوْ كَفَّ مِنْ شَأْوَيْهِ طُولُ عِتَابِي *

انظر الديوان (ص ١٨ بيروت).

(٢) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ *

* أَلَمْ تَرَ تَغْلِيسَ الرَّبِيعِ المُبَكِّرِ[١] *

ولو أخذتُ في تَعْدَاد قصائِد الشعراء في الأغراض التي أشار إليها وَخَصَّ بها الكاتب لأطلت وذكرت الكثير الذي يحتاج إلى أوراق كثيرة، وكل هذه الفروق التي نَصَّ عليها وَعَدَّدها فليست بشيء، ولا فرق بين الكتابة والشعر فيها.

وآلذي عندي في الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه:

الأول: من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر، وهذا فرق ظاهر.

الثاني: أن من الألفاظ ما يعاب استعماله نثراً، ولا يعاب نظماً، وذلك شيء استخرجته، ونبهت عليه في القسم الأول المختص باللفظة المفردة في المقالة الأولى من هذا الكتاب[٢]، وسأعيد ههنا منه شيئاً؛ فأقول:

قد ورد في شعر أبي تمام قوله:

هِيَ العِرْمِسُ الْوَجْنَاءُ وَآبْنُ مُلِمَّةٍ وَجَأْشٌ عَلَى مَا يُحْدِثُ الدَّهْرُ خَافِضُ

وكذلك ورد في شعر أبي الطيب المتنبي، كقوله:

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ

فلفظة المَهْمَه والْعَرَامس لا يعاب استعمالها في الشعر، ولو استعملا في كتاب أو خطبة كان استعمالها معيباً، وكذلك ما يشاكلهما ويناسبهما من الألفاظ؛ وكل ذلك قد ضبطته بضوابط وحددته بحدود تَفْصِله من غيره من الألفاظ؛ فليؤخذ من المقالة الأولى، ولولا خوف التكرار لأعدته ههنا.

الثالث: أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فإنه لا يجيد في الجميع، ولا في الكثير منه، بل يجيد في جزء قليل، والكثيرُ من ذلك

---

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

* وَمَا حَاكَ مِنْ وَشْيِ الرِّيَاضِ المُنَشَّرِ *

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب وفيه هذان البيتان أيضاً.

رديءٌ غير مرضيٍّ، والكاتب لا يؤتي من ذلك، بل يطيل في الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس، أو أكثر، وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة، وهو مجيد في ذلك كله، وهذا لا نزاع فيه؛ لأننا رأيناه، وسمعناه وقلناه.

وعلى هذا فإني وَجَدْت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها؛ فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً، وهو شرح قصص وأحوال، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم، كما فعل الفِرْدَوْسِيُّ في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه، وهو ستون ألف بيتٍ من الشعر، يشتمل على تاريخ الفرس، وهو قرآن القوم، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقَطْرَة من بحر.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

قد تم - بحمد الله تعالى، وحسن توفيقه -
الجزء الثاني من كتاب:
المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر
الذي صنفه
الوزير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين المعروف بابن الأثير
المتوفى في عام ٦٣٧ من الهجرة

فهرس الأبواب

الواردة في الجزء الثاني من كتاب

«المثل الثائر، في أدب الكاتب والشاعر»

الموضوع — الصفحة

النوع الرابع: في الالتفات ٣
النوع الخامس: في توكيد الضميرين ١٧
النوع السادس: في عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده ٢٢
النوع السابع: في التفسير بعد الإبهام ٢٤
النوع الثامن: في استعمال العام في النفي، والخاص في الإثبات ٢٩
النوع التاسع: في التقديم والتأخير ٣٥
النوع العاشر: في الحروف العاطفة والجارة ٤٦
النوع الحادي عشر: في الخطاب بالجملة الفعلية، والجملة الاسمية والفرق بينهما ٥١
النوع الثاني عِشر: في قوة اللفظ لقوة المعنى ٥٦
النوع الثالث عشر: في عكس الظاهر ٦١
النوع الرابع عشر: في الاستدراج ٦٤
النوع الخامس عشر: في الإيجاز ٦٨
النوع السادس عشر: في الإطناب ١١٩
النوع السابع عشر: في التكرير ١٤٦
النوع الثامن عشر: في الاعتراض ١٧٢

الموضوع	الصفحة
النوع التاسع عشر: في الكتابة والتعريض	١٨٠
النوع العشرون: في المغالطات المعنوية	٢٠٣
النوع الحادي والعشرون: في الأحاجي	٢١١
النوع الثاني والعشرون: في المبادي والافتتاحات	٢٢٣
النوع الثالث والعشرون: في التخلص والاقتضاب	٢٤٤
النوع الرابع والعشرون: في التناسب بين المعاني	٢٦٤
النوع الخامس والعشرون: في الاقتصاد والتفريط والإفراط	٢٩٨
النوع السادس والعشرون: في الاشتقاق	٣١٩
النوع السابع والعشرون: في التضمين	٢٢٣
النوع الثامن والعشرون: في الإرصاد	٣٢٩
النوع التاسع والعشرون: في التوشيح	٣٤٠
النوع الثلاثون: في السرقات الشعرية	٣٤٢